ملحاق خير

قبل وقت قصير نشرت في جريدة «الوطن» مقالًا ضمن «الأزمنة والأمكنة» عن الشاعر الكويتي محمد أحمد المشاري، وذكرت في ذلك المقال ابنه عبدالعزيز الذي كان كما توقعت يمتلك مقدرة شعرية واعدة. ذلك لأنه أرسل أبياتًا تم نشرها في إحدى صحف الكويت، فأرسلت إليه الأبيات التشجيعية التي نشرتها مع مقال والده، وقد فوجئت بأنه أرسل إليّ هذه الأبيات التي أنشرها هنا، وقد كتبها في اليوم الذي نشرت فيه المقال مما يدل على قدرته على الارتجال، وهذه ميزة فيه اكتشفتها عندما جاءتني قصيدته.

وفقك الله ياعبدالعزيز، وجعلك نعم الخلف لوالدك، وأرانا شعرك وقد تطور إلى مراتب عليا نتمناها لك، وأنت بحسب ما أظن سوف تصل في مضمار الشعر إلى مستوى رفيع إن شاء الله.

ورحم الله والدك فقد كان إلى جانب تميزه في الشعر مثلًا في الأخلاق والعادات الكريمة ولهذا السبب وجدت عددًا لا بأس به من أصحابه يشكرون لي اهتمامي بكتابة المقال، مع أنني لا أستحق الشكر، بل هو الذي يستحقه بسبب ما قدم لوطنه ولأمته ولأصدقائه وأقربائه.

تقول قصيدة الشاعر عبدالعزيز محمد أحمد المشاري المهداة إليّ:

إن صرتُ للأشعار نجمًا
قد كنت أنت البدر دوما

أورثتُ يا عمي قصيدًا
أبشر غدا الميراث نظما
ورثي اشبهُهُ بنورٍ
يجلي العمى عن كلِّ أعمى
وسكنتُ في أرض القصا
ئدِ أنتقي ما كان غُنى
ورأيتكم فيها فطا
بَ لقاؤكم يا عم دوما
يا عمُ ما بالُ القصيـ
دِ لم تزلَ تُغتالُ ظلما
وانهال كلُّ خصومها
طعنًا بها خصمًا فخصما
فوقفتُ جُنديًا لها
وسلاحكم قد كان عِلْما
فخذ اليمين وعهدها
تبقى لكم عونًا وعزما
سأظل أحفظُ عهدها
حتى أرى الأشعارَ تُحمى

ابنك عبدالعزيز محمد أحمد المشاري

****

ولذلك كان كثير التردد على مكتبي وكنت سعيدًا بلقائه، لأنه من النوع الذي ينبغي أن يسعى الإنسان إلى الاتصال به والتعرف عليه.

كانت أحاديثه شيقة، وكان حافظًا لكثير من الحكايات التراثية والحديثة. وفي أحد الأيام مرّ بنا ذكر الشاعر الشعبي الشهير بيرم التونسي، وقد عرفت منه - آنذاك - مدى العلاقة التي تربطهما، فقد كانت ميولهما واحدة وعصرهما واحد.

وبيرم التونسي (١٨٩٣م - ١٩٦١م) شاعر زجال من مواليد مدينة الإسكندرية المصرية، وهو من أصل تونسي، كان شعره الزجلي بمثابة جريدة يبحث عنها الناس لما يتطرق إليه فيها من موضوعات وبخاصة تلك الموضوعات ذات الطبيعة العامة التي تهم سائر أهل مصر. وينبغي ألا ننسى أنه مبدع أبيات أغنية (شمس الأصيل) التي غنتها كوكب الشرق أم كلثوم، ولاتزال هذه الأغنية على كل لسان.

ذكر لي صاحبي في تلك الجلسة أنه يحفظ الكثير مما كتبه بيرم، ويحفظ على الأخص ما وضعه على نمط المقامات الأدبية. والمقامات فن من فنون الأدب العربي، ومفردها مقامة، ورد لنا عدد منها ولكن أشهر ما عرف منها تلك المجموعة التي أطلق عليها مقامات بديع الزمان الهمذاني، ثم مقامات الحريري، ومقامات أخرى متناثرة في كتب الأدب.

وقد وصف أستاذنا الدكتور شوقي ضيف المقامة بأنها «حديث أدبي بليغ، وهو أدنى إلى الحيلة منها إلى القصة، فليس فيها من القصة إلا ظاهرها فقط، أما هي في حقيقتها فحيلة يُطرفنا بها بديع الزمان وغيره لنطّلع من جهة على حادثة معينة، ومن جهة ثانية على أساليب أنيقة ممتازة، بل إن الحادثة التي تحدث للبطل لا أهمية لها، إذ ليست هي الغاية، إنما الغاية التعليم والأسلوب الذي تعرض به

الحادثة». جاء ذلك في كتاب الدكتور شوقي ضيف الصادر عن دار المعارف بمصر تحت اسم: «المقامة».

سألت الأستاذ حمام عن محفوظاته النثرية التي كتبها بيرم، فقال: أحفظ له عددًا من المقامات التي كتبها على طريقته الساخرة، وهي ممتعة جدًّا، منها مقامة سماها: المقامة السندويشية، وهي تحكي قصة حفلة عامرة بأطيب المأكولات كانت من أطيب ما حصل عليه رجل محتاج إلى الطعام، وهي كذا .. وأخذ يقرؤها وكأنه يقرأ من كتاب، فعجبت لذاكرته وتمنيت عليه أن يكتب لي هذه المقامة فتناول قلمًا من أقلام الرصاص من أمامي، وأخذ يكتب دون تردد أو تلكؤ، وبعد فترة قصيرة قدمها إليّ متكاملة، حيث احتفظت بها زمنًا حتى أتى وقت البوح بها. لذا فإنني أقدمها إلى قارئ «الوطن» لأنها جديرة بالقراءة لما تحويه من أسلوب شيق، وعرض ممتع. وقد حرصت على أن يكون موضعها مستقلاًّ ضمن الصفحتين المخصصتين لمقال الأزمنة والأمكنة المتعلق بالأستاذ محمد مصطفى حمام، وذلك لتأخذ صورتها التي تستحقها بصفتها من نتاج كاتب وشاعر عبقري هو بيرم التونسي.

****

المقامة السندويشية

للمرحوم محمود بيرم التونسي (1)

حدثنا حزنبل ابن حَبَشْتَقَان، قال: بؤسًا للشيخ الذي لا يعرف من العلم إلا المنطق وفضوله، والفقه وأصوله، والنحو وفصوله، ولا يعرف من الدين إلا يوم القيامة، ولا من الدنيا إلا كوم الشيخ سلامة، ووالله ما رأى حسنًا أحسن من الطبيخ، ولا لذيذًا ألذ من الفسيخ، ولا حلوًا أحلى من البطيخ، ولا عجيبًا أعجب من الصواريخ.

وإذا كنتُ بين داري ودرسي
ساعيًا كلَّ ليلة ونهارِ
والذي كنت فيه أرجع فيه
أي فرقٍ بيني وبينَ الحمارِ

قال صاحبي أمين أفندي، وجعل يسهر كل ليلة عندي، وشفيق هذا لا يصاحب الشيوخ، إلا إنه يحترمني ويمسح لي جوخ، لأني أشرح له معنى الكلام ولُبابه، وأكشف بالنحو خطأه وصوابه.

جاءني شفيق ذات يوم يقول: قم فاستتشط، وذقنك فمشط، وجبتك فالبس، وعمتك فاكبس، فسآخذك إلى حفلة راقصة، وليلة أنس هائصة، لتعرف مجاري المياه، وترى كيف تكون الحياة، قلت ما كنا من أهل النقص، حتى نذهب إلى حفلة

(1) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٠/٤/٧م.

رقص، أو ترقص أنت أيضًا؟ قال: وأفيض في الرقص فيضًا، فقمت فلبست جبّتي التي لونها كموني، وقفطاني الذي أرضيته خضراء وخطوطه زيتوني، وتعطرت من القدم إلى الدِّماغ، وركبنا عربة بخمسة عشر قرش صاغ، فلما وصلنا إلى الحارة، لم نجد على المنزل دليلًا ولا إشارة، قلت لقد خدعني المنافق، ولا غرو فهو خليع فاسق، ثم قال ادخل، فرأيت الأنوار والعه، والنساء قالعه، ورجالًا عراة الرؤوس، وسجاجيد عليها ندوس، وما هي للجلوس، وبساطًا تغوص فيه الأقدام، ووسائد حَشْوُها من ريش النعام، وأطباقًا فيها فطير، وأخرى فيها جرجير، ما هي إلا رجعة النظر، حتى انتظم من العقد ما انتثر، وتأبط كلٌّ أنثى ذكر، واصطحبتْ كلُّ شمس بقمر، وبين الآهات والأنات، قل معي على هذه النغمات:

يا صاح وحقك ليس على
من رامَ المرقصَ من حرجِ
الرَّقصُ نعيمُ العُمرِ فقُمْ
وادخل للمرقص واندمج
جمعوا الفتياتِ مع الفتـ
ـيان فيا للأمر المُنْبَهِج
ما كاد مغنّي القوم يدقّـ
ـقُ الدُّف بلحن منه شَج
حتى انخرطت وَحَداتهو
ثم ازدوجت بالمزدَوِجِ
رجلٌ وخليلتُه التصَقا
بصدور العز وبالمهج
فعلى كتفيهِ معاصمُها
ويداهُ بخصرٍ ذي عوج

وخُطى الأقدام موقَّعة
بالرقص على نظم الهزج
وَرَوَاحُهما ومجيئهما
في النَّهْج على أرقى نهج
طورًا كالصَّاعد في درج
أو كالمنحط من الدَّرج
فإذا انجذبت فلمنجذب
وإذا اختلجت فلمختلج
وإذا نقلت قدمًا رفعت
قدمًا والرَّفع بلا عرج
وأساورهم وخواتمهم
خطفت عينيّ من الوهج
والقوم تموج الأرض بهم
مما هم فيه من الهرج
وفقيه الله على حدةٍ
ثملٌ بالشَّوق المعتلج
في الرُّكنِ يُرَقِّص لحيتَهُ
وتروحُ عمامتُهُ وتجي

قال: وسكتت الموسيقى على غفلة، وهدأ ضجيج الحفلة، فجاءني صاحبي يقول: «إنّ فاتك الرقص والتحبيش، فلا يفوتنك السندويش، قال هذا وأتاني بطبق، فلا والله ما الكشك بالأرانب، ولا الضأن في كل فخذ وجانب، ولا الملوخية بالفراخ، ولا اللحم في الأسباخ، ببالغةٍ طعمه، ولا تساوي فيه لقمة، ولقد أكلت منه قطعة، ثم أسعفتها بتسعة، وجعل الحفل يسمر ويطرب، وجعلت آكل وأشرب، إلى أن جاء

صاحب البيت المسماح، فقال: يا صاح، هل لك أن تصف هذا الحفل بأبيات، أو تنشئ فيه قليلًا من الكلمات، فقلت:

إذا كنتَ معتزمًا أن تعيشا
فجانب رعاعَ الورى والوحوشا
ولا تأكل الكشكَ والحندويلَ
وقاطع بشارتهم والدشيشا
فَأُمُّ الخلول تُطيش العقول
وما يرتضي عاقل أن يطيشا
ولله دَرُّك من حفلةٍ
وَدَرّ الذي أطعم السندويشا
فإن ترقصوا فابعثوا لي رسولا
ولو كان هذا الرسول الشاويشا

****

في أسماء الأماكن الكويتية (١) [1]

هذا حديث مرّ عليه زمن، تحدثت به في سنة ١٩٩٨م، ومرّ كغيره من الأحاديث التي يسعى المرء من خلالها إلى تقديم النصح فلا يجد إلا الآذان الصماء التي لا يستحسن أصحابها سماع شيء مفيد، وبعد مضي هذه المدة من الزمن، ومع التجاهل الشديد لما سبق لي أن تحدثت به في تلك السنة، وجدت نفسي أعيد قراءة تلك الأوراق التي اجتهدت في كتابتها غاية الاجتهاد، وعلى الرغم من التجاهل الذي لقيته ممن يعنيهم الأمر، فإنني محصت ما كتبته مرة أخرى، وأزلت شيئًا منه، وأضفت شيئًا آخر لعل أن تكون في الإعادة إفادة كما كان علماؤنا يعلموننا فيما مضى من الزمان.

بدأ الاهتمام بأسماء الأماكن وتحديد مواقعها في جزيرة العرب منذ أصدر الشيخ حمد الجاسر كتابه عن عكاظ في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي الذي تمت طبعته الأولى سنة ١٩٥١م، وقدم قبله مقالاته التي نشرها في مجلة الفتح في منتصف الأربعينيات، ومثله محمد بن عبدالله بليهد الذي أصدر كتابه صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار.

وكانت قد صدرت في الفترة نفسها بعض الكتب القديمة المحققة التي كانت تشير إلى تلك الأماكن وتبين إلى حد ما صفتها وموقعها وما يكون قد مرّ عليها من أحداث. ثم تنامى هذا الجهد المهم فظهرت كتب لعدد من العلماء في الموضوع نفسه،

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ١٤/٤/٢٠١٠م.

منهم الشيخ عبدالله بن خميس، وغيره. أما في الكويت فكان الاهتمام بهذا الأمر من الجهود التي تذكر للمرحوم الأستاذ أحمد البشر الذي بدأ - في الخمسينيات أيضًا- الكتابة عن عدد من الأماكن الكويتية مثل كاظمة والمقر والرحية وغيرها. وكان اهتمامه بذلك كبيرًا، فجمع له مكتبة فاخرة ضمت الكثير من الكتب التي تفيد في هذا الموضوع، وله تعليقات عليها مفيدة جدًّا، ولكن أغلبها- للأسف- قد ضاع بسبب أحداث الغزو العراقي الغاشم، وتعرض كتبه للنهب والإتلاف، وهي التي تمثل ذخيرة علمية نافعة أوصى أن تكون بعد مماته تحت رعاية المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت.

ولا شك في أن هذا الأمر - وهو الحديث عن الأماكن العربية - مهم جدًّا ومفيد من عدة نواح، منها الحفاظ على تاريخ الموقع وتاريخ سكانه، وتأصيل كل البقاع العربية التي عاش عليها الآباء والأجداد وتركوا آثارهم بها، وقد تحدثت هنا عن جزيرة العرب التي نحن جزء منها، ولكن باقي المواطن العربية تحتاج إلى مثل هذا الجهد، ففيها أماكن مذكورة في معاجم البلدان ولها أثر في التاريخ العربي الإسلامي، وذكر في الشعر العربي، ويدل تاريخها على حركة الانتقال العربية التي قامت بها تلك الموجات البشرية المنتقلة من جزيرة العرب إلى بقاع الأرض التي عمتها فتوح الإسلام، فهذه الأماكن تحتاج إلى تحقيق وعناية، وينبغي لسكانها الحاليين من أهلنا أن يقوموا بما ينبغي عليهم تجاهها مثل الذي تم من عمل، وبذل من جهد في تحقيق وتأريخ المواقع الكائنة في جزيرة العرب.

ولعل الأمر يدفعني الآن إلى أن أتقدم باقتراح قد يكون له أثره في نماء هذا النوع من البحث وتطوره بحيث يكفل له مرجعًا يسنده، يضمن به تقدم العمل في هذا المجال، وتأهيل العدد المناسب من الباحثين في هذا الحقل بحيث يتبنون خدمته عن حب فيه ورغبة نابعة من حبهم لأوطانهم التي تتطلب منهم العمل من أجلها.

واقتراحي هذا يتضمن: إنشاء علم مستقل يسمى علم الأماكن ينهض بالدراسات المتعلقة بهذا الموضوع، ويهيئ الباحثين ويؤهلهم للقيام بأبحاثهم، ويتيح لهم المصادر التي يستقون منها معلومات على اختلاف أنواعها.

وأرى أن الخطوة الأولى إلى قيام هذا التخصص العلمي المأمول تتمثل في عقد ندوة علمية تضم كافة المهتمين بهذه الأبحاث، وتضع الأسس العلمية والفنية التي يقوم عليها هذا التخصص الجديد، وتشرك الجامعات في عملها هذا حتى نجد فيها موضعًا له فهو جدير بكل اهتمام وعناية.

ولا يفوتني أن أذكر أن هذا العلم المقترح لابد أن يتهيأ له ما يلي:

١ - رغبة قوية عند الدارسين، وحب جارف للعمل العلمي في مجال الأماكن.

٢ - مكتبات شاملة تحتوي على الكتب وعلى التسجيلات الصوتية والمرئية في هذا المجال.

٣ - الاستفادة من الجهود التي بذلها السابقون من أمثال من ذكرتهم سالفًا لفتح الآفاق أمام الباحثين.

وأستبق البحث في موضوع هذا العلم، فأقول: إن الطالب في هذا التخصص لابد وأن يحصل على ثقافة موسوعية تفتح له الآفاق عند قيامه بالعمل المطلوب، فلابد لهذا الطالب من أن يدرس اللغة والأدب والجغرافيا والتاريخ والفلك، فضلًا عن النبات الذي له دلالاته على الأماكن ومعرفته مفيدة للباحث في هذا المجال.

وقد يقول بعض القائلين إن هذا العلم غير جديد، فهو علم الجغرافيا، وأرد أن هذا العلم قد تدخل فيه الجغرافيا كما ذكرت سالفًا ولكنه أعمّ منها فيما يتعلق بدراسة الأمكنة، ففي دراسة المكان حديث عن صفاته، وتحديد موقعه وذكر سكانه

على مر العصور، وذكر للحياة الاجتماعية والثقافية التي كانت سائدة بين أولئك السكان، وكل ما يتعلق بالمكان تحديدًا باعتباره وحدة متكاملة، وهو عملية إحياء لذكر أماكن بعضها دارس، وبعضها موجود، ولكن التغيير نقله عن أصله إلى طور آخر مختلف.

وأنا بعد ذلك آمل أن يأخذ هذا الاقتراح طريقه إلى النفوس أولًا ثم إلى التنفيذ ثانيًا، لما أعلق عليه من أهمية في معرفة الكثير عن الأماكن وربط الحديث منها بالقديم اسمًا وتاريخًا، مع الوصف والتحديد، والدراسة الاجتماعية المستفادة من ذكر الناس الذين مرّوا عليها، والأدبية المستفادة من ذكر عدد من الأدباء والشعراء الذين تحدثوا عنها في إنتاجهم، إلى غير ذلك من مجالات الانتفاع بهذا العلم المقترح.

هذه مقدمة، أما الموضوع الذي أقدمه هنا فهو قريب الصلة بما تقدم، ومن المستحسن أن يكون له عنوان هو: «أسماء الأماكن الكويتية ومحاولات مسخها».

وهو اسم يدل على مدى تأثري بما أشاهده من تضارب ومن تغيير مستمر لأسماء المواضع في الكويت مما يمحو أصالة الموقع التاريخية ويزيل أثر ارتباط اسمه به على مر الزمان.

ولا شك عندي في أن اسم المكان لابد وأن يعتبر جزءًا منه وأثرًا من آثاره، فكما تعنى الدول بالحفاظ على آثارها فهي تعنى بأسماء مواقعها وتحافظ عليها، وأول ما سعى إليه الغازي العراقي البغيض لديارنا هو محاولته إزالة بعض الأسماء وإطلاقه أسماء أخرى بديلة حتى يطمس الأثر التاريخي المعنوي لمناطقنا التي وقعت تحت احتلاله. أما في خارج الكويت فنجد ذلك واضحًا عند العدو الصهيوني الذي قام بتغيير الكثير من الأسماء العربية الصميمة لكثير من المواقع الفلسطينية ووضع بدلًا منها أسماء استمدها من تاريخه رغبة منه في محو الهوية العربية لهذه البلاد، وإشعارًا للعالم بالحق المزعوم له في أرض فلسطين.

ومن هذا المنطلق فإن حديثنا عن أسماء المواقع له ما يبرره، وله كذلك أهميته وارتباطه القوي بتاريخنا ووطننا- وسوف أقسم حديثي إلى قسمين: أولهما عن أسماء المواقع الكويتية المختلفة، والثاني عن أسماء الشوارع الكويتية التي لأسمائها من الأهمية ما لأسماء المواقع السكنية وغير السكنية.

فأما القسم الأول: وهو الخاص بأسماء المواقع في الكويت، فلدينا عدد منها لا يزال يحتفظ باسمه القديم وإن شاب بعضها تحريف بسيط، عندنا كاظمة وأوارة والرحا والسيدان والطويل والضباعية وأم قصبة والعدان والوفرة وتياس وحومان، وغيرها من الأماكن التي تم الاستدلال على مواقعها نتيجة للدراسة المتأنية لكل موضع على حدة، وكذلك بالاهتداء إليه عن طريق ما ذكر من أماكن مقاربة له، أو ما شهد به الشعر العربي المحفوظ أو الأقوال الأدبية التي حفظها أصحاب كتب معاجم البلدان.

ومن هنا نجد أن أسماء هذه الأماكن وغيرها مما لم نذكر أصبحت أثرًا من الآثار، ودلالة على ارتباط هذا الموقع بعدد من السمات التاريخية والأدبية القديمة، لذا فإن الاحتفاظ بها والحرص على عدم إضاعتها له ما يبرره بل ما يوجبه.

ولكننا إذا عدنا اليوم إلى واقع هذه الأماكن، فإننا - للأسف الشديد- سوف نجد إهمالًا قد يكون متعمدًا لهذا الأمر، إن لم نقل إنه نتيجة لعدم إدراك ما لهذه الأسماء من أهمية في تاريخنا، وصحب ذلك عدد من الأمور التي شابت تسمية بعض الأماكن المستجدة، فألصقت بها أسماء لنا عليها كثير من الملاحظات، وسوف نجمل ذلك فيما يلي:

أولًا - إهمال الأسماء القديمة واستبدال أسماء أخرى بها مثل منطقة شامان التي أطلق عليها اسم غرناطة، وشامان اسم قديم يعرفه الكويتيون منذ زمن بعيد، وكان متنزهًا لهم يأتون إليه في أيام الربيع لقضاء بياض يومهم بين

ربوعه حين كان مليئًا بالأعشاب والأزهار البرية حتى إننا لنظن أن اسمه إنما جاء على سبيل التشبيه ببلاد الشام، التي يعلم أهلنا السابقون ما فيها من جنات الدنيا آنذاك، وقد عرفوا ذلك منذ القدم بسبب الاتصال الدائم مع دمشق وحلب وغيرهما من بلاد الشام للتجارة وتبادل السلع وبخاصة تجارة الجمال التي اجتازوا بها بلاد الشام إلى مصر، كما هو معروف في تاريخ الكويت ومن الأمكنة التي تخلت البلاد عن اسمها التاريخي «العدان»، والعدان له ذكر في كتب التاريخ والأدب وله صدى في الشعر العربي، ويبين كتابي: «العدان بين شاطئ الكويت وصحرائها»، الكثير عن تاريخ هذه المنطقة ووصفها بل وتحديدها، ونلاحظ أن غياب الحس التاريخي لدى بعض المسؤولين دفعهم إلى إطلاق اسم العدان على إحدى مناطق محافظة مبارك الكبير فقط، كما أننا إذا نظرنا إلى خارطة الكويت وجدنا فيها عددًا من الأماكن المذكورة فيها وهي قديمة الاسم ولكن الاتجاه العام لطمس تاريخ البلاد ألغاها مثل «عين بغزي» وغيرها.

ثانيًا: تسمية أماكن عن طريق نقل أسماء من مناطق أخرى إليها مثل تسمية القرين التي يعرف الجميع أن اسمها منقول من إحدى منطقتين أولاهما على ساحل جون الكويت والأخرى بالقرب من الوفرة.

ثالثًا: التسمية بأماكن تتعلق بحروب لم ننتصر فيها، وكأننا نحتفل بذلك مثل الرقعي وهدية، ومعروف أن معركة هدية حصلت سنة ١٩١٠م ولم نعد فيها منتصرين، أما الرقعي التي حدثت سنة ١٩٢٩م فقد كانت بدايتها نصرًا ولكن نهايتها خاسرة.

علمًا بأن هناك أماكن كثيرة كان فيها النصر حليف الكويت، ولكنها لم تذكر لأسباب لا نعلمها.

رابعًا: المقترحات المتتالية حول تغيير الأسماء القائمة مثل ما سمعنا أخيرًا من طلب أحد الأشخاص تغيير اسم «العقيلة» وهو اسم قديم لابد من المحافظة عليه. ومع تقديري للشخص المقترح إطلاق اسمه على هذا الموقع، فإننا بالإمكان أن نجد موقعًا آخر لا يضر تاريخنا إلغاء اسمه مثل بعض الأسماء المستحدثة الكثيرة التي أُطلقت على بعض الأماكن، حتى لا يكون المقصود من ذلك التغيير هو إيجاد اسم فحسب دون النظر إلى ما وراء الأمر.

خامسًا: إطلاق تسميات خاطئة على بعض الأماكن، كما أُطلق اسم «تيماء» على جزء من الجهراء ظنًّا منهم أن «تيماء» هي الجهراء، وهذا خطأ يقع فيه الكثيرون، والواقع أن «تيماء» كما ذكرها ياقوت الحموي في معجم البلدان: «بليد في أطراف الشام بين الشام ووادي القرى على طريق حاج الشام ودمشق»، وقد سبق لي أن أوردت تحقيقًا لهذا الأمر لا أريد العودة إليه.

هذا عن القسم الأول، أما القسم الثاني فهو ما يتعلق بالمواقع الرئيسية في البلاد، وإذا جئنا ننظر إلى المواقع الداخلية كالشوارع والساحات والفرجان فإننا سوف نجد تضييعًا للمعالم القديمة للعاصمة بدأ من هدم السور، وإزالة بعض المساجد القديمة تحت حجة استبدالها بمساجد في مناطق أخرى، وخلط الفرجان بعضها ببعض بحيث لم يعد أحد يستطيع الاهتداء إلى موضع بيته القديم بسبب ضياع المعالم، مع عدم وجود إشارات تدل على المواقع الرئيسية في العاصمة، نعم إن التغيير كان جارفًا والبعض يرى أنه كان لابد منه، ولكن في مقابل ذلك كان لابد من الاحتفاظ الرمزي بتلك المعالم عن طريق الإشارات وإبقاء المسميات، وهذه بعض الملاحظات حول هذا الموضوع.

أولًا: لقد أهملوا أسماء الفرجان القديمة، وكان الأجدر بهم أن يضعوا لها أعلامًا تدل عليها أو أن يسموا بأسمائها الساحات الواقعة في تلك الفرجان بعد

إزالتها، وذلك كما فعلوا مع عدد قليل منها، وكانت خطوة سرعان ما تراجعوا عنها فأهملوا تلك الأسماء التي لها علاقة شديدة بأصول المنطقة، بحيث نجد اليوم في تاريخ الكويت عددًا من التفصيلات عن تحركات بعض المسؤولين ولقاءاتهم في عدد من الأماكن، ولكننا لا نستطيع تحديد هذه الأماكن لأننا لم نقم بتثبيت الأسماء القديمة، وما الذي كان يضر الجهة المسؤولة لو وضعت لافتة يكتب عليها عبارة: هذا هو موقع الفريج الفلاني، كما يحدث في الدول المتقدمة التي يشيرون فيها إلى مواقع سكنى علمائهم وفنانيهم وأدبائهم وإن كانوا قد ماتوا منذ زمن بعيد.

ثانيًا: تكرار أسماء بعض الشوارع دون داع لذلك، فالمتنبي مثلًا له شارعان أحدهما في العاصمة والآخر في خارجها، وعكا في منطقة النزهة وفي منطقة الصليبيخات، وعمرو بن العاص في السالمية وفي الجهراء، وهذا يدل على عدم استقصاء للأسماء عند تسمية الشوارع الجديدة.

ثالثًا: تسمية الشوارع بأسماء غير مناسبة، بل وربما معارضة لمصلحة الكويت، مثل إطلاق اسم «ساطع الحصري» على أحد الشوارع في حين أنه كان من أوائل العراقيين المحرضين على الكويت كما ورد في إحدى الوثائق، وكذلك تسمية شارع باسم «نافع بن الأزرق» وهو أحد رؤساء الخوارج الذين لا ينبغي أن نحفل بذكرهم.

رابعًا: تسمية الشوارع بأسماء قبائل بعيدة عن سكنى الكويت قديمًا مثل الأزد وثقيف، وإهمال ذكر قبيلة مثل «بني تميم» التي عاشت على هذه الأرض وتاريخها هنا واضح ومعروف.

خامسًا: الخطأ في إطلاق التسمية كما هو حاصل في شارع (أبوعصية) الذي سموه أبو العصية، والصليبيخات الذي سموه «الصليبخات»، والمنقف الذي

يكتبونه المنجف، وإبراهيم بن الأغلب الذي كتبوه: إبراهيم الأغلب، وكانت أقل مراجعة للأسماء يمكن أن تنقذهم من هذا الخطأ.

سادسًا: تسمية أكثر من شارع بأسماء قرى ومدن لبلدان مختلفة، فلم تبق قرية من قرى الوطن العربي، إلا وسمينا بها شارعًا من شوارعنا، على حين لم نعامل بالمثل، ولم تطلق أسماء مدننا على شوارع أي بلد من هذه البلدان، وحتى اسم الدولة يندر ذكره عندهم، ولا أقصد بهذا الكلام الغض من مكانة تلك الدول ولكن مبدأ المعاملة بالمثل، مبدأ معروف به وسائد بين البلدان.

سابعًا: عدم إكمال الأسماء التي تطلق على الشوارع مثل شرحبيل والطائي وأبو عبيدة والمازني، وهذا الأمر لا يحقق الفائدة المقصودة من إطلاق هذ الأسماء، إذ سوف يظل النشء جاهلًا بهؤلاء ما لم تذكر أسماؤهم الكاملة، كما أن الالتباس يحصل فيما إذا كان هناك اشتراك في اللقب بين أكثر من شخص مثل (شارع الثعالبي) في منطقة النزهة، هل هو (عبدالله بن محمد بن إسماعيل صاحب المؤلفات العديدة التي منها كتابه المشهور «يتيمة الدهر» أو هو عبدالعزيز بن إبراهيم، الزعيم التونسي المشهور، الذي زار الكويت قديمًا وألقى عددًا من المحاضرات؟) و(شارع الشيباني) في منطقة كيفان، (هل هو المهلب بن أبي صفرة الشيباني أو النابغة الشيباني، أو غيرهما من بني شيبان؟). وقس على ذلك شوارع (غسان) في الدوحة و(لؤي) في الصليبية، و(البكري) في الجهراء، وسواها كثير.

ثامنًا: التسمية بأشخاص يعتبرون رموزًا بدولهم وليس لنا، كالشابي وعبدالقادر الحسيني وعبدالكريم الخطابي وعبدالمنعم رياض ومحمد إقبال ولطفي السيد، وغير ذلك مما يقع عليه مبدأ المعاملة بالمثل الذي ذكرنا.

تاسعًا: هناك أسماء ليس من المحبب إطلاقها على شوارعنا لما لها من اتصال غير ملائم ببعض موروثنا الإسلامي الكريم مثل سبأ، وبابل، ومثل خلف الأحمر، ولا يخفى على القارئ أو السامع مدى الارتباط بين هذه الأسماء وبعض المآخذ الدينية عليها.

عاشرًا: مع التكرار نجد الخطأ في بعض الأحيان، ففي حولي شارع ربيعة، وفي الفحيحيل شارع بني ربيعة، وكنا نتمنى الكشف عن هذا الأمر الملبس.

هذا، ولن أتحدث عن تسميات الشوارع التي شملت بعض أبناء البلاد وإن كان الأفضل الدقة في الاختيار وعدم الاعتماد على إلحاح بعض الأبناء في إطلاق أسماء آبائهم على بعض الشوارع فإن الخضوع إلى مثل هذه الضغوط أدى إلى تسمية بعض شوارعنا بأسماء أناس لم يقدموا لوطنهم خدمة تذكر.

وفي الختام فإنني أدعو إلى تأكيد ضرورة الاهتمام بدراسة الأماكن بأسمائها القديمة وتاريخها والحرص على إقامة هيئة تعليمية تتولى تحضير المؤهلين للقيام بهذا الدور، مع القيام بتنمية الدراسات المتعلقة بكل ما يدور في هذا المجال، وكذلك أرجو أن ينال الحرص على مسمياتنا طريقه إلى المسؤولين بحيث نضمن الحفاظ على تلك المسميات وعدم التفريط بها.

أما أسماء الشوارع فإننا إذا كنا نرى أن اسم الموقع أو الشارع سوف يكون جزءًا من تاريخه فإنه يجب علينا التدقيق في تلك المسميات فهي عنوان البلاد وفيها إشارة إلى بعض تاريخها الذي يجب تأصيله وتوثيقه، وتنمية الوعي لدى الأجيال الناشئة به.

ملاحظة: سوف يكون لنا في العدد القادم من «الوطن» حديث خاص حول الجهود المبذولة في الخارج وبرعاية الأمم المتحدة على الأخص فيما يتعلق بالتسميات، نورده بسبب أهمية الموضوع وبسبب تجاهل الجهات المختصة عندنا له.

****

أسماء الأمكنة.. مرة أخرى (٢) (١)

وعدت بمقال آخر استكمل به ما جاء في المقال السابق من (الأزمنة والأمكنة) المنشور في العدد الماضي من «الوطن» وهأنذا أفي بما وعدت به متمنيًا أن ينتبه الذين بيدهم الأمر إلى ما سوف يرد هنا من أمور.

أصدرت بلدية الكويت في اليوم التاسع عشر من شهر مايو لسنة ٢٠٠٨م قرارا تحت رقم ٣١٦، نص على تشكيل لجنة موسعة اسمها (لجنة توحيد الأسماء الجغرافية بدولة الكويت) وقد تضمن القرار معلومات عن المؤتمر التاسع لتوحيد الأسماء الجغرافية، وهو مؤتمر يشرف عليه المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للأمم المتحدة. ويبدو أن بلدية الكويت لم تصح إلا على أصوات المتحركين من مختلف الدول لعقد الموتمر التاسع. وهذا هو السبب الذي حداها إلى تشكيل هذه اللجنة ونتيجة لذلك فقد دام التخبط في مجال الأسماء عندنا فترة طويلة دون أن يحس أحد من المسؤولين أن مسألة الأماكن مسألة مهمة تبحثها الأمم المتحدة في مؤتمرات تتفرع عنها لجان بحسب المناطق الجغرافية في العالم، وأن على الدولة أن تسعى إلى حضور المؤتمرات للاستفادة من خبرات القائمين عليها في هذا المجال.

ومن يتفصح الملف الذي أصدرته بلدية الكويت وهو الذي يتضمن القرار الذي أشرنا إليه فإنه يجد عددًا كبيرًا من الملاحظات أولها أن الملف ضم مجموعة

---

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٠/٤/٢١م.

من المحاضر والمعلومات منها ما جاء تحت عنوان: (معلومات حول المؤتمر التاسع لتوحيد الأسماء الجغرافية) وفيه تحت العنوان الفرعي: (المحتويات) وفيه - أيضًا - عبارة: (جدول الأعمال المؤقت لمؤتمر التاسع لتوحيد الأسماء الجغرافية) ولم يقل كاتب هذه العبارة (للمؤتمر) وكأن بلدية الكويت لا تجيد النطق العربي، وعلى كل حال فإن المحتويات تضم أعمالًا كثيرة، ومشاركات من دول مختلفة منها ورقة عمل من جمهورية استونيا، وورقة عمل من المملكة العربية السعودية، وأخرى من لبنان، ومحضر اجتماع الشعبة العربية لخبراء الأسماء الجغرافية على هامش المؤتمر التاسع لتوحيد الأسماء الجغرافية، والتقرير النهائي لحلقة الخبراء العرب لتوحيد أسماء المواقع الجغرافية بتشكيل اللجنة التي يفترض أن تقوم بالمهام التي تركتها بلدية الكويت وراء ظهرها طوال السنين الماضية فقد كان أهمها البندان الأول والثاني وهما كما يلي:

١ - توحيد كتابة الأسماء الجغرافية في دولة الكويت.

٢ - اعتماد نظام كتابة الأسماء الجغرافية وفق النظام المعتمد من جامعة الدول وهيئة الأمم المتحدة وقد صغر القرار الجامعة فسماها: جامعة الدول العربية، وهكذا أثبت الموقع على القرار أنه لا يقرأ ما يوقع عليه.

ومن هنا نرى أن بلدية الكويت قد علمت في اليوم التاسع عشر من مايو لسنة ٢٠٠٨م بوجود اهتمام دولي وعربي بأمر أسماء الأماكن. بالإضافة إلى ملاحظة حول أمر غريب حيث قال البند الثالث من بنود واجبات اللجنة أن عليها:

٣ - رفع التقرير النهائي بأعمال اللجنة لمجلس الوزراء الموقر (هذا بدلًا من قولهم إلى مجلس الوزراء) لإصدار القرار اللازم بشأنه. ثم تأتي المادة السابعة لتسخ البند الثالث من بنود واجبات اللجنة إذ تطلب هذه المادة أن ترفع اللجنة تقريرًا بنتيجة أعمالها للسيد مدير عام البلدية، وهنا يبدر سؤال متى يجب تنفيذ

يوميًّا كما يغيرون ملابسهم بعد عودتهم من العمل. إن تخليد الأشخاص الذين قاموا بخدمات حقيقية للبلاد ينبغي ألا يتعارض مع الحرص على تاريخ البلاد، وتاريخ مواقعها الجغرافية، وأسماء هذه الأماكن جزء من تاريخها لا يتجزأ.

هذا وبين يدي الآن نشرة منمقة طبعتها بلدية الكويت حول هذا الموضوع وفيها تكرار – ولكنه موجز – لما جاء في الملف الذي أشرنا إليه. فهذه النشرة تقدم تلخيصًا عمّا تم إنجازه بخصوص توحيد الأسماء الجغرافية فتذكر أن مجلس الوزراء اتخذ قرارًا بتكليف الوزير المختص القيام بتشكيل لجنة لهذا الغرض هي اللجنة التي وردت في قرار مدير عام البلدية الذي سبقت الإشارة إليه وإضافة إلى ذلك جاءت في النشرة تحت بند الأفكار والتصورات مقترحات للمؤتمر العربي الرابع، والبلدية هنا تقدم للبلدان العربية توصيات وكأنها ضالعة في هذا الأمر منذ البداية وهذا مخالف للواقع بل إن كثيرًا من الدول العربية سبقتها إلى المشاركة في المؤتمرات الدولية والعربية ذات العلاقة بالأسماء الجغرافية، ومما تنبغي الإشارة إليه هنا أن النشرة تذكر أن مدير عام بلدية الكويت قد أصدر قراره رقم (٣١٦/٢٠٠٨) في اليوم التاسع عشر من شهر يونيو لسنة ٢٠٠٨م، والقرار الأصلي ينص على أنه صدر في شهر سبتمبر للسنة ذاتها، فما هو التاريخ الصحيح من بين هذين التاريخين؟

في نقلة أخرى خلال الموضوع نفسه، أقدم هنا شيئًا عن النظام العربي الموحد لنقل الأسماء الجغرافية من الأحرف العربية إلى الأحرف اللاتينية، وقد جاء في الصفحة الأولى للملف الذي تناول هذا النظام أنه صدر (كما جرى الاتفاق عليه من قبل الخبراء العرب الذين حضروا للمؤتمر العربي الثالث للأسماء الجغرافية في بيروت، وكما صدق عليه من قبل ممثل الأمين العام لجامعة الدول العربية) وكان انعقاد هذا المؤتمر قد تم في شهر مايو لسنة ٢٠٠٧م. وهذا جهد عربي خالص

يضاف إلى الجهود الدولية التي سبقت لنا الإشارة إليها – بتفصيل كامل – وفي مقدمة الملف يقول رئيس المؤتمر العميد الركن مارون خريش: (يحتوي هذا الكتاب على أبجدية نقل الحروف العربية إلى الحروف اللاتينية) ثم يقول: (وهذه الأبجدية هي الأبجدية الممثلة لورقة بيروت الصادرة عن حلقة الخبراء العرب لتوحيد أسماء المواقع الجغرافية في الوطن العربي المنعقد في بيروت سنة ١٩٧١م) ولن نلجأ إلى وصف ما ورد في الملف لأنه يحتوي على أمور فنية دقيقة ولكننا نستدل من العبارة السابقة على بدايات العمل العربي في هذا المجال.

هذا والجهود العربية في مجال توحيد الأسماء لا تقتصر على ما سبق فهناك جهود فردية وأخرى حكومية قد تم بذلها في هذا السبيل وهي تدل على مدى الأهمية التي يعلقها المختصون على تطبيق الحد الأدنى من عوامل التوحيد المطلوبة بالنسبة للأسماء الجغرافية.

اهتمت جامعة الكويت في سنة ١٩٨٥م بالأمر فأصدرت بالتعاون مع الجمعية الجغرافية الكويتية كتيبًا ضمن منشورة دورية كان يصدرها قسم الجغرافيا بالجامعة متعاونًا مع الجمعية المذكورة. كان الكتيب الذي نشير إليه هنا من تأليف العالم السعودي الأخ الدكتور أسعد سليمان عبده، وكان المؤلف وقت النشر مدرسًا في قسم الجغرافيا بكلية الآداب في جامعة الملك سعود، عنوان الكتيب هو (بعض أوجه الاختلاف في رسم اسم المكان الواحد بحروف اللغة العربية في المملكة العربية السعودية).

وللمؤلف عناية بالبحث الجغرافي وفهرسة الكتب الجغرافية وتحقيق الكتب، وقد عني في هذا الكتيب الذي نتحدث عنه بمقارنة أسماء الأماكن بالمملكة العربية السعودية مشيرًا إلى مصدرين مهمين في هذا المجال هما: خرائط المملكة العربية السعودية، وكتاب المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية الذي ألفه الأستاذ حمد الجاسر، وهو يقول عن موضوع دراسته هذه: (تهتم هذه الدراسة بالاختلافات التي

وجدت في رسم أسماء الأماكن المنشورة في كتاب تصحيح الأسماء الجغرافية المكتوبة على خرائط المملكة العربية السعودية.. ثم يقول: وموضوع هذه الدراسة هو التعرف إلى أوجه الاختلاف في رسم الأسماء التي تختلف في الحروف أو في الحروف والحركات معًا).

تتبع الدكتور أسعد عبده هذا الموضوع تتبعًا جيدًا حتى جاء بحثه مثالًا يحتذى به عند الحديث عن أسماء الأماكن واختلافاتها من حيث الكتابة والنطق وهو موضوع في غاية الأهمية.

ولم تقف جهود المختصين السعوديين عند هذا الحد، فقد قامت دارة الملك عبدالعزيز بالرياض بالدعوة إلى ندوة خصصتها للبحث في أسماء الأماكن الجغرافية في المملكة العربية السعودية وذلك في سنة ٢٠٠٨م، ثم قامت في سنة ٢٠٠٧م بطبع كتاب يضم كافة البحوث التي قدمت في تلك الندوة، وقد جاءتنا مجموعة طيبة من البحوث المهمة في هذا الباب قدمها عدد من العلماء كان منهم الأستاذ الدكتور عبدالله يوسف الغنيم الذي دعي إلى المشاركة في الندوة المذكورة بصفته أحد الجغرافيين البارزين في الوطن العربي، وقد قدم في الندوة محاضرة عنوانها: (الجهود العربية في ضبط الأعلام الجغرافية لشبه الجزيرة العربية) وقد تحدث في محاضرته عن المعاجم العربية القديمة الخاصة بالأماكن، ثم قارن بينها من حيث مناهجها، وطرق تناولها للعمل الجغرافي، وانتهى إلى الحديث عن المعاجم، وعن الباحثين المتأخرين في هذاالمجال، ولم ينس الإشارة إلى الجهود التي بذلت في الكويت فأشار إليها قائلًا: «في الكويت نشر الدكتور يعقوب الغنيم مجموعة من الكتب والدراسات حول المواضيع التاريخية في دولة الكويت، منها كتابه (كاظمة في الأدب والتاريخ) (القاهرة ١٩٥٨م، الكويت ١٩٩٥م)، وكتاب (أوراة: لمحة من تاريخ الكويت) (الكويت ١٩٩٥م)، وكتاب (العدان بين شاطئ الكويت وصحرائها) (الكويت ١٩٩٧م) وكتاب (السيدان: قبس من ماضي الكويت)

١٩٩٧م)، ثم أصدر عام ٢٠٠٤م، كتابًا بعنوان: (دولة الكويت: الأماكن والمعالم) وهو ما يعد معجمًا جغرافيًّا للجزء الشمالي الشرقي من الجزيرة العربية».

وهكذا نرى أن الاهتمام بتوثيق أسماء الأماكن وتثبيتها وفق وضعها الأصلي، وتوحيد ترجمتها إلى اللغات الأخرى أمر تعتني به الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية والدول العربية منفردة بل الكويت ولكن دون جهد حكومي يذكر، إلى أن جاء قرار البلدية الجديد الذي أشرنا إليه، آملين إلَّا يصيبه ما أصاب غيره من القرارات.

وهنا إضافة لا بد منها في ختام حديثنا هذا، وذلك أن أخي الأستاذ الدكتور عبدالله يوسف الغنيم قد أشار في تصديره لكتابي: (دولة الكويت: الأماكن والمعالم) الذي صدر عن مركز البحوث والدراسات الكويتية في سنة ٢٠٠٤م، إلى أمر مهم يتعلق بأسماء الأمكنة ذلك لأنه قال: «انتظم في جنيف عام ١٩٦٧م أول مؤتمر دولي تحت عنوان: (تنميط الأسماء الجغرافية) وصدر عن هذا المؤتمر قرار ينص على أن يكون رسم الاسم الجغرافي متفقًا بقدر الإمكان مع قواعد الإملاء المتبعة في الدول المعنية، وعلى الحد بقدر الإمكان من عمليات التغيير في أسماء الأماكن باعتبار ذلك جزءًا من التراث الإنساني الذي ينبغي ألّا يمس».

وهذا يدل على وجود اتجاه توثيقي على مستوى دولي يتعلق بأسماء الأمكنة، وظلَّت اللقاءات الدولية بهذا الخصوص مستمرة، ولم تشارك الكويت في أي منها إلا في السنة التي ذكرناها، ألا ترون أن هذا يؤيد الدعوة إلى عدم تغيير الأسماء؟.

****

ملحاق خير

كأنما أيقظني من النوم ذلك الرجل الذي سار إلي في شبرة الخضرة ليسألني سؤال رجل آسف على أمر فرّ من بين يديه. الرجل الذي أعنيه هو من أبناء الكويت، ويبدو أنه من متابعي هذه المقالات وذلك واضح من اهتمامه الذي أبداه لي. لقد استوقفني ليقول: لماذا نسوا (النقرة) التي نعرفها منذ زمن طويل وكانت فيها كشتات البر أيام الربيع، وفيها عدد من السكان الكويتيين، كيف محوها من الوجود ليضعوا (حولي) في مكانها؟.

لقد أخذني اهتمامه هذا بمفاجأة، ونبهني إلى أمر لم أكن أفكر فيه من قبل، فشكرت له هذه المتابعة وقال: أن أسماء الأماكن يحفظها الأهالي على الرغم من تغييرها من قبل بلدية الكويت، وما دمت أنت وغيرك كثيرون تحفظون هذا الاسم فلن يضيع، فالأماكن لم تمسها البلدية حتى تنتزع أسماءها وإنما أسماها أهلها منذ قديم الزمن، وقد وعدته ببحث الأمر لمزيد من اليقين به.

شكرني وانصرف، ولكني شغلت كثيرًا بحديثه، وصرت أتتبع الكثير من الأمور المتعلقة بهذا الموقع فلم أجد شيئًا يهديني إلى ما أريد، وكأنما أريد لاسم هذا الموقع أن ينسى واعتبرت النقرة وحولي شيئًا واحدًا بصورة قسرية حتى أن الخريطة التي صدرت عن البلدية لم تورد الاسم ولم تفصل الموقع عن حولي وهذا أمر يؤسف له ويتعارض ما ذكرناه في مقالنا المنشور مع هذا الملحاق.

اسم (النقرة) اسم لعدد من المواقع العربية القديمة وقد أورد ياقوت الحموي شيئًا من ذلك في كتابه «معجم البلدان» حين قال عن النقرة: (ومنهم من نطقها

بكسر القاف): كل أرض في وهدة في نقرة، ومثل لها بموضوع في طريق مكة اسمه معدن النقرة، ثم ذكر عددًا كبيرًا آخر من المناطق تسمى النقرة، وهي أماكن أراض منخفضة كما ذكر، وفي بعضها آبار مياه يستفيد من مائها العابرون إلى داخل جزيرة العرب، وحار في وصف موضع آخر يسمى النقرة بسكون القاف فذكر أنه جبل أو مورد ماء تمتلكه إحدى قبائل العرب.

لا أسوق هذه الأقوال من أجل أن أثبت أن النقرة التي عندنا هي المذكورة في كتاب معجم البلدان ولكني أذكرها للتدليل على أن هذا الاسم معروف ومطروق، وقد أطلقه العرب على عدة أماكن، ولذا فإنه ليس من المستغرب أنه يكون موضعنا هذا الذي في الكويت قديمًا هو الآخر، ولكننا لم نتمكن من الاستدلال على ماضيه حتى يومنا هذا.

أصدر الأستاذ الفنان أيوب حسين في سنة ١٩٨٧م كتابًا تحت عنوان «حولي قرية الأنس والتسلي» وقد ذكر فيه تحت عنوان هذا الكتاب: أنه من حصيلة الذكريات قبل الخمسينيات وهو - والحق يقال - كتاب صار تاريخًا لهذه المنطقة وبخاصة أن المؤلف جمّله بالصور التي كان بعضها من رسم يده، وبعضها الآخر من التصوير الفوتوغرافي، وقد نشر في بداية الكتاب خريطة لحولي تظهر فيها النقرة بأقسامها الثلاثة التي هي النقرة الجديدة ونقرة الحداد ونقرة الطواري والأولان في الشمال والثالثة في الغرب، وهنا تجد صورة الخريطة كما وردت في الكتاب للمزيد من الاطلاع على الوضع الجغرافي حولي والنقرة.

إضافة إلى ذلك فقد أشار الأستاذ أيوب حسين إلى سد النقرة الشهير، ووضع مع حديثه عن السد صورة جميلة من رسمه تمثل سد النقرة تمثيلًا واضحًا وهذا السد ليس شبيهًا بالسدود المتعارف على أشكالها في هذه الأيام ولكنه عبارة عن حفرة واسعة تجمع الماء المتحدر من الغرب إلى الشرق قبل أن يسيل إلى

البحر، وكان الشيخ سالم المبارك الصباح قد أمر بعمل هذا السد للاستفادة من مياه الأمطار بدلًا من هدرها وذلك في أواخر سنة ١٩١٧م وقد انتفع الناس كثيرًا بمياه سد النقرة وكان البائعون الذين يجلبون ماءه إلى المنازل في داخل البلاد على الحمير أو على الجمال بوساطة القرب ينادون على مائهم المحمول قائلين: ماء السد ماء السد.

وليس سد النقرة حفرة واسعة وعميقة فقط، ولكنه يضم عددًا من الآبار في الوسط يفيد ماؤها البلاد في فترات الصيف حين يشح ماء المطر، وعلى جوانبه حواجز طينية تبعد عنه أي مؤثرات ضارة بالماء، كما تحميه من الرمال التي تجرفها الرياح ليبقى على وضعه دائمًا دون أن تتمكن العواصف من تغطيته وإزالته من الوجود.

وفي سنة ١٩٥٧م أصدرت دائرة الأوقاف العامة كتابًا ضم تاريخ الأوقاف، وأشارت فيه إلى المساجد التي كانت قائمة في النقرة إلى ذلك الوقت، وذكرت في تلك المساجد مسجدين هما مسجد ابن رشيد الذي كانت الدائرة قد جددت بناءه في سنة ١٩٥٤م، وكان مؤسسه محمد يوسف الرشيد البدر، أما المسجد الثاني فهو مسجد النقرة القديم (بحسب تسمية الكتاب له) وقد جددت الدائرة بناءه في سنة ١٩٥٦م. ولهذا المسجد عدة أسماء وقد كتب على مدخله أن مؤسسه هو حمد ناصر البراك.

وبعد، فإن من المؤسف أن يزول هذا الاسم التاريخي من ذاكرتنا وخرائطنا على الرغم من كل ما تقدم، فهل لنا أن نأمل من البلدية إعادة النظر في الأسماء واللوحات الإرشادية؟

****

العثماني مدحت باشا والكويت [1]

هذا الرجل من الذين يتردد اسمهم كثيرًا في تاريخ دولة بني عثمان، وفي تاريخنا الكويتي، وإن كان القسم الثاني تحيط به شكوك كثيرة حتى لنكاد نعتبر كثيرًا مما قيل فيه، ومما بني على ما قيل أمرًا من أمور الخيال الذي لا يمكن أن يستقيم مع حقائق التاريخ الظاهرة.

مدحت باشا رجل دولة عثماني تعرض في حياته العملية للصعود إلى أعلى المراتب، والهبوط إلى أدنى مستوى يصل إليه الإنسان، وهل أشد على المرء من أن يتلقى الحكم بإعدامه، ثم ينفذ به هذا الحكم بطريقة وحشية بشعة؟.

كان اسمه أحمد بن حاجي حافظ محمد أشرف، وسمّي فيما بعد مدحت، وحصل على رتبة الباشوية في صعوده، ولد في سنة ١٨٢٢م لأب كان قاضيًا في بلده، وقد سمّي الولد عند ولادته في إسطنبول: محمد شفيق، ثم غلب عليه اسم أحمد مدحت، ثم اسم: مدحت فقط. وقد حرص والده على أن يتعلم ابنه تعليمًا جيدًا، وبالفعل فإنه كان يدرس اللغة العربية والفارسية في الحلقات الدراسية التي كانت تقام في مساجد إسطنبول حتى استطاع الحصول على مقدار من العلوم في هاتين اللغتين، كان في بداية أمره بالوظيفة كاتبًا ومحررًا، وكان له أسلوب جميل وخط رائع وهو ما كان يسمى الخط الديواني وقد تدرب عليه في مدرسة خاصة به.

كان عمله هذا في مركز الحكومة الرئيسي، وكانت إجادته وموقع عمله سببًا من الأسباب المهمة التي دفعت به إلى أعلى، ولم يزل يتدرج حتى وصل إلى القمة باختياره رئيسًا للوزراء، وهو المنصب الذي كان يسمى هناك (الصدر الأعظم).

---

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٠/٤/٢٨م.

عمل خارج وطنه عندما صار واليًا على (الدانوب)، مسؤولًا عن إخماد ثورات البلغار، وقد قام بما طلب منه بشجاعة فائقة. ثم انتقل إلى الآستانة، وصار رئيسًا لمجلس شورى الدولة، وعيّن واليًا على بغداد منذ سنة ١٨٦٩م حتى سنة ١٨٧١م ثم دعي إلى عاصمة بلاده معزولًا من وظيفته. وبعد سنوات قليلة من عزله قفز إلى منصب الصدارة العظمى، وأصدر الدستور العثماني، وقد تولى هذا المنصب في سنة ١٨٧٦م، ولكن سوء الحظ كان ملازمًا له في كل طريق سلك، فما لبث أن اختلف مع السلطان عبدالحميد (آخر سلاطين الدولة العثمانية) وكان سبب الاختلاف هو تباين وجهة نظر مدحت باشا مع وجهة نظر السلطان في بعض الأمور التي تتعلق بسياسة الدولة ويبدو أن هذا التباين قد استفحل حتى وصل الأمر بالسلطان إلى اتخاذ قرار بعزل الصدر الأعظم، وأمر فوق ذلك بالتضييق عليه مما دفعه إلى مغادرة وطنه إلى أوروبا، وقد استقر مدة في لندن، ولم تلبث الدنيا أن عادت إليه فتم تعيينه واليًا على الشام. وهنا تحركت لديه النزعة الأدبية التي كانت عنده منذ بداية دراسته، فقام بإنشاء جمعيات علمية وأدبية، فلم يرق هذا العمل لحكومة بلاده لأن المطلوب عندهم هو تكميم الأفواه في البلدان العربية التي كانوا يحتلونها وهذا النوع من الجمعيات يساعد على فتح الأفواه، فكان هذا سببًا لاستدعائه.

واجه غضبًا شديدًا من حكومته منذ وطئت قدماه أرض الآستانة، واعتقل مُتّهمًا بالمشاركة في قتل السلطان عبدالعزيز (١٨٧٦م) وحكم عليه بالإعدام. ثم رأى السلطان أن يكتفي بنفيه وحجزه في قلعة بمدينة الطائف. وبعد بضع سنوات أمر السلطان بإعدامه فأعدم خنقًا في سنة ١٨٨٣م.

هذه هي سيرة مدحت باشا الذي تقلب في عدد من الوظائف العليا، ثم هبط إلى منفى بعيد عن وطنه، ثم قتل بعد سنوات المنفى. أما ما يتعلق بالكويت كما يوحي عنوان مقالنا هذا؛ فإننا ندرجه فيما يلي:

صدر في سنة ٢٠٠٢م كتاب تحت عنوان: «مدحت باشا. حياته، مذكراته، محاكمته»، وذلك عن الدار العربية للموسوعات ببيروت، كتب عليه اسمان هما يوسف كمال بك حتاته وصديق الدملوجي، ولا ندري إن كان هذان الرجلان هما مؤلفا الكتاب أم لا، لأنه لم يوضع فوق اسميهما ما يدل على شيء من ذلك، في الوقت نفسه نرى أن الكتاب يبدأ بمقدمة كتبها علي حيدر مدحت باشا، ولا نستطيع أن نخرج من هذه المقدمة بشيء فهو تارة يذكر أن هذا الكتاب يضم مذكرات والده مدحت باشا، وتارة يقول إن هذه الأوراق التي ينقل منها ناقصة، وإنه أضاف إليها شيئًا من عنده فهو يقول: «وقد أضفنا إلى هذا القسم ما التقطناه من أفواه رفاقه الذين لا يزالون على قيد الحياة»، ولا نستبعد أن يكون الرجلان اللذان ذكر اسميهما قد أضافا - أيضًا - ما لا نستطيع تحديده، فهو - على كل حال- كتاب ملفق ركيك الأسلوب.

وفيه من المعلومات مالا يقف على قدم. وقد ورد فيه (ص٢٣٨ وص٢٣٩) موضوع لا شك في أنه هو الذي أدخل إلى نفوس كثير من غير الكويتيين مسألة تبعية الكويت للدولة العثمانية لأننا لم نقرأ شيئًا من ذلك قبل هذا الذي ورد في الكتاب، ونحن لنا تعليقات كثيرة على ما جاء فيه بهذا الخصوص سوف نوردها بعد أن نذكر النص بكامله. يقول الكتاب ولا ندري من هو القائل بسبب الاضطراب الوارد فيه:

«تبعد الكويت عن البصرة (٦٠) ميلًا في البحر وهي كائنة على الساحل بالقرب من نجد وأهلها كلهم مسلمون وعدد بيوتها (٦٠٠٠) وليست بتابعة لأية حكومة وكان الوالي السابق نامق باشا يريد إلحاقها بالبصرة فأبى أهلها لأنهم قد اعتادوا عدم الإذعان للتكاليف والخضوع للحكومات فبقي القديم على قدمه، ونسل هؤلاء العرب من الحجاز وكانوا قبل (٥٠٠) سنة قد حضروا إلى هذه البقعة

هم وجماعة من قبيلة المطير وواضع أول حجر لتلك البلدة رجل اسمه صباح وقد كثر عدد أهلها على تمادي الأيام وشيخها اليوم اسمه عبدالله بن الصباح وهو من هذه القبيلة والأهالي هناك شوافع وهم يديرون أمورهم معتمدين على الشرع الشريف وحاكمهم وقاضيهم منهم فهم يعيشون شبه جمهورية وموقعهم مساعد على الاحتفاظ بحالتهم الحاضرة وهم لا يشتغلون بالزراعة بل بالتجارة البحرية وعندهم ألفان من المراكب التجارية الكبيرة والصغيرة فهم يشتغلون بصيد اللؤلؤ في البحرين وفي عمان وتسافر سفائنهم الكبيرة إلى الهند وزنجبار للتجارة وقد رفعوا فوق مراكبهم التجارية راية مخصوصة بهم واستعملوها زمنًا طويلًا غير أن خوفهم من غارة الأجانب عليهم قد حدا بهم إلى رفع الرايات الأجنبية فرفع بعضهم راية الفلمنك وآخرون راية الإنجليز واعتادوا على هذه العادات بالتدريج وبدأت مقدمات الحماية الأجنبية تظهر فيهم وقبولهم الحماية الأجنبية يعد ضربة قاضية على استقلال البصرة ولهذا السبب فقد دعاهم مدحت باشا وأعفاهم من الرسوم الجمركية وغيرها من التكاليف الأميرية فوافقوا على قبول حماية الدولة العليا ولذا فقد جعلهم تابعين لولاية البصرة ودعا عبدالله بن الصباح بقائم مقام الكويت وأبقاه كما كان وأبقى غيره من الموظفين أيضًا ولم يغير شكل حكومتهم بل أحضر لهم من الآستانة البراءات الرسمية وما يثبت اتباعهم للدولة العثمانية وأمر بالرايات الأجنبية فأنزلت عن سفائنهم وحلت محلها الراية العثمانية».

هذا هو النص الخاص بالكويت المنسوب إلى مدحت باشا، وإذا كان الكتاب محتويًا على الكثير من الأوهام فإن هذا النص هو الوهم بذاته، وتصديقًا لهذا القول فإنني أقدم النقاط التالية:

١ - لم يرد ذكر لكل ما جرى هنا في أقدم كتابين تمت كتابتهما عن تاريخ الكويت وهما كتاب الشيخ عبدالعزيز الراشد والشيخ يوسف بن عيسى القناعي، وليس هناك ما يدل على قدوم مدحت باشا إلى الكويت ولا

محادثة له مع الشيخ عبدالله الثاني ابن صباح الثاني الذي تولى حكم الكويت منذ سنة ١٨٦٥م حتى سنة ١٨٩١م.

٢ - ذكر أن الوالي نامق باشا أراد إلحاقها بالبصرة فأبى أهلها لأنهم قد اعتادوا على عدم الإذعان للتكاليف وذلك دليل على الاستقلالية السابقة واللاحقة، إذ لم يستطع نامق باشا أن يعمل شيئًا تجاه الرفض الكويتي لما كان يتمناه.

٣ - ذكر عدد البيوت في الكويت ولا ندري كيف أحصاها.

٤ - ذكر أن نسل هؤلاء السكان من الحجاز، ولا أظن أن مدحت باشا الحقيقي لا يعرف الفرق بين نجد والحجاز.

٥ - ذكر أنهم جاءوا قبل خمسمائة سنة إلى هذه البقعة هم (أي الذين ذكر أنهم جاءوا من الحجاز) مع جماعة من مطير، وهذا ما لا نستطيع إثباته إذ لا نص عليه في كتب التاريخ. وذكر أن الشيخ ينتمي إلى هذه القبيلة، في الوقت الذي يعرف الجميع اسم القبيلة التي ينتمي إليها أما حكاية الخمسمائة سنة فهي غريبة جدًّا لأن المعروف طبقًا لأدلة عدة هو أن الكويت نشأت في سنة ١٦١٣م بينما الرقم الذي جاء في الكتاب إذا خصمناه من السنة التي يتحدث عنها وهي التي من المفروض أن تكون هي سنة ١٨٧٠م، وجدنا أن بلادنا على حد زعمه قد نشأت في سنة ١٣٧٠م، وهذا تاريخ لنشأتها مبالغ فيه جدًّا، ويسقط مصداقية النص الذي أمامنا.

٦ - ذكر بعد ذلك أن الشيخ عبدالله بن صباح والأهالي يتبعون المذهب الشافعي وهذا غير صحيح فالأكثرية للمذهب المالكي وبه الحكم. ثم ذكر أنهم يديرون أمورهم معتمدين على الشرع، وحاكمهم وقاضيهم منهم.

٧ - تحدث قليلًا عن الأعمال التي يقوم بها الكويتيون وبين أن من أهمها التجارة البحرية.

٨ - قال: «وقد رفعوا فوق مراكبهم التجارية راية مخصوصة بهم واستعملوها زمنًا طويلًا، غير أن خوفهم من غارة الأجانب عليهم قد حدا بهم إلى رفع الرايات الأجنبية، فرفع بعضهم راية الفلمنك، وآخرون راية الإنجليز».

وللتعليق على هذا البند عدة مجالات أولها: أن الكويت كان لها علمها الخاص كما يقول ولكننا لا ندري شكله ولا لونه ولم يبلغنا أحد عنه شيئًا سوى ما قيل عن العلم المسمى «السليمي» وثانيهما: أن الكويتيين لم يشعروا بالخوف في ذلك الوقت القديم، ومع ذلك فإننا لو أخذنا بهذا القول فهل يعقل أن ترفع دولة مستقلة لها حاكم يدير شؤونها وشعب نشط يعمل بالتجارة ويسافر إلى كل مكان عدة أعلام منها الفلمنكي الذي لم يمر علينا ذكره في بلادنا أصلًا، ومنطقة الفلمنك في وقته كانت تغطي معظم هولندا، وشمالي بلجيكا، وجزءًا صغيرًا من فرنسا بطول بحر الشمال، ونحن الآن لا نعرف شكل ولا ألوان العلم الفلمنكي هذا، ومنها - كما قال - الإنجليزي، وهو قد ذكر أن البلد أهله كلهم مسلمون حريصون على دينهم متمسكون بأهدابه وهو يعرف أن العلم البريطاني مرسوم عليه الصليب فهل من المناسب أن يقال هذا القول بكل ثقة؟ كيف يكون للبلد الواحد أكثر من علم، وكيف يرفع هذا البلد من الأعلام ما يتنافى مع عقيدته؟

٩ - يقول بعد ذلك: «وبدأت مقدمات الحماية الأجنبية تظهر فيهم، وقبولهم الحماية الأجنبية يعد ضربة قاضية على استقلال البصرة».

هذا الكلام عن سنة ١٨٧١م ومعلوم أن الحماية البريطانية لم تبدأ إلا في سنة ١٨٩٩م في زمن الشيخ مبارك الصباح، ولم تقبل بريطانيا الدخول في اتفاق مع الكويت بهذا الخصوص إلا بعد إلحاح من الشيخ مبارك نظرًا لما يرى من مصلحة بلاده.

ثم ما المقصود باستقلال البصرة؟ وما للكويت وللبصرة حتى ترتبط الحماية بها؟، وقد عقدت الاتفاقية الخاصة في السنة التي أشرنا إليها ولم يحدث للبصرة شيء.

وعلى العكس من ذلك فإن ما يحدث للبصرة ليس له أي تأثير على الكويت ومن ذلك أن الجيش حاصر البصرة مدة حتى استسلمت له في منتصف شهر أبريل لسنة ١٧٧٦م، فقد سقطت البصرة في يد محاصريها ولم تنقذ نفسها دون أن تكون للكويت يد في ذلك.

١٠ - وابتداءً من هنا انقلب ميزان الحديث، كنا نظن أن المتحدث هو مدحت باشا فإذا هو شخص لا نعرفه ولا ندري من أين يبتدئ، كلامه وإلى أين ينتهي به المطاف. ولكنه قال هنا: «ولهذا السبب دعاهم مدحت باشا وأعفاهم من الرسوم الجمركية وغيرها من التكاليف الأميرية» ولا ندري كيف دعاهم، وإلى من وجه القول وأين كان ذلك؟ لأنه من المعروف أنه عزل من منصبه بصفته واليًا على بغداد في هذه السنة التي يتحدث عنها القائل المجهول. الذي لم يكتف بذلك بل أضاف إلى ما مضى قوله: «فوافقوا على قبول حماية الدولة العليا، ولذا فقد جعلهم تابعين لولاية البصرة، ودعا عبدالله بن صباح بقائمقام الكويت، وأبقاه كما كان، وأبقى غيره من الموظفين أيضًا، ولم يغير شكل حكومتهم، بل أحضر لهم من الآستانة البراءات الرسمية، وما يثبت اتباعهم للدولة العثمانية، وأمر بالرايات الأجنبية فأنزلت عن سفائنهم وحلت محلها الراية العثمانية».

وهنا نتساءل: كيف تكون البلاد تحت حماية الدولة كما يقول، وهي في الوقت نفسه تابعة للبصرة، هي مستقلة استقلالًا كاملًا ولكنها غير ذلك كما يدعي، أما لقب قائمقام فقد تكرر ذكره حتى في أيام مبارك الذي عندما سئل عنه قال: دعهم

يقولوا ما يشاؤون، أنا رجل حر لا أخضع لأحد. أما الكلام عن البصرة فيرد عليه ما جاء في الوثائق وهو أنه في سنة ١٧٨٧م سادت البصرة اضطرابات جعلت والي بغداد يقدم على مهاجمتها لتأديب المتسببين بما حدث، وفر اثنان من الزعماء إلى الكويت فآواهما الشيخ عبدالله بن صباح، ورفض تسليمهما إلى الحكومة العثمانية، وعندما جاءت سنة ١٧٨٩م أبلغه المقيم الإنجليزي في الوكالة التجارية بالبصرة أن الوالي عازم على مهاجمة الكويت لاستخلاص الرجلين، رد عليه الشيخ قائلًا: إنه على استعداد لقتال الباشا في سبيل حماية ضيفيه، أليس في حقائق التاريخ التي أوردنا ما يتعارض مع الأوهام التي وردت في الكلام الذي لا نعرف قائله؟

في وثيقة بريطانية نشرتها المجلة التي تصدرها جامعة الكويت حديث عن البعثة الألمانية التي جاءت إلى الكويت للبحث في أمر نهاية خط سكة الحديد المقترحة عند كاظمة، فقد استقبل الشيخ مبارك الصباح هذه البعثة «فأخبرهم بأنه لا يفهم هل جاءوا من ناحيتهم أم من قبل السلطان العثماني! ذلك أنهم لو كانوا قد حضروا من قبل السلطان لكان قد أعطاهم خطابًا إليه، ومع هذا فإنه يرغب منهم أن يعرفوا أنه لا يعترف بسلطان تركيا إلا على اعتبار أنه خليفة للمسلمين فقط، ومن ثم فإنه لا يعتبر نفسه أحد رعايا تركيا، وأنه لا يعترف بالسيادة التركية على الكويت، وأن أية مطالب أخرى تقدم إليه من قبل السلطان ستقابل منه بالرفض».

وهكذا يتضح لنا عدم صدق ما ورد في القول الوارد في كتاب مدحت باشا الذي أوردناه فيما سبق إذ لو كان ذلك صحيحًا لا وهمًا لما كان موقف الشيخ مبارك الصباح كما نراه هنا، ألم يقل إنه لا يعترف بسيادة تركية على الكويت، وأنه لا يعترف بسلطان تركيا إلا على اعتبار أنه خليفة للمسلمين لا غير؟

إن أقدم علم كويتي رفع في البلاد هو علم أحمر اللون يسمى العلم السليمي ليست فيه نقوش ولا كتابه، وهو شبيه بعلم مملكة البحرين الحالي، ويبدو أن

العتوب كانوا يرفعون علمًا واحدًا، ولا يخفى أن الصباح والخليفة فرعان من فروع ثلاثة للعتوب.

وسوف يلفت نظر القارئ مرآى علم تركي أخضر اللون بخلاف علم الدولة العثمانية الأحمر. وهذا العلم أهدته السلطات التركية إلى الشيخ جابر الأول الصباح الذي تولى حكم الكويت في سنة ١٨١٤م، ولكن الشيخ لم يرفعه على البلاد كما كان متوقعًا من أولئك الذين أهدوه إليه، وهذا دليل آخر من الأدلة على استقلال البلاد عنهم.

وفي الوقت الذي يرى الكاتب (إن كان مدحت باشا أو غيره) أن الكويت تأسست في سنة ١٣٧٠م، فإن التاريخ يسجل أن الدولة العثمانية لم تحكم العراق إلا في سنة ١٥٣٤م أي بعد المدة التي ذكرها بعدة سنين. وأكثر من هذا فإن هذه الدولة فقدت العراق في سنة ١٧٤٩م لأنه وقع في يد من يسمون المماليك، ولم تستطع استعادته إلا في سنة ١٨٣١م، فكيف يمكن أن تكون الكويت تحت حماية دولة من هذا النوع لا تستطيع حماية نفسها.

ظل العلم المشابه للعلم التركي مرفوعًا في البلاد حتى عهد الشيخ مبارك الصباح، وفي آخر شهر من سنة ١٩١٤م، استعاد الشيخ علم الكويت الأحمر وأضاف إليه كلمة كويت، وكان موضوع تغيير العلم من الأمور التي كانت مثارة منذ سنة ١٩١٣م حين توصل البريطانيون والعثمانيون إلى اتفاق بشأن الكويت، ولكن الإجراءات والتنفيذ كانت سببًا في تأخير استعمال العلم الكويتي الأصيل مدة سنة كاملة.

والواقع أن العلم التركي عبارة عن رقعة حمراء يتوسطها الهلال، والهلال موجود الآن في عدد من الأعلام الإسلامية باعتباره رمزًا إسلاميًا فهل تكون الكويت من أتباع الدولة العثمانية حينما تضع الهلال على علمها؟، أما الرقعة الحمراء فهي أيضًا مستعملة في كثير من الأعلام بالإضافة إلى ما يبدو من

تصريح الشيخ مبارك من ظنه أن هذا العلم ليس مرتبطًا بالدولة باعتبارها نظامًا سياسيًا، ولكن باعتبارها الديني الإسلامي فحسب، إن هذا العلم هو علم الإسلام، ولذلك أبدى ترددا حين عرض عليه تغييره لأسباب تتعلق بمواقف الدول من السفن الكويتية، ولم يغيره إلا بعد أن تأكد من ضرورة ذلك، علمًا بأن السفن الكويتية التي كانت ترفع العلم الشبيه بالعلم العثماني كانت تعامل في البصرة معاملة السفن الأجنبية، ولم تكن تعامل باعتبارها سفنًا خاضعة لسلطة العثمانيين.

يقول لوريمر في كتابه «دليل الخليج»: كان الشيخ مبارك يقول: «إنه ومن قبله أبوه وجده رفعوا العلم الموجود عليه الهلال رمزًا للإسلام، لا تبعية لتركيا».

ومن أدل الأمور على عدم النظر قديمًا باهتمام إلى موضوع العلم، أن نجد الشيخ مبارك يمتنع عن رفع العلم التركي عند وصول كيرزون نائب الملك البريطاني سنة ١٩٠٣م، بل يرفع علمًا كويتيًّا مكتوبًا على أرضيته: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

أما سلدانها فيقول في كتابه: «التاريخ السياسي للكويت في عهد مبارك»: «عندما سئل الشيخ عن أسباب استعماله علمًا يشبه العلم العثماني أجاب: إن أباه وجده هما اللذان رفعاه في بعض المناسبات كعلم إسلامي، ولم يكن ذلك يعني أنهما كانا تحت أي سلطان أو حماية من الأتراك».

وهناك الكثير مما يمكن أن يقال في هذا المجال، كما أن هناك الكثير من التساؤلات عن طبيعة العلاقات الكويتية - العثمانية ولكني سوف أتركها الآن.

ويقول بنداريفسكي في كتابه «الكويت وعلاقاتها الدولية»: «وفي تقرير ممثلي السلطات الإنجليز في لقاءاتهم مع الشيخ جابر بن عبدالله وابنه الشيخ صباح بن جابر كانوا يؤكدون أمرين، وهما: أن سلطة أو مكانة السلطان العثماني تعتبر وهمية، وأن السفن الكويتية بدأت في الستينيات من القرن التاسع عشر ترفع العلم

التركي بدلًا من علمها بسبب منح الاتفاقيات التركية - الإنجليزية للسفن حاملة العلم التركي امتيازات ومعاملة خاصة في الموانئ الهندية وأن حكام الكويت كانوا يتبادلون الهدايا مع السلطات التركية، وكانت هدايا الجانب التركي تعزى لسبب قيام شيوخ الكويت بضمان أمن الملاحة في مصب شط العرب».

لاحظ أنه ذكر تاريخًا لاستعمال العلم العثماني هو ستينيات القرن التاسع عشر، وهذا تاريخ يسبق ما ورد في الكتاب الذي عرضناه.

وهناك تخاريف مشابهة لما جاء في الكتاب المنسوب إلى مدحت باشا وعلى الأخص في موضوع القضاء، وقد قمت بالرد الكامل والشافي على كل هذه التخاريف المشار إليها في كتابي: «الكويت تواجه الأطماع» من نشر مركز البحوث والدراسات، «سنة ١٩٩٨م»، على الصفحات: ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨، ١١٩، ولا داعي هنا لنشر ما ورد في الكتاب المذكور، ومن شاء أن يطلع عليه فالكتاب متيسر في المركز.

****

المستشرق الروسي بونداريفسكي

وكتابه عن الكويت [1]

غيورغي بونداريفسكي مستشرق روسي، له دراية بتاريخ منطقتنا، وله أبحاث كثيرة تتعلق بها، وقد كتب كتابه هذا عن الكويت وأتى إليها مرارًا وقدم عددًا من المحاضرات عن بحوثه ودراساته وعن الوثائق الموجودة في وطنه وهي تخص بلادنا، ولذا فهو جدير بأن نكتب عنه ونوثق حياته ونعرض كتابه.

وعلى الرغم من مكانته العلمية والشخصية في روسيا وفي غيرها من البلاد إلا أننا فقدناه بصورة مفاجئة لا تخطر على بال أحد ففي اليوم الحادي عشر من شهر أغسطس لسنة ٢٠٠٣م. أعلن «أن البروفيسور غيورغي بونداريفسكي عضو أكاديمية العلوم الاجتماعية الروسية وأشهر خبراء الشؤون الكويتية عثر عليه صريعًا في مسكنه جنوب شرقي العاصمة موسكو أمس عقب اعتداء قام به لصوص، وقالت مصادر الشرطة إن مجهولين داهموا منزل البروفيسور بونداريفسكي، ٨٣ عامًا، فأوسعوه ضربًا، وأصابوا رأسه بآلة «ثقيلة» مما أدى إلى فقدانه لوعيه حتى عثرت عليه ابنته وهو في غيبوبة تامة بعد أن أصابها القلق من جراء عدم رده على المكالمات التلفونية لساعات طويلة يوم الخميس الماضي، وكانت ابنته قد استدعت الشرطة والإسعاف التي سارعت إلى نقله إلى المستشفى الذي لفظ فيه أنفاسه الأخيرة متأثرًا بجراحه، وتقول مصادر الداخلية إن مجهولين كانوا قد اقتحموا مسكن البروفيسور لأسباب تعود في أغلب الظن إلى السرقة، حيث وجدت الشقة

---

(1) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٠/٥/٥م.

وقد تناثرت محتوياتها وأدراج مكتب البروفيسور الذي لمحت المصادر إلى أنه كان ميسور الحال بسبب استمراره في نشر العديد من الكتب حول تاريخ الكويت التي ركز في بعضه على تفنيد ما كان يسميه بالأكاذيب العراقية.

ويعد البروفيسور بونداريفسكي أحد أبرز المتخصصين في قضايا منطقة شرق آسيا ومستشارًا للحكومة الروسية للشؤون الإسلامية، وتقول مصادر الداخلية الروسية إن حادث مداهمة مساكن مشاهير العلماء من كبار السن ليس الأول من نوعه، حيث كشفت إحصائيات الوزارة عن أن الحادث الأخير هو الخامس من نوعه منذ يناير (كانون الثاني) الماضي».

كان الخبر الذي نشر في موسكو عن اغتيال بونداريفسكي في اليوم الثامن من شهر أغسطس خبرًا من أسوأ الأخبار تلقاه جميع عارفيه بصدمة كبيرة، ذلك لأنه كان رجلًا مليئًا بالعلم، عارفًا بكثير من أسرار التاريخ، ملمًّا بكثير من خفايا الوثائق ذات الصلة باهتماماته، إضافة إلى العلاقة القوية التي كانت تربطه بكثير من الناس على مستويات مختلفة من علماء وتلاميذ وباحثين ومهتمين بالوثائق وبحركة التاريخ، وكان مارك بوردمان من أصدقائه المهتمين بالاهتمامات نفسها وقد حرص على أن يعبر بهذه المناسبة عن كل ما يجيش بخاطره حيال صاحبه فكتب مقالة جاء فيها مع تصرف شديد حتى لا يضيق بنا المكان، يقول بوردمان:

«لقد تأثرت كثيرًا عندما كنت أتحدث عن بونداريفسكي مع معارفه وأصدقائه فكان الجميع عندما أذكر اسمه يقولون: «لقد كان هذا الرجل معلمًا»، هؤلاء الناس قرأوا كتبه التي نشرت وعرفوا بُعد نظره وعن التزامه بأفكاره ونقلها للآخرين وعن استغراقه في العمل والإخلاص له، إن أعظم شرف يناله بونداريفسكي هو أن يتذكره الناس على هذا المنوال.

مقولة «لقد كان أستاذي» ترن بشدة في أذني خاصة عندما أذكر مقابلة في آذار سبتمبر ١٩٩٠م في لندن مع زميلي ميشيل ليبج، ولقد اتصلنا به على أساس إجراء مقابلة معه حول مقالة في «الجاردين اللندنية» حيث قال عن قلة المعلومات الموجودة لدى وحدة المعلومات اللندنية وعدم علمها بالهجوم العراقي الذي تم ضد الكويت في ٢ أغسطس ١٩٩٠م وقال: إن هناك غرابة حول هذا الموضوع وهو غير متوقع من قبل هذه الوكالات التي تعلم كل شيء تقريبًا وعدم إعلان المعرفة بهذا الوضع أمر لا يمكن تفسيره.

وخلال المقابلة معه في فندق كينسغتون، أخذنا إلى عالم أبعد ما يكون عن الصراع الكويتي- العراقي المعقد، وكان لديه الكثير مما يقوله عن هذا الصراع، وكان من الواضح أنه يقوم بتقديم المشورة والنصح إلى الحكومة الروسية ومن المحتمل كذلك الحكومات الأخرى حول ما يجب القيام به، ولكن آراءه حول هذه المشكلة كانت على الدوام هنا وهناك مع كثير من التساؤلات حول تاريخ العراق وتاريخ الخليج، مع كثير من الروايات التي تحكي عن خبرته بهذا الموضوع، وقد ذهلنا من كثرة هذه المعلومات وأصبحنا طوال الـ١٣ عامًا التي تلت هذه المقابلة نقول: «البروفسور- أستاذنا».

من ناحية أخرى كنا نتساءل «كيف يعلم هذا الرجل، وخلال هذه المناقشة التي امتدت لعدة ساعات كنا نستلقي من الضحك بين آن وآخر، لقد كان البروفسور يلقي علينا بأسلوب ساخر حاد مشواره حول التاريخ، لقد درس وقابل الملوك والحكام في وسط آسيا وأقاليم أخرى، وعاصر ستالين، وسقوط الدكتاتورية، وبعد ذلك سقوط نظام بأكمله - الاتحاد السوفيتي - لقد كان المرح والسخرية أمرين متلازمين في حياته، بوصفه رجلًا ومفكرًا، لقد كانا عاملين مهمين لا ينفصلان يشكلان أسلوبه في توصيل الأفكار.

ويتذكر أعضاء منظمة EIR وآخرون من حركة لاروش في أوروبا- يتذكرون بشغف البروفسور بونداريفسكي بوصفه استاذًا، فقد زار مقرهم في فسبادن، في أوائل التسعينيات ولقد كان أمرًا لا ينسى وهم يواجهون أ.د. بونداريفسكي ورؤياه التاريخية العميقة وحرصه الجم ولمدة ١٣ عامًا كان «حاضرًا على الدوام في أذهاننا وفي عملنا الذي لا يضاهيه عمل استثنائي».

وفي اليوم الرابع عشر من شهر أغسطس وصفته الـ EIR بأنه ذو عقل عبقري، وله توجهات آسيوية، شخصية ذات نوع خاص، نوع جديد من الوطنية والمواطنة بدأت تظهر في روسيا - «أنه صورة مصغرة - مثال - للعمل».

في أواخر أشهر حياته كان إخلاصه لأمته ملازمًا لآلامه وجهوده، إن روسيا في السنوات الحالية أصبحت الحياة فيها صعبة وقاسية، وتحتاج إلى مجهودات وماديات من الصعب الحصول عليها، خاصة للأكاديميين- إن عقول الأمة الروسية التي كانت في السنوات السابقة تعامل بقدر كبير من الاحترام والتشريف أخذت تتعثر الآن وتكافح لتعيش.

كان بونداريفسكي يعاني من مشاكل صحية - وكانت زوجته الحبيبة - البالغة من العمر ٦٢ عامًا - تعاني من المرض في السنوات الأخيرة - وتضاعف مرضها بسبب انهيار الأمن في مجمع سكنها الذي كانا يعيشان فيه في موسكو والذي كان أحد عوامل اغتياله، وتوفيت زوجته في أبريل عام ٢٠٠٣ مما سبب له انهيارًا عاطفيًّا شديدًا كانت مساعدته المخلصة، أثناء كتاباته المستمرة وكان يقول دائمًا بفخر «طوال حياتنا الزوجية لم نتشاجر على الإطلاق».

بعد وفاة زوجته، استمر بونداريفسكي يعمل عدة ساعات كل يوم، يدرس ويقرأ ويتابع ويوجه الأحداث العالمية، وكان يقوم بالتدريس كذلك، وفي اللحظة التي تم اغتياله فيها كان يعد بحثًا للحكومة الروسية، حول «روسيا والقوقاز» كما

مقولة «لقد كان أستاذي» ترن بشدة في أذني خاصة عندما أذكر مقابلة في آذار سبتمبر ١٩٩٠م في لندن مع زميلي ميشيل ليبج، ولقد اتصلنا به على أساس إجراء مقابلة معه حول مقالة في «الجاردين اللندنية» حيث قال عن قلة المعلومات الموجودة لدى وحدة المعلومات اللندنية وعدم علمها بالهجوم العراقي الذي تم ضد الكويت في ٢ أغسطس ١٩٩٠م وقال: إن هناك غرابة حول هذا الموضوع وهو غير متوقع من قبل هذه الوكالات التي تعلم كل شيء تقريبًا وعدم إعلان المعرفة بهذا الوضع أمر لا يمكن تفسيره.

وخلال المقابلة معه في فندق كينسغتون، أخذنا إلى عالم أبعد ما يكون عن الصراع الكويتي- العراقي المعقد، وكان لديه الكثير مما يقوله عن هذا الصراع، وكان من الواضح أنه يقوم بتقديم المشورة والنصح إلى الحكومة الروسية ومن المحتمل كذلك الحكومات الأخرى حول ما يجب القيام به، ولكن آراءه حول هذه المشكلة كانت على الدوام هنا وهناك مع كثير من التساؤلات حول تاريخ العراق وتاريخ الخليج، مع كثير من الروايات التي تحكي عن خبرته بهذا الموضوع، وقد ذهلنا من كثرة هذه المعلومات وأصبحنا طوال الـ١٣ عامًا التي تلت هذه المقابلة نقول: «البروفسور- أستاذنا».

من ناحية أخرى كنا نتساءل «كيف يعلم هذا الرجل، وخلال هذه المناقشة التي امتدت لعدة ساعات كنا نستلقي من الضحك بين آن وآخر، لقد كان البروفسور يلقي علينا بأسلوب ساخر حاد مشواره حول التاريخ، لقد درس وقابل الملوك والحكام في وسط آسيا وأقاليم أخرى، وعاصر ستالين، وسقوط الدكتاتورية، وبعد ذلك سقوط نظام بأكمله - الاتحاد السوفيتي - لقد كان المرح والسخرية أمرين متلازمين في حياته، بوصفه رجلًا ومفكرًا، لقد كانا عاملين مهمين لا ينفصلان يشكلان أسلوبه في توصيل الأفكار.

ويتذكر أعضاء منظمة EIR وآخرون من حركة لاروش في أوروبا- يتذكرون بشغف البروفسور بونداريفسكي بوصفه استاذًا، فقد زار مقرهم في فسبادن، في أوائل التسعينيات ولقد كان أمرًا لا ينسى وهم يواجهون أ.د.بونداريفسكي ورؤياه التاريخية العميقة وحرصه الجم ولمدة ١٣ عامًا كان «حاضرًا على الدوام في أذهاننا وفي عملنا الذي لا يضاهيه عمل استثنائي».

وفي اليوم الرابع عشر من شهر أغسطس وصفته الـ EIR بأنه ذو عقل عبقري، وله توجهات آسيوية، شخصية ذات نوع خاص، نوع جديد من الوطنية والمواطنة بدأت تظهر في روسيا - «أنه صورة مصغرة - مثال - للعمل».

في أواخر أشهر حياته كان إخلاصه لأمته ملازمًا لآلامه وجهوده، إن روسيا في السنوات الحالية أصبحت الحياة فيها صعبة وقاسية، وتحتاج إلى مجهودات وماديات من الصعب الحصول عليها، خاصة للأكاديميين- إن عقول الأمة الروسية التي كانت في السنوات السابقة تعامل بقدر كبير من الاحترام والتشريف أخذت تتعثر الآن وتكافح لتعيش.

كان بونداريفسكي يعاني من مشاكل صحية - وكانت زوجته الحبيبة - البالغة من العمر ٦٣ عامًا - تعاني من المرض في السنوات الأخيرة - وتضاعف مرضها بسبب انهيار الأمن في مجمع سكنها الذي كانا يعيشان فيه في موسكو والذي كان أحد عوامل اغتياله، وتوفيت زوجته في أبريل عام ٢٠٠٣ مما سبب له انهيارًا عاطفيًّا شديدًا كانت مساعدته المخلصة، أثناء كتاباته المستمرة وكان يقول دائمًا بفخر «طوال حياتنا الزوجية لم نتشاجر على الإطلاق».

بعد وفاة زوجته، استمر بونداريفسكي يعمل عدة ساعات كل يوم، يدرس ويقرأ ويتابع ويوجه الأحداث العالمية، وكان يقوم بالتدريس كذلك، وفي اللحظة التي تم اغتياله فيها كان يعد بحثًا للحكومة الروسية، حول «روسيا والقوقاز» كما

أجرت معه EIR مقابلة عن «الخلفية التاريخية للأزمة الحالية في العراق» والتي كان يؤجلها عدة مرات لانشغاله بأمور أخرى مهمة، وبعد موته قال أحد زملائه: «يا ليت بعضًا من زملائي الشبان يعملون بجد كما كان يفعل هو».

أما أعمال بونداريفسكي المتنوعة ومدى إخلاصه في أدائه لها فيذكر أنه بدأ العمل في وسط آسيا وإيران والخليج خلال الحرب العالمية الثانية وفي عام ١٩٤٢، ساعد في إعداد مؤتمر طهران وفي عام ١٩٤٥ أصبح وكيل وزير الخارجية لمقاطعة أوزبكستان وهذه المقاطعة - بالإضافة إلى الهند - أصبحت مركز اهتماماته وأعماله التاريخية خلال ٦ عقود.

كان يحب الهند حبًّا جمًّا «لقد كانت الهند في يوم من الأيام درة التاج البريطاني»، أما بالنسبة إلي فإن الهند «لؤلؤة قلبي» وتسلم جائزة جواهر لآل نهرو الدولية وعام ٢٠٠٠ استقبله الرئيس Nara ya nan في مقره الرسمي ليحصل على أحد أعلى الأوسمة الهندية - ميدالية Padma shri - وزير المالية الهندي السابق في حكومة إنديرا غاندي - وأحد أعضاء حزب المؤتمر الهندي، لقد كان بونداريفسكي أحد العلماء القلائل في المنطقة الذين يهتمون بالهند، وقد فهم تمامًا أسلوب الهند في التعامل مع المشكلات، وعرف حضارتها، وأسلوبها السلمي والبعد عن العنف، ودور حزب المؤتمر، لقد كان كثير من الأكاديميين غير ثابتين في آرائهم حول الهند.. لقد ظل يقدر الهند ولا يغير آراءه تجاهها لسنوات كثيرة.

وعند موته أرسلت حكومة الهند التعازي لأسرته وامتدحت «ابن روسيا العظيم» وأكدت أن حكومة الهند قد حزنت وستحزن لوفاته.

ولعدة سنوات عمل بونداريفسكي مع معهد أكاديمية العلوم الشرقية السوفيتي، وأصبح عميدًا لمعهد أورينتال في جامعة وسط آسيا في طشقند وخدم مستشارًا للشؤون الشرقية لأكثر من ٦ سنوات، وللحكومة السوفيتية لمدة ٦ عقود، وأصبح

عضوًا في معهد الأكاديمية الروسية للعلوم للدراسات الاجتماعية والسياسية، وتم انتخابه للأكاديمية الروسية للعلوم الاجتماعية عام ١٩٩٥، ألف ٢٧ كتابًا ومذكرة، وكثيرًا من الموضوعات كانت تدور حول وسط وجنوب آسيا، وعن القوقاز والخليج، وعن السياسة الاستعمارية البريطانية في الشرق الأدنى والأوسط وعن مشروع سكة حديد بغداد - برلين.

ومما ذكرنا نستدل على أن الرجل عاش حياة حافلة لم يتوقف خلالها عن العمل حتى وهو يستقبل القاتل الذي أودى بحياته وحرمنا من كل ما كان يمثله من علم وإدراك لكثير من القضايا السياسية التي كان يعتمد في التعرف عليها من خلال قراءاته ووثائقه.

وفي الكويت الوطن الذي أحس بقيمة هذا الرجل نشرت مجلة «رسالة الكويت» التي يصدرها مركز البحوث والدراسات الكويتية مقالًا أبّنته فيه، وذكرت بعض ما امتاز به من قدرات وبينت أنه كان صديقًا مخلصًا ووفيًّا وذكرت أن الكويت فقدت بموته صديقًا باحثًا عن الحقيقة في جميع وثائق الأرشيف الروسي، ومدافعًا عن حق الكويت في حريتها واستقلالها.

ولذا فإننا سوف لا ننسى هذا الرجل ولا الذي قدمه من أعمال.

اسم الكتاب الذي ألفه بونداريفسكي عن الكويت، هو: «الكويت وعلاقاتها الدولية، خلال القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين «ترجمة الدكتور ماهر سلامة، وطبع في الكويت سنة ١٩٩٤م، ونشره مركز البحوث والدراسات الكويتية، وهو من أهم الأعمال التي قام بها هذا المركز النشط الذي أمد كافة المهتمين بكثير من الكتب والمنشورات المهمة المتعلقة بتاريخ الكويت وبتراثها. وقد بدأت النسخة العربية بتصدير كتبه أخي الأستاذ الدكتور عبدالله يوسف الغنيم رئيس المركز، كان مما جاء فيه قوله: «يقدم المركز هذا الكتاب ضمن إصداراته وهو يعبر عن

آراء مؤلفه ورؤيته الذاتية وتفسيره للوثائق والأحداث التاريخية ودلالاتها إيمانًا بأن دور المركز الذي أناطه به مرسوم إنشائه في العمل على أن يكون مصدرًا وطنيًا لتاريخ الكويت يقتضي أن نتيح للباحثين فرصة الاطلاع على كل الوثائق والآراء على اختلاف توجهاتها ورؤيتها ومنطلقاتها واثقين في يقين بأن حق هذا الوطن وحريته واستقلاله، وصموده وثباته على مدى رحلة تاريخه هو في النهاية الحقيقة الصادقة التي تنتهي إليها كل الأدلة الموضوعية المتجردة».

والكتاب مترجم عن الروسية بأسلوب راق، لكنه سهل التناول بحيث يستمتع القارئ بقراءته، ويستمر فيها متتبعًا كل ما أورده بونداريفسكي من معلومات تاريخية ومن مقارنات بين الأقوال المتعددة في مجال تاريخ الكويت وتاريخ المنطقة المحيطة بها بأجملها.

بعد انتهاء التصدير تأتي مقدمة المؤلف، وهي مقدمة ضافية تضم الكثير من المعلومات المهمة، وتمهد لكل ما جاء في الكتاب بعدها، وقد جاء في ختامها قوله: «ولابد من التنويه أخيرًا إلى أن هذه الوثائق والتقارير المحفوظة في الأرشيفات الروسية، وكذلك الوثائق المذكورة عاليه من أرشيفات ألمانيا والهند وبريطانيا، مع الكثير من الأبحاث العلمية والمذكرات ومحاضر المناقشات البرلمانية، وأهم المقالات المنشورة في الصحافة الأوروبية والمصرية والهندية قد وجدت طرقها إلى هذا البحث، واستخدمها المؤلف - كما سيتبين القارئ من فصول الكتاب - التدليل على العبقرية الدبلوماسية الكبيرة لمبارك الصباح، علمًا بأن كل هذه الوثائق والتقارير تثبت بأن الكويت في حدودها الراهنة لم تكن أبدًا في أي وقت من الأوقات جزءًا من ولاية البصرة».

بعد ذلك يأتي دور نص الكتاب الذي يتكون من خمس صفحات وخمسمائة صفحة، وينقسم إلى ثلاثة عشر فصلًا، تلحق بها مجموعة من الوثائق، كما يضم عددًا من الصور الوثائقية المهمة ذات الصلة بعلاقات الكويت بروسيا على الأخص.

تحتوي الفصول على موضوعات متعددة تبدأ بالحديث عن نشأة الكويت تاريخيًا، ثم الحديث عن علاقات الكويت الدولية والسياسة الاستعمارية على مشارف القرن العشرين. ثم الكويت والجزيرة العربية في الفترة ذاتها، وعلاقات الكويت بروسيا، وأزمة الكويت في سنة ١٩٠١م ويقصد بها ما حدث في أعقاب حرب الصريف وقد استغرق هذا الموضوع عددًا كبيرًا من الصفحات تبدأ من ص ٢٢٥، وتنتهي عند صفحة ٢٦٦، وفي الفصول اللاحقة تحدث عن مجريات الأحداث في المنطقة حديثًا مفصلًا ومهمًا، إلى أن جاء إلى الفصل الثاني عشر فتحدث فيه عن زيارة اللورد كيرزون للخليج والكويت، وذكر كيف أن هذا المسؤول البريطاني الكبير (كان نائب الملك في الهند) عني بزيارة حدود الكويت الشمالية وهي زيارة لها مغزاها، وكان لها تأثيرها، وكان الفصل الأخير (الثالث عشر) عن الكويت وعلاقاتها الدولية في بداية القرن العشرين، ثم جاءت الخاتمة وكانت طويلة جدًا فهي عبارة عن الخلاصة التي خرج بها بونداريفسكي من بحثه الكبير هذا، وفيها بعض الأمور التي ينصح بالالتفات إليها ويكفي أن نشير إلى نقطتين تدلان على ذلك، وهما:

النقطة الأولى: قوله: «ومن الحقائق الواضحة المستخلصة من هذا الواقع المذكور عاليه أن الكويت لم ترضخ عمليًا في أي وقت من الأوقات لسيطرة الإمبراطورية العثمانية، ولم يحكمها أي والٍ تركي، ولم تحتلها أية قوات تركية».

والنقطة الثانية: هي قوله: «ومهما يكن من أمر، فإن تقييمنا لدور الكويت وعلاقاتها الدولية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين؛ يدفعنا للتأكيد مرة أخرى بأن هذا الدور لم ينل حقه وقسطه الوافي من الدراسة، وأن دور الكويت ومكانتها في السياسة الدولية في القرن العشرين لهما أكبر بكثير مما هو متعارف عليه حتى الآن، وهو ما ينطبق كاملًا - أيضًا - على خصوصيات وجوانب الفن الدبلوماسي

لمبارك الصباح، المؤسس الحقيقي لدولة الكويت والمناضل القوي الذي لم يمل أو يكل من أجل استقلالها وسلامة أراضيها».

والخلاصة أن هذا الكتاب مليء بالمعلومات المهمة عن تاريخ الكويت، ومفيد لكل من يرغب في التزود من المعرفة في هذا الخصوص. ولقد استفدت منه شخصيًا، وقرأته أكثر من مرة، وفي كل مرة ترسخ في ذهني الأفكار التي تضمنها، فاستدل على المراجع التي رجع إليها، وأجد في أسلوبه في استنباط المعلومات من مظانها ما يفيد ويحيي الذاكرة، بل ويمدها بزاد جديد. فالشكر كل الشكر للمؤلف وللمترجم، ثم لمركز البحوث والدراسات الكويتية الذي لم يبخل على هذا السفر المهم فأخرجه بأبهى صورة، ولاشك في أن ذلك راجع إلى رئيس المركز الأخ الأستاذ الدكتور عبدالله يوسف الغنيم الذي يعرف القيمة الحقيقية لإنتاج الباحث الروسي البروفيسير غيورغي بونداريفكسي.

****

ملحاق خير

تتبع بونداريفسكي نشاط الشيخ مبارك الصباح في كتابه الذي أشرنا إليه. وكان معجبًا بتصرفات الشيخ من حيث أنه كان حريصًا على مصالحه ومصالح بلاده، وهو يرى أن مبارك الصباح لم يدخر وسعًا في سبيل الاستقرار والأمان في الكويت حتى إذا وجد أن من المصلحة عقد الاتفاق مع بريطانيا فإنه لم يتردد في ذلك. ولقد أشار بونداريفسكي إلى مسألة من المسائل المهمة التي لعب مبارك فيها دورًا مهمًّا وخرج منها منتصرًا.

في سنة ١٩٠٧م كانت بريطانيا تفاوض الشيخ على استئجار قطعة أرض في منطقة الشويخ، وهي الأرض التي تحدثنا عنها منذ زمن في «الأزمنة والأمكنة» بجريدة «الوطن» وذكرنا أن الاتفاقية بشأنها قد انتهت في عهد الشيخ أحمد الجابر الصباح.

كان الكابتن ستيوارت جورج نوكس ممثل بريطانيا في الكويت منذ شهر أغسطس لسنة ١٩٠٤م حتى شهر أغسطس لسنة ١٩٠٩م، مكلفًا بإجراء المفاوضات الخاصة باستئجار الأرض المذكورة مع الشيخ مبارك الصباح وقد جرت هذه المفاوضات في السنة التي ذكرناها وهي سنة ١٩٠٧م، في جو شبه عاصف، وكان الشيخ كما يقول بونداريفسكي «حسب ما يستدل من الوثائق المتوافرة قد أجرى مفاوضات صعبة ومكثفة للغاية مع نوكس استمرت على مدى سنتين من الزمان، كان فيها مبارك متشددًا مستهدفًا الحصول على دعم شامل لكل مطالبه طارحًا

إلى جانب ذلك شروطًا مالية قاسية، إذ طلب مبلغًا يعادل ستين ألف ربية سنويًا، وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت اهتزت له الدوائر المالية البريطانية في لندن «ويبدو أن الأمر انتهى إلى الاتفاق على إيجار قدرته الخزانة البريطانية وهو في حدود نصف المبلغ الذي طلبه الشيخ أي ثلاثين ألف ربيه. وعلى الرغم من أن الشيخ قد عقد الاتفاق مع الجانب البريطاني وفق المبلغ الذي تحدد أخيرًا إلا أنه كان في أشد حالات الغضب لهذا الموقف المعبر عن البخل الشديد المتمكن من الطرف الآخر من طرفي الاتفاق، ولذا عزم على عمل شيء يحقق به ما يريد.

يقول بوندارفسكي أيضًا: «وكما يستعرض حاكم الكويت استياءه من بخل وشح الجانب البريطاني، قام في بداية شهر يولية لسنة ١٩٠٧م بقيادة حملة عسكرية إلى المحمرة لمساعدة حليفه القديم الشيخ خزعل في قمع تمرد إحدى قبائل عربستان، وقد تعمد الشيخ مبارك عدم اطلاع نوكس على تحركاته هذه، على الرغم من أن هذا التصرف العسكري منه وهو المرتبط بعلاقات خاصة مع بريطانيا، كان من الممكن أن يؤدي إلى صدام خطير بين إنجلترا وإيران نظرًا لوقوعه على أرض المحمرة التي تعتبرها إيران جزءًا منها على الرغم من وجود أميرها خزعل الذي كان يحكم بلاده بحرية تامة «ضجت السلطات البريطانية في الهند نتيجة لهذا الموقف وحاول نوكس أن ينبه الشيخ إلى مغبة هذا العمل غير المتفق عليه مع بريطانيا، ولكنه لم يجد أثرًا لكل محاولاته، بل وحتى في تهديده بسحب الممثل البريطاني من الكويت. ونتيجة لتشدد الشيخ مبارك الصباح في موقفه هذا وحرصه على أن يعمل ما يريد دون أن يعير البريطانيين أذنًا تسمع باعتباره يرد على ما كان يعتبره إهانة حين رفض هؤلاء المبلغ الذي قرره إيجارًا لأرض الشويخ، وقد قام حاكم الهند البريطاني (منتو) نتيجة لذلك بالطلب من المقيم السياسي في الخليج أن يفهم مرؤوسيه «أن مبارك لم يسبق له في أي وقت من الأوقات أن سلم سياساته الخارجية للسلطات الهندية «البريطانية» لتحكم

فيها أو تشرف عليها، فضلًا عن ذلك وجه نصيحة إلى نوكس بالتغاضي عن الأمر ومواصلة التفاوض مع الشيخ حول الاستئجار».

بعد هذا تم اتفاق التأجير بين الطرفين، وكان الموقف الذي اتخذه الشيخ مبارك الصباح سببًا في أن ينال مكاسب مهمة كان أهمها أن رضخ الجانب البريطاني فدفع له المبلغ الذي يريده وهو الذي كان يعترض على الستين ألفًا من الربيات التي أثار خفضها المشكلات أثناء المفاوضات، وترتبت على ذلك أمور أخرى مهمة منها موافقة مبارك على تأجير جزيرة وربة للبريطانيين إذا رغبوا في ذلك، وهذا مقصد من المقاصد المهمة التي اهتم بها الشيخ مبارك إذ لا يخفي أهمية هذه الجزيرة بالنسبة للكويت وحدودها وما دار حولها في ذلك الوقت (انظر كتابنا: الكويت تواجه الأطماع) ونص البند العاشر من اتفاقية التأجير والاستئجار على تعهد من الشيخ بعدم تحصيل ضرائب على السلع المملوكة لبريطانيين تزيد على نسبة ٤٪ من قيمتها، وهذا معناه موافقة الجانب البريطاني على مضاعفة الضريبة لأنها كانت قبل أن يتم هذا الاتفاق ٢٪ فقط.

هنا يجمل بندرايفسكي الأمر في الكلمات التالية: «واستخلاصًا مما سبق تؤكد الوثيقة الموقعة، من قبل الوكيل السياسي البريطاني في الكويت باسم حكومة بريطانيا بأن الباب العالي يعتبر دولة أجنبية، مما يدل على أن الكويت مستقلة عن الدولة العثمانية».

لقد كانت هذه هي نهاية جهود الشيخ مبارك الصباح علمًا بأن التأجير كان لغرض تجاري بحت، ولم تكن فيه شبهة عسكرية، وقد رأينا أن بريطانيا بدون طلب من الكويت هي التي تقدمت بطلب إلغائه في أيام حكم الشيخ أحمد الجابر الصباح، واستفادت الكويت من المباني التي أعدها البريطانيون، وبعضها استعمل محجرًا صحيًا عندما دعت الحاجة إلى ذلك.

من مغامرات الكولونيل ليشمان (١)

أعوّل في هذا المقال على كتاب واحد هو كتاب: «الكولونيل ليشمان والدرب الطويل إلى بغداد» الذي تم نشره في سنة ٢٠٠٩م، وعني بتأليفه الأستاذ أسعد الفارس الذي كان وما يزال مهتمًّا بتتبع أخبار الرحالة الذين يأتون من الغرب إلى البلدان العربية فيرصد نشاطهم، ثم يعرض على قرائه ملاحظاتهم ومشاهداتهم في الأماكن التي يحطون فيها رحالهم. وهذا الكتاب يتعلق برحلة طويلة قام بها رجل عجيب الأطوار، كان له شأن في المنطقة، وكان له حادث مستغرب في الكويت على جهة الخصوص.

ومما يلفت النظر أن الكتابات التي وردتنا عن ليشمان كثيرة فيها ما هو باللغة العربية وفيها ما هو باللغة الإنجليزية، وأكثرها عبارة عن فصول ضمن كتب. ولكننا نشير هنا إلى كتاب خاص به ألّفه هـ. ونستون تحت عنوان: «ليشمان: عابر الصحراء» يتحدث مؤلفه فيه عن حياة صاحبنا وعن مغامراته بصورة موسعة، ومع هذا المقال نقدم صورة غلاف هذا الكتاب.

كان الكولونيل جيرارد إيفلين ليشمان من قادة الجيش البريطاني، كان ضابطًا كبيرًا يتنقل من موضع إلى آخر في خدمة وطنه، وكان من العاملين في هذا الجيش إبّان الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م) ضمن عدد كبير من كبار الضباط، وقد اشتهر بالعنف، وقوة البأس حتى لقد جلب الأذى إلى كثير من مقاومي الاحتلال

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٠/٥/١٢م.

البريطاني من الوطنيين، فعزموا على أن يلحقوا به الأذى، ولو كان ذلك بقتله، وهذا ما حدث في شهر أغسطس لسنة ١٩٢٠م، فقد تم قتل هذا الرجل بيد أحد المناوئين الذين يحقدون عليه بسبب شدته عليهم، ولقد كان مقتله منتظرًا، وكان عدد من القادة والمسؤولين البريطانيين يتوقعه في أية لحظة، وذلك من واقع ملاحظاتهم للأحوال السائدة، ومعرفتهم بتصرفات ليشمان مع الأهالي.

وسوف تأتينا بعض التفصيلات عن مواجهته للأحداث عندما نتحدث عن دخوله إلى الكويت بصورة غير ملائمة، حيث نجده يتعرض إلى مشكلات ما كان أغناه عنها.

كان ليشمان - كما قلنا - مندفعًا شديد الاندفاع لا يكاد يفكر في عمل شيء من الأشياء حتى يبادر دون تردد إلى تنفيذه، مهما كلّفه ذلك من جهد، وكان لا يعبأ بالصعاب التي يواجهها ولا بأي اعتراض يأتيه من ممثلي حكومته، وبخاصة إذا كانت جهة الاعتراض عليه جهة غير الجهة التي يتبعها، وعلى سبيل المثال فإن عزمه على السفر داخل الجزيرة العربية، لم يكن أمرًا توافق عليه وزارة الخارجية البريطانية، وكانت تعارض في ذلك لأنه عمل يؤثر في خططها وعلاقاتها، ولكنه كان يريد أن يحقق رغبته هذه بأية صورة، مهما كانت قوة الاعتراض على مشروعه. ولقد كان يوم عزم على ذلك في الهند يؤدي خدمته هناك، فقدم إلى هذه المنطقة متخفيًا، وكان يحرص على أن يرد على منتقديه بأنه إنما يقوم بهذه الرحلات التي هي موضع الانتقاد في فترات إجازته، ولم يكن هذا الرد شافيًا، لأن المعروف أنه ضابط كبير في الجيش البريطاني، ولا يمكن أن يتخفّى.

في سنة ١٩١١م تلقى دعمًا ماليًا من والده يمكنه من تحقيق رغبته، فاستعد لذلك، وبدأ يخطط للوصول إلى مدينة الرياض عبر دولة الكويت، وقد اتخذ كافة الاحتياطات السرية حتى لا ينكشف أمره، لأنه يعتقد أن العثمانيين كانوا يراقبونه، ويريدون الإيقاع به.

وفيما عدا الحادث الذي أدّى إلى مقتله في مدينة الفلوجة سنة ١٩٢٠م، فإن الحادثة المتعلقة بسفره الذي أشرنا إليه هنا تعتبر من أهم ما مرّ عليه في حياته وسوف نقوم بسرد حكاية رحلته التي لم يصل فيها إلا إلى الكويت؛ وسوف نقوم - أيضًا - بعرض ملاحظاتنا على ما جرى له في بلادنا.

قلنا إنه استعد للرحلة، واتخذ كافة الوسائل للبدء بها، منذ جاء من الهند إلى البصرة التي وصلها في اليوم الحادي عشر من شهر نوفمبر لسنة ١٩١١م، وقد اتصل بأصدقائه القدامى وسهر معهم مساء اليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر، وفي صباح اليوم التالي الذي أمضى سهرته في ليلته انقطعت أخباره، ولم يعرف عنه أي شيء إلى حين.

حاول في هذه الأثناء أن يسير في طريقه مع مجموعة من الناس وعدوه بنقله إلى الرياض عن طريق الكويت، ولكنه لم يعثر عليهم، ولم يكن المقيم السياسي البريطاني في الكويت - آنذاك - على استعداد لعمل أي شيء لصالح ليشمان، لأنه يعرف موقف وزارة الخارجية منه ومن رحلته.

لذا لم يجد هذا الرجل سبيلًا إلى تحقيق رغبته الملحّة إلا عن هذا الطريق الذي وصفه الكتاب ونحن ننقله هنا بنصه:

«انطلق متنكرًا مع مجموعة من الرعاع والدراويش في السادس عشر من تشرين الثاني (ديسمبر) عام ١٩١١م، إلى داخل الأراضي الكويتية. وقد أخفى هويته وتنكر في شخصية تاجر متجول يبيع الحلي الشرقية الرخيصة، كانت الجماعة وكأنها من الدراويش الذين كانوا يلتفون حول سيد طالب النقيب في البصرة (يسترزقون من ورائه) وعندما اقتربوا من مدينة الكويت كان فداوية الشيخ مبارك الصباح بانتظارهم، فألقوا القبض عليهم، وجمعوهم في الواجهة البحرية أمام القصر، وهناك ضُربوا وسحلوا على الرمال، فنال ليشمان نصيبه معهم في

التوبيخ والجلد بالسياط، فالشيخ مبارك الصباح كان لا يتسامح مع من يتسلل إلى بلاده بدون إذن رسمي، قال ليشمان: «تم احتجازي وتوبيخي أمام الشيخ مبارك الصباح الذي كان عنيفًا فأمر بإعادتي إلى البصرة». عاد ليشمان إلى البصرة مذلولًا مخذولًا، وهو يظن بأن سيد طالب النقيب كان قد وشى به عند الشيخ مبارك الصباح، وأن الشيخ مبارك كان يعرفه تمام المعرفة، وتجاهل معرفته عندما كان يضرب أمام القصر، حتى رجال المقيمية البريطانية في الكويت يبدو أنهم تجاهلوا ما حدث له، لأن ليشمان أخذ يتمرد على القيادة، ويسافر بدون علم ولا تنسيق مع القيادات العليا، ومن يفعل ذلك فهذا جزاؤه، سافر ليشمان إلى الهند بدون ضجة إعلامية، لأنه كان يتستر على ما حصل له، عاد ليخدم في كتيبته التي كانت ترابط على الحدود الشمالية الغربية من الهند، وليحضر أيام عيد الميلاد لعام ١٩١٢م هناك لينسى مصابه في الكويت، فبقي هناك ثلاثة أشهر من العام الجديد في دورة تدريبية؛ ليرتقي إلى رتبة نقيب في الجيش البريطاني. لما نجح في الامتحان رقي في تلك الرتبة وعمره لا يتجاوز الثانية والثلاثين، وبعد الدورة والترقية منح إجازة طويلة قرر أن يقضيها في بريطانيا، فأبحر في نيسان (أبريل) في طريقه إلى بلاده، ليقضي خمسة أو ستة أشهر من الإجازة في وطنه، وكانت مدة كافية لينعم بالراحة، وليبتل من أثر السياط على جلده في الكويت، فالضرب الذي تعرض له على أيدي فداوية الشيخ مبارك الصباح لم يكن لينسى بسهولة. روى ليشمان فيما بعد تلك الحادثة فقال: إن الشيخ مبارك الصباح رحمه الله كان يتقن فن السياسة، ويملك مهارة في التعامل مع الأعداء والأصدقاء في آن واحد، وأنه كان على دراية بكل ما يدور حوله في المنطقة».

هذا وإن من المهم هنا أن نعرض بعض ما نستطيع أن نكتشفه عن أوضاع الكويت، وعن قيادة الشيخ مبارك الصباح لها سنة ١٩١١م، وهي سنة الحادثة التي وردت أعلاه.

كان الشيخ مبارك متنبهًا لكل حادث يحدث في الوطن، وكانت حمايته للكويت لا تتيح الفرصة لأي عابث، ولشدة حرصه على ذلك فإنه عندما اقترح عليه أحدهم إنشاء سور حول الكويت قال: أنا السور، وهو - بالفعل - كان يقوم مقام السور، يحمي البلاد ويدرأ عنها كل ضرر.

الشيخ مبارك كان يعرف هذا الرجل الذي أمسك به جنوده، وضربوه ضربًا مبرحًا، وذلك لأنه نقم عليه دخوله إلى البلاد بهذه الصورة التي تدل على الاستهانة بالبلاد وأميرها، بحيث لم تكن هناك فرصة للمقيم السياسي البريطاني في الكويت شكسبير لكي يقف معه، ويتمنى على الشيخ عدم ضربه لأن المقيم السياسي يعرف أن ليشمان قد ارتكب خطأً فاحشًا بحق الكويت وأميرها.

وقد أقرّ هذا الشخص بأنه أخطأ في فعلته تلك، وقد اتضح سبب عزوف رجال المقيمية البريطانية في الكويت عن مساعدته فيما تقدم إضافة إلى أن محادثتهم في هذا الشأن مع الشيخ مبارك سوف لا يكون لها أثر في كف الجلد عنه لأن غضب الشيخ كان شديدًا ولأن التعدّي الذي قام به ليشمان لا يُغتفر.

ثم إن الصفات التي أطلقها هذا الشخص، وذكر فيها أن الشيخ كان سياسيًا ماهرًا في التعامل مع الأصدقاء والأعداء على حد سواء. وكان على دراية بما يدور حوله، وهذه الصفة الأخيرة هي أهم ما كان يُميّز الشيخ.

وقد سبق أن أشرنا إلى أنه كان يعرف كل ما يدور حوله، بل إن المعلومات المتعلقة به وبوطنه تأتيه حتى ولو كان مصدرها عاصمة الدولة العثمانية، أما حادث ليشمان فلم يكن الأول والأخير فقد كان اللصوص والمتسللون إلى الكويت يفاجؤون بمن يأتي ليلقي القبض عليهم ثم يقوم بتسليمهم إلى الشيخ لكي ينالوا جزاءهم والحوادث في هذا الشأن كثيرة ولذا عاشت الكويت في ظله آمنة مطمئنة.

ففيما يتعلق بمعرفة الشيخ مبارك بكل ما يدور في المنطقة قال مقبل الذكير في كتابه «مطالع السعود» ما يعتبر شهادة للشيخ فيما يخص هذا الأمر، فقد قال: «... مبارك الصباح الذي له شبه دائرة استخبارات في العراق، بل وفي دوائر الحكومة العثمانية نفسها» وفي مجال آخر؛ وجدنا شهادة في حق مبارك تقول: «إن مخابرات مبارك الخاصة كانت الأولى في الجزيرة العربية، فلم يكن هناك ما يمكن إخفاؤه عنه».

وفيما يتعلق بحاميته الكويت من المتسللين واللصوص فقد أورد لنا الأستاذ عبدالله خالد الحاتم في كتابه «من هنا بدأت الكويت» رواية عجيبة عن حادث تم في أيام الشيخ مبارك الصباح. وقد ذكر الحاتم في ص ٣٧٣ من كتابه تحت عنوان: «رهان خاسر على السرقة» وهذه الرواية لها أهميتها من حيث إنها تدل على اهتمام الشيخ بكل ما يتعلق بالأمن في البلاد، وهي تدل أيضًا على طريقته في اقتفاء آثار المخربين، حتى لقد صار مضرب المثل وموضع الرهان.

لم تكن هذه نهاية المطاف بالنسبة لهذا الإنسان المغامر، فقد عاش سنة ١٩٢٠م، وهو على هذا المنوال، لا يكف عن المغامرة، ولا تنتهي الأعمال التي يقوم بها باندفاعه ولو أردنا أن نتسع في ذكر كلّ ذلك لاحتجنا إلى مجال أوسع ولكننا نكتفي - فقط - بما يتعلق من ذلك بالكويت وحدها، وهو ما اقتطفناه من الكتاب المذكور، وقدمناه هنا قبل قليل.

ولم يكن ليشمان هو المغامر الوحيد، بل إن المغامرين الأجانب الذين تُلحُّ عليهم الرغبة في اكتشاف الآفاق العربية كثيرون، والكتب التي تناولت سيرتهم موجودة بلغاتهم ولم يُترجم منها إلى العربية إلا القليل، ولكن صاحبنا (ليشمان) كان أكثر هؤلاء المغامرين شهرة، وكان أشدهم إقدامًا وحرصًا على تحقيق رغباته في اكتشاف المجهول على الرغم من أن ذلك يكلفه غاليًا من جهده وماله الذي يحصل

عليه من تبرعات والده فحسب، على الرغم من أن رؤساءه كانوا غير مقتنعين بهذه المغامرات ولا يحبذونها، بل كانوا يريدون منه أن يتقيد بالنظم المفروضة عليه من المؤسسة العسكرية التي يتبعها.

ذكرت المس بيل في كتاب «فصول من تاريخ العراق القريب» وهو كتاب يبحث في تاريخ العراق في عهد الاحتلال البريطاني بين سنتي ١٩١٤م و١٩٢٠م، أنه في سنة ١٩١٨م استقرت الأمور لبريطانيا في الموصل بعد أن احتلتها وتولى ليشمان عمله بها بصفته أول حاكم سياسي بريطاني لهذه المنطقة.

وعند هذه الفقرة من الكتاب علق مترجمه جعفر الخياط في ص ١٥٣ إيضاحًا لمقتل ليشمان بقوله: «إن العقيد جيرارد أي ليشمان قتله في اليوم الرابع عشر من شهر أغسطس لسنة ١٩٢٠م الشيخ ضاري المحمود وذكر المترجم أيضًا أنه ينقل عن أرنولد ويلسون الذي ذكر في كتابه شيئًا عن تسلُّم البريطانيين للموصل من الأتراك فقال: «وقد عين العقيد ليشمان حاكمًا عسكريًّا وحاكمًا سياسيًّا فيها في الوقت نفسه، فتسلم مقاليد الأمور في الحال من القاضي، ولم يستخدم نشاطه الجاد، وقوة دفعه للأمور بمثل ما استخدمها إلى أقصى حد ممكن في تلك الآونة».

ونعود هنا إلى ما كان ينبغي أن نبدأ به أولًا وهو الحديث عن سيرة صاحبنا الذاتية، لكننا أخرنا ذلك إلى هنا بسبب أهمية ما تقدم. ومن هنا نبدأ في الحديث عن حياته:

كان ليشمان فردًا من أفراد أسرة مستقرة، وكان والده طبيبًا محبوبًا في المنطقة التي تعيش فيها الأسرة لما يقوم به من خدمات للناس. وكان جيرارد هو سادس مواليد هذه الأسرة، وقد نشأ مدللًا لأنه ولد بعد وفاة أخويه الذكرين ولم يبق غير البنات. ولكثرة ما كانت الأسرة تهتم به، فقد كره هذا الاهتمام، وأورثه ذلك رغبة في الانعزال، وميلًا إلى العنف والاضطراب.

بدأ دراسته في مدرسة خاصة عندما كان في السابعة من عمره، وانتقل في سنة ١٨٩٣م إلى مدرسة أخرى بجوار مسكن أسرته، وكانت من المدارس الجيدة التي تقدم خدمة تربوية وثقافية لا بأس بها. وبناءً على تشجيع أحد معلميه اتجه إلى التعليم العسكري، فدخل كلية ساند هيرست وأكمل الدراسة فيها في سنة ١٨٩٩م وكان في التاسعة عشرة من عمره. وقد بقي طوال فترة دراسته في هذه الكلية على ما كان عليه في البيت من حب الانعزال والميل إلى التفكير والتأمل. على الرغم من أنه كان مجتهدًا وبارزًا في دراسته بها. ولقد كان لكل ذلك أثره في حياة هذا الإنسان مما انطبع على سلوكه أثناء العمل الذي كُلِّف به في السلك العسكري كما هو واضح من سيرته التي عرضناها عرضًا متناسقًا مع سير الأحداث في هذا المقال بحيث تم تناول كافة الجوانب.

بقي أن نقول كلمة لا بد من ذكرها فيما يتعلق باسمه، ذلك أن الاسم الذي ارتضاه مؤلف الكتاب هو ليشمان وقد أثبتناه هنا وحرصنا عليه لدرجة أننا غيرنا ما وجدناه في مصادر أخرى لكي يتناسب مع ما جاء في عنوان هذا الكتاب، ولكن هذا الاسم يرد في تلك المصادر (ليجمن) بالجيم العادية أو بجيم تحتها ثلاث نقاط، ويطلق عليه عند العامة اسم: نجيمان.

لا يسعني في الختام إلا أن أشكر الأخ الأستاذ أسعد الفارس الذي أهدى إليّ كتابه الذي تحدثت عنه في هذا المقال، فقد كان كتابًا مفيدًا يشرح الأحداث التي جرت في منطقتنا خلال حقبة حساسة كانت من أهم الحقب التي مرت علينا. وعلى الرغم من أنني راجعت بعض المصادر حول هذا الموضوع إلا أن المعول كان على هذا الكتاب القيم.

****

ملحاق خير

هذه ملاحظة أود الإشارة إليها على هامش حديث السيد محمود أبو غزالة لإحدى صحفنا البارزة وهي جريدة «القبس» ذلك لأنني أتتبع دائمًا ما له علاقة بالأحداث التي تمر بالبلاد حتى أعود بالقارئ إلى الصواب، وبخاصة وأن الموضوع الذي أشير إليه هنا لا يعتبر قديمًا في ميزان التاريخ وقد عشت جانبًا من الزمن الذي جرى فيه وأنا تلميذ صغير في المدرسة الأحمدية ثم مدرسة المثنى.

يقول: إنه عمل في سلك التدريس في العام الدراسي ١٩٥٠ - ١٩٥١م وأنه لاحظ أن عددًا من الطلاب كان يصاب بالإغماء، وبعد البحث علم أنهم لا يتناولون فطورًا سوى كوب من الشاي وقطعة من الخبز، وأنه استغرب هو وزملاؤه المدروسون هذه الظاهرة وقرروا هم والناظر أن يرفعوا توصية إلى إدارة المعارف بالسماح بطهو حساء العدس في المدرسة بغية التغذية، يقول: وسارعت إدارة المعارف بقبول الفكرة، وجرى تكليف بواب المدرسة بالطهو وقدمت الخدمة في المدارس الأخرى.

والحقيقة أن فكرة التغذية نشأت لدى مجلس المعارف منذ سنة ١٩٤٨م وتابع تنفيذها إلى أن ظهرت إلى حيز الوجود، وكانت بدايتها في مدرسة المثنى ثم مدرسة النجاح لا المدرسة المباركية ومنهما تم التعميم في المدارس الأخرى وكانت تلك البداية في شهر ديسمبر لسنة ١٩٥٠م، ومن المؤكد أن ما يدّعي به السيد أبوغزالة لم يتم في ذلك الوقت إلا إذا كان قد كتب إلى دائرة المعارف بذلك قبل

التحاقه، بالعمل بالمدرسة، فالتجربة لم تبدأ في يوم واحد، بل إنه من المؤكد أنها خضعت إلى استعدادات وتحضيرات تسبق تاريخ البدء.

ولتأكيد ما ذكرت أنقل هنا فقرة من فقرات كتاب «موسوعة التعليم في الكويت» التي صدرت بمجهود مشترك من وزارة التربية ومؤسسة التقدم العلمي ومركز البحوث والدراسات الكويتية، وقامت بها لجنة عالية المستوى. وهذه الفقرة تقول: «وقد نظر مجلس المعارف لأول مرة في هذا الأمر عام ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨م)، في أواخرها، ولكن عدم توافر الإمكانيات حال دون اتخاذ قرار في الموضوع لمدة سنة وبعض السنة ، ودرس طبيب المعارف خلال ذلك هذا الأمر في ضوء ما أفادت به الدراسات الميدانية بين طلاب مدارس الكويت. وهكذا قرّر مجلس المعارف في ٧ من صفر ١٣٧٠هـ (١٩٥٠/١/١٧م) وبعد أن وصلت ميزانية المعارف إلى مستوى تحمل هذا العبء (قرابة خمسة ملايين ربية) تقديم كأس من حساء العدس ضحى كل يوم لكل طالب. بدأ ذلك في مدرسة المثنى ثم مدرسة النجاح ثم أعاد مجلس المعارف النظر في التغذية في ٩ من صفر ١٣٧٠هـ (١٩٥٠/١٢/١٩م) بعد أن كان طبيب المعارف قد قام بتعيين نوع الغذاء اللازم للطلاب، فجرى تعديل الوجبة الغذائية بحيث صار يقدم فيها مع الحساء العدس والبطاطس اعتبارًا من العام الدراسي ١٩٥١- ١٩٥٢م».

أذكر هذا لأنني أريد أن يعرف أبناء الكويت هذه الحقيقة حتى لا يدعي أحد بأي فضل عليهم في عمل من الأعمال التي نتجت عن جهود الرجال الذين كانوا يديرون كافة الأعمال من الكويتيين.

****

العلامة شاكر الفحام في الكويت (١)

لهذا الرجل مكانة كبيرة في الأدب واللغة، وفي ميادين العمل المختلفة التي قام بها بناءً على تكليف من بلاده.

عرفته في منزل شيخي الأستاذ محمود محمد شاكر، وكان قد جاء من أجل التحضير لشهادته العليا. وقد احتضنه الشيخ، وخصص له مكتبًا بين كتبه، وأصبحنا نراه جالسًا إلى هذا المكتب بصورة مستمرة، يقرأ ويدون ويصحح، ولا يترك مكانه ليجلس بيننا إلا في فترات قصيرة يرتاح فيها من عناء العمل. وكان الأستاذ محمود شاكر راضيًا عن عمله، وعما يتمتع به من خلق قويم. وداوم على هذه الحال إلى أن قدم رسالته التي كان يعدها ونحن شهود وكان موضوعها عن الشاعر الفرزدق.

ولقد عاش الدكتور الفحام حياة مليئة بالأعمال الجليلة، وتصدى لكثير من القضايا التي تهم الإنسان العربي المسلم، وقد أجمل أحد المواقع الإلكترونية أعماله فيما يلي:

«كان سفيرًا لبلده في الجزائر، ورئيسًا لجامعة دمشق منذ سنة ١٩٦٨م حتى سنة ١٩٧٠م، ووزيرًا للتعليم العالي منذ سنة ١٩٧٠م حتى سنة ١٩٧٣م، ووزيرًا للتربية منذ سنة ١٩٧٣م حتى سنة ١٩٨٨م، وفي هذا العام صار مرة أخرى وزيرًا للتعليم العالي حتى سنة ١٩٨٠م، وكان عضوًا في مجلس الشعب منذ سنة ١٩٧١م

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ١٩/٥/٢٠١٠م.

حتى سنة ١٩٧٣، وفي سنة ١٩٧١م عين عضوًا في مجمع اللغة العربية بدمشق، ثم نائبًا لرئيس المجمع منذ سنة ١٩٧٧م حتى سنة ١٩٩٣م، ومنذ هذه السنة صار رئيسًا للمجمع حتى وفاته».

وخلال هذه السنوات التي قضاها في الاعمال الرسمية كان:

- عضوًا في المجلس الاستشاري لهيئة الموسوعة الفلسطينية، عام ١٩٧١.
- عضوًا مؤازرًا في المجمع العلمي العراقي، عام ١٩٧١.
- عضوًا مراسلًا في المجمع العلمي الهندي، عام ١٩٧٦.
- عضوًا في المجلس الاستشاري لمعهد المخطوطات العربية، عام ١٩٧٧.
- رئيسًا للجنة الإشراف لمجلة «دراسات تاريخية» الصادرة عن جامعة دمشق، في الأعوام ١٩٨٠/١٩٩٤.
- عضوًا في مجلس الأمناء لمعهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية بفرانكفورت، ألمانيا، عام ١٩٨١.
- المدير العام لهيئة الموسوعة العربية بدمشق، في الأعوام ١٩٨١ - ١٩٩٤.
- عضوًا في مجلس الأمناء لجهاز التعاون الدولي لتنمية الثقافة العربية الإسلامية، عام ١٩٨٣.
- عضو شرف في مجمع اللغة العربية الأردني، عام ١٩٨٤.
- عضوًا عاملًا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن، ١٩٨٨.
- أمينًا عامًّا مساعدًا لاتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية، عام ١٩٩٦.
- عضوًا عاملًا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، عام ١٩٩٦.
- عضوًا مشاركًا في أكاديمية المملكة المغربية، عام ١٩٩٦.

حاز جائزة الملك فيصل العالمية في الأدب العربي في العام ١٩٨٨، وشارك في كثير من اللجان والندوات والمؤتمرات والمجالس والمنظمات الوطنية والعربية والدولية الأدبية واللغوية والتربوية والثقافية».

وكانت أنشطته المتعددة، ورحلاته العلمية سببًا من أسباب صلاته القوية مع عدد من العلماء والأدباء والمفكرين في كافة البلدان التي زارها، لأنه كانت تربطه بهم جلسات عمل علمية فيفضي كل واحد منهم بما لديه من أفكار، وكانت هذه الأفكار من أهم ما يدعو إلى شدة الترابط بين الجمع الحاضر للمناقشة. لذا فقد كان للدكتور الفحام في كل بلد أصدقاء يحبهم ويحبونه وتربطهم إضافة إلى المودة الخالصة صلة العلم. ولذا فإننا حين نلقي نظرة على الموقف الذي ساد هذه الأوساط حين انتقل صاحبنا إلى الرفيق الأعلى نجد أن الحزن عميق لدى الجميع، ونجد أن هذه المشاعر لا تختص بفاقديه من أبناء وطنه (سورية) بل إن كافة البلاد العربية كانت تئن حزنًا على فراقه، وكان أولئك الأصدقاء هم أفضل معبر عن ذلك.

وفي مجال الإشارة إلى مؤلفاته، فإن من المستحسن الإشارة إلى كتابين منها أولهما صغير لا يصل إلى الخمسين من الصفحات؛ وهو كتاب «اللامات» وهذا الكتاب من تأليف اللغوي القديم أحمد بن فارس، وقد قام الدكتور شاكر الفحام بتحقيقه والتقديم له، وفهرسته، ثم تولى مجمع اللغة العربية بدمشق نشره في سنة ١٩٧٣م، والكتاب يدل اسمه على فحواه، فهو يتحدث عن أحوال حرف اللام في اللغة العربية. وهو على صغر حجمه مفيد جدًّا، وقريب من الفهم يستطيع المبتدئ في دراسة اللغة أن يقرأه ويفهمه بسهولة. وكان مما بعث في نفسي السرور أن الدكتور الفحام أهداني نسخة من هذا الكتاب في اليوم العشرين من شهر يناير لسنة ١٩٧٥م، وفق ما أشار إليه في كلمة الإهداء التي كتبها بخطه على الصفحة الأولى.

أما ثاني الكتابين فكان: ديوان الفرزدق، ولا ننسى أن اهتمام صاحبنا بهذا الشاعر الشهير كان قديمًا، وحول ديوانه حصل على درجة الدكتوراه، ولكن ما بين أيدينا هنا أمر مختلف، ذكر بيانه في مقدمة الكتاب، وقال إنه عرض لنسخة فريدة لديوان الفرزدق، حصل عليها مجمع اللغة العربية بدمشق، وطلب من الدكتور الفحام أن يتولى تقديمها للقراء، فقام بكتابة مقدمة ضافية لهذا الكتاب تناولت كافة المخطوطات التي وردت عن هذا الديوان، ثم أردف ذلك بتصوير كافة المخطوطات التي وردت عن ديوان الفرزدق، ثم أردف ذلك بتصوير الجزء الأول من الديوان المخطوط وتضمينه الكتاب الذي تم طبعه في سنة ١٩٦٥م.

وللدكتور شاكر الفحام اهتمام كبير بتحقيق الكتب، ومن ذلك تحقيقه لكتاب «الدلائل في غريب الحديث» لقاسم بن ثابت السرقسطي، كما أن له اهتمامًا بالبحث الأدبي تجلى في كتابه الذي قدمه عن الشاعر بشار بن برد، وقد وصف أحد العلماء ما كتبه الدكتور الفحام عن هذا الشاعر فقال عنه إنه عمل فريد من نوعه وإن السنين سوف تمضي تلو السنين قبل أن يضيف البحث العلمي الجاد شيئًا ذا بال إلى ما ورد في الرسالة التي نال بها الفحام هذا العمل الفريد فهو معروف بالإجادة وإتقان العمل العلمي الذي يتولاه، وقد أثنى عالم آخر عليه وعلى جهده فقال عنه: «إنه المحقق والباحث والمعلم والمربي، والمؤصل، والقدوة الحسنة، رئيس مجمع اللغة العربية الذي حمل المسؤولية بزمانه وخرج منها بنظافة...».

ورجل هذه صفاته لابد وأن يكون له إنتاج فاخر.

نال الدكتور شاكر الفحام التكريم في حياته، وأحاط به عدد من تلاميذه وأصدقائه رفاق الدرب، وكان موضع تبجيل وتقدير من الجميع، وقد أقيمت لتكريمه عدة حفلات منها الحفل الذي أقامه اتحاد الكتاب العرب في اليوم السابع من شهر سبتمبر لسنة ٢٠٠٣م، وكان في إحدى قاعات مكتبة الأسد بدمشق،

ألقيت فيه كلمات نوّه فيها المشاركون بقيمة الرجل وبعلمه وفضله وخلقه القويم.

ومن تلك الكلمات كلمة ألقاها رئيس اتحاد الكتاب العرب السابق الدكتور علي عقله عرسان، ومما قاله: «واتحاد الكتّاب العرب إذ يكرم هذا الرجل اليوم؛ فإنما يكرم العزم والعلم والإنتاج والإنجاز والجدارة والإخلاص والقيم، ويعلن الحاجة إلى هذا النوع من الرجال في أوقات تشتد فيها المحن، وتكبر التحديات...».

أما رفيق دربه الأديب الدكتور إحسان النص، فقد ألقى كلمة أفاض فيها في ذكر المحتفى به، وذكر الكثير عن أطوار حياتهما المشتركة، وذكر أن «الأستاذ المكرم من العلماء القلائل الجديرين بأن يشاد بذكرهم، وأن ينالوا حقهم من التكريم، فهذه البادرة الطيبة من اتحاد الكتّاب العرب خليقة بالثناء والشكر الوافيين».

وبعد انتهاء الكلمات التي أشادت بالدكتور شاكر الفحام في هذا الحفل المهم، وقف ليقول: «لقد شرفتموني بحضوركم، وطوقتموني بجميل لا يُنسى، وإني لأشكر لاتحاد الكتّاب العرب ورئيسه الدكتور علي عقلة عرسان تفضلكم بتكريمي، والشكر الجزيل للدكتور على كلمته الرائعة التي افتتح بها الحفل، فكساني حُلّة سابغة من حميد مناقبه، وكريم شيمه.

كما أزجى الشكر، أطيبه وأوفاه للأساتذة: الدكتورة إحسان النص، والدكتور محمد الرويداوي، والدكتور علي أبو زيد، والأستاذ محمود الأرناؤوط الذين تحدثوا عني أحسن الحديث، فكثروا قليلي، وعظموا صغيري، وإني لأرجو أن أكون عند حسن الظن».

ثم استعرض سيرته الذاتية بإيجاز شديد، وعبّر عن بعض أفكاره، فكان من ذلك ما ذكره عن المجامع اللغوية العربية، وعن رأيه في الاهتمام باللغات الأجنبية إذ قال في هذا الشأن: «وإني إذ أشير إلى حرصي على اللغة العربية وسلامتها لابد أن أدعو أيضًا إلى العناية باللغات الأجنبية وإتقانها، لأننا في أشد الحاجة

إلى متابعة الحركة العلمية والثقافية العالمية والنقل عنها. لنغني بها بحوثنا العربية وثقافتنا. وهذا من متطلبات التقدم والرقي وحوار الثقافات، وقد قام بمثله أجدادنا العرب في مطلع نهضتهم حين نقلوا ثقافات اليونان والهند والفرس وغيرهم، ولنا فيهم أسوة حسنة».

وكانت جامعة دمشق قد شاركت في هذا التكريم على لسان الدكتور علي أبو زيد رئيس قسم اللغة العربية بها، وكان مما قاله في كلمته: «وإذ تشارك اليوم جامعة دمشق بتكريم الأستاذ الدكتور شاكر الفحام، فهي تكرم العلم والعلماء بتكريمه، وتضيف منقبة إلى مناقبها. وهذا هو شأن رئاسة جامعتنا العريقة، التي شرفني رئيسها الأستاذ الدكتور هاني مرتضى باختياري لأكون رسولها إلى هذا التكريم، ولسان شكر وامتنان وتقدير، لمن وهب من عمره المبارك أزيد من نصف قرن لخدمة هذه الجامعة، وفوق ذلك لوطنه وأمته، وما زالت صنائعه وآثاره الطيبة مصابيح نور وآيات صدق وإخلاص».

هذا وقد أقيم لصاحبنا حفل تكريم آخر جرى في اليوم الخامس والعشرين من شهر مارس لسنة ٢٠٠٨م، وكان هذا الحفل بمثابة ندوة تكريمية، سببها إضافة إلى التكريم المستحق للدكتور الفحام صدور كتاب «القطوف الدانية».

وهو كتاب ضم مجمل ما قدمه المحتفى به في نصف قرن من الزمان، وأعده وجمعه الأستاذ محمد الأرناؤوط، وقد جرت هذه الندوة التكريمية في المركز الثقافي القائم بمنطقة كفر سوسة بدمشق، واشترك بالحديث فيها عدد من العلماء والأدباء. وقد وصف أحدهم كتاب القطوف الدانية قائلًا: إنه «يعتبر متحفًا أدبيًّا وعلميًّا فيما جمع فيه كل ما كتبه شاكر من مقالات وبحوث ونصوص، وسير الأعلام، وما شابه، وحقيقة هو مفكر متعدد جوانب المعرفة، ووفقًا للمصطلح الحديث يمكن أن نسميه موسوعي المعرفة».

ولعل فيما رأيناه في هذين الحفلين ما يدلنا على مكانة الرجل، وأثره في بلاده، ومقدرته العلمية الفذة، وكان عرض سيرته الذاتية متضمنًا لكل الأعمال التي قام بها وهي أعمال متنوعة امتدت من التعليم الجامعي حتى السفارة والوزارة، ولذا فهو جدير بكل ما يقال فيه.

لم تمض أكثر من ثلاثة أشهر على الحفل الذي أشرنا إليه قبل قليل حتى حل قضاء الله تعالى فانتقل الدكتور شاكر الفحام إلى رحمة ربه في مساء يوم السبت الثامن والعشرين من شهر يونيو لسنة ٢٠٠٨م، وكانت لوفاته رنة أسى ليس في وطنه سورية فحسب بل لقد عمت عددًا من الدول العربية فإن عارفي علمه وفضله ومن يرتبطون معه بعلاقات متينة كثيرون في هذه الأنحاء. وقد نعته بمزيد من الشعور بالخسارة العلمية والوطنية كل من رئاسة مجلس الوزراء ووزارة التعليم العالي وهيئة الموسوعة العربية وأسرة الثقافة والتربية والتعليم في سورية. وقد شيع جثمانه الكريم في موكب مهيب في يوم الاثنين الثلاثين من شهر يونيو.

وقد نعاه وزير الثقافة السوري في تصريح بثته وكالة الأنباء هناك، وجاء في ذلك قوله: «إن الفقيد من الباحثين الموسوعيين الذين بذلوا حياتهم كلها في خدمة اللغة العربية وآدابها وجمع في عمله الثقافة والسياسة معًا مشيرًا إلى أن العلامة الفحام باحث وناقد كبير قدم عددًا من الدراسات الأدبية والفكرية وكان من أهمها وأبرزها دراساته عن شعراء العصر العباسي مثل الفرزدق وبشار بن برد وابن الرومي والمتنبي وأبي نواس وأبي الفتح البستي إضافة إلى دراساته عن الشعر الأندلسي».

وأوضح الدكتور نعسان آغا أن عددًا كبيرًا من طلاب الدراسات العليا درسوا على يدي الراحل كما أشرف على عدد كبير من أطروحات الماجستير والدكتوراه وتخرج على يديه كبار الأدباء والمثقفين العرب لافتًا إلى أن الفحام كرم مرات عدة ومنح جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي عام ١٩٨٩م ونشرت وزارة الثقافة

في العام الماضي كتاب القطوف الدانية وفيه عدد من أبحاثه المهمة كما أصدرت دار الفكر كتابًا خاصًّا عن الفحام ضمن سلسلة بعنوان «أدباء مكرمون».

وأشار نعسان آغا إلى أن الأديب والناقد الراحل عرف بثقافته الأكاديمية الموسوعية وبأخلاقه العالية وتمسكه بالقيم النبيلة السامية وبإخلاصه لمبادئ أمته والدفاع عن قضاياها.

وقد توالت بعد ذلك مقالات الرثاء في سورية وفي غيرها من بلاد العرب فكان في ذلك تسجيل لما يستحقه الرجل نظير ما قام به من أعمال طوال حياته.

أما وزارة التعليم العالي ومجمع اللغة العربية اللذان ارتبط بهما عمليًّا فقد أقاما حفلًا تأبينيًّا له جرى في مكتبة الأسد بدمشق في اليوم الخامس من شهر أغسطس لسنة ٢٠٠٨م، ألقى وزير التعليم العالي في بدايته كلمة نوه فيها بمناقب الفقيد، وعبر عن عظم الخسارة في فقده، وذكر الكثير من أعماله التي قام بها في مختلف مراحل حياته. ثم ألقى نائب رئيس مجمع اللغة العربية كلمة المجمع، تلاه عدد من تلاميذه الذين افتقدوا فيه الرجل العالم المخلص الذي أفادهم بما قدم لهم من رعاية واهتمام، وبما أمدهم من علم غزير دفع بهم إلى مستويات عالية في المجال الذي نذروا أنفسهم له. وفي هذا الحفل كانت للكويت كلمة هي التي ألقيت نيابة عن الأخ الكريم عبدالعزيز سعود البابطين فكانت مشاركة لها أهميتها فيما يتعلق بالصلة التي كانت تربط أبناء هذا البلد بالفقيد رحمه الله.

في أوائل شهر إبريل لسنة ٢٠٠٨م، بدأت دورة جديدة من دورات عمل مجمع اللغة العربية بمصر، وكان صاحبنا عضوًا في هذا المجلس إضافة إلى أنه كان رئيس مجلس مماثل لهذا المجلس في دمشق. فكان لابد وأن تكون الجلسة الأولى من جلسات هذه الدورة مخصصة من أجل تأبين الفقيد الذي كانت له إسهامات كثيرة في مجمع اللغة العربية بمصر كما هي عادته في كل عمل يلتزم به.

تحدث في جلسة التأبين كل من رئيس المجمع الدكتور محمود حافظ، وشيخي الدكتور كمال بشر وغيرهما، إلا أن مفاجأة تلك الجلسة كانت في وقوف السيدة الجليلة حرم الدكتور شاكر الفحام لكي تنعيه وتذكر مآثره وتشكر هيئة المجمع التي اهتمت بإقامة هذه المناسبة، وكانت كلمة السيدة تتناول جوانب كثيرة، وتعبر عن إخلاصها ووفائها لزوجها الذي يستحق كل إخلاص ووفاء، ومما قالته: «ونحن في الشهر العاشر لغيابك يا شاكر، أقف اليوم على هذا المنبر الذي طالما وقفت عليه محاضرًا ومتحدثًا لأتحدث عنك في هذا المجمع الذي كنت تجد فيه معقلًا حصينًا للعربية، وكان لك فيه أساتذة وزملاء تجلهم وتقدرهم، فلقد درست في هذا البلد في قاهرة المعز وأحببته، وصرفت فيه جانبًا كبيرًا من حياتك وشبابك تبحث وتدرس، بنهم طالب العلم، المشوق إلى الاستزادة من المعرفة، وهيأ لك الله أن درست على أساتذة عظماء أجلاء، فنلت درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى على يد الأستاذ العلامة الدكتور شوقي ضيف رحمه الله وأجزل ثوابه، الذي غدا فيما بعد رئيسًا لهذا المجمع الذي نحن في رحابه اليوم، وكنت تؤم دار العلامة الأستاذ محمود شاكر- رحمه الله وغفر له – تستزيد وتغرف من بحر علمه ومعرفته.

وفتحت لك أبواب العلم مغاليقها، فولجت إلى لجته، تزداد سعادتك كلما أبحرت في أعماقه وتعرفت إلى أسراره.

وظللت مدى العمر تحمل الحب والوفاء لهذا البلد الطيب ولأهله الأبرار».

ولقد كانت هذه الكلمات المعبرة مثار تأثر كبير من جميع الحاضرين مما دفع رئيس المجلس إلى التعقيب عليها قائلًا: «في الواقع أنا لا أجد من الكلمات ما أعبر به في صدق تعبير عن بالغ التقدير للسيدة الفاضلة على هذه الكلمة المؤثرة التي مست شغاف القلب، وأقول لها: ثقي أيتها السيدة العظيمة أن الرجل الكريم،

وإن مضى إلى الرفيق الأعلى وذهب عنا؛ فإن أعماله الرائدة وإنجازاته التي يعتد بها ستظل بيننا معينًا يغترف منه علماء اللغة والأدب والثقافة، وإني باسمي واسم هؤلاء العلماء الأجلاء وباسم أسرة مجمع اللغة العربية بالقاهرة واتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية أتقدم إليكم بأبلغ آيات المواساة في هذا الفقيد العظيم».

رحم الله الأستاذ الدكتور شاكر الفحام، فقد كان سراجًا وهاجًا يشع بالعلم، وكان محبا لأهله وصحبه أشد المحبة ولذا فإن ذكره سوف يبقى خالدًا مدى الزمن.

احتضنت الكويت في بداية منتصف ثمانينيات القرن الماضي عملًا من أهم الأعمال العربية المتعلقة بالثقافة ومستقبلها، ذلك أن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم قررت أن تعد خطة شاملة للثقافة العربية. وطلبت من الأستاذ عبدالعزيز حسين القيام بهذه ا لمهمة الصعبة، وكان أبوهاني عند حسن ظن الدول الأعضاء في المنظمة وهي عادته دائمًا. وسرعان ما تشكلت لجان ضمت عددًا من التربويين والاستراتيجيين والباحثين بلغ عددهم ٦٢٧ باحثًا وعالمًا، وداوم أبوهاني على رئاسة الاجتماعات العامة، وحضور الندوات المصاحبة للعملية التي كان العمل فيها يشبه المؤتمر الكبير الذي يحس من يشترك فيه بعظم المسؤولية، وأهمية التوصل إلى عمل مشترك راقٍ يقدم للمؤتمر العام للمنظمة التي دعت إلى إبداع هذه الاستراتيجية.

****

كان الدكتور شاكر الفحام من المشاركين في أنشطة هذه اللقاءات، وكان له دور بارز فيها ولعل أهم ما نشير إليه من ذلك هو ندوة اللغة العربية و المجامع اللغوية، وهي من الندوات التي شكلت مادة الاستراتيجية فيما بعد.. عقدت الندوة التي أشرنا إليها ما يقرب من أربعة وعشرين باحثًا وعالمًا في اليومين التاسع والعاشر من شهر أبريل لسنة ١٩٨٣م، وضمت نتائجها إلى العمل العام في الخطة الشاملة.

وفوق هذه المشاركة فإننا كنا نلتقي بالدكتور الفحام كثيرًا في بلادنا الكويت، فهو كثير الحضور إليها، ولم يكن يحضر من أجل السياحة بل كانت كل زياراته في مهام علمية يطلب منه المشاركة فيها ومنها مشاركاته الكثيرة في لجان تحكيم الجوائز التي تقدمها مؤسسة الكويت للتقدم العلمي. ولقد كان محبوه هنا يغتنمون فرصة وجوده بينهم لكي يلتقوا به ويستمعوا إلى أحاديثه الطلية، وإلى المعلومات التي يفيدهم الحصول عليها منه، ولا غرو في ذلك فهو عالم جليل دمث الأخلاق يحرص الجميع على الاستفادة من علمه والاستزاده من فضله.

ولن أنس أمرًا متعلقًا بصلتي بالدكتور شاكر الفحام، فإنه لن يغيب عن بالي أبدًا يوم زرته في مكتبه بسفارة سورية في الجزائر بصحبة الأخ الكريم الأستاذ فيصل الصالح سفير الكويت - آنذاك - في البلد نفسه، وقد كان لقائي بصاحبي بعد انقطاع طويل لأنه منذ اشتغل في السلك الدبلوماسي وهو بعيد عني وعن بقية أصحابه. لقد كان سعيدًا بدخولي عليه فجأة، وكنت سعيدًا بوصولي إليه أخيرًا، وكانت لنا أحاديث سأل فيها عن أخباري وعن الأخوين صالح العثمان وجمعة ياسين، وتمنى أن نلتقي مرة أخرى، فاعتذرت منه لأنني كنت على سفر، فقال: سوف نلتقي في مكان آخر إن شاء الله، وودع بعضنا بعضًا.

****

من أحاديث اللهجة الكويتية (١) [1]

يلاحظ القارئ حرصنا الشديد على إحياء اللهجة الكويتية، من حيث استمرار الحديث بها، وعدم إضاعة ألفاظها، أو إساءة نطق بعضها، وبالنسبة لإساءة النطق فإن الكثيرين - للأسف الشديد - صاروا يخطئون في نطق ألفاظ كثيرة من ألفاظ لهجتنا الجميلة التي هي فرع من فروع اللغة الفصحى الأم، التي سبق لنا التدليل على أنها أصل اللهجة الكويتية، وذلك في كتابين صدرا قبل فترة وجيزة وهما: «ألفاظ اللهجة الكويتية في كتاب لسان العرب لابن منظور» وكتاب: «ألفاظ اللهجة الكويتية في كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت»، وهذا بخلاف مقالات أخرى جاء الاستدلال من خلالها بالشعر النبطي الكويتي على عدد من الألفاظ الكويتية، لأن الشعر النبطي في الوقت الحاضر هو مرجع مهم للهجة الكويت وبخاصة شعر فهد بورسلي وزيد الحرب ومن عاصرهما.

قد يصعب في بعض الأحيان الحصول على قاعدة تحدد طريقة نطق بعض الألفاظ، ولكننا بالملاحظة نستطيع أن نتوصل إلى شيء من ذلك إلى أن يتيسر البحث العلمي الدقيق الذي نعرف به بعض دقائق لهجتنا.

ونحن نعرف أن اللهجة تُحوِّل القاف الصحيح إلى جيم مصرية، ولكننا نكتبها قافًا فصيحة لأن النطق بها معروف، وقد أخطأت بلدية الكويت حين أطلقت اسم (المنجف) على (المنقف) وأظن أنها قد أصلحت هذا الخطأ أخيرًا، ولكننا للأسف الشديد لا نزال نجد من أبناء الكويت من يكتب (الحجران) وهو يقصد (الحقران)

(1) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٦/٥/٢٠١٠م.

ويكتب (الجايله) وهو يقصد (القايلة) وبهذا يكون قد انتقل إلى لفظ آخر لأننا ننطق الجيم جيمًا كما هي ولا ننطقها على اللفظ المصري لها.

إن الحرص على اللهجة الكويتية نوع من الحرص على الشخصية الكويتية والتاريخ الكويتي، ولن نفهم هذا القدر الكبير من أشعار شعرائنا النبطيين إذا أهملنا اللهجة التي كتبوا بها أشعارهم، وبالتالي يكون قد ضاع لنا الشيء الكثير من تراثنا الثقافي والاجتماعي بل والتاريخي.

وفيما يتعلق بنطق القاف جيمًا فقد ورد في عدد من ألفاظ لهجة الكويت، ولكنها كانت جيمًا صريحة لا تكتب ويقصد بها القاف، بل إن هذا الحرف في الكلمة قد تحول إلى جيم، ويمثل ذلك قول فهد بورسلي:

خاطري طاب من ذاك الفريج
صد قلبي وأنا تابع هواه
كل يوم وأنا أدق الطريج
ما حد قال لي واعزتاه

إلى آخر القصيدة المشهورة، وهنا نجد الفريق صار: الفريج، والطريق صار: الطريج.

وهذا لا خروج به عن اللهجة بل يكاد يكون قاعدة من قواعدها لأن الوزن الصرفي لهذه الألفاظ متشابه، ومن ذلك قول الشاعر عبدالله السعد اللوغاني من قصيدة له مطلعها:

وراك يا قلبي الشجي ما تليج
ليعاد من تهواه ما هو لك ايطيج

ومنها:

زاد العنابي ونشف الهم ريجي
والدمع حرّق صفحة الخد تحريج

إلى آخر القصيدة التي قلب القاف في عدد من ألفاظ قافيتها إلى جيم، وهي قريبة من وزن الألفاظ التي رأيناها في قصيدة الشاعر فهد بورسلي:

إذن فمن الممكن الوصول إلى قواعد تحدد مسار النطق باللهجة الكويتية لأن الأسس الموصلة إلى ذلك تكاد تكون واضحة، يمكن البناء عليها.

وهنا نعود إلى بعض التفصيلات المتعلقة بما أشرنا إليه بخصوص اللهجة، ونذكر منها أمرين مهمين هما:

أولًا: هناك كلمات في اللهجة مرادفة لفظًا فقط لكلمات عربية فصيحة، ولكنها تختلف عنها في المعنى مثل كلمة هقي بمعنى هذي فأكثر الهذيان وهي في اللهجة بمعنى ظن، ورد هذا المعنى في قول الشاعر حمود الناصر البدر:

أنا هقيت وقلت قضبي بيمناي
الحق لغايات الهوى بالمناوي

والرُّشمة، وهي سواد في وجه الضبع وهي في اللهجة - بفتح الراء المشددة - رسن الحمار، وزرم؛ ومعناها في اللغة: قطع، وفي اللهجة غضب كاتمًا غضبه، وصلم، وهي في الفصيح: صلم الشيء صلمًا: قطعه من الأصل، وفي اللهجة صلّم بفتح اللام المشددة بمعنى قشّر، والحتن في الفصيح معناه المثل، وفي اللهجة الحين والزمن، وكلمة قلْص بسكون اللام معناها قلة الماء، وهي في اللهجة تعني المركب الصغير يربط بحبل إلى السفينة الكبيرة، ويستفاد من هذا القلص في التنقل من مرسى السفينة القريب من الشاطئ إلى البر حيث يقضون حاجاتهم، وهو مفيد - أيضًا - في حالات الطوارئ، وقد أصبحت اللهجة تطلق كلمة القلص على المعنى المشابه فمثلًا إذا ربطت سيارة بأخرى لجرها عند عطبها سميت المعطوبة بهذا الاسم لأنها في هذه الحالة مربوطة بحبل أو ما شابهه إلى السيارة السليمة، ومن جنس الكلمات التي ذكرناها كلمة نصا، وهي في اللغة الفصيحة بمعنى اختار،

وفي اللهجة الكويتية بمعنى قصد، يقال: نصيت فلانًا لحل مشكلتي بمعنى قصدته واتجهت إليه لحلها، وكلمة غشمرة وهي في اللهجة بمعنى إثارة صديقك ببعض الكلام أوالفعل على طريق المزاح، وفي اللغة: التهضم والتظلم، وكذلك كحص بمعنى ولّى مدبرًا في الفصيح، وفي اللهجة الكويتية بمعنى هب واقفًا، وتنطق الكاف جيمًا قاهرية.. وهكذا..

ثانيًا: أما الأمر الثاني فهو وجود كثير من الألفاظ الكويتية ذات الأصل العربي، ولكن المقابل لها في حاجة إلى تفسير وتوجيه فمن ذلك:

١ - **كلمة صكمة؛** بمعنى صدمة، قال الليث: «الصكمة صدمة شديدة بحجر أو نحو حجر»، ومنه جاءت كلمة صكمة الكويتية بالكاف المكشكشة وهي تعني رصاصة البندقية التي تحدث بها الصدمة.

٢ - **كعم:** في اللسان: «كعم البعير يكعمه كعما فهو مكعوم.. شد فاه» والكعم بالكاف المكشكشة في اللهجة بمعنى المنع عن الكلام أو عن إبداء الرأي فكأن المستمع سد فم المتكلم بطلب السكوت منه.

٣ - **ظما:** والظما بلا همز ذبول الشفة من العطش، هكذا في اللسان، وفي اللهجة هي العطش نفسه.

٤ - **كلمة العربون،** وقد جاء ما يقرب منها في الحديث أنه -صلى الله عليه وسلم- نهى عن بيع العربان، وهو أن يشتري السلعة ويدفع إلى صاحبها شيئًا من ثمنها على أنه إن أمضى البيع حُسب من الثمن، وإن لم يمض كان لصاحب السلعة.

٥ - **حقر:** والحقر في اللغة الذلة والحقر في اللهجة إهمال الشخص وعدم الالتفات إليه وهذا - أيضًا - يعني إذلاله كأن يسألك شخص فلا ترد عليه فتكون قد حقرته بفتح الحاء والقاف التي تنطق جيمًا قاهرية.

٦ - **حكر:** يقال فلان يحكر فلانًا إذا أدخل عليه مشقة ومضرة في معاشرته ومعايشته، والنعت حكر بفتح الحاء وكسر الكاف. وفي اللهجة الشخص الحكر بالكاف المكشكشة هو الذي يضيق على زوجته بشدة غيرته عليها.

٧ - **صعر،** ففي اللسان: «صعررت الشيء فتصعرر: دحرجته فتدحرج واستدار، ومنه: وقد صعررت صعرورة وهي دحروجة الجعل يجمعها فيديرها ويدفعها»، والصعرورة في اللهجة هي أثر الضربة في الرأس بحجر ونحوه تكون بارزة في الرأس دون خروج دم، ولها الشكل المستدير الذي وصفه ابن منظور.

٨ - في مادة (**قور**) ذكر أن قرت الشيء معناه قورت من وسطه وفي اللهجة قوقرت. والقاف تنطق جيمًا قاهرية.

٩ - وفي مادة (**مَصَر**) نجد قوله: «مَصْرُ الشاة والناقة، والتمصر حلب بقايا اللبن في الضرع بالضغط بأطراف الأصابع. ومصر عليه العطاء تمصيرًا قلله وفرقه قليلًا»، وفي اللهجة الضغط على الشيء باليد لاستخراج ما فيه بما في ذلك مصر ضرع الشاة كما في اللغة الفصحى.

١٠ - **نزر:** ونزره في الفصحى بمعنى احتقره واستقله، والمعنى في اللهجة هو انتهره، وهو قريب من المعنى الفصيح.

١١ - **جمز:** «يقال جمز الإنسان والبعير والدابة يجمز جمزًا... وهو عدو دون الحضر الشديد، وحمار جمزى: وثاب سريع». وفي اللهجة: قمز، بالقاف بمعنى وثب، وتنطق جيمًا قاهرية.

١٢ - **نكز:** والنكز معناه في اللغة الدفع والضرب، نكزه نكزًا أي دفعه وضربه، وفي اللهجة تنطق هذه الكلمات بالكاف المكشكشة وتعني شيئًا قريبًا من المعنى الفصيح إذ يقصد بها: نكّزه بالتشديد مع الكسر أخرجه من مكانه ودفعه عنه.

١٣ - **خرط**: يقول ابن منظور: «والخرائط والخرّاط والخريطي والخراطي شحمة تتمضخ عن أصل البردي، ويقابلها في اللهجة الخريط، وهو أكل معروف أصفر اللون يستخرج من البردي الغض.

١٤ - **فلص**، والانفلاص التفلت، وفي اللهجة: فلان ما يفلفص من يدي، أي أمسكت به بشدة حتى صار لا يستطيع التفلت، وفي هذه المادة كلمة (ملص) في المعنى نفسه، ونقول في اللهجة ملص الشيء من يدي أي انفلت.

١٥ - **قرفط**، واقرنفط بمعنى تقبض في الفصيح، ومنه في اللهجة كلمة متقرفض ومعناها جلس متقبضًا جامعًا جسمه وأطرافه معًا.

١٦ - **بشع**، البشع هو الخشن من الطعام واللباس والكلام وفي اللهجة تطلق على طعم الثمار قبل نضجها.

١٧ - ومن ذلك كلمة **جلع**؛ قال: وانجلع الشيء: انكشف، وفي اللهجة يقصد بهذه الكلمة معنى: ذهب غير مأسوف عليه وولّى، وبذلك يكون قد انكشف مكانه بانجلاعه، هذا وفي اللهجة كلمة أخرى بهذا المعنى هي: ذلف.

١٨ - **صعق**: الصاعقة نار تسقط من السماء في رعد شديد، وفي اللهجة تقلب القاف فتوضع قبل العين وتبدل بجيم، فيقال الصاجعة، وترد على ألسنة النساء في الدعاء على من يزعجهن حين يقلن: يا مال الصاجعة.

١٩ - **فهق**: مأخوذ من الفهق، وهو الامتلاء والاتساع يقال: فهقت الإناء ففهق يفهق فهقًا، وفي اللهجة الفهق هو نتيجة الامتلاء حين يحدث امتداد أو تشقق في الإناء نتيجة المبالغة في ملئه.

٢٠ - **دقم**؛ دقمه: كسر مقدمة أسنانه، ودقم في اللهجة بالجيم القاهرية كسر مقدمة الأسنان أو القلم الرصاص أو ما شابه ذلك.

٢١ - **غبا**: غبى الشيء عني وغبى عنه... لم يفطن له.. يقال غبى عليّ ذلك الأمر إذا لم أفطن له ولم أعرفه، وقريب منه قولهم في اللهجة الكويتية، هذا غبا عليّ أو هذا يغباني أي لا أفطن له أو لا أدريه. وهذا المعنى ورد في قول الشاعر حمود الناصر البدر حين قال:

أزرى الولع بي بالغبا والبيان
وازريت أكف سكوب مزن نثرماه

٢٢ - **وهق**: الوهق الحبل المغار يرمى وفيه أنشوطة فتؤخذ فيه الدابة والإنسان. تركت اللهجة آلة الوهق واستعملت الحالة التي يكون عليها الواقع فيه فقالوا: فلان توهق أي وقع في مأزق، فكأن آلة الوهق مأزق يقع فيه الشخص.

وهكذا نجد الكثير من هذا النوع ضمن ألفاظ اللهجة الكويتية هي قريبة لفظًا ومعنًى من اللغة الفصحى، ولكنها تحتاج إلى قليل تأمل حتى نصل إلى أصلها العربي الفصيح.

ومن أهم الدلالات على ارتباط اللهجة الكويتية باللغة الفصحى ما نجده من تشابه بين بعض الأمثال العامة والأمثال العربية، فمن ذلك قولهم في الفصيح: اتبع أمر مبكياتك لا أمر مضحكاتك، وهو مثل له قصة في مجمع الأمثال، ومثله في اللهجة الكويتية: «اتبع مبكياتك ولا تتبع مضحكاتك» ومن ذلك «جاء يجر رجليه» وفي اللهجة «جا يجر رجوله» وتنطلق الجيم ياء في اللهجة، ورَجُوله جمع رجل، ويضرب لمن يجيء متثقلًا ويمشي بصعوبة. ومن الأمثال - أيضًا - «الجار ثم الدار»، وهو في اللهجة: «الجار قبل الدار» وقولهم: «أحر من الجمر» وهو في اللهجة كذلك، وقولهم «خالف تذكر» وفي اللهجة مثله، وقولهم: «دون ذا وينفق الحمار» وفي اللهجة: «دون ذا ويشري الجحش» وهو مثل له قصة في مجمع الأمثال، أما في اللهجة فيقال: إن رجلًا أراد أن يبيع جحشًا، فقال لأحد أصحابه: أريدك أن تمدح جحشي هذا في

السوق حتى أستطيع أن أبيعه، فبالغ الصديق في مدح الجحش إذ قال أمام الناس: أهذا جحشك الذي يركب إلى أعلى النخلة فرد عليه «دون ذا ويشري الجحش» أي هون عليك وأقلل في الوصف فإن الجحش يمكن أن يباع دون هذه المبالغة. ومن أمثالهم قولهم: «أدق من خيط باطل» وهو إما الهباء الذي يكون مع ضوء الشمس يدخل في الكُوّةٍ في الجدار، أو الخيط الذي تفرزه العنكبوت، كما ذكر ذلك الميداني. وفي الكويت يقال: فلان خيط باطل أي رخو، كسول لا يستفاد منه.

قال صاحب اللسان في مادة (خيط): وخيط باطل الضوء الذي يدخل في الكوة، يقال: هذا أدق من خيط باطل، وقيل خيط باطل: الذي يقال له لعاب الشمس، ومخاط الشيطان، وكان مروان بن الحكم يلقب بذلك لأنه كان طويلًا مضطربًا، قال الشاعر:

لَحَى الله قومًا ملّكوا خيطَ باطلٍ
على النّاسِ يُعطي من يشاء ويمنعُ

ومروان بن الحكم كان واليًا على المدينة، وتولى الخلافة عدد من أبنائه منهم الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان.

ومن الأمثال قولهم: عوير وزوير والمنكسر إللي ما فيه خير، وهو في اللسان بلفظ: كسير وعوير وكل غير خير، أي ما بقي إلا ضعاف القوم.

ومن أجلى مظاهر العلاقة المتينة بين الفصحى ولهجة أبناء الكويت ما نجده في الشعر النبطي الكويتي من صلة قوية باللغة الأم سواء أكان ذلك من حيث الكلمات ومعانيها أو من حيث الأسلوب والنواحي البلاغية المرتبطة به، فمن ذلك قول الشاعر حمود الناصر البدر:

عفرا من العفر الثلاث أولت لي
اعفر لوان العسجدي به بروقِ

ما قصرت بالعون جت به وجت لي
قالت تَعَرْفَه؟ قلت فَضْحكْ وعوقي

وفي لسان العرب مادة (عفر) يقول ابن منظور: «والعفر من ليالي الشهر: السابعة والثامنة والتاسعة، وذلك لبياض القمر» والشاعر يقول: إن ليلة من هذه الليالي الثلاث العفر أوّلت لي أي أعادت وأحضرت «وهذه أيضًا من الكلمات الفصحى المعروفة في اللهجة» حبيبًا فيه من شبه هؤلاء العفر وهو يجمع في اللون بين البياض والحمرة ولذلك سماه عسجديًا أي ذهبيًا به من لون البرق.

هذا وللحديث بقية في العدد القادم.

****

من أحاديث اللهجة الكويتية (٢) [1]

استمرارًا لحديثنا السابق عن اللهجة الكويتية نطرح هنا بعض المفردات التي تدور على ألسنة الكويتيين وهي في الوقت نفسه من ألفاظ اللغة العربية الفصحى، وسوف يكون رصدنا هنا للألفاظ التي تنتهي بحرف الدال، وذلك على الطريقة التي سار عليها ابن منظور في كتابه «لسان العرب»، وهذا هو بعض ما قمنا برصده من تلك الألفاظ:

بدد:

«وقول عمر بن أبي ربيعة:

قلتُ من أنتُم فصدَّت وقالت:

أمُبِدٌّ سؤالَكَ العالمينا

قيل معناه أمُقسِّم أنت سؤالك على الناس واحدًا واحدًا حتى تعمهم».

وهذا المعنى بلفظه موجود في اللهجة، فإذا قال شخص: ما عندي لا يبدّ عليكم أي لا يكفي للقسمة عليكم جميعًا ومثله: أنا لا أبدّ على كل هذه الأعمال أي لا أستطيع أن أوزع وقتي عليها.

جدد:

«والجادة معظم الطريق، والجمع جَوادٌّ».

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢/٦/٢٠١٠م.

هذه اللفظة مفردًا وجمعًا كانت تستعمل سابقًا بإبدال الجيم ياء وتطلق على الطرق البرية. وفي الوقت الحاضر أصبحت بلدية الكويت تطلقها على بعض الطرق الفرعية في مناطق السكن النموذجية فأصبح الناس ينطقونها بالجيم.

وقال: «أجِدَّكَ: معناه أبجدّ هذا منك» وفي اللهجة: هذا من جدِّك؟

جعد:

«الجَعْد من الشعر خلاف السبط».

ولا تزال هذه اللفظة تطلق على الشعر الجاف المتماسك غير المنسدل.

وقال: «والجعدة: حشيشة على شاطئ الأنهار... وقيل: هي شجرة خضراء تنبت في شعاب الجبال بنجد».

وهي نبات طبي يبيعه العطارون عندنا.

جلمد:

«الجَلْمَدُ والجُلمود: الصّخر وفي المحكم: الصخرة».

وفي اللهجة يقال جلمودة صخر أي صخرة كبيرة.

جهد:

«الجَهْدُ ما جهد الإنسان من مرض أو أمر شاق».

وفي اللهجة يدعى على الشخص فيقال: «وَجَهَد بفتح الهاء، أي جاءك الجهد.

حدد:

«والحداد ثياب المآتم السود، والحادُّ والمُحِد من النساء التي تترك الزينة والطيب بعد وفاة زوجها للعدة».

وكانت هذه الكلمة مستعملة سابقًا فيقال: فلانة في الحداد.

حسد:

«والغبط نوع من الحسد وهو أخف منه».

وقد قيل: إن الحسد فيه تمني زوال النعمة، والغبط ليس فيه ذلك.

وفي اللهجة يقال: فلان يتَغَبّط فلانًا بمعنى يتمنى لو كان عنده ما عند الآخر ومنها: فلان مغبوط؛ أي يتمنى الناس أن يكونوا مثله.

رعد:

«وتَرَعْدَدَ أخذته الرُعْدَة، والارتعاد والاضطراب».

وفي اللهجة: فلان يتراعد أي أصابه الارتعاد والاضطراب.

رغد:

«والرغيدة اللبن الحليب يغلى ثم يذر عليه الدقيق حتى يختلط ويساط فيلعق لعقا».

وهي معروفة في اللهجة.

ركد:

«ركد القوم» يَرْكُدون ركودًا: هدأوا وسكنوا، ومنه ركد الماء والريح والسفينة والحر والشمس».

وهي لفظة مستعملة بهذا المعنى في اللهجة.

زغد:

«وزَغَدَه أي عصر حلقه».

وهي معروفة في اللهجة، وأحيانًا يقال: كغد بالكاف المكشكشة.

سرد:

«سرد الحديث ونحوه يسرده سردًا إذا تابعه، وفي صفة كلامه ﷺ: لم يكن يسرد الحديث سردًا أي يتابعه ويستعجل فيه، وسرد القرآن: تابع قراءته في حَدْر منه».

وفي اللهجة سرد القرآن أي قرأه دون توقف منه.

سعد:

«السَّعْدان شوك النخل، والسعدان نبت ذو شوك كأنه فلْكة يستلقي فينظر إلى شوكه كالحًا إذا يبس».

وينطق في اللهجة سْعَدَان بسين ساكنة كأن قبلها ألفًا موصولة مع فتح العين. وهو معروف في البادية وبه المثل العربي الشهير: «مرعى ولا كالسعدان»، الذي يضرب للشيء يفضل على إشباهه.

صدد:

«الصدود: الإعراض والصدوف، والصد: الهجران».

وهو معروف في اللهجة. وورد في قول الشاعر:

يا حمد خلٍّ لواني بالصدود
مايلٍ للغير مَذري وشبلاه

طرد:

«الطَّريدة: الخرقة الطويلة من الحرير».

وهي في اللهجة كما وصف ولكنه يضم أنواع القماش الأخرى وتنطق بكسر الطاء.

عدد:

«العدُّ ماء الأرض الغزير. قال: بنو تميم يقولون الماء العد مثل كاظمة جاهلي إسلامي لم ينزح قط. يقال: أمنَ العدِّ هذا أم منّ ماء السماء».

وكان اسم العدّ يطلق في اللهجة على مياه الآبار الحلوة في السابق.

وذكر ابن منظور في المادة نفسها: «عدّان: الزمان والعهد قال الفرزدق:

أتبكي امرأً من آل ميسانَ كافرًا

ككسرى على عدّانِهِ أو كقيصرًا

وكلمة عدّان معروفة في اللهجة بالمعنى نفسه؛ يقال: هذا الأمر كان على عدّان فلان أي على زمانه.

وهي بكسر العين وتشديد الدال المفتوحة.

عرد:

«العَرْد الشديد من كل شيء الصلب المنتصب».

وهي بهذا المعنى في اللهجة.

عصد:

«العصيدة: دقيقٌ يُلَتُّ بالسمن ويطبخ».

وهي معروفة في الكويت، وقد أصبحوا يصنعونها من النشا ويضعون عليها البيض المقلي عند وضعها في الإناء للتناول.

فقد:

«والتفقد: تَطَلُّبُ ما فقدته».

وفي اللهجة يقال: تفقدت أغراضي، بالمعنى الذي ورد في اللسان، وتنطق القاف جيمًا قاهرية.

قند:

«القَندُ والقَنْدَةُ والقنديد كله: عصارة قصب السكر إذا جمد».

والقند معروف بذلك في اللهجة.

كدد:

«الكد: الشدة في العمل وطلب الرزق».

وفي اللهجة فلان يكد، وهو كدّاد وكادود بمعنى بذله الجهد في العمل.

كمد:

«الكمادَة: خرقة دسمة رسخة تسخن وتوضع على موضع الوجع فيستشفى بها... ويقال: كمدت فلانًا إذا وجع بعض أعضائه، فسخنت له ثوبًا أو غيره وتابعت على موضع الوجع فيجد له راحة، وهو التكميد».

وهذا العمل بالاسم نفسه معروف لدينا، مع استعمال خرقة نظيفة.

كنعد:

«الكنعت: ضرب في السمك كالكنعد» وأنشد ابن منظور:

قل لطغام الأزدلا تبطروا

بالشيم والجريث والكنعد

والشيم والكنعد من أنواع الأسماك التي لا تزال معروفة في سوق السمك بالكويت.

كود:

«والكَوْدُ: كلُّ ما جمعته، وجعلته كثبًا من طعام وتراب ونحوه، والجمع: أكواد، وكوّد التراب جمعه وجعله كثبة».

وهو بلفظه ومعناه في اللهجة.

لحد:

«اللّحد واللُّحد: الشق الذي يكون في جانب القبر، موضع الميت».

وهو معروف في الكويت بهذا الاسم.

لدد:

«تَلَدَّدَ: تلفت يمينًا وشمالًا، وتحير مُتَلَدِّدا، وفي الحديث حين صُدّ عن البيت (أمرت الناس فإذا هم يتلددون) أي يتلبثون».

وهي لفظة دارجة في اللهجة فيقال: أردت أن أزورك وما أدري ما الذي لدّني أو لدّدني. أي منعني وجعلني أتردد في القيام بالزيارة، وفي دعائهم عندما يعتزم أحدهم الحج: يا الله لا تُلدِّدني.

مرد:

«المُرْدى خشبة يدفع بها الملاح السفينة».

وفي مادة (ردى) من اللسان ما يلي: «والمُرْدى: خشبة تدفع بها السفينة تكون في يد الملاح، والجمع المرادي».

وهذا الجمع مستعمل أيضًا في اللهجة.

والمردى في الكويت تطلق على العصا المستطيلة المستخرجة من أغصان الشجر أو من البامبو ولها عدة استعمالات منها دفع السفينة وبخاصة النوع الصغير من السفن، وتنطق بفتح الميم.

وفي المادة نفسها: «مَرَدَ الخبزَ والتمر في الماء يَمْرُدُه مردًا أي ماثه حتى يلين».

وفيها: «مرد وهي من المرد أي هرس الخبز والتمر في الماء» وفيها: «ماث أي أذاب». وكلاهما مستعمل في اللهجة.

نشد:

«نشدت الضالة، إذا ناديت وسألت عنها».

وهي في اللهجة للسؤال عن كل شيء فيقال: نشدت فلانًا عن اسمه، أي سألته عنه.

نود:

«ناد الرجل نَوَادا: تمايل من النعاس».

وفي اللهجة فلان ينود، وجاءته النودة أي النعاس.

هود:

«والهوادة: السكون والرخصة والمحاباة».

وفي اللهجة يقال: هوّد الليل بمعنى سكن، ويقال للبائع: هاودني؛ أي أرخص لي في الثمن.

وقد:

«الوقود: الخطب». وهو معروف بهذا اللفظ.

وبعد فهذه نماذج من ألفاظ اللهجة الكويتية مقارنة بما يقابلها من اللغة الفصيحة، أرجو أن تكون دليلًا كافيًا على أصالة لهجتنا، وأن تكون سببًا داعيًا إلى محافظتنا عليها.

ولا ندعي أن هذا هو كل ما جاء في حرف الدال من الألفاظ الفصيحة المطابقة لألفاظ في اللهجة من كتاب لسان العرب، ولكن ما قدمناه إنما هو نماذج لذلك. وإذا استكمل القارئ بقية حروف هذا الكتاب الضخم فإنه سوف يجد بحرًا زاخرًا من ألفاظ اللهجة الكويتية.

****

الكويت في سنة ١٩٨١م (١)

ننهي في أيامنا هذه تسعًا وعشرين سنة منذ السنة التي نتحدث عنها في هذا المقال، وهي سنة ١٩٨١م. وقد مرت علينا خلال هذه الفترة من هذه السنة حتى سنتنا هذه وهي ٢٠٠٩م أمور كثيرة، وأحداث متنوعة، وشاهدنا من تقلبات الزمن الشيء الكثير. وإذا أردنا أن نثبت أحداث هذه المدة الطويلة فإننا سوف نحتاج إلى وقت طويل ومساحة أرحب، ولكننا هنا نكتفي بسنة واحدة هي التي ورد ذكرها في عنوان هذا المقال.

سنة ١٩٨١م من السنوات المليئة بالحركة والنشاط في الكويت بأسرها، وقد عمّ هذا النشاط أنماطًا كثيرة من سبل العمل المختلفة، ولذا فإننا على الرغم من اقتصارنا في الكتابة على سنة واحدة فنحن سوف نجمل الكثير من الأمور التي جرت خلالها حتى نستطيع أن نلم بأكبر قدر ممكن منها في مساحة محدودة هي المساحة التي اعتدنا اللقاء فيها كل أسبوع ضمن «الأزمنة والأمكنة».

كان من أهم أحداث سنة ١٩٨١م، ما تم في مساء اليوم الخامس والعشرين من شهر مايو للسنة ذاتها، إذ وَقَّع ملوك وأمراء دول الخليج العربية على النظام الأساسي لقيام مجلس التعاون الخليجي، وذلك في مدينة (أبو ظبي) خلال مؤتمرهم المعقود في هذه المدينة العربية، وقد كان النظام الذي تم التوقيع عليه ممثلًا لصيغة من صيغ التعاون والوحدة بين الدول الأعضاء، فهو كما جاء في

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٠/٦/٩م.

البيان الختامي لهذا اللقاء المهم: «صيغة مثلى تضم دولهم، وتتيح لها التعاون والتنسيق، وإيمانًا منهم بأهمية التعاون بين هذه الدول، واستجابة لرغبات شعوبهم في مزيد من التعاون، والعمل من أجل مستقبل أفضل».

كانت بداية محفوفة بالآمال، محاطة بالنوايا الحسنة والرغبات المخلصة، ولذلك فقد نجح مجلس التعاون الخليجي نجاحًا منقطع النظير، وأصبح على مدى السنوات التي لحقت نشأته يسير في خطى واسعة تدل على حرص أبناء هذه المنطقة على التعاون فيما بينهم، وعلى الاهتمام الكبير من حكومات وأهالي المنطقة بالعمل على احتضان هذه المؤسسة التي زادتها الأيام قوة ومناعة، واكتسبت احترام الدول الأخرى على مستوى العالم أجمع، كما اكتسبت رضا كافة أبناء المجلس مما زادهم حرصًا عليها.

وإتمامًا لما ذكرناه فيما سلف فإننا نشير هنا إلى أنه في يومي الخامس والعشرين والسادس والعشرين من شهر مايو لسنة ١٩٨١م، دعا الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان أصحاب الجلالة والسمو أعضاء المجلس الأعلى لدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية من أجل حضور أول اجتماع في مستواه بالنسبة للمجلس، وقد حضر الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح هذا الاجتماع الذي صدر عنه بيان ختامي لخص كل ما دار فيه، وكان هذا اللقاء هو الذي انبثق عنه مجلس التعاون القائم حاليًا مؤديًا مهمته لصالح أعضائه، ومما جاء في البيان الصادر في نهاية لقاء (أبو ظبي) ما يلي:

«اتفق أصحاب الجلالة والسمو فيما بينهم على إنشاء مجلس يضم دولهم يسمى مجلس التعاون لدول الخليج العربية، وقاموا بالتوقيع على النظام الأساسي للمجلس الذي يهدف إلى تطوير التعاون بين هذه الدول وتنمية علاقاتها وتحقيق التنسيق والتكامل والترابط، وتعميق وتوثيق الروابط والصلات القائمة بين شعوبها

في مختلف المجالات، وإنشاء المشاريع المشتركة، ووضع أنظمة متماثلة في جميع الميادين الاقتصادية والثقافية والإعلامية والاجتماعية والتشريعية، بما يخدم مصالحها ويقوي قدراتها على التمسك بعقيدتها وقيمها. كما قرر أصحاب الجلالة والسمو تعيين السيد عبدالله يعقوب بشاره أمينًا عامًّا لمجلس التعاون، وأن تكون مدينة الرياض بالمملكة العربية السعودية مقرًّا دائمًا للمجلس. وإدراكًا منهم لحتمية التكامل الاقتصادي بين دولهم والاندماج الاجتماعي بين شعوبهم يرون أن الظروف المرحلية التي تعيشها دولهم والقضايا والمشاكل المتشابهة التي تواجهها علاوة على تماثل نظمها الاقتصادية والاجتماعية التي تقضي بوجوب وضع الأسس وإقامة المؤسسات وإنشاء الأجهزة المؤدية إلى جعل ذلك التكامل والاندماج الاجتماعي حقيقة ماثلة للعيان.

وتحقيقًا لهذه الأهداف ووضعها موضع التنفيذ تمشيًا مع المادة الرابعة من النظام الأساسي قرروا إنشاء لجان متخصصة كما هو مبين بالتفصيل في ورقة العمل المرفقة التي تم إقرارها من قبل المجلس الأعلى. وقام أصحاب الجلالة والسمو باستعراض الوضع الراهن في المنطقة، وجددوا تأكيدهم بأن أمن المنطقة واستقرارها إنما هو مسؤولية شعوبها ودولها، وإن هذا المجلس إنما يعبر عن إرادة هذه الدول وحقها في الدفاع عن أمنها وصيانة استقلالها، كما أكدوا رفضهم المطلق لأي تدخل أجنبي في المنطقة مهما كان مصدره، وطالبوا بضرورة إبعاد المنطقة بأكملها عن الصراعات الدولية وخاصة وجود الأساطيل العسكرية والقواعد الأجنبية لما فيه مصلحتها ومصلحة العالم. وأعلنوا بأن ضمان الاستقرار في الخليج مرتبط بتحقيق السلام في الشرق الأوسط الأمر الذي يؤكد على ضرورة حل قضية فلسطين حلاً عادلاً يؤمن الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني بما فيه حقه في العودة إلى وطنه وإقامة دولته المستقلة ويؤمن الانسحاب الإسرائيلي من جميع الأراضي العربية المحتلة وفي طليعتها القدس الشريف».

البيان الختامي لهذا اللقاء المهم: «صيغة مثلى تضم دولهم، وتتيح لها التعاون والتنسيق، وإيمانًا منهم بأهمية التعاون بين هذه الدول، واستجابة لرغبات شعوبهم في مزيد من التعاون، والعمل من أجل مستقبل أفضل».

كانت بداية محفوفة بالآمال، محاطة بالنوايا الحسنة والرغبات المخلصة، ولذلك فقد نجح مجلس التعاون الخليجي نجاحًا منقطع النظير، وأصبح على مدى السنوات التي لحقت نشأته يسير في خطى واسعة تدل على حرص أبناء هذه المنطقة على التعاون فيما بينهم، وعلى الاهتمام الكبير من حكومات وأهالي المنطقة بالعمل على احتضان هذه المؤسسة التي زادتها الأيام قوة ومناعة، واكتسبت احترام الدول الأخرى على مستوى العالم أجمع، كما اكتسبت رضا كافة أبناء المجلس مما زادهم حرصًا عليها.

وإتمامًا لما ذكرناه فيما سلف فإننا نشير هنا إلى أنه في يومي الخامس والعشرين والسادس والعشرين من شهر مايو لسنة ١٩٨١م، دعا الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان أصحاب الجلالة والسمو أعضاء المجلس الأعلى لدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية من أجل حضور أول اجتماع في مستواه بالنسبة للمجلس، وقد حضر الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح هذا الاجتماع الذي صدر عنه بيان ختامي لخص كل ما دار فيه، وكان هذا اللقاء هو الذي انبثق عنه مجلس التعاون القائم حاليًا مؤديًا مهمته لصالح أعضائه، ومما جاء في البيان الصادر في نهاية لقاء (أبو ظبي) ما يلي:

«اتفق أصحاب الجلالة والسمو فيما بينهم على إنشاء مجلس يضم دولهم يسمى مجلس التعاون لدول الخليج العربية، وقاموا بالتوقيع على النظام الأساسي للمجلس الذي يهدف إلى تطوير التعاون بين هذه الدول وتنمية علاقاتها وتحقيق التنسيق والتكامل والترابط، وتعميق وتوثيق الروابط والصلات القائمة بين شعوبها

في مختلف المجالات، وإنشاء المشاريع المشتركة، ووضع أنظمة متماثلة في جميع الميادين الاقتصادية والثقافية والإعلامية والاجتماعية والتشريعية، بما يخدم مصالحها ويقوي قدراتها على التمسك بعقيدتها وقيمها. كما قرر أصحاب الجلالة والسمو تعيين السيد عبدالله يعقوب بشاره أمينًا عامًّا لمجلس التعاون، وأن تكون مدينة الرياض بالمملكة العربية السعودية مقرًّا دائمًا للمجلس. وإدراكًا منهم لحتمية التكامل الاقتصادي بين دولهم والاندماج الاجتماعي بين شعوبهم يرون أن الظروف المرحلية التي تعيشها دولهم والقضايا والمشاكل المتشابهة التي تواجهها علاوة على تماثل نظمها الاقتصادية والاجتماعية التي تقضي بوجوب وضع الأسس وإقامة المؤسسات وإنشاء الأجهزة المؤدية إلى جعل ذلك التكامل والاندماج الاجتماعي حقيقة ماثلة للعيان.

وتحقيقًا لهذه الأهداف ووضعها موضع التنفيذ تمشيًا مع المادة الرابعة من النظام الأساسي قرروا إنشاء لجان متخصصة كما هو مبين بالتفصيل في ورقة العمل المرفقة التي تم إقرارها من قبل المجلس الأعلى. وقام أصحاب الجلالة والسمو باستعراض الوضع الراهن في المنطقة، وجددوا تأكيدهم بأن أمن المنطقة واستقرارها إنما هو مسؤولية شعوبها ودولها، وإن هذا المجلس إنما يعبر عن إرادة هذه الدول وحقها في الدفاع عن أمنها وصيانة استقلالها، كما أكدوا رفضهم المطلق لأي تدخل أجنبي في المنطقة مهما كان مصدره، وطالبوا بضرورة إبعاد المنطقة بأكملها عن الصراعات الدولية وخاصة وجود الأساطيل العسكرية والقواعد الأجنبية لما فيه مصلحتها ومصلحة العالم. وأعلنوا بأن ضمان الاستقرار في الخليج مرتبط بتحقيق السلام في الشرق الأوسط الأمر الذي يؤكد على ضرورة حل قضية فلسطين حلاً عادلًا يؤمن الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني بما فيه حقه في العودة إلى وطنه وإقامة دولته المستقلة ويؤمن الانسحاب الإسرائيلي من جميع الأراضي العربية المحتلة وفي طليعتها القدس الشريف».

وكان الشيخ جابر الأحمد الجابر في مدينة الرياض في اليومين العاشر والحادي عشر من شهر نوفمبر لسنة ١٩٨١م، وذلك لحضور الدورة الثانية للمجلس الأعلى لمجلس التعاون لدول الخليج العربية. «وقد استعرض المجلس الوضع السياسي والاقتصادي والأمني في منطقة الخليج في ضوء التطورات الراهنة، وأعلن عزمه على مواصلة التنسيق في هذه المجالات، وذلك لمواجهة الأخطار المحيطة بالمنطقة وزيادة الاتصالات بين دول المجلس من أجل ردع هذه الأخطار. كما ناقش المجلس كل المحاولات التي تقوم بها القوى الأخرى التي تستهدف إيجاد مواقع لها في منطقة الخليج لتهديد أمنه وسيادته، وأعلن رفضه لهذه المحاولات التي تشكل خطرًا على المنطقة وشعبها وتهدف إلى تأمين نفوذ للقوى الأجنبية في المنطقة. وأكد مجددًا على أن أمن الخليج واستقراره هو من مسؤولية دوله وأعرب عن معارضته لمحاولات الدول الكبرى للتدخل في شؤون المنطقة لما يترتب على ذلك من إدخالها في صراع لا يتفق مع مصالح دولها وإرادة شعبها. كما أكد ضرورة إبعاد المنطقة بأكملها عن الصراعات الدولية خاصة وجود الأساطيل العسكرية والقواعد الأجنبية لما فيه مصلحتها ومصلحة الأمن والسلام في العالم».

وما جاء هنا بين علامتي تنصيص هو جزء من البيان الختامي للاجتماع الرئاسي المذكور.

وضمن أهداف مجلس التعاون سعى المجلس الأعلى في دورته الثانية التي عقدت في شهر نوفمبر ١٩٨١م بالرياض إلى إنجاز الاتفاقية الاقتصادية الموحدة التي ترسم خطة العمل الاقتصادي المشترك مع بيان مراحل التكامل والتعاون في مجال الاقتصاد بين دول المجلس، وهي - في الوقت نفسه - نواة للبرامج التكاملية المزمع تنفيذها على مدى السنوات القادمة، وبهذه المناسبة تشير دراسة الموضوع إلى عدة أمور مطلوبة، منها: تقريب وتوحيد الأنظمة والسياسات

والاستراتيجيات في المجالات الاقتصادية والمالية والتجارية، ومنها ربط البنى الأساسية بدول المجلس وتشجيع إقامة المشروعات المشتركة في هذا المجال. وقد وقعت الكويت على هذه الاتفاقية في سنة ١٩٨١م، والتزمت بها.

كان النشاط الاقتصادي في الكويت كبيرًا خلال سنة ١٩٨١م، بدليل نشأة عدد من المؤسسات التجارية والصناعية إضافة إلى ما رأيناه من حرص الكويت على الاتصال بالدول الأخرى من أجل التعاون في هذا المجال. ومن ذلك ما قامت به الشركة الكويتية للتجارة والمقاولات والاستثمارات الخارجية عندما وقعت اتفاقات مع شركة فرنسية حكومية لتأسيس شركة ذات رأس مال مشترك من أجل الاستثمار في مجال التعدين، وكان ذلك في شهر مارس من السنة المذكورة، وذلك برأسمال مقداره سبعة ملايين دينارًا. وفي سنة ١٩٨١م - أيضًا - تم إنشاء الشركة الكويتية لخدمات الطيران (كاسكو) وذلك في شهر أكتوبر من السنة ذاتها. واشترت الكويت كامل شركة سنتافي الأمريكية في شهر ديسمبر، وتم تأسيس الشركة الكويتية للاستكشافات البترولية الخارجية.

وإذا أردنا أن نذكر كل ما يتعلق بذلك فإن الأمر سوف يطول بنا ولكننا نذكر ما تم إنجازه - آنذاك - بإيجاز إذ تم إنشاء عدد من الشركات هي:

- **شركة الصناعات البلاستيكية.**
- **الشركة الكويتية للنقل البحري.**
- **الشركة الكويتية للتنمية الزراعية.**
- **الشركة الكويتية للمنتجات البتروكيماوية.**

وكلها شركات مساهمة، برساميل كبيرة.

هذا بالإضافة إلى عدد آخر من الأنشطة المصاحبة، وكان مما يتعلق بهذا افتتاح ميناء الدوحة التجاري في السنة ذاتها.

وفي العدد الصادر في اليوم الثاني من شهر فبراير لسنة ١٩٨١م من جريدة «الكويت اليوم» الرسمية، ورد المرسوم بقانون رقم ١٢ لسنة ١٩٨١م الخاص بالموافقة على انضمام الكويت إلى الاتفاقية الدولية الخاصة بحق التدخل في حالة وقوع حادث تسبب عنه تلوث في أعالي البحار، وهي الاتفاقية التي تم عقدها في سنة ١٩٦٩م. ولقد كان حرص الكويت شديدًا على التوقيع على مثل هذه الاتفاقية لأنها معرضة لحوادث تؤدي إلى التلوث وبالتالي فإنها تستطيع أن تعمل ما هو في صالحها إذا صادفت مشكلات من هذا النوع حتى ولو كانت بعيدة عنها.

كانت الاتفاقية الدولية الخاصة بالمسؤولية المدنية المترتبة على أضرار التلوث بالنفط قد اعتمدت دوليًّا في سنة ١٩٦٠م، وصدر البروتوكول المنظم لها في سنة ١٩٧٦م.

وفي اليوم الرابع والعشرين من شهر يناير لسنة ١٩٨١م صدر المرسوم بقانون رقم ٩ لسنة ١٩٨١م بشأن انضمام الكويت إلى الاتفاقية المذكورة، نظرًا لما وجدته من جدوى للانضمام إليها كما جاء في نهاية المذكرة الإيضاحية الملحقة بالمرسوم الموقع من قبل الشيخ جابر الأحمد الجابر، وكان نص ذلك هو «ونظرًا لأن هذه الاتفاقية تضمن لدولة الكويت الحصول على التعويض العادل إذا ما تعرضت شواطئها ومياهها للتلوث بسبب النفط، لذلك فإن مصلحة دولة الكويت تتطلب الانضمام إلى هذه الاتفاقية».

وفي اليوم السادس من شهر ديسمبر لسنة ١٩٨١م تم التوقيع بين دولة الكويت وحكومة النمسا الاتحادية على اتفاقية للتعاون الاقتصادي والصناعي والفني بين الدولتين.

تتكون الاتفاقية من ست مواد، ذكرت المادة الأولى منها أن الدولتين تسعيان إلى دعم التعاون الاقتصادي والصناعي والفني بينهما. ونصت المادة الثانية على أنواع التعاون التي يمكن أن تتم بموجب هذه الاتفاقية. وهكذا سارت بقية المواد على هذا النمط الموضح لطبيعة الاتفاقية والمؤكد التزام الدولتين بها.

ولما كان توقيع الاتفاقية قد تم في الشهر الأخير من سنة ١٩٨١م، فقد صدر المرسوم الأميري بالموافقة عليها في اليوم الثامن من شهر فبراير لسنة ١٩٨٢م، ووقعه الشيخ جابر الأحمد الصباح.

في اليوم السادس عشر من شهر ديسمبر لسنة ١٩٨١ وقع الشيخ جابر الأحمد الصباح مرسومًا بالموافقة على اتفاق النقل الجوي بين الكويت وجمهورية كوريا، ونشر في العدد رقم (١٣٩٠م) من جريدة «الكويت اليوم» الرسمية.

والمرسوم مكون من مادتين الأولى منهما تنص على ما يلي: «ووفق على اتفاق النقل الجوي بين دولة الكويت وجمهورية كوريا، والجدول الملحق به» وثاني المادتين تطلب من الوزراء كل فيما يخصه تنفيذ هذا المرسوم، كما تطلب من رئيس مجلس الوزراء إبلاغه إلى مجلس الأمة.

وقد وقع على هذا المرسوم إضافة إلى سمو الأمير كل من رئيس الوزراء - آنذاك - سمو الشيخ سعد العبدالله السالم، وسمو الشيخ صباح الأحمد الجابر، وكان نائبًا لرئيس الوزراء وزيرًا للخارجية.

وفي سنة ١٩٨١م - أيضًا - تم إشهار عدد من الجمعيات التعاونية سواء أكانت من الجمعيات التي تعني بمناطق السكن وتعرض فيها المنتجات الاستهلاكية وتقدم للمنطقة القائمة فيها بعض الخدمات أم تلك الجمعيات التعاونية التخصصية، وهذه نماذج لما تم إشهاره في هذه السنة:

١ - تم إشهار النظام الأساسي لجمعية مربي الدواجن التعاونية بموجب القرار الوزاري الموقع من قبل وزير الشؤون الاجتماعية والعمل، وقد صدر القرار ومعه ملخص النظام الأساسي لهذه الجمعية، وهو يبين أسلوب عملها، ونظام مجلس إدارتها وكل ما يتعلق بأعمال أعضائها.

٢ - وفي السنة ذاتها صدر القرار الوزاري رقم ١٧ لسنة ١٩٨١م بإشهار النظام الأساسي لجمعية مربي حيوانات التربية والتسمين التعاونية، وذلك بتوقيع وزير الشؤون الاجتماعية والعمل. وقد بدأت هذه الجمعية في أداء أعمالها فور صدور القرار الوزاري.

٣ - وفي السنة ذاتها صدر القرار الوزاري رقم ٤١ بشأن إشهار اتحاد أصحاب المهن الطبية الأهلية، واشترط وزير الشؤون الاجتماعية والعمل في قراره هذا أن يلتزم الاتحاد في ممارسته لنشاطه بأحكام قانون العمل في القطاع الأهلي، والقرارات الوزارية الصادرة تنفيذًا له، وأن يلتزم - كذلك - بأحكام لائحة النظام الأساسي للاتحاد.

٤ - وبموجب القرار الوزاري رقم ٤٢ لسنة ١٩٨٢م تقرر إشهار جمعية بيان التعاونية، وهي إحدى الجمعيات التعاونية الاستهلاكية التي تخدم مناطق الكويت المختلفة كل منها يقوم بعمله في موضع معين.

أعلن وزير الشؤون الاجتماعية والعمل بموجب القرار الوزاري المشار إليه إشهار هذه الجمعية لتعمل في نطاق منطقة بيان السكنية المعروفة لدى الجميع. وأرفق مع القرار ملخصًا للنظام الأساسي لها، وهو النظام الذي ينبغي أن تسير عليه في جميع أعمالها ملتزمة بكل الأنظمة المقررة والقوانين السائدة في البلاد.

هذا وفي اليوم الحادي عشر من يناير ١٩٨١م تم إشهار جمعية مشرف التعاونية.

٥ - ومن الجمعيات التعاونية التي أشهرت في سنة ١٩٨١م جمعية العبدلي الزراعية التعاونية، وكان إشهارها بموجب القرار الوزاري رقم ٥٦، الذي ألحق به ملخص للنظام الأساسي المنظم لعمل هذه الجمعية، وهو يحدد أعداد أعضاء مجلس إدارتها وطريقة إدارة أموال الجمعية، ويحدد رأس المال الذي تبدأ به عملها.

ومما يجدر بنا ذكره أن وزير الشؤون الاجتماعية والعمل في ذلك الوقت كان هو الأستاذ حمد عيسى الرجيب.

وفي سنة ١٩٨١م تم إنشاء وافتتاح عدد من المستشفيات فانتقلت الخدمة الصحية في البلاد نقلة واسعة إلى الأمام نظرًا إلى أن هذه المستشفيات قد وفرت عددًا كبيرًا من الأسرة، وضمت أجهزة ومعدات طبية مهمة، واعتنت بالمختبرات وأجهزة التصوير الشعاعي وما إلى ذلك مما يهم العاملين في هذه المستشفيات ويسرع في علاج المرضى الذين يتقدمون إليها طلبًا للشفاء، كما اهتمت وزارة الصحة العامة بتزويد المستشفيات الجديدة بحاجتها من العاملين في مختلف التخصصات، فوفرت الأطباء والممرضين وكافة ما يقتضيه العمل من العاملين، وهذا بعض ما أنجز آنذاك:

- مستشفى مبارك الكبير وموقعه معروف فهو على الطريق الدائري الرابع بجوار مركز العلوم الطبية، في الأرض التي كان عليها قصر بيان الذي كان يسعد الشيخ أحمد الجابر الصباح أن يمضي به أيامًا من ربيع كل سنة، ولما كان القصر قد تداعى لعدم الصيانة بعد وفاة الشيخ أحمد الجابر، وبعد أن أحيط من كل جهة بالمساكن والطرق، وجد أن من الأفضل استغلال مساحته لبناء هذا المستشفى الذي أطلق عليه: مستشفى مبارك الكبير تيمنًا باسم القائد الكبير الشيخ مبارك الصباح الذي كانت له أعمال باهرة لا يغفلها تاريخ الكويت إلى الأبد.

وصل هذا المستشفى إلى مراحله الأخيرة من الإنجاز في أواخر سنة ١٩٨١م وتم افتتاحه مباشرة في أول السنة اللاحقة (يناير ١٩٨٢م)، وهو يخدم سكان محافظة حولي بكاملها، وبه عدد كبير من الأقسام والتخصصات التي لا يوجد مثلها في المستشفيات الأخرى في البلاد، ولذا فهي متاحة لكافة سكان الكويت. وبالإضافة إلى ما يقدمه المستشفى من خدمات طبية، فإنه يؤدي مهمات ضرورية بالنسبة لطلبة كلية الطب المجاورة له وأساتذتها.

مستشفى مبارك الكبير بما يضم من أجنحة ومراكز طبية وما يجاوره من الأماكن المرتبطة بالجسم الطبي مثل مركز العلوم الطبية التابع لجامعة الكويت، وبنك الدم أصبح مركزًا له أهميته في تقديم الخدمة الصحية وصار محط الأنظار، وسبقته سمعته الطبية إلى خارج البلاد.

- في اليوم الثامن عشر من شهر فبراير لسنة ١٩٨١م تم تأسيس مستشفى الجهراء، وبدأ منذ ذلك الوقت في تقديم الخدمات الصحية لسكان المنطقة المحيطة به، وكان يضم وقت بدء العمل به مائة وعشرين سريرًا خُصص منها ثلاثون سريرًا لمرضى الفشل الكلوي، وتسعة عشر سريرًا لأمراض النساء والولادة. وكان مكونًا من طابقين يضمّان واحدًا وعشرين جناحًا عامًّا وأربع وحدات للعناية المركزة، بالإضافة إلى قسم للعمليات، وآخر للحوادث، إضافة إلى العيادات الخارجية، والمرافق المساعدة. وقد تم تزويد كل جناح بما يلزمه من إمكانات مختلفة تضم الأجهزة والأدوات الطبية، واحتياجات الطوارئ من أوكسجين مركزي وأجهزة شفط.

وقد جرت على المستشفى توسعة رفعت طاقته إلى ثمانمائة وواحد وستين سريرًا، ولا تزال الأعمال التوسعية والمباني المفيدة المؤدية إلى تحسين الخدمة الطبية للمستشفى تسير على قدم وساق.

وبالنظر إلى تزايد حاجة المواطنين إلى ما يقدمه لهم مستشفى الجهراء من خدمات في المجال الصحي ولتزايد أعداد السكان في المنطقة واتساعها فإن المستشفى يخضع حاليًّا لأعمال توسعة أخرى ترفع من طاقته بحيث يضاف إليه خلال سنة ٢٠٠٩م ما مجموعه (٢٤٠) سريرًا.

إن مستشفى الجهراء منذ نشأته وهو يسير في خطى متسارعة إلى تقديم خدمات جديدة، ويضيف إلى أقسامه الطبية كل جديد، وسوف يستمر في خطته لتحسين العمل إن شاء الله.

- مستشفى ابن سينا من أهم وأكبر مستشفيات الكويت، وهو ضمن منطقة الصباح الطبية، ولكنه منفرد بمبانيه وهيئته الطبية، ونظام عمله، ويضم عدة مراكز تخصصية منها: مركز البابطين للحروق وجراحة التجميل، ومركز حامد العيسى لزراعة الأعضاء، ومركز محمد عبدالرحمن البحر لجراحة العيون، ومركز خالد عبدالمحسن النفيسي لغسيل الكلى.

تم افتتاح مستشفى ابن سينا في اليوم الثامن عشر من شهر فبراير لسنة ١٩٨١م، وكان يضم - آنذاك - مائتين وتسعة وسبعين سريرًا وقد تم التوسع فيه بعد ذلك.

وفي هذا المستشفى قسم مهم لجراحة الأعصاب، يؤدي خدمة كبرى للمحتاجين إليه من المواطنين، وهو في الوقت نفسه مركز من مراكز تدريب طلاب الطب، والأطباء الجدد على هذا الفرع من الفروع الطبية التي لا يمكن إغفالها ونحن في غنى عن القول بأن مستشفى ابن سينا يضم أحدث المعدات الطبية التي تسهل عمل الأطباء العاملين فيه، وبه عدة فروع لكافة أنواع المختبرات والأشعة، وما إلى ذلك. وهو يؤدي واجبه الطبي على خير وجه بحيث صار واجهة مشرقة للعمل الصحي في بلادنا، الأمر الذي يكسبنا الاعتزاز والفخر.

واستمرارًا للأعمال الطبية المستخدمة في سنة ١٩٨١م نذكر ما يلي:

سعت الكويت إلى إنشاء منظمة تعني بالطب الإسلامي، يكون له دور في الأبحاث الطبية، من علاج، ومن أدوية تعتمد على الأعشاب وما شابهها، وتهتم في الوقت نفسه بالنواحي الأخلاقية التي ينبغي أن تميز الطبيب المسلم.

نشأت المنظمة في الكويت، وصار لها دور مهم في مجال عملها، وانضمت إليها دول إسلامية عدة مما اقتضى عقد مؤتمر ينظم العمل بين هذه الدول، فكان أول مؤتمر لمنظمة الطب الإسلامي هو الذي تم انعقاده في الكويت في اليوم الثاني عشر من شهر يناير لسنة ١٩٨١م، وقد اهتمت البلاد كثيرًا بهذا اللقاء وحرصت على أن يكون ناجحًا لأهمية الدور المعلق عليه، ولذلك فقد بذلت جهود كثيرة من قبل الحكومة في سبيل إنجاحه، وقد تم ذلك، وقطعت منظمة الطب الإسلامي أشواطًا بعيدة في عملها بعد هذا المؤتمر، الذي كانت به البداية الطيبة للنشاط الطبي الإسلامي.

وفي المجال التربوي تم في سنة ١٩٨١م قيام عدة أنشطة مهمة لابد من ذكرها في هذا المقال حتى نكون قد استكملنا ذكر حركة الوطن في هذه السنة، ونكون قد تحدثنا عن مجالات متنوعة من مجالات الحراك الوطني في هذا الوقت المهم من تاريخنا.

ذلك لأن وزارة التربية قد بدأت هنا في الخروج عن نظام المركزية في العمل فأنشأت في ١٩٨١/٣/٣م نظام المناطق التعليمية، وكانت أول منطقة تستقل بعملها هي منطقة الأحمدي التعليمية.

وكان الاتجاه إلى تطبيق هذا النظام نتيجة دراسة شاملة دعت نتائجها إلى إقراره، وقد نص القرار الوزاري رقم ٤٦ لسنة ١٩٨١م على الاختصاصات التي تتمتع بها كل إدارة من إدارات المناطق في المجال التعليمي، وفي مجالات الخدمات الإدارية المتعددة، مع بيان علاقة إدارات المناطق بباقي الإدارات الموجودة في الوزارة.

وفي ١٤ مارس سنة ١٩٨١م عقدت الوزارة اتفاقية مع جامعة مانشستر بوليتكنيك البريطانية، وذلك من أجل التعاون على تنفيذ مشروعات تهدف إلى تطوير وتحديث التعليم الفني (التطبيقي) بالكويت.

كما صدر في ١٩٨١/٧/٢٧م قرار تنظيم تنفيذ الاتفاقية التي تمت بين وزارة التربية وجامعة فلوريدا الأمريكية، وتنص هذه الاتفاقية على أن تقوم الجامعة المذكورة في الفترة من ١٩٨١/١٠/١م وحتى ١٩٨٢/٩/٣٠م على تسهيل قبول الطلاب الكويتيين فيها، وتدريب عدد من العاملين في مجال التعليم بالكويت، بالإضافة إلى القيام بمراجعة تحليلية أولية لمتطلبات برنامج التقويم الذاتي لمعاهد التعليم الفني والمهني، وإجراء مراجعة عامة، ودراسة تحليلية، وتقديم مقترحات وتوصيات بالنسبة لخمسة برامج دراسية مزمع إنشاؤها في الكويت ذكرت في الاتفاقية تفصيلًا.

وقد قام نتيجة لهذا الاتفاق مشروع التقويم الذاتي لمعاهد التعليم الفني والمهني بالتعاون مع هيئة اعتماد برامج المعاهد والكليات الواقعة في جنوبي الولايات المتحدة بإشراف جامعة فلوريدا، وقد استغرق هذا التقويم العلمي لمعاهدنا وفق المعايير العالمية مدة عامين، اختتم بزيارة وفد من هيئة الاعتماد للتحقق من التزام

التقويم الذي أجرى للمعاهد بالقواعد المتبعة وأسفر ذلك عن اعتماد شهادات معاهدنا في الولايات المتحدة ويُعتبر هذا التقويم الذاتي الذي تم هو الأول من نوعه في أي بلد عربي.

وإذا أردنا المزيد من الحديث عن الإنجازات التي تمت في سنة ١٩٨١م، فإننا سوف نجد الكثير، ولئن كنا قد ذكرنا بعضها فإننا ينبغي ألا ننسى أن هذه السنة شهدت انتخاب مجلس الأمة، وتشكيل الوزارة الحادية عشرة برئاسة سمو الشيخ سعد العبدالله السالم الصباح، وشاركت الكويت في مؤتمر القمة الإسلامية الثالث الذي عقد في مكة المكرمة والطائف في اليوم الثامن والعشرين من شهر يناير ١٩٨١م، وكان وفد الكويت برئاسة سمو الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح.

وفي هذه السنة تم إنشاء مجلس حماية البيئة، كما تم في الكويت أول اجتماع لمجلس المنظمة الإقليمية لحماية البيئة، وذلك في شهر أبريل من السنة ذاتها.

ولعل فيما قدمناه الكفاية، مع الأمل بمتابعة أخرى.

****

الشقايا، الشجي في الواقع والتاريخ(١)

من المواقع الكويتية المعروفة منطقة الشقايا، وهي منطقة صحراوية بها كميات غزيرة من المياه وكلها غير عذبة، وبها بعض المزارع وأماكن تربية الماشية، والشقايا أرض مكشوفة ليس فيها من المباني إلا النزر اليسير، وليس بها سكان عدا العاملين في المزارع أو بعض المراكز الحكومية التي اقتضت الضرورة إقامتها هناك.

موقع الشقايا في غربي الكويت بالقرب من مركز السالمي الحدودي يقع على مسافة ١٢٧ كيلو مترًا من العاصمة، وبالقرب منه مخفر للشرطة.

منذ فترة ومنطقة الشقايا وما أحاط بها محط أنظار المسؤولين عن الزراعة والمياه وقد جرت فيها أبحاث كثيرة واتضح أن الشقايا تضم على ضوء المسح شبه التفصيلي للتربة ما يقرب من عشرين ألف دونم من الأراضي الصالحة للزراعة، وبها - بحسب المسح أيضًا - خزان جوفي كبير للمياه يضم كمية منها تفيد ما يمكن أن يقام على هذه المساحة من زراعات، وفيما يتعلق بالمياه فإنها وإن لم تكن عذبة إلا أنها قليلة الملوحة إذ تصل ما بين ٣٥٠٠ و ٤٥٠٠ جزء في المليون.

في شهر ديسمبر لسنة ١٩٨٠م جرت دراسة ميدانية للتعرف على المظاهر المتعددة لأنشطة الاستخدام الزراعي في الشقايا وما حولها. وقد اتضح أن استغلال الموقع لم يكن كاملًا بحيث يتم الاستفادة من كافة إمكاناته في هذا المجال، وإن كان يضم - آنذاك - شركتين من كبريات شركات تربية الدواجن في الكويت هما الشركة الكويتية المتحدة للدواجن، وشركة المباركية للدواجن.

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٠/٦/١٦م.

هذا وقد قامت إدارة المساحة ببلدية الكويت بإعداد مخططات تحدد الأراضي الصالحة للزراعة في المنطقة تمهيدًا لتوزيعها على المهتمين بهذا النشاط.

ولما كانت هناك خشية من عدم تمكن هؤلاء المهتمين من إنجاز هذه الأعمال المهمة، وذلك له تأثير على احتياجات البلاد من المواد الغذائية فقد جاء اقتراح قدمه الخبير الاستراتيجي كولن بوكانن في تقريره حين أشار إلى ضرورة إنتاج الخضراوات القابلة للتخزين مثل: البطاطس والبصل والثوم، وهي نباتات يمكن أن تعيش على نوعية المياه المتوافرة في الشقايا، يضاف إليها البرسيم المساعد على تربية المواشي إذ هو من أهم الأعلاف لها.

ولا داعي هنا للإشارة إلى باقي ما ورد في الدراسة التي أشرنا إليها فهي تتحدث عن تطور المساحة الزراعية في المنطقة، وعن تطوير الموارد المائية، وعن توفير الأسمدة اللازمة للزراعة، وعن حماية المزروعات بمصدات الهواء من الأشجار وعن الإرشاد الزراعي وتطوير المزارع القائمة وغير ذلك.

بعد هذا الاستعراض للوضع القائم في منطقة الشقايا نعود إلى الحديث عن الشقايا في الماضي لكي نلم بما دار فيها أو حولها من أحداث، وذلك من أجل ربط ماضينا بحاضرنا كما تعودنا عند الحديث عن الأماكن الكويتية بصورة عامة، وذلك أمر مهم يساعد على تدوين تاريخ الكويت القديم، ويجلب إلى الأذهان الصورة التي كانت عليها منطقتنا في العصور السالفة.

إن موضع الشقايا الذي تم اكتشاف المياه فيه إبان سنة ١٩٦٣م موضع معروف منذ القدم، ومشهور بوجود المياه فيه أيضًا. والشقايا لها اسم قديم معروف في كتب الأمكنة هو: الشجي. وممن ذكر هذا الموضع قديمًا ياقوت الحموي في كتابه «معجم البلدان» (٣/٣٢٦)، وقد قال عنه: الشجي: بكسر الجيم، يقال: الشجا، مقصور، ما ينشب في الحلق. وهو ريؤ من الأراض داخل في بطن فلج، فشجي به الوادي، يقول

ياقوت بعد ذلك: «قال السكوني: والطريق من المدينة إلى البصرة يسلك من الشجي والرحيل في القف ثم يأخذ في الحزن على الوقباء، وبين الشجي وحفر أبي موسى ثلاثون ميلًا» ثم يقول: «وقيل: الشجي على ثلاث مراحل من البصرة» ونقل عن نصر قوله: «والشجي ظرب قد شجي به الوادي، فلذلك سمي الشجي».

ثم يورد الحموي بيتين من الرجز هما:

كأنها بين الرَّحيل والشَّجي

ضاربةٌ بخفِّها والمنسجِ

وهذه بعض البيانات عما سبق من أمور تحتاج إلى إيضاح بعد أن أجملناها:

١ - ريؤ: تل صغير.

٢ - فلج هو وادي الرمة (وادي الباطن).

٣ - السكوني: هو: أبو عبدالله أو عبيد الله، أحمد بن الحسن السكوني، عالم باللغة وأسماء الأماكن له كتاب في أسماء مياه العرب، عاش في القرن الرابع الهجري زمن الدولة العباسية.

٤ - القف، والحزن، والوقباء.

كلها مواقع وأشكال سطحية في داخل المملكة العربية السعودية، قريبة من حدود الكويت.

٥ - نصر: بن عبدالرحمن الإسكندري، أديب له اهتمام بالمواقع الجغرافية، يدل عليه كتابه المطبوع «الأمكنة والمياه والجبال والآثار ونحوها» توفي في سنة ١١٦٦م.

٦ - ظرب: أكمة صغيرة.

٧ - حفر أبي موسى: الحفر المعروف حاليًا، وكان سيدنا أبو موسى الأشعري قد حفر فيه آبارًا لإرواء الحجاج.

وبحسب الوصف الذي قرأناه معًا فإنه من الواضح أن الشجي قديمًا كان أوسع من منطقة الشقايا الحالية بحيث يحل جزء منه في الوادي. وهذا الأمر غير مستغرب فإن عددًا كبيرًا من الأماكن تتغير مساحتها كما رأينا عند الحديث عن «كاظمة».

وفيما يتعلق بالشجي فإننا نذكر حادثة مهمة وردت في أخبار الحجاج بن يوسف الثقفي، حين كان واليًا على العراق. وقد ذكرها ياقوت الحموي استكمالًا لحديثه السابق فقال: «ومات قوم بالشجي عطشًا في أيام الحجاج، والشجي منزل من منازل طريق مكة من ناحية البصرة، فاتصل خبرهم بالحجاج، فقال: إني أظن أنهم دعوا الله حين بلغ بهم الجهد، فاحفروا في مكانهم الذي كانوا فيه لعل الله أن يسقي الناس. فقال رجل من جلسائه: وقد قال الشاعر:

تـراءتْ لـهُ بـينَ اللـوى وعـنـيـزة
وبـينَ الشَّجي ممـا أحـالَ علـى الـوادي

وما تراءت له إلا على ماء وقد صح عزم الحجاج حين سمع هذا البيت وهو للشاعر امرئ القيس. وبدأ في تنفيذ ما خطر له، يقول ياقوت: «فأمر الحجاج عبيدة السلمي أن يحفر بالشجي بئرًا فأنبط ماء لا ينزح».

وقد وردت حكاية الحجاج هذه في عدد من المراجع الأخرى نذكر منها: عيون الأخبار لابن قتيبة (ج ١ ص ١) ولسان العرب (مادة شجا). وهكذا تم توفير الماء الصالح للشرب في هذه المنطقة التي كان المار بها يموت عطشًا لعدم توافر المياه. وهذا اهتمام من الحجاج بطريق الحج وبالعابرين فيه وإن كان الموقع خارجًا عن مسؤوليته الإدارية فهذه المنطقة التي فيها الشجي لا تخضع لوالي البصرة.

ولكنه قصد إلى عمل شيء ينقذ الحجاج والمسافرين فتم له ذلك.

وعنيزة المذكورة في شعر امرئ القيس قطعة صخرية سوداء في وسط الوادي. وليست تلك البلدة المعروفة بالمملكة العربية السعودية.

واللوى: الأرض المستوية عند نهاية مجتمع الرمال.

وفي الديوان «بين النقا وعنيزة»، والنقا: كثبان رملية.

ونلتفت هنا إلى مرجع آخر من المراجع التي أوردت ذكر الشجي وما حوله، وفيها إضافات على ما ورد عند ياقوت الحموي في معجمه. وهذا المرجع هو «كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، وهو منسوب إلى أبي إسحق الحربي، وقد حققه العلامة حمد الجاسر ونشره في سنة ١٩٦٩م. عمد المؤلف إلى وصف طريق الحج كاملًا من البصرة، و أورد ذكر عدد من المواقع التي يمر بها الحاج في هذه الطريق، ومنها «الشّجي». ومن الأماكن التي ذكرها - أيضًا - موضع يقال له الحفير، قال عنه: «وهو أول المنازل في البر» وقال: إن الأصمعي ذكر أن الحفير بئر يبعد عن البصرة مسافة واحد وثلاثين ميلًا».

وتحدث الحربي عن موقع الحفير فقال: «وكان يقال للحفير: حفير الملح، لأن ماءه كان مالحًا لا يصلح للشرب، ولم تزل هذه صفته حتى أرعى محمد بن سليمان إبلاً لهُ هناك، فأتاه رجل من «قبيلة» باهلة، فاستأذنه أن يحفر بئرًا بالحفير، فأذن له، فأنبط بئرًا عذبة، فاشتراها محمد بن سليمان منه بعشرة آلاف درهم، فشرط «الباهلي» أن يأذن له في حفر «بئر» أخرى، فأذن له، فجاءت عذبة، ثم حفر محمد «البئر» الثالثة، فكانت كذلك.

ومحمد بن سليمان هو: محمد بن سليمان بن علي بن عبدالله بن عباس. وهو من رجال الدولة العباسية وأحد أفراد الأسرة العباسية.

وذكرت من المناطق القريبة من الشقايا غير ما سبق ذكره منطقة اسمها الرحيل، ذكرها - أيضًا - الحربي صاحب كتاب المناسك الذي أشرنا إليه فقال: «ومن الحفير إلى الرحيل ثمانية وعشرون ميلًا، وبالرحيل اليوم آبار كثيرة» ثم أضاف: «ومن الرحيل إلى الشجي تسعة وعشرون ميلًا» ثم خرج عن المنطقة فقال: «وعلى خمسة وعشرين ميلًا من الشجي بركة وآبار يقال لها بركة الرقيعي». وقد قلنا: إنه خرج عن المنطقة لأن الرقيعي المذكور هو ما يسمى اليوم: الرقعي، وهو في داخل حدود المملكة العربية السعودية.

كان من هذه المواضع التي مرت بنا أسماؤها ما يطلق عليه اسم (الرحيل) وهو مذكور في الخريطة الكويتية على الجهة الغربية لوادي الباطن (وادي الرُّمَة) ولاشك في أن وضعه السابق كان أوسع مما هو عليه اليوم، إذ يمتد من داخل الحدود الكويتية شرقًا إلى خارجها غربيًا، وذكر هذا الموضع المذكور على الخريطة حاليًّا، وكذلك الرقيعي الذي قلنا: إنه هو الرقعي المعروف دليل على أن الشجي هو الشقايا الحالية بحسب الوصف الذي قدم للموضعين، وأما الحفير الذي مرّ بنا ذكره، فهو فيما يبدو منطقة قريبة حيث توجد المياه. ولقد كان الحفير من أماكن تجمع جيش سيدنا خالد بن الوليد يوم معركة ذات السلاسل ومن الحفير انتقل إلى كاظمة ثم واصل زحفه.

بعد هذا تبدو لنا مسيرة الحجاج القادمين من البصرة جلية، فهم يحلون أولًا في الحفير الذي هو أول المنازل في البر، ثم الرحيل، ثم الشجي ثم الرقيعي (الرقعي). وهناك أرجوزة تصف طريق الحج من هنا وهي من نظم وهب بن جرير الجهضمي، وهو من المحدثين الحفاظ، كانت وفاته في سنة ٢٠٦هـ.

ومما أشار به إلى الشجي قوله عن المطايا المتجهة في طريقها إلى أداء مناسك الحج:

حتى إذا مرت على الشجيِّ
واصلة الغدو بالعشيِّ
تجتاب موماة[1] فلاة قيِّ

تحتاج هذه المنطقة منا إلى اهتمام من جميع الجوانب فهي تخبرنا عن كنوز متنوعة فيها لابد من اكتشافها والاستفادة منها، ولقد تركت زمنًا طويلًا دون أن يلتفت إليها أحد إلا في الحالتين اللتين ذكرناهما. ولا ننسى هنا التنويه عن ضرورة البحث عن الآثار في الشقايا وما حولها إذ إن الأحداث التي مرت تدل على أنه لابد وأن تكون هناك بعض البقايا التي يكشف التنقيب عنها.

هذه إشارة، والحركة بركة كما يقولون.

****

(1) الموماة: الصحراء المترامية، والقي: القفر.

ملحاق خير

نتحدث دائمًا عن المناطق الكويتية قائلين: إن لأكثرها ذكرًا في التاريخ، وقد أوردنا ذكر عدد كبير من هذه الأماكن التي وردت في كتب معاجم البلدان على اختلافها، إلا أن بعض الأماكن الكويتية لم تذكر في هذه الكتب ولكنها ذات اسم قديم ورد في أشعار العرب القدماء، ولما كان الشعر هو ديوان العرب كما يقال قديمًا فإن تسجيل أسماء هذه الأماكن فيه دليل قاطع عليها وعلى وجودها.

هذا هو الشاعر نهشل بن حري بن ضمرة، وهو شاعر تميمي من بني دارم يصل نسبه إلى مالك بن زيد مناة بن تميم. وهو مخضرم عاش إلى أن تولى معاوية الخلافة. وهو من المعروفين بالإجادة، وله ديوان مطبوع إضافة إلى ما ورد له من قصائد في كتب المختارات الشعرية. كانت قد حدثت له حادثة ألجأته إلى بني سعد بن زيد مناة وهم من سكان المنطقة التي نعيش فيها اليوم فقال قصيدة بهذه المناسبة ذكر فيها موضعين من المواضع الكويتية المعروفة في أيامنا هذه، وهما - أيضًا - مذكوران في خريطة الكويت بكافة طبعاتها، وهذان الموضعان هما: الأديرع واللياح وكلاهما يقع على الطريق الممتد إلى الشقايا كما وصفناه في المقال، وهما على يسار القادم من الشمال إلى الجنوب، بموجب طريق الحج الذي ذكرناه.

فالأديرع هو موقع صحراوي بجواره منطقة تدعى أم المدافع في شمال غرب البلاد، وبه مركز حراسة تابع لوزارة الداخلية، تجري فيه بعض الأنشطة العسكرية أحيانًا.

أما اللياح فهو منطقة واسعة ممتدة على شكل قوس كبير يبدأ من منتصف طريق العبدلي في شمالي الكويت، ثم يمتد إلى الجنوب الغربي واللياح من المناطق التي يكثر فيها الحصى الذي يلتقط لأعمال البناء. وبه خبرة تسمى: خبرة اللياح.

قصيدة نهشل التي أشرنا إليها مكونة من ستة وثلاثين بيتًا بدأها بالغزل على عادة الشعراء العرب وتدرج بها حتى وصل إلى غرضه، ويرى فيها قارئها عددًا كبيرًا من أسماء المواقع المنتشرة في أنحاء جزيرة العرب، ومنها بعض المواقع التي تقع ضمن بلادنا ولكن البحث عنها يحتاج إلى وقت لأن كثيرًا من أسماء الأماكن قد تغير على مر الزمن، وأصبح الاسم القديم لا يردُ على ألسنة الناس إلا ما قلّ وندر مثل عدد من الأماكن التي ذكرناها فيما سبق ومثل هذين الموقعين اللذين بدأنا بإيراد ذكرهما وهما: الأديرع واللياح.

يقول نهشل في الجزء الذي ذكر فيه هذين الموضعين من قصيدته التي شرحنا ظروف نظمه لها:

وما أدماءُ مؤلفةُ سلامًا
وسدرا بينَ تنهيةٍ وراحِ
بأحسنَ من تماضرَ يومَ قامت
تودعُنا لبينٍ فانسراح
ألا أبلغ بني قَطَنٍ رسولا
كلامَ أخٍ يعاتبُ غيرَ لاح
فما فارقتهم حتى أظنوا
وبين من شوا كلهم نواحي
وما تُخلي لكم إبلي إذا ما
رعت قُطمانَ أو كتفى ركاح

ولم تحموا على نعم ابن سوْرٍ

صوامَ إلى أذيرعَ فالليّاح

يقول: لا نجد ظبية بيضاء اللون جميلة ترعى شجر السلام والسدر آلفةً له. وذلك بين موضعين في البادية هما: تنهية وراح. لا تجد هذه الظبية بأجمل من تماضر التي يهواها الشاعر وقد وقفت للوداع مسرعة بالرحيل.

ثم يبدأ بيتًا يدخل به على موضوع القصيدة الأساسي موجهًا القول إلى بني قطن يعاتبهم دون لوم شديد، وهو يعلن أنه لم يفارقهم حتى صاروا يظنون به الظنون، وحتى ظهرت منهم جوانب غير سارة. والشواكل الجوانب، وفي لهجتنا كان يقال قديمًا: أمسكت به من شواكله، أي من جنبيه.

وهو يرى أن هؤلاء القوم لا يستطيعون رد أي مقتحم لهم، فيقول هذه إبلي ترعى في مواقعكم فلا تترك فيها شيئًا من (الخلي) وهو الرطب من الأعشاب، وفي الوقت الذي لم تمنعوها عن ذلك، لم تقدروا على حماية الأنعام التي أودعها (ابن سور) عندكم وجعلها ترعى المناطق التي منها أديرع والليّاح.

ولا سبيل إلى استكمال القصيدة، ولكننا نكتفي بما قدمنا منها لأن القصد من ذلك هو الإشارة إلى الموقعين الكويتيين اللذين أشرنا إليهما. وفي الوقت نفسه فإننا قد رأينا أن عددًا كبيرًا من الأماكن قد وردت أسماؤها في أشعار الشعراء ولم ترد في معاجم البلدان، مما يدل على أن مزاولة قراءة الشعر القديم سوف تكشف لنا عن أماكن أخرى غير هذين المكانين: أديرع والليّاح.

****

ملحاق خير آخر

لا نستطيع أن نتحدث عن موقع الشقايا دون أن نُعَرِّجَ على موضوع مهم يتعلق به. وهذا هو ما أشارت إليه الصحف الكويتية أخيرًا فقالت: إن الحكومة قد اتخذت قرارًا بنقل أعمال السكراب من موقعها الحالي إلى الشقايا، ونحن نعلم بأن السكراب في موقعه اليوم غير ملائم وبخاصة أن العمران قد زحف إليه، وأصبح محاطًا بالمناطق السكنية. وموقعه هذا كان موقعًا لا بأس به عندما خصص له، ولكن ما مرّ عدد من السنين على وجوده هناك غيّر الكثير من الأمور حتى أصبحت المنطقة في حاجة إلى إعادة نظر، حسنًا تفعل الحكومة بنقله من مكانه الحالي، ولكن الأحسن هو مراعاة ناحيتين هما الناحية المستقبلية حتى لا تتكرر مسألة زحف العمران على الموضع الجديد، وحتى لا يصبح هذا الموضوع سببًا من أسباب تلوث البيئة المادية والمعنوية، وأقصد بالمعنوية ما نراه من أحداث يومية في سكراب أمغرة، وكلها أحداث تخل بالأمن، وتضع عبئًا ثقيلًا على رجال وزارة الداخلية. أما الناحية الثانية وهي لا تقل شأنًا عن الأولى فهي عدم إضاعة الجهود الماضية التي ذكرناها في المقال من حيث اهتمام عدد من أجهزة الدولة الإدارية والبحثية بالشقايا، وما ثبت من صلاحية هذا الموقع للزراعة من حيث التربة ومن حيث المياه بشهادة خبير استراتيجي عالمي هو بوكانن. إن إضاعة هذه الجهود، وإضاعة الفرصة الملائمة للاستفادة الزراعية من هذا الموقع فيهما خسارة كبيرة للوطن، ولذا فإن استعمال كلمة الشقايا بشكل عام كما قرأنا على أساس أنها

الموقع الجديد المقرر للسكراب فيه تجنٍّ على البيئة وعلى مصلحة البلاد، ولن تغفر لنا الأجيال القادمة إضاعة هاتين الفرصتين وهما الدراسات المهيأة الموجودة بين أيدينا، والموقع الملائم للزراعة. لابأس من الاستفادة من جزء من موقع الشقايا في أعمال السكراب بشرط أن يكون بعيدًا عن المناطق الزراعية أو القابلة للزراعة. وأن يكون منظمًا تنظيمًا دقيقًا يقوم به مهندسون أكفاء لا تتكرر فيه أحداث سكراب أمغرة ولا يجد المخربون فيه فرصة لهم، لأنه مكشوف، وبه حراسة قوية، وله متابعة مستمرة.

أرجو أن تراعى المسألة الزراعية مراعاةً تامةً وأن نحرص على كل شبر قابل للزراعة في وطننا فإن الأيام تثبت - دائمًا - أن المواد الغذائية في العالم قد أصبحت تتراجع في إنتاجها، وأصبح استهلاكها الخارجي قويًّا بحيث يصعب الاعتماد على الاستيراد وحده لكافة الأصناف، فعلى الأقل ينبغي أن نحتفظ لأنفسنا بقدر ولو يسير من الإنتاج الزراعي، والحرص على حماية الأرض الزراعية هو السبيل إلى ذلك.

****

رجال لا ينساهم الوطن: عيسى بن محمد المخيزيم [1]

مرّ بي ذكر هذا الرجل ضمن مطلع قصيدة كتبها الشاعر عبدالغفار الأخرس المتوفي في سنة ١٨٧٤م، كان ذلك في ديوانه المطبوع في سنة ١٩٨٦م بتحقيق وتعليقات الخطاط وليد الأعظمي. ومطلع القصيدة يقول:

يا ابن المخيزيم وافتنا رسائلكم
مشحونةً بضروب الفضل والأدبِ
جاءتْ بأعذب ألفاظٍ منظمةٍ
حتى لقد خلتها ضربًا من الضرب

(الضرب: العسل).

وكان واضحًا أنه يوجه قصيدته إلى شخص كويتي كانت بينهما مراسلات بدليل ما جاء في ثنايا القصيدة مما سوف نذكره فيما بعد. جلست مفكرًا ومتذكرًا استجلب المعلومات عن ابن المخيزيم هذا، ثم عدت إلى هامش الديوان فوجدت الأعظمي يقول عن الرجل: «لم أعثر له على ترجمة، ومن أحفاده اليوم في الكويت السيد مبارك بن مسعود بن عبدالعزيز المخيزيم. أخبرني بذلك الصديق الأديب عبدالعزيز عمر العلي برسالة من البصرة، ويبدو من القصيدة أن ابن المخيزيم كان أديبًا بارعًا، وله صلات مع شعراء وعلماء عصره، وربما كان الأخرس ينزل عنده في زياراته للكويت».

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٠/٦/٢٣م.

ولم يفدنا هذا التعليق شيئًا، ولم يقدم لنا اسم الرجل الذي توجه إليه الأخرس بقصيدته، وما أشار إليه من معلومات عن أدب ابن المخيزيم وعلاقاته لا يتعدى الاستنتاج الذي حصل عليه بعد قراءته للقصيدة.

يثني الشاعر عبدالغفار الأخرس، على صديقه ويبدي إعجابه برسائله وفصاحتها، وذكر ما تحتويه من حسن البيان وجميل العبارة، ومن التلطف بالدعابة التي تدخل السرور على قارئها:

فيها من الشَّوقِ أضعافُ مضاعفةٌ
تطوي جوانح مشتاقٍ على لهبِ
وربما عَرَضَتْ باللطف واعترضت
دعابة هي بين الجدِّ واللَّعب

ويضيف بعد ذلك:

فأطربتنا وهزَّتنا فصاحتها
فلا برحتْ مدى الأيام في طرب

أما ما يتعلق بالكويت في هذه القصيدة فهو قوله:

إنَّ الكويت حماها الله قد بلغتْ
باليوسفين مكان السبعة الشُّهبِ
تالله ما سمعت أذني ولا بصرت
عيني بعزِّهما في سائر العرب
فيوسُف بن صبيح طيب عنصره
أذكى من المسلك إنْ يعبق وإن يطب
ويوسف البدر في سعدٍ وفي شرفٍ
بدر الأماجد لم يغرب ولم يغب

وقد مرّ بنا في مقال سابق الحديث عن هذين الرجلين الكريمين اللذين بذلا الكثير في مجاعة سنة الهيلق التي بسطنا الحديث عنها فيما سبق. وكان الشاعر الأخرس كثير الاعتزاز بهما، قوي الاتصال معهما. وقد ذكرهما في أكثر من مناسبة من شعره، وقول الأعظمي أن الشاعر كان يقيم في الكويت وقت حضوره إليها عند ابن المخيزيم يرد عليه ما جاء في الأبيات التي كتبها ووجهها إلى يوسف البدر وهو في الكويت يستأذن مضيفه بالمغادرة:

مولايَ قد حان الودا
عُ، وقد عزَمْتُ على المسيرِ
كم زرْتُ حضرتك التي
ما زلتُ منها في حبور
ورجعتُ عنك بنائلٍ
غمرٍ، وبالخير الكثير

لقد كان في تردده على الكويت يقيم عند يوسف البدر، بدليل الاستئذان منه بالرحيل.

ديوان الأخرس يضم عددًا من القصائد التي يذكر فيها الكويت، وعددًا من أهلها. وحين كان في بغداد تاقت نفسه إلى شيء من المسلك فأرسل إلى يوسف الصبيح معرضًا بذلك في قوله:

وما زلتُ مُذْ فارقتُ بغدادَ أبتغي
نزوحًا إلى ما يقتضيه نزوحي
وإني مشتاقٌ إلى كلِّ ماجد
يصوبُ بقطر أو يَهُبُّ بريح
تطالبني نفسي بطيبٍ وطيِّبٍ
فقلتُ ابشري بالمسك وابن صبيح

وكما قرن صاحبيه (اليوسفين) في قصيدة واحدة قرنهما مرة أخرى في قصيدة منها:

وكم يومٍ ركبنا الفلك تطفو
بسيطَ الماء في البحر المديدِ

فاونةً تكون إلى هبوطٍ
وآونةً تكون إلى صعودِ

ولولا اليوسفان لما رمت بي
مراميها إلى خطرٍ مبيدِ

وقال الأخرس – أيضًا – قصيدة امتدح بها الشيخ عبدالله بن صباح بن جابر الأول الذي ولي حكم الكويت في سنة ١٨٦٦م، ودام في سدة الحكم حتى سنة ١٨٩٢م.

القصيدة لطيفة المعاني سهلة الأسلوب، تحدث فيها عن الشيخ وعن آل الصباح، ووصف أخلاقهم وأعمالهم الطيبة، وذكر أنه لم يزرهم مرة إلا عاد وهو مصحوب بالنجاح وذلك لحسن ما يلقى منهم من كرم وفضل حتى أطلق بهم ألسنة القوافي بما فيها من كلام فصيح بليغ كما جاء في شعره المذكور. وهو يقول – أيضًا – إن محبتهم قد مزجت بروحه مزاج الراح بالماء القراح، واعتبر مديحهم خمرًا يرتاح إليها ويغتبق منها ويصطبح ثم يقول:

ولو أني اقترحتُ على زماني
وأعطاني الزمان على اقتراحي

لما فارقتهم يومًا وما لي
إذا وُفِّقتُ عنهم من براحِ

ومن هذه القصيدة قوله:

نزلتُ بهم على سعةٍ ورحبٍ
وأنسٍ وابتهاجٍ وانشراحِ

فقومٌ ساد عبدالله فيهُمُ
فبالبأس الشديدِ وبالسُّماحِ

كانت هذه مقدمة لابد منها للدخول على الحديث الذي نريد طرحه عن ابن المخيزيم كما سماه الشاعر الأخرس وهو: عيسى بن محمد المخيزيم، كما أبلغني باسمه الأخ الكريم الأستاذ محمد المخيزيم، بعد أن أكثر من البحث بسبب طول المدة، وبُعد العهد عن أيام ذلك الرجل. وقد تكرم الأخ محمد فأمدني ببعض الملاحظات أنارت لي الطريق إلى معرفة هذا الشّهم الكريم المحب للعلم والأدب.

كان أهالي الكويت يتصرفون بصدقاتهم بصورة مباشرة، فلا يدفعونها إلى أناس آخرين لكي يقوموا بتقديمها للمحتاجين نيابة عنهم وذلك حرصًا على أن تذهب الصدقات في أبوابها وأن يتأكد المتصدق بأن مستلم الصدقة في حاجة إليها بالفعل، ومن الأغنياء من يطوف ليلًا على بعض البيوت المحتاجة لكي يقدم لها مالديه دون أن يشعر به أحد، وذلك وفق الحديث الشريف الذي ينص على أن خير الصدقة ما تقدمه سرًّا ومباشرة للمحتاج حتى لا تعلم شمالك بما تنفق يمينك.

وكانت للأغنياء طرق كثيرة غير دفع المال لكل صاحب حاجة، ومن ذلك المساهمة في الإغاثة ودفع الضرر عند حدوث بعض الحوادث كما وجدنا في حالة الهيلق وسنة هدامة وغيرهما حيث تصدى عدد من أبناء الكويت لتقديم كل ما في استطاعتهم من مال وجهد ومواد لرفع الضرر عن المتضررين. ومن ذلك بناء المساجد والصرف على نفقاتها عن طريق الأوقاف التي يوقفها هؤلاء على المساجد التي ينشئونها فكان لكل مسجد بيت أو أكثر أو حوانيت يؤخذ من إيجارها ما يكفي الإمام والمؤذن وما يصرف به على المسجد. وقد كان ذلك قبل أن تنشأ دائرة الأوقاف العامة في سنة ١٩٤٩م حيث ضمنت مصروفات المساجد في مقابل استيلائها على الأماكن الموقوفة عليها. وإضافة إلى كل ما كان يعمله هؤلاء الرجال

من خيرات، ونفقات صالحة. فإنهم كانوا يحرصون على كتابة وصايا لورثتهم يقوم هؤلاء بتنفيذها بعد وفاتهم.

وقد كان عيسى بن محمد المخيزيم واحدًا من الرعيل الأول من الرجال الكويتيين الذين يتناقل الناس مآثرهم، ويثنون على أعمالهم. حرص على بذل الصدقة في السر والعلن، وأوقف الأوقاف النافعة لبيوت الله، ووصى بوصية ذات أثر كبير في ما يتعلق بجدواها التي تصب في صالح المحتاجين. كان تاجرًا كبيرًا وكانت له أعماله الكثيرة في المجال التجاري. وله سفراته العديدة المتعلقة بعمله، كما كانت له صلات متعددة مع كثير من الناس من رجال عصره في داخل الكويت وفي خارجها وكان - كما رأينا - معاصرًا للشيخ عبدالله بن صباح ابن جابر (١٨٦٦ - ١٨٩٢م) ضمن من عاصر من حكام الكويت، ولكل من يوسف البدر ويوسف الصبيح، وبالطبع فإنه معاصر للشاعر عبدالغفار الأخرس بدليل القصيدة الموجهة إليه، وسوف يأتي تفصيل ذلك فيما بعد.

ولئن كنا لم نتمكن من التوصل إلى تاريخ مؤكد يحدد يوم مولد المخيزيم أو يوم وفاته، فإننا نستطيع أن نقدم تقديرًا بذلك من واقع الاتصالات مع بعض كبار السن، ومن واقع الأحداث التي حدثت في وقته، فنذكر أنه ولد على وجه التقريب في سنة ١٧٩٥م، وتوفي على وجه التقريب - أيضًا - في سنة ١٨٧٥م.

وبذا يكون قد عاصر عددًا من حكام الكويت القدماء منهم الشيخ عبدالله الأول المتوفي في سنة ١٨١٣م، والشيخ جابر بن عبدالله المتوفي في سنة ١٨٥٩م، والشيخ صباح الثاني المتوفي في سنة ١٨٦٦م، وحضر جزءًا من فترة حكم الشيخ عبدالله الثاني الذي توفي في سنة ١٨٩٢م، وكانت الكويت في تلك الفترة غير خالية من المهتمين بالعلم والأدب، فكان فيها الشاعران عبدالله الفرج وعبدالجليل الطبطبائي وقد توفيا في سنة ١٩٠٠م - والشاعر محمد بن لعبون الذي توفي بها

في سنة ١٨٣١م. وكان فيها اهتمام بالعلم الديني كما بدا لنا من مراسلات عدد من العلماء الكويتيين مع آخرين من البلدان المجاورة. وقد حفظ لنا الزمن مخطوطة لكتاب في الفقه الشافعي كتبها عثمان بن سري القناعي في سنة ١٧٩٨م، وهناك مخطوطات غيرها معاصرة لها.

وحركة التواصل بين علماء الأمة تؤكد دور أبناء الكويت في بناء العلاقات مع أمثالهم، وفي حرصهم على الازدياد من المعلومات وتعرف ما يمكن الحصول عليه من كتب في ذلك الوقت البعيد، ومن الجدير بنا ذكره هنا أن مركز البحوث والدراسات الكويتية قد أصدر في سنة ٢٠٠٧م القسم الثاني من كتاب «بحوث مختارة من تاريخ الكويت» وقد تضمن فصلًا شاملًا عن هذا الموضوع، وهو فصل كبير منه.

ولقد كانت لعناية أخي الأستاذ الدكتور عبدالله يوسف الغنيم بالموضوع الذي أشرنا إليه أثرها في إثراء العمل بالمعلومات المهمة فقد كان بصفته رئيسًا للمركز مشرفًا على الكتاب المذكور تكاد تتلمس أفكاره وأسلوب قلمه في كل سطر فيه. وقد استعرض المقال ضمن ما استعرض رسالة كتبها الشيخ عبدالله بن أبي بكر الملا، وأرسلها من الإحساء إلى الشيخ أحمد بن محمد بن عبدالإله القناعي في الكويت وذلك في اليوم الخامس والعشرين من شهر يونيو لسنة ١٨٧٩م. وقد جاء في الكتاب تعليق على الرسالة الواردة من الشيخ عبدالله الملا تضمن ما يلي: «ويبدو من الرسالة المذكورة أن الشيخ أحمد القناعي من المشتغلين بالعلم الذين لم يكن لهم ذكر في الكتب التي أرخت للأدباء أو الفقهاء في دولة الكويت، وواضح أنه بعث يسأل الشيخ عبدالله بن أبي بكر الملا عن عدد من الكتب مثل حاشية الطحاوي، وقد أجابه بأن حاشية العلامة ابن عابدين تغني عنها، وأن شرح رياض الصالحين عديم الوجود في الأحساء، «ولم نعلم هل طبع أم لا»، ثم يقدم الشيخ

عبدالله بن أبي بكر تحية إلى عدد من معارفه في الكويت مثل: السيد حسين والشيخ علي بن محمد بن إبراهيم والسيد مساعد بن السيد أحمد وعبدالعزيز المطوع، وتعد هذه الرسالة من أقدم الرسائل التي وصلتنا حتى الآن عن العلاقات العلمية بين الكويت والأحساء. والشيخ أحمد القناعي هو جد عبدالله القناعي الموظف بالمعتمدية البريطانية في الكويت والذي أعطته الحكومة البريطانية لقب «خان بهادور» لخدماته لها، وقد ذكر الأخير أن وفاة أحمد هذا كانت في عام ١٨٩٢م».

تعمدنا أن يكون هذا المقال شاملًا للصورة العامة السائدة آنذاك، وبذلك نكون قد اقتربنا من تبيان سيرة حياة المخيزيم، والصورة التي كان عليها عصره، وتبيّنا كذلك شخصيته التي تميزت بالطيبة وحب عمل الخير، والسعي إلى كل ما يفيد المحتاجين سواء أكانوا من سكان الكويت أم من الذين يعيشون خارجها، وذلك ما أوضحناه فيما سبق. رحمه الله.

****

ملحاق خير

تحدثنا في مقالنا المنشور بجوار هذا الكلام عن أعمال الخير التي كان الكويتيون يقومون بها، وكان من ضمن الأعمال التي أشرنا إليها: الوقف وقد يكون من الملائم هنا أن نتحدث عن هذا الموضوع الذي هو من أهم مجالات عمل الخير، وهو أمر متوارث من السلف الصالح من أبناء أمتنا إلى أن وصل إلى الأجداد والآباء الذين لم يكن ما قدموه بأقل مما كان يقدمه من قبلهم.

قد يعجب المرء حين يرى قدم الأوقاف في الكويت وقف أنشأه الشيخ محمد بن صالح العدساني المولود في سنة ١٧٤٧م، وكان الوقف المشار إليه قد أجراه الشيخ العدساني في سنة ١٨٢١م. يليله وقف أجراه المرحوم يعقوب بن عبدالله بوحمرة في سنة ١٨٢٤م. وتتابعت بعد ذلك أوقاف كثيرة بعضها على ذرية الواقف وبعضها الآخر على المساجد وعلى عدد من وجوه الخير. وخرج الوقف - أخيرًا - من الأفراد إلى الجماعات، ففي السنوات الأخيرة وجدنا عددًا من الجمعيات والهيئات الشعبية تشارك كلها في إقامة الأوقاف لصرفها على وجوه الخير. ومن ذلك وقف باسم الهلال الأحمر الكويتي، وآخر باسم جمعية الجهراء التعاونية وكلاهما كان في سنة ٢٠٠٢م. وفي سنوات مقاربة لهذا التاريخ نجد عددًا من الأفراد والجماعات يتقدمون إلى الأمانة العامة للأوقاف مساهمين بأوقاف من أجل أن يصرف ريعها في الأعمال الخيرية التي يحددها كل واقف بحسب نيته.

اهتمت الكويت بهذا الموضوع اهتمامًا كبيرًا ومن أجله قامت بإنشاء الأمانة العامة للأوقاف وذلك بموجب مرسوم أميري صدر في الثالث من شهر نوفمبر

لسنة ١٩٩٣م، تحت رقم ٢٥٧. ومنذ إنشاء هذه الأمانة وهي تجد في عملها، وتعتبر هذا العمل شرفًا لها كلما حرصت على أدائه نالت الشكر من الناس، وهي تأمل برضا الخالق سبحانه ورغبة من الأمانة العامة للوقف، فقد سارعت إلى إصدار كتب ونشرات تعرف فيها بالواقفين، وتذكر مآثرهم. وهذا هو ما صدر في سنة ٢٠٠٣م على هيئة ثلاثة ملفات تحت عنوان: «سيرة الواقفين والواقفات» وقد ضم كل ملف من هذه الملفات الثلاثة أسماء الواقفين والواقفات في حقبة من الزمن مذكورة على غلافه. أول واحد منها يضم أسماء ذوي الخير من سنة ١٨٢١ إلى سنة ١٨٩٩م.

والثاني يضم الواقفين والواقفات منذ سنة ١٩٠١م حتى سنة ٢٠٠٢م، وهذا يدل على أن عمل الخير هذا لم يتوقف في يوم من الأيام في بلادنا فإذا كان أول وقف أدركنا تاريخه كان في سنة ١٨٢١م وآخرها مستمر حتى اليوم فإن في ذلك الدليل القاطع على رسوخ نزعة الخير عند أبناء هذا الوطن وبناته.

بعد هذا نود أن نلقي نظرة سريعة على الملفات التي أشرنا إليها:

جاء في مقدمة الملف الأول أن أموال الوقف التي حبسها الواقفون والواقفات في الكويت على المصارف الشرعية والخيرية ساعدت منذ أكثر من ثلاثمائة سنة على تنامي الخير وأعمال المعروف في المجتمع الكويتي. وأشارت المقدمة إلى أن القصد من هذا الإصدار هو تخليد ذكرى أولئك الذين أسهموا في نمو الوقف في البلاد من واقفين وواقفات وتقديم المثل للآخرين حتى يقتدوا بهؤلاء فهم أهل لذلك لأنهم سبقوا إلى الخير، وعمل المعروف. وقد كان مجموع الأعيان الموقوفة في الفترة التي تناولها الملف الأول هو خمس وثمانون عينًا، حتى سنة ١٨٩٩م. وهذا القسم من السجل يقدم أسماء الواقفين والواقفات في الفترة التي اختص بها.

ويريك أبناء الكويت في ذلك الزمن البعيد وهم يتسابقون إلى فعل الخيرات.

أما الملف الثاني الذي يشمل الفترة من سنة ١٩٠١ حتى سنة ١٩٤٩م، ففيه زادت أعداد الأعيان الموقوفة فوصل عددها إلى مائتين وعشرين وقفًا بعضها موقوف على ذرية الواقف، وبعضها خيري، وبعضها الآخر مشترك بين الإثنين.

نرى في بداية الملف الوقف الذي أوقفته المرحومة هيا بنت مجبل في سنة ١٩٠١م وتليها المرحومة رقية بنت ضاحي، وذلك في السنة ذاتها «أي سنة ١٩٠١م» وقد أوقفت عقارًا لها للصرف منه على أعمال الخير.

ونشير هنا إلى أن عدد الأعيان التي أوقفت في سنة ١٩٠١م هي أربعة، ثم سارت بالقرب من هذا المعدل في السنوات اللاحقة، وكان آخر اسم في كشف الواقفين هو المرحوم بلال بن شنان الذي أوقف بيتًا له في منطقة الشرق وكان تاريخ توثيقه في اليوم الأول من شهر أغسطس لسنة ١٩٤٩م. وقد شهدت هذه السنة هذا الوقف وآخر قام بوقفه المرحوم علي بن عبدالمحسن.

ويتناول الملف الثالث الحديث عن الواقفين والواقفات منذ سنة ١٩٥٠م حتى سنة ٢٠٠٢م. كان عدد الأعيان التي تم وقفها في السنة الأولى «١٩٥٠م» كبيرًا نسبيًّا فقد كانت عشرة أوقاف كلها على أعمال الخير ليس فيها واحد على الذرية. ولكن السنوات التي لحقت كانت قريبة من معدل السنوات الواردة في الملف الأول والملف الثاني، وفي هذا الملف نجد ما أشرنا إليه من قبل وهو سعي الهيئات الأهلية وبعض الشركات إلى المشاركة في المشروعات الوقفية يبدو أنه أستمر بعد سنة ٢٠٠٢م، لأن هذه الهيئات اكتشفت أخيرًا هذا الطريق السليم المناسب للمساهمة في عمل الخير. وقد كان مجمل الأوقاف التي سجلت خلال الفترة المشار إليها تسعًا وسبعين عينًا كلها أوقاف خيرية. منها الأوقاف التي تخص ست هيئات أهلية، ومنها من تقدم بأكثر من عين وقفية واحدة. جزى الله هؤلاء خيرًا، وأنالهم رضوانه ومغفرته.

وبعد فإني أشكر الأخ الكريم الدكتور محمد عبدالغفار الشريف الأمين العام السابق الذي أمدني بالملفات الثلاثة التي أصدرتها الأمانة في سنة ٢٠٠٣م. والحق أن الدكتور محمد عبدالغفار الشريف قام بدور مهم في رعاية أعمال الأمانة العامة، وأهم ما يلفت النظر أنه على خلاف ما كان قائمًا قبله لم يقم بصرف مبالغ من أموال الوقف في خارج المصارف الشرعية. صحيح أننا لا نطعن بذمة الآخرين، ولكن أمانة المسؤولية كانت تقتضي منم ألا يتصرفوا بالأموال بدفعها بعيدًا عن شروط الواقفين والواقفات. وهذا هو الأمر الذي حفظ الله الأمن العام السابق من الوقوع في مغبته. جزاه الله خيرًا.

****

ملامح كويتية قديمة[1]

يصور التاريخ حياة الناس، ويبين أنشطتهم المختلفة، و لئن كان السرد الكامل للأحداث في بلد ما هو الصورة المتعارف عليها لمعنى التاريخ، فإن الحياة الاجتماعية الدالة على حركة البشر في محاولتهم الدائبة للتقدم وتحسين الأوضاع جزء لا يتجزأ من عملية التاريخ. هذا هو ما قصدناه من اختيار بعض الملامح التي يدل مجملها على الحياة الكويتية القديمة في حدود النقاط الست التي اخترنا تقديمها في هذا المقال، وسوف تكون لنا عودة إلى مثل هذه المباحثات في القادم من الأيام، لأن الحديث عن أمثال هذه النقاط مهم للاطلاع على أجزاء لابد من الاطلاع عليها ضمن كتاب التاريخ الكويتي الذي نأمل أن يكتمل من جميع الجوانب.

سوف نقوم بتقديم النقاط الست ضمن عنوانات منفصلة، وسوف يلاحظ القارئ عدم الارتباط بينها إلا فيما ندر، ولكنها تجتمع في أمر واحد هو أنها صادرة من أعماق تاريخ الكويت.

أولًا: الحج قديمًا: موسم الحج في الكويت كان - ولازال - موسمًا تهتز له البلاد، والحج قديمًا من أصعب أنواع السفر، فقد كان الحاج يقطع الفيافي والقفار على جمله طوال فترة الرحلة التي كانت تستغرق ما لا يقل عن شهرين من الزمان، وإذا كانت معه إحدى النساء من زوجة أو قريبة فإن مشقته تكون أكبر بسبب المسؤولية الملقاة على عاتقه، وما يتطلبه ذلك من رعاية المرأة وحفظها وتسهيل أمور

---

(1) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٠/٦/٣٠م.

حجها، ويكون سفر الرجل على رحل البعير مباشرة بينما تكون المرأة على هودج فيوضع اثنان منهما على كل جانب ثم تجلس الحاجّات فيهما طوال الرحلة ما عدا أوقات الراحة. وذلك بمعدل حاجّتين لكل جمل.

يستعد الحجاج للسفر بشراء كل الاحتياجات اللازمة له من إحرام وملابس خاصة وأحذية مناسبة، ويودع الحاج أهله وأصحابه الذين يدعون له بسفر ميسر وعود حميد وحج مقبول. وفي الكويت يكون الناس في تطلع لوصول الحجاج من حجهم في أواخر شهر محرم أو أوائل شهر صفر فهم لا يأتون في وقت واحد محدد لأن ظروف الطريق تحكمهم وتحدد مسيرهم. ولما كان كل حاج مرتبطًا بحملة من الحملات فإن صاحب الحملة يرسل شخصًا على وجه السرعة ليبشر الأهالي بقرب وصول مَنْ معه من الحجاج، يسمى هذا الشخص «البشير» الذي ما إن يصل إلى البلاد حتى يحيط به الناس من كل جانب يسألونه ثم يعيدون سؤاله عمن يكون لهم من الحجاج، ولا يطمئن بال أحدهم إلا بعد أن يذكر له طرفًا من أخبار من حج من أهله أو من أصحابه، وكان الأهالي يخرجون إلى خارج العاصمة في تلهف لملاقاة الحجاج والسلام عليهم، أما البشير فإنه ينال جزاء تبليغه وبشارته هدايا مناسبة تأتيه من كل جهة من الجهات التي بلغها عن حجاجها. وعند دخول الحجاج إلى العاصمة يحظون بلقاء حافل ويسعد الجميع بلقائهم، ويتلقون التهاني بقضاء هذه الفريضة والعودة بسلام. أما الأطفال فلهم دور خاص فهم في انتظار هدايا الحج التي تعودوا على الحصول عليها كل عام من حجاج الفريج حتى لو لم يحج أحد من أقاربهم، فتعم بذلك الفرحة في كل مكان. وللأطفال - أيضًا - دور خاص يقومون به قبل بداية تحرك الحجاج في طريق السفر. فالبنات في هذا الوقت يدرن في جماعات على المنازل ويرددن قولهن: «اطريف اطريف يا أهل البيت، عطونا الله يعطيكم بيت مكة يوديكم إلى آخرها» فتعطيهم كل ربة منزل شيئًا مما عندها من المواد الغذائية، وفي آخر مطافهن يجتمعن في إحدى زوايا الفريج ويطبخن ما حصلن عليه من زاد، ثم يتفرقن في حبور.

ثانيًا: الجمل: الجمل سفينة الصحراء... لم يكن للعرب المقيمين في الصحراء أو على تخومها غنًى عن الاستفادة من الجمال، والكويت كانت وما تزال تهتم بهذا المخلوق الذي استفاد مواطنوها منه كثيرًا، فهو ناقل في الأسفار، مفيد لإدرار اللبن، نافع عند استخدام وبره لصنع العباءات وغيرها.

قال تعالى: ﴿أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعامًا فهم لها مالكون. وذللناهم لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون. ولهم فيها منافع ومشارب، أفلا يشكرون﴾. سورة يس الآية رقم ٧١ وما بعدها..

كان الكويتيون يحجون بواسطة الجمال حتى سنة ١٩٥٤م، وكانت رحلتهم إلى الحج تستغرق مدة شهرين أو أكثر بحسب ظروف الرحلة، وفي الماضي كانت الرحلات على الجمال تمتد إلى مناطق بعيدة، وكانت المتاجرة بالجمال في الكويت وخارجها من أقوى المتاجرات، يحدثنا عن ذلك السيد عبدالله بن عبدالعزيز الحميدي في مقابلة تلفزيونية له مع الأستاذ سيف مرزوق الشملان عن قيامه برحلاته التي ابتدأ أول رحلة منها في سنة ١٩١٨م، وحتى سنة ١٩٢٢م كان قد مرّ بكل من الشام وفلسطين والأردن ومصر ولبنان، مارًّا بالمملكة العربية السعودية، وقد وصف الأسواق التي تباع فيها الجمال في تلك البلاد وأساليب العمل فيها، وكان هذا الرحالة من البارزين في هذا النوع من التجارة.

لقد سار بنا في هذا الحديث الشيق في أعقاب إحدى تلك الرحلات مبتدئًا بالكويت حيث كان مقر تجمع القوافل في الموقع الذي فيه منطقة الشامية حاليًا، وأخذنا معه مطوفًا بكثير من البلدان، فعبر فلسطين استطاع الوصول إلى مصر، وفي أمبابة (إحدى ضواحي القاهرة في هذه الأيام) باع ما معه من جمال ثم عاد راجعًا إلى وطنه.

في يوم الجمعة الموافق للرابع عشر من شهر أبريل لسنة ١٧٥٨م كانت هناك مفاوضات للقيام برحلة إلى مدينة حلب عن طريق الكويت بواسطة الجمال. يقوم بها الدكتور إدوارد آيفز الذي رغب في القيام بهذه الرحلة بناءً على توصية البارون نيهاوزن المسؤول عن المستعمرة الهولندية في جزيرة (خرج) وقد كانت تربطه صلة قوية بشيخ الكويت - آنذاك - ، وقد وصف آيفز الرحلة بأنها ستستغرق مدة ثلاثين يومًا في الرحيل من القرين (الكويت) إلى حلب، وأنها تسير في قافلة تتكون من خمسة آلاف جمل وألف رجل.

هكذا كان النشاط التجاري المتعلق بالجمال في قديم الكويت وجديدها. ولا يزال الكويتي يعني بالجمل ويرعاه.

ثالثًا: العيد قديمًا في الكويت.. تحتفل الكويت بعيدي الفطر والأضحى المباركين، كما تحتفل بهما الدول الإسلامية الأخرى. ومنذ القدم وللعيد في الكويت أهمية خاصة ففيه تعمّ الفرحة بين الناس الذين يحرصون على تبادل التهاني، وإزالة الخلافات والأحقاد.

يخرجون مبكرين إلى صلاة العيد وقد لبسوا أفخر ما عندهم من ملابس ويبدؤون الصلاة بالتكبير والتهليل، وحمد الله تعالى على إعادته العيد عليهم. وقد وصف الشيخ عبدالعزيز الرشيد مراسم العيد في وقته وهو سنة ١٩٢٦م عندما نشر كتابه (تاريخ الكويت)، فقال: إن الأهالي يذهبون بعد صلاة العيد إلى أمير البلاد وآل الصباح الذين يلتقون برئاسة الأمير لتقبل التهاني من المواطنين. وفي اليوم الأول يزور أهل الحي القبلي إخوانهم في الشرق والوسط من المدينة. أما في اليوم الثاني فيعيد أهل هذين الحيين الزيارة على إخوانهم أهل القبلة. وعادة ما يقول المهنئ لأخيه: عيدكم مبارك، فيجيبه بقوله: أعاده الله علينا وعليكم بخير وعافية. ويتم في هذه اللقاءات تبادل الأحاديث مصحوبة بكؤوس الشاي وفناجين القهوة. ويقدم - كذلك - ماء الورد ودهن العود والبخور تعطيرًا لهذه المناسبة السعيدة.

ويقول عبدالعزيز الرشيد: أنَّ الكويتيين قد اعتادوا تعطيل أشغالهم أسبوع العيد كله، واشتغالهم بالألعاب الحربية آخر كل نهار (العرضة) فيكون أهل كل حي حلقة من رجالهم، وهم يرقصون ويلعبون وينشدون الأناشيد الحماسية الحربية، ويضربون بالدفوف وبالطبول، ويملؤون الفضاء من رمي البنادق، ويخطفون الأبصار من لمع السيوف. ويقول الرشيد: كان الشيخ مبارك يعطي هذا الأمر اهتمامه الزائد حتى لقد كان يصدر الأوامر بذلك لما في هذه الأعمال من إثارة للحماس والنخوة، وإعداد ليوم الدفاع عن الوطن.

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الكويتيون يعتنون بطعام العيد اعتناءً خاصًا، فمنهم من يخصه بعائلته، ومنهم من يفتح أبوابه للفقراء والمحتاجين الذين يجدون بهذا العمل في هذا اليوم من يواسيهم ويخفف عنهم، أما الأطفال فكان العيد فرصة لهم من أجل الفرح وانتشار السرور، بالملابس الجديدة، والعيديات المالية، والملاعب الكثيرة، ولكل ذلك فقد كان أبناء الكويت يستعدون للقاء العيد قبل أن يبدأ، فيحضرون ما يحتاجون إليه، ويهيؤون لأهلهم وأصدقائهم وأولادهم الصغار ما يشعرهم بالسعادة فيه.

رابعًا: زراعة الكويت قديمًا.. هل كانت في الكويت زراعة؟ هذا السؤال يجيب عليه التاريخ الكويتي، فنحن لا نتحدث عن زراعة اليوم، بل عن زراعة الأمس، والحق أنه كانت هناك زراعة، وكان هناك اهتمام بها، وكانت مورد رزق لعدد كبير من المواطنين.

تتركز الزراعة في مناطق معينة من البلاد عرفت بوجود المياه الملائمة فيها، ومن تلك المناطق (الجهراء) التي عرفت الزراعة منذ القدم بدليل وجود نخيل يدل على بعد العهد بغرسه، وفيها مياه غزيرة، وهي وإن لم تكن حلوة تمامًا إلا أنها صالحة للزراعة. وكانت المياه تجلب من الآبار بواسطة القرب (الغروب) التي

تجرها الحمير بواسطة الحبال والمحالات. وكانت زراعة (الجهراء) تتركز على النخيل والبرسيم إلى حد ما، وكان أصحاب المزارع ينقلون إنتاجهم إلى العاصمة كل صبح على الجمال قديمًا، ثم على السيارات فيما بعد.

أما الموقع الآخر من مواقع الزراعة في الكويت فهو موقع القصور التي تتمثل في الفنطاس وبوحليفة والفحيحيل وغيرها من القرى التي كانت متناثرة على ساحل الخليج العربي، وكان لوريمر يتحدث في سنة ١٩١٣م عن مزارع في أبي الحصاني، أما الفنطاس فهي منطقة غنية بالزراعة وكان الري فيها يعتمد على الحمير كما كان الأمر في (الجهراء)، وقد قال ديكسون عنها: «يزرع أهالي القرية (ويقصد الفنطاس) الشعير والعدس والبطيخ والفجل والبصل»، وتحدث لويمر - أيضًا - عن أبي حليفة، ووصفها بعده ديكسون ذاكرًا أنه كان فيها ما يقرب من ألف شجرة نخيل مثمرة، وأنه يُزرع الشعير والبطيخ وبعض الخضار، وفيها بعض أشجار السدر، أما (المنقف) فآثار زراعتها لاتزال ماثلة للعيان ممثلة في بعض الأشجار القديمة المتناثرة بين ساحاتها، وكان في الفحيحيل نخيل وبعض زراعات القمح والشعير والبطيخ، وكانت الشعيبة تعني بالزراعة إلى جانب اهتمام أهلها بالبحر، ففيها شيء لا بأس به من النشاط الزراعي، وكان إنتاج هذه المناطق يجلب إلى العاصمة ويباع في ساحة مجاورة لمسجد البحر القائم حاليًّا في وسط السوق.

وأما فيلكا فكانت أرضًا زراعية منذ القدم وتمتاز بزراعة عدد من الخضار منها الجزر الذي اشتهرت به بين مناطق الكويت الزراعية، ولكن الأراضي القريبة من العاصمة وتمدها يوميًّا بالخضراوات الورقية هي أراضي الدسمة التي كانت ملأى بالمزارع الصغيرة التي تسقى يدويًّا من الآبار. هذه هي زراعة الكويت قديمًا.

خامسًا: صيد الطيور العابرة في الكويت.. من أمتع الرياضات - قديمًا - في الكويت، رياضة اصطياد الطيور، ولا نعني هنا الصيد بواسطة الصقور في

الصحراء حيث تصاد الحبارى وغيرها، ولكننا نعني صيد الطيور المهاجرة التي تمر بالبلاد على فترتين الأولى منهما فترة الربيع حيث كانت الطيور تمر بكثرة، ثم تهبط على الأماكن ذات الخضرة من أجل الراحة تمهيدًا لاستئناف الرحلة إلى أماكن أخرى من العالم. والفترة الثانية في الخريف الذي يسمى عندنا (الصفري) وهو في المدة ما بين شهري سبتمبر ونوفمبر من كل عام، وتأتي الأعداد قليلة في هذه المرة، وتقع ضمن أنواع محدودة من الطيور بخلاف ما كان في الفترة الأولى. يفرح الشباب وصغار السن منهم على وجه الخصوص بقدوم الطيور ويسعون إلى اصطيادها بوسائل شتى منها (الشبج) وهو عبارة عن ربطة من فروع الشجر تضم إلى بعضها وتوضع في أعلى المنزل، ويوضع بها عدد من الصلاليب، وهي جمع صلابة، والصلابة تتكون من عصاتين مربوطتين ببعض من الأسفل، وبينهما في الأعلى خيط يشبه الأنشوطة يمتد إلى عود صغير يسمى المد إذا وقع عليه الطير انفلتت الأنشوطة وأمسكت به، فيسرع صاحب الشبج إلى انتزاعه من الصلابة. ومن أدوات الصيد الفخ وهو حديدة هلالية أو ذات شكل مستطيل ذي أضلاع ثلاثة، مرتبطة بإطار يشبهها من الخيزران، يمتد بين طرفيها شريط مطوي من المطاط، وفي الوسط مستطيل خشبي قصير يشد فيه الإطار الخيزراني، وتوضع فوق الفخ عند فتحة في مكان معين منه بعض الحشرات أو الدود التي يهبط الطير سريعًا لالتقاطها فيطبق عليه الفخ، ومن أدوات الصيد النباطة، ويتم الصيد بها عن طريق إطلاق الحصى على الطير. وهناك بعض من المواطنين قد تحولت الهواية عندهم إلى مهنة موسمية يزاولونها، وذلك بصيد الطيور عن طريق الشباك التي توضع فوق الأشجار ولا سيما أشجار السدر، وهؤلاء يصطادون كميات كبيرة يبيعونها مذبوحة في الأسواق، أما الصغار فإنهم يبيعون الطيور حية بعد وضعها في قفص، وأهم موقع لبيع الطيور الحية كان بالقرب من مسجد ابن بحر، غربًا عنه، هذا ويقبل الناس في هذا الموسم على أكل الطيور مشوية ومقلية، ويتباهون بصيدهم، ويسعدون به.

هذا ومن الطيور أنواع عديدة معروفة بأسمائها وأشكالها كالحمامي، والرماني، والأشول، وسويده راس، والسمنة وغيرها من الأنواع. ولمعرفة المزيد عن طيور الكويت؛ انظر كتاب «طيور الكويت» تأليف عبدالله صادق الحداد وفوزية عبدالعزيز، نشر مركز البحوث والدراسات الكويتية، الكويت، ٢٠٠٢م.

سادسًا: هواية الصيد البحري.. البحر هو الرئة التي يتنفس بها الكويتيون، وهم بطبعهم يحبونه، ولا ينسون مآثره، فمنه تنطلق سفنهم وإليه ترفأ، وفيه الصيد الوفير الذي يغطي جزءًا من حاجاتهم الغذائية، وكان الصيد البحري من الأمور التي اهتم بها السكان ومارسوها من أجل البيع والشراء، ومن أجل الهواية، وهواة الصيد البحري يستعدون لذلك بمختلف الاستعدادات، ويجهزون له مختلف العدد، فمن ذلك أننا نجد هواة الصيد بواسطة الخيط يحضرون الخيوط بأنواعها من حيث السماكة إذ يستعمل كل نوع منها بحسب حجم السمك المراد صيده، ويجهزون الميادير وهي جمع ميدار، وهذه التسمية التي تعني الشص. ذات أنواع متعددة يصاد كل نوع من السمك بأحدها. ويجهزون البلود وهي جمع بلد الذي هو ثقل من الرصاص يستعمل لإنزال خيط الصيد إلى قاع البحر طالبًا للسمك، ويجهزون عند الخروج لهوايتهم الطعم الملائم وهو عادة ما يكون من الأسماك أو الربيان أو الحبار الذي نسمية في لهجتنا الخثاق، أو دود البحر.

ومن أدوات الصيد الأخرى، المشبق وهو خيط سميك تتصل به مجموعة كبيرة من الميادير، يلقى على الأرض البحرية في حالة الجزر، وعندما يحدث المد تقبل معه الأسماك فتعلق بالميادير، ويقوم هاوي الصيد بجمع الأسماك التي غنمها عندما يعود الجزر إلى ما كان عليه.

ومن الأدوات - أيضًا - السالية وهي شبكة مستديرة متوسطة الفتحات تنسج من خيوط القطن تربط في أطرافها كتل رصاصية لتساعد على تغطيسها

في الماء، يرميها الحداق في الأماكن التي يرى فيها الأسماك، وبخاصة سمك الميد، ثم يجرها إليه ببطء بواسطة خيط مربوط بها، ومما يشبه السالية الطاروف وهو شبك مستطيل كبير له فتحات مستطيلة مربوط في أعلاه قطع من كرب النخل يلقى في البحر، ويشترك في ذلك عدة صيادين، ثم يسحبونه للحصول على ما اجتمع فيه من سمك.

ومن أنواع صيد السمك هواية الصيد بواسطة الكمبار، وهي طريقة صيد السمك ليلًا بسيف حديدي، وعلى ضوء السراج يضرب الصياد السمكة بالسيف فتقع ليأخذها ويضعها في كيس معلق في رقبته لهذا الغرض، وهناك -أيضًا- الصيد بواسطة الطاسة وهي وعاء مستدير توضع عليه قطعة من القماش وبعض الطحين ويوضع في البحر حيث يدخل السمك الصغير من ثقب في وسط قطعة القماش، وهناك الصيد بالسعدوة، وهي مكونة من عصا طويلة في طرفها خيط في آخرها الشص وبعض الديان وفي وسط الخيط قطعة أسطوانية من الخشب، وإذا ابتلع السمك الشِّص تتحرك الخشبة فيجرها الصياد إليه، وهناك عدد آخر من وسائل الصيد التي يستعملها الهواة، الذين لا يزالون يمارسون الهواية بهذه الوسائل أو بما استجد منها.

(انظر كتاب: الحداق، من إعداد محمد يعقوب البكر، ومراجعة عبداللطيف عبدالرزاق الديين، نشر مركز البحوث والدراسات الكويتية في سنة ٢٠٠١م).

هذه هي النقاط الست، قدمتها كما وعدت عند بداية المقال. وأرجو أن يكون في الأمر متسع لتقديم نقاط أخرى مشابهة إتمامًا للحديث التاريخي المنشود.

****

مواقف في تاريخ الكويت [1]

للكويت عبر تاريخها مواقف كريمة، تدل على الاعتزاز بالنفس، والحرص على حماية الوطن وصون كرامته.

وقد مرت بنا من خلال مقالات سابقة أحداث تدل كلها على هذه المواقف، وتعبر بطبيعتها عن اهتمام القيادة الكويتية. منذ البداية بكل ما يحفظ الوطن حدودًا ووجودًا، ولولا هذه العناية لما حافظ هذا الكيان على بقائه منذ سنة ١٦١٣م، ولما نال احترام الدول المجاورة وغير المجاورة.

ومن ذلك ما حدث في عهد الشيخ عبدالله بن صباح بن جابر الذي تولى حكم البلاد في سنة ١٧٧٦م وتوفي في سنة ١٨١٤م، ونحن نشير بهذا إلى حادثة معركة الرقة التي سبق لنا أن فصلنا الحديث عنها، وكانت بين الكويت وحكام المحمرة من بني كعب، وكان النصر فيها للكويتيين.

وكانت الكويت – وهو ما أشرنا إليه فيما سبق- تستقبل اللائذين بها، وتبسط حمايتها عليهم، دون أن تعبأ بما قد يجره ذلك من غضب الآخرين، وقد حدث في سنة ١٧٨٠م أن لجأ ثويني بن عبدالله أمير المنتفق بعد تعرضه لهجوم قاسٍ من والي بغداد إثر استيلاء ثويني على البصرة، ولم يستطع هذا الصمود أمام القوة الكبيرة التي اتجهت إليه بغية إخضاعه ففر إلى الكويت ومعه شخص آخر هو مصطفى آغا الكردي حيث وجدا الحماية والأمان.

(1) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٠/٧/٧م.

ومما ذكر عن هذه الحادثة أن الجهات العثمانية قد طلبت استرجاعهما أولًا، وعندما رفض الشيخ هذا الطلب بدأت تقديم الهدايا على سبيل الرشوة المرفوضة من قبل الشيخ، وفي الأخير بدأت التهديد والوعيد، ولكن الشيخ ظل متمسكًا بموقفه، رافضًا تسليم من لجأ إليه معتبرًا أن العادات العربية ترفض تسليم (الدخيل). وكان نتيجة ذلك أن اكتسب ثناء والي بغداد المكلف بمحاربة ثويني؛ سليمان باشا، وفي خطاب له قال بعد أن جرب كل أساليب الإغراء وأساليب الوعيد دون أن تفيده شيئًا إزاء موقف الشيخ: (بعد كل هذا اعتبر أن من سعادتي العظيمة أن يكون على مقربة مني شخص في مثل طباع شيخ القرين).

هذا ومما يلفت النظر إلى موقف الشيخ عبدالله بن صباح أنه تلقى رسالة من ممثل الوكالة التجارية الإنجليزية في اليوم السابع عشر من شهر أبريل لسنة ١٧٨٩م يخبره فيها بعزم الباشا على مهاجمة الكويت للقبض على الرجلين فما كان من الشيخ إلا أن رد بقوله: إنه على استعداد لقتال الباشا في سبيل حماية ضيوفه، إذا لم يكن هناك سبيل آخر غير الحرب.

وقد سمح لضيفيه بالاستعداد لمهاجمة سليمان باشا، وأقاما بالفعل مركزًا تجمع فيه عدد من الأنصار في الجهراء تمهيدًا للمهاجمة.

ولا يخفى أن شيخ القرين المذكور هنا هو الشيخ عبدالله بن صباح بن جابر الذي أشرنا إليه قبل قليل. وكانت الكويت في زمنه تسمى القرين.

وعندما توفي هذا الشيخ وتولى الحكم من بعده ابنه الشيخ جابر الأول تمت في عهده حادثتان تدلان على تمسك الكويت بمواقف ثابتة وهما:

أ - شاركت الكويت في عهده بأول مجهود حربي خارج حدودها، إذ أقدمت على إرسال جنودها إلى المحمرة لتأديب بني كعب بناءً على التماس من الحكومة

العثمانية، بعد أن طرد الكعبيون جند العثمانيين من المحمرة. وقد كان هذا الاهتمام بالتدخل من أجل تحقيق رجاء العثمانيين من جهة، ومن أجل الرد على الإعتداء الكعبي الذي تم في السابق وأشرنا إليه في هذا المقال عند حديثنا عن معركة الرقة الشهيرة.

ب - وفي عهده حضر وفد إنجليزي، وبعد أن استقبله الشيخ ليعرف ما هو قصد هذا الوفد من الزيارة، وجدهم يطلبون عددًا من التسهيلات في البلاد منها البناء في بعض المواقع الكويتية. ولم يقبل أن يلبي طلبهم، وهنا سألوه إن كان يسمح للحكومة العثمانية بالنزول إلى البلد، والبناء فيها أم يمنعها؟ فأجاب: (نمنعها من ذلك إذا كان فيه ضرر علينا وعلى بلدنا).

وإذا انتقلنا إلى عهد حكم الشيخ مبارك الصباح للكويت (١٨٨٦/١٩١٥م) وجدنا تاريخًا حافلًا بالأعمال الكبيرة والمبادرات المهمة، ويكفي منها إبرامه الاتفاق التعاقدي مع بريطانيا الذي تم إبرامه في سنة ١٨٨٩م. ولم ينته العمل به إلا باتفاق آخر تم في عهد الشيخ عبدالله السالم الصباح يوم التاسع عشر من شهر يونيو لسنة ١٩٦١م.

ومما يعد موقفًا مهمًّا من مواقف الشيخ مبارك الصباح - بحق - حرصه على أن يحيط نفسه بالمعلومات من الجهات المجاورة له وعلى الأخص الدولة العثمانية التي يناصبه ولاتها العداء، وكانت له شبه دائرة معلومات أو استخبارات في العراق وفي دوائر الحكومة العثمانية ذاتها، فكانت تأتيه الأنباء حتى من إسطنبول ذاتها. وقد جاء في مجال من مجالات الحديث عن هذا الرجل أن مخابراته كانت الأولى في الجزيرة العربية، ولم يكن هناك شيء يمكن إخفاؤه عنه. ولقد كان تسلحه بالمعلومات سببًا من الأسباب التي أحاطته بالحماية نتيجة للحذر. وسببًا من أسباب اكتسابه احترام الأعداء قبل الأصدقاء.

وتمضي الأيام ويأتي دور حكم الشيخ أحمد الجابر الصباح للكويت (١٩٢١-١٩٥٠)، وفي عهده جرت أحداث كثيرة وبخاصة ما يتصل بعلاقة الكويت بجارها الشمالي، وتعرضت خلال هذه الفترة إلى إشكالات حدودية وسياسية بل مائية وإعلامية، وقد بذل الجار كل جهده ليؤثر في الكويت ويسلب شيئًا من حقوقها ولا سيما على الأراضي، وقد كانت مواقف الشيخ أحمد الجابر قوية ورادعة، أعلن من خلالها عدم التنازل، وعدم الخضوع للابتزاز مهما كانت المعاناة التي يُعانيها هو وشعبه. ولقد ذكرت كثيرًا مما مرّ في هذه الفترة بكل تفصيل، مع تقديم الوثائق التي تدل على صدق ما قدمت، وذلك في كتابي: (الشيخ أحمد الجابر الصباح، ومسألة الحدود الكويتية). ومع وجود التفصيل المطلوب بهذا في هذا الكتاب فإنني أقدم نموذجين لما جاء في هذا الشأن أحدهما يتعلق بالأرض والآخر متصل بالإعلام، وذلك كما يلي:

يتعلق النموذج الأول بمقابلة تمت مع الشيخ أحمد الجابر في أواخر شهر مارس لسنة ١٩٤٠م، وكان الطرف الثاني في المقابلة هو البريطاني تشارلي براير الذي وصف بأنه قائم بعمل الوكيل السياسي البريطاني في الكويت. وقد جاء يطرح على الشيخ مطامع العراقيين في جزيرتي وربة وبوبيان وقد رد الشيخ أحمد على الوكيل السياسي ردًّا أوضح عزمه القوي على التمسك بحقوق وطنه وكرامة شعبه، كما بين في رده تفهمه للدسائس البريطانية التي سبق لنا الإشارة إليها، وهي مؤشر على ميلهم - آنذاك - إلى الجانب الآخر. يقول الشيخ في رده وفق المحضر الذي كتبه (براير) وكتبه على لسانه: (وأوضح الشيخ أنه غير مستعد للتنازل عن أي شيء، وأن أرض بلاده ينبغي أن تكون بعيدة عن المساومات والدسائس التي كان يقوم بها بعض الإنجليز لمصلحة الجانب العراقي وأعرب الشيخ عن رغبته في أن يبتعد العراق عن الخوض في المسائل التي تخص الكويت ومنها الأراضي التي تسيطر عليها بموجب الحقوق الثابتة التي اعترف بها العراق بموجب الرسائل

المتبادلة في سنة ١٩٣٢م. وقد جاءت خلاصة الحديث في هذا الموضوع كما كتبها محرر ما دار في المقابلة: كان للعناد الواضح الذي دافع به الشيخ أحمد عن كل بوصة من أرضه، أن أقنع الحكومة البريطانية أنه ليس لدى الكويت أي استعداد للتنازل عن وربة وبوبيان). أما النموذج الثاني فيتعلق بالسعار الإعلامي الذي أصاب الأجهزة الإعلامية العراقية، وجعل الملك غازي ينشئ إذاعة خاصة ليس لها عمل إلا الهجوم على الكويت وأميرها. أما الصحف فحدث ولا حرج. ولا شيء أدل على موقف الشيخ أحمد الجابر الصباح تجاه هذه الاستفزازات أكثر من الرسالة التي وجهها إلى الوكيل السياسي البريطاني في الكويت بصفته ممثلًا للدولة التي كانت مسؤولة عن علاقات الكويت الخارجية، وفي الرسالة يقول: «بعده، نلفت نظر سعادتكم إلى أن الصحافة العراقية متخذة خطة حملة حيالنا أقل ما يقال فيها إنها تكاد أن تكون مدبرة بل مقصودة لأغراض لا أفهمها وبما أننا جدًّا حريصون على علاقات الود والولاء مع جيراننا عمومًا والعراق خصوصًا أرجو أن تلفتوا نظر المسؤولين هناك لمثل هذه النشرات المخلة بروابط الود والصداقة بين الجيران إذ طالما نقرأ على صفحات تلك الصحف مقالات منمقة تحت عناوين ضخمة تلفت نظر القارئ وكلها من باب التهويل الذي لا طائل تحته ونحن لو كنا نعتقد أن هناك شيئًا أو شبه شيء من الأشياء المبحوث عنها لغضضنا النظر عن هذه المحاولات الكتابية ولكنها في عين الحقيقة والواقع تتنافى مع الواقع والحقيقة تمام المنافاة.

وإني لا أريد أن أتناول كل مقالة على حدة ولكني سأذكر لكم من باب النموذج المقالات التي نشرت على صفحات جريدة الأهالي البغدادية لمراسل مجهول يتعلق ببساتيننا وأملاكنا، ورسالتهم طمس للحقائق، وكذلك مقالة نشرت في موضوع واحد تحت ثلاثة عناوين مختلفة بقلم كاتب واحد وهو عمر الطيبي السوري الأصل والذي زار العراق أخيرًا والمحرر في جريدة فتى العرب الدمشقية المقالة الأولى على صفحات فتى العرب الصادرة بتاريخ ١٤ شوال ١٣٥٢هـ بعنوان: «لماذا

لم تنضم الكويت إلى العراق؟» والمقالة الثالثة على صفحات الثغر المصرية تحت عنوان: «بين الكويت والعراق» عالج فيه الكاتب هذا الضم المزعوم بأسلوب ينم عن روح التواطؤ على النشر لغرض سيئ يراد منه تشويه الحقائق وبذر بذور التفرقة بين البلدان المجاورة. ولو كانت هذه الكتابات تأتينا من وراء البحار أو من أقطار نائية لما استغربنا كل هذا الاستغراب ولكن صدور مثل هذه المحاولات الخاطئة بصفة دائمة من الصحافة العراقية، مما يحملنا على أن نستغرب الاستغراب كله كيف يترك الرجال المسؤولون في حكومة منظمة كحكومة العراق الحبل على الغارب لنفر لا يقدرون الحقائق حق قدرها لتشويه سمعة جيرانهم والنيل منهم بلا مسوغ، ولسنا في صدد التدليل على قيمة هذه الكتابات وماهيتها، بل جل قصدنا هو إظهار استنكارنا واستهجاننا لهذه الطريقة المتبعة التي لا يسعنا السكوت عليها مهما كان مصدرها.

ونؤكد لسعادتكم أن ظهور هذه الإشاعات الكاذبة طورًا بقلم عراقي وطورًا بقلم سوري مما يجعلنا نحتج بشدة على كاتبيها ونلح بالطلب أن تراجعوا المقامات المسؤولة لجعل حد لها يحفظ روح المناسبات الودية التي نرجو دوامها بين الجميع، هذا والباري يحفظكم).

ونتيجة لهذه الرسالة، وغيرها من اتصالات قام السفير البريطاني في بغداد السير موريس بيترسن بمقابلة غازي وأمره بالتوقف عن هذا العمل الصبياني، وكانت النتيجة غريبة، يقول السير بيترسن: (وكما توقعت، فقد انهار الملك تمامًا عندما ذكرت موضوع الكويت وقال صاحب الجلالة في حديثه غير المترابط بأنه لا يقصد مهاجمة الكويت، بل للضغط على حكامها للإذعان لإقامة المؤسسات اللبرالية. وتساءلت فيما إذا كان صاحب الجلالة يعتبر العراق حقًا بوصفه مثلًا يقتدى به في الوقت الحاضر، وقد حذرت مرارًا وتكرارًا في الماضي من سوء

استخدام المحطة الإذاعية الخاصة به لأغراض الدعاية أيًّا كان شكلها، إذ جاء استخدامها بشكل أصبح يزعجنا إن لم يكن يحرجنا).

وبذا نرى أن رد السفير على قول غازي بشأن المؤسسات الليبرالية رد يعبر عن واقع الحال في العراق آنذاك، وكأن سفير بريطانيا يقول له: إن بيتك من زجاج.

ولا ننسى أنه في عهد الشيخ أحمد الجابر تم تأسيس دائرة بلدية الكويت، وافتتح أول بنك في الكويت سنة ١٩٤٢م، وأنشأ بيت الكويت في القاهرة سنة ١٩٤٥م ليرعى طلاب البعثات الكويتيين هناك، وتم في عهده – أيضًا – تصدير أول شحنة نفط خام كويتي وذلك في اليوم الثلاثين من شهر يونيو لسنة ١٩٤٦م، وتأسست أول مطبعة في البلاد خلال سنة ١٩٤٧م.

وكل هذه مواقف جديرة بالاهتمام، وكانت لبنات مهمة في بناء تقدم الكويت وازدهارها.

وفي سنة ١٩٥٠م تولى حكم دولة الكويت الشيخ عبدالله السالم الصباح، وبقي في حكمها حتى سنة ١٩٦٥م، وفي عهده تواترت أحداث كثيرة. وكانت قراراته مثلًا في الجرأة، ودليلًا على مقدرته القيادية. وعلى حبه للوطن والمواطنين. اتخذ إجراءات كثيرة بدأها باستغلال موارد النفط التي ازدادت في عهده، فصرفها في مصارف نافعة للبلاد، فعم الرخاء، واتسعت البلاد وكثر عدد سكانها، وبدأ عهدًا جديدًا من التعمير في المباني والطرق، ومن التوسع في خدمات الصحة والتعليم. واعتنى بتكوين الدوائر الحكومية ومجالسها، وتم في عهده أول انتخاب لهذه المجالس. واتخذ أهم قرار في حياته حين طلب من بريطانيا إلغاء الاتفاق التعاقدي مع دولة الكويت، وهو الذي تم في سنة ١٨٨٩م، فكان له ما أراد حين وقع معه رئيس التمثيل البريطاني في الخليج السير وليام لوس على اتفاق جديد يلغي الاتفاق الأول وينهي آثاره. وقد تم ذلك في اليوم التاسع عشر من شهر يونيو

لسنة ١٩٦١م، وجابه الشيخ عبدالله السالم الصباح دعوة عبدالكريم قاسم الذي لم يكسب من دعواه شيئًا لأنها لم تكن تعتمد على أساس تاريخي أو قانوني، ويستطيع القارئ أن يرى ذلك مبسوطًا في كتابنا (من أين يأتي النسيان، الكويت وعبدالكريم قاسم).

وقد خطا الشيخ خطوات مهمة بعد ذلك بانضمام الكويت إلى جامعة الدول العربية في اليوم الثاني من شهر يوليو لسنة ١٩٦١م، ومنظمة الأمم المتحدة في اليوم الرابع عشر من شهر مايو لسنة ١٩٦٣م. وأنشأ المجلس التأسيسي ١٩٦١م، وأصدر دستور الكويت في اليوم الحادي عشر من شهر نوفمبر لسنة ١٩٦٢م، وفي نهاية سنة ١٩٦٣م جرت أول انتخابات نيابية، وفي شهر يناير لسنة ١٩٦٢م تشكلت أول حكومة كويتية.

وليس كل ذلك إلا جزءًا بسيطًا من مجمل الأعمال، والمبادرات التي قام بها الرجل طيلة فترة حكمه.

ولا نغادر الحديث عن مبادرات الشيخ عبدالله السالم حتى نورد ما قام به أخوه من بعده الشيخ صباح السالم الصباح الذي كانت له مبادرة مهمة سوف نذكرها في موضعها. تولى الشيخ صباح الحكم في سنة ١٩٦٥م إثر وفاة أخيه. وقد شهدت الساحة العربية في عهده حربين كبيرتين مع إسرائيل، هما: حرب سنة ١٩٦٧م، وحرب سنة ١٩٧٣م. وقد أبى إلا أن تشارك الكويت بمجهودها الحربي في هاتين الحربين، فأرسل مجموعات من الجيش الكويتي إلى جبهة القتال في كلا الحربين وأبلى الجنود الكويتيون في ذلك البلاء الحسن. وقد استشهد على ساحة المعركتين في مصر عدد من أبناء الكويت، ينبغي أن نذكرهم، وتذكرهم مصر على الدوام لما قاموا به من جهود مشكورة في مواجهة العدوان الإسرائيلي. ولا أقول أكثر من ذلك عنهم.

تولى الحكم بعد الشيخ صباح عندما توفي سنة ١٩٧٧م الشيخ جابر الأحمد الصباح رحمه الله وقد كان له من المواقف ما لا ينساها أحد وبخاصة من الجيل الذي عاصر حكمه. وشاهد منجزاته.

لم تكن النقاط التي قدمناها إلا اختيارات محدودة من المبادرات التي قامت بها الكويت عبر تاريخها. والمواقف المهمة التي برزت في هذا التاريخ كثيرة، وكلها تدل على الرغبة الصادقة في الحفاظ على قيمة الوطن، وكرامة أهله، مهما كلفت المواقف من مصاعب.

****

ملحاق خير

عيسى محمد المخيزيم

بعد صدور عدد «الوطن» الذي يضم مقال الأزمنة والأمكنة عن المرحوم عيسى محمد المخيزيم، ورد كتاب إلى رئيس تحرير الجريدة من الأخ الأستاذ محمد أحمد المخيزيم الذي نوهت باسمه في المقال وذكرت أنه هو الذي أخبرني بالاسم الكامل للمرحوم عيسى، كما ذكرت أنه زودني ببعض المعلومات ورسالة الأستاذ محمد فيها توسع في بعض الأمور التي ذكرتها، وزيادة عن الهدف المقصود من نشر مقالي ومع ذلك فإنني أضع بين يدي القارئ الكريم كامل ما ورد في الرسالة لأن الاطلاع عليها مفيد:

كان عيسى محمد المخيزيم من سراة أهل الكويت وأغنيائهم عاصر الشيخ جابر العبدالله «جابر العيش» وهو من أجداد عائلة المخيزيم وينتمي إلى قبيلة سبيع من الأعز من بني عمر من هذه القبيلة وكان ممن اشتهر عنهم أعمال البر وفعل الخير، ففي عام ١٢٦٤هـ - قام بعتق عبيده ومواليه جميعًا لوجه الله بوصية مكتوبة وهي من السنين التي سبقت حدوث المجاعة المعروفة بسنة «الهيلك» وأوصى بأن يعاملوا معاملة الأحرار وأن يأكل في بيته كل من يريد أن يجلس منهم، وأوصى بهم ابنه سليمان «مرفق صورة من الوصية»، أما في سنة المجاعة التي حدثت ما بين ١٢٨٥ هـ وسنة ١٢٩٠ هـ تقريبًا والتي امتدت من أرض الرافدين

إلى الجزيرة العربية وبلاد فارس وقد سميت بعام الهيلك لأعداد الفقراء الذين نزحوا إلى الكويت وهي كلمة عربية - عجمت - فهي عام الخلق الكثير وحرفت الخاء إلى الهاء والقاف إلى الكاف كعادة أهل فارس، وبحلول هذه المجاعة قام أهل الكويت كعادتهم صغيرهم وكبيرهم بتقديم المساعدات، وقد اشتهر من أولئك في تلك الفترة يوسف البدر ويوسف الصبيح وعبداللطيف العتيقي وسالم بن سلطان وآل الإبراهيم وعيسى بن محمد المخيزيم.

وقد توجه يوسف الصبيح ويوسف البدر وعيسى المخيزيم لبذل الطعام للنازحين إلى الكويت وقام عيسى المخيزيم بفتح بيوت بالبصرة وبر فارس مع إخوانه من تجار الكويت في تلك المناطق واعتنوا كثيرًا بأهل العراق فما كان من الشاعر العراقي عبدالغفار الأخرس إلا أن وجه رسالة شكر إلى عيسى محمد المخيزيم وجميع أهل الكويت وخص بالذكر في القصيدة يوسف الصبيح ويوسف البدر وسالم بن سلطان.

وهذه القصيدة:

يا ابن المخيزيم وافتنا رسائلكم
مشحونةً بضروب الفضل والأدبِ
جاءتْ بأعذبِ ألفاظٍ منظمةٍ
حتى لقد خلتها ضربًا من الضَّرب
زَهَتْ بأوصافٍ من تعنيه وابتهجت
كما زهت كاسه الصَّهباءُ بالحَبب
علَّلتمونا بكتْبٍ منكم وردتْ
وربما نفعَ التعليلُ بالكُتب

فيها من الشَّوقِ أضعافٌ مضاعفةٌ
تطوي جوانح مشتاقٍ على لهب
وربما عَرَضَتْ باللطف واعترضتْ
دعابة هي بين الجدّ واللّعب
قضيتُ من حسن ما أبدعته عجبًا
وأنت تقضي على الإحسان بالعجب
أمَّا النقيبان أعلى الله قدرهما
في الخافقين ونالا أرفع الرُّتب
الطاهران النجيبان اللذان هما
من خير أمٍّ زكت أعراقُها وأب
دامَ السَّعيدُ لديكم في سعادته
وسالم سالمًا من حادث النوب
إنَّ الكويتَ حماها الله قد بلغت
باليوسفين مكان السَّبْعة الشُّهب
تالله ما سمعت أذْني ولا بصرت
عيني بعزِّهما في سائر العرب
فيوسف بن صبيح طيب عنصره
أذكى من المسك إنْ يعبق وإنْ يطب
ويوسف البدر في سعدٍ وفي شرفٍ
بدر الأماجد لم يغرب ولم يغب
فخرُ الأكارم والأمجاد قاطبة
وآفة الفضة البيضاء والذَّهب

فلولا أمورٌ أعاقتنا عوائقها

جئنا إليكم ولو حَبْوًا على الرُّكَبِ

وفيما يلي صورة من الوصية المكتوبة من عيسى بن محمد المخيزيم على يد قاضي الكويت في تلك الفترة عبدالله بن محمد العدساني وبشهود أحمد محمد سالم العتيقي ومحمد عبدالله الفارس.

وفي ما يلي نص الوثيقة – الوصية.

بسم الله الرحمن الرحيم

صح لدي ما ذكر لدي

وأنا العبد الفاني عبدالله بن محمد العدساني

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

هذا ما أوصى به الرجل البالغ العاقل الحر الرشيد عيسى بن محمد بن مخيزيم في حال صحته وثبوته وكمال عقله بأنه يشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وأنه رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبالمؤمنين إخوانًا، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن الموت حق، وأن البعث حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأوصى من خلف من أهله وجيرانه أن يتقوا الله ويصلحوا ذات بينهم ويطيعوا الله ورسوله إن كانوا مؤمنين، وأوصاهم بما أوصى به إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون، وأوصى بأن وكيله على ابنته منيرة وثلث ماله ابنه سليمان، وأوصى بأن عبيده بأجمعهم أحرار لوجه الله تعالى، فمن أراد منهم أن يقعد عند ابنه سليمان فليفعل،

ومن أراد أن يظهر عنه فلا يمنعه ويعطيه من ثلثه كما يعطون سائر المعتقين عند اعتاقهم، وأوصى ابنه المذكور بالمحافظة له في أعمال البر في الأوقات الفضيلة وعدم الغفلة عن ذلك، وأوصاه بسعة الصدر على أخته ومن تحت يده من العبيدين والرفق، وألاَّ يكلفهم ما لا يطيقون والله سبحانه وتعالى المستعان على كل أمر مهم والموفق، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

جرا وحُرر في اليوم الخامس من شهر ربيع الأول من سنة ١٢٦٤هـ.

تحقق وشهد به العاقل محمد بن عبدالله بن فارس أشهد على ذلك

وأنا الفقير إلى الله.

أحمد بن محمد بن سالم العتيقي.

أما يوسف خالد المخيزيم فهو من عائلة المخيزيم، استشهد في معركة الجهراء في عام ١٩٢٠م.

نبذة عن حياة الشهيد (بإذن الله) يوسف خالد المخيزيم

كان يوسف المخيزيم وحيد والده خالد بين ابنتين، وكان والده محبًّا له شغوفًا به كثيرًا حتى إنه زوجه لما بلغ من العمر ١٧ عامًا من امرأة فاضلة هي مريم علي بن حمد الفضالة، أنجب منها أولاده الثلاثة: مخيزيم وسبيكة وأحمد.

كان يوسف في ريعان شبابه (٢٠ سنة) عندما نادى المنادي بالدفاع عن الكويت، فذهب إلى الجهراء وانضم إلى جيش الكويت بقيادة/الشيخ سالم المبارك، وأكرمه الله تعالى بالشهادة، وذلك عندما تسلق أحد المحاربين سور القصر الأحمر

من نخلة مجاورة ودخل غرفة الذخيرة وتبادل إطلاق النار بين الطرفين وتم إطلاق النار على يوسف صريعًا ليستشهد وكان معه صالح الشايجي رحمه الله (وهو الذي روى هذه القصة).

ويقول الشايجي راويًا تلك القصة: إنني لم أصب بأذى ذلك لأنني تظاهرت بالموت فلم يطلق عليّ المهاجم النار في الوقت الذي أصاب يوسف إصابة قاتلة.

وصل خبر استشهاد يوسف إلى مسامع والده وكان في السوق فلم يتمالك نفسه فسقط من هول الخبر وتوفى من ساعته. وترك يوسف المخيزيم صورة رائعة من الدفاع عن الوطن من موجة شرسة أرادت التخريب ليكون هو ومن ماثله بالمدافعين عن حوض الوطن في الفترات المتتالية حتى الغزو الغاشم قدوة حسنة وعبرة منيرة لشبابنا في المحافظة على كويتنا الغالية.

****

مباحث تاريخية عن الكويت (١)

هذه نبذة عن المباحث التاريخية المتنوعة ذات العلاقة بالكويت. وهي بداية لأعمال مشابهة سوف ترد فيما بعد إن شاء الله.

ستكون مرقمة كما يلي:

١ - سبق لنا أن تحدثنا عن نشأة المدرسة المباركية، وعن الداعي الأول إلى نشأتها وهو السيد ياسين الطبطبائي، وذلك في مقالات من «الأزمنة والأمكنة» ومن: «أيام من تاريخ الكويت لا بأس هنا من العودة إلى حديث سريع عن ذلك في هذا المقام باعتباره مدخلًا إلى ما نريد، وهو الأمر الذي سوف يطلع عليه القارئ بعد قليل.

كانت نشأة المدرسة المباركية وهي أول مدرسة نظامية في الكويت نوعًا راقيًا من العمل الشعبي المتآزر منذ البداية. وقد روى لنا الشيخ يوسف بن عيسى حديث النشأة في كتابه «صفحات من تاريخ الكويت» حين قال: «كان الشيخ محمد بن جنيدل يقرأ البرزنجي في محلنا وكان المجلس محتشدًا بالمستمعين، فلما انتهى المولد قام المرحوم السيد ياسين طبطبائي وألقى كلمة خلاصتها «ليس القصد من مولد النبي تلاوة المولد وإنما القصد الاقتداء بما جاء به النبي ﷺ من الأعمال الجليلة. ولا يمكننا الاقتداء به إلا بعد العلم بسيرته. والعلم لا يأتيكم اليوم إلا بفتح المدارس المفيدة، وإنقاذ الأمة من الجهل». وبعدما انتهى كلامه تدبرته فإذا

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٠/٧/١٤م.

هو الحق فأخذت أفكر في الوسيلة التي يكون بها فتح مدرسة علمية. فرأيت أن أكتب مقالاً أبين فيه فضل العلم والتعلم، ومضرات الجهل وقيمة التعاون على هذا المشروع فكتبت هذا المقال وابتدأت بالتبرع لهذا المشروع.

وبعد أن سرد أسماء الذين تبرعوا بمبالغ مالية لإنشاء المدرسة، قال: «وتبرع أيضًا أولاد خالد الخضير ببيت كبير للمدرسة، وعينت لمباشرة البناء، واشترينا بيت سليمان العنزي، وبيتًا آخر قيمته زهيدة، وحصل بيت وقف خرب تحت إشراف آل خالد، أدخلناه في المدرسة، وتعهدت المعارف بدفع قيمة أضحيتين بحسب نص الموقف كل سنة». وكانت السيدة سبيكة الخالد قد تبرعت بالأضحيتين سنويًا إلى أن قامت دائرة المعارف فتولت أمرهما على النحو الذي ذكره الشيخ يوسف بن عيسى.

مرت السنين طويلة ودائرة معارف الكويت تدفع في كل سنة ما تشتري به الخروفين، ثم تقوم بتوكيل من يقوم بذبحهما وتوزيع لحمهما على الفقراء وفق شروط الواقف، وقد كنت في وزارة التربية منذ سنة ١٩٦٥م حتى سنة ١٩٨٥م، وأنا أرى في ميزانية الوزارة السنوية المبلغ المخصص لهذا الأمر، وبعد عدد من السنين تولى أخي الأستاذ الدكتور عبدالله يوسف الغنيم حقيبة هذه الوزارة، وقد نبهته إلى هذا الأمر، فسأل الجهات المالية عنده، ووجد الأمر قائمًا إلى وقته. ولا أظن أحدًا من المسؤولين بعده في حل من هذا الاتفاق لأن البيت الذي دخل في ضمن مبنى المدرسة المباركية لا يزال وضعه كما هو منذ سنة ١٩١٢م، والتزام دائرة معارف الكويت في سنة ١٩٣٦م لم يطرأ عليه جديد، صحيح أن مبنى المدرسة الآن يستعمل من قبل المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ولكنها لا تزال في ذمة وزارة التربية لأن ملكيتها لم تتغير. آمل أن يكون أمر الخروفين مستمرًا حتى اليوم، وحتى ما بعد اليوم، وأرجو - أيضًا - أن تتولى هيئة الوقف الإشراف على الترتيبات المتعلقة به.

(انظر: تاريخ التعليم في دولة الكويت، المجلد الأول، ص ١٠٤).

الحديث الذي نقله الشيخ يوسف بن عيسى عن السيد ياسين، وهو الحديث الذي حض به الجالسين على الاقتداء بسنة الرسول الكريم ﷺ، والعمل على نشر العلم يدل دلالة واضحة على فكر هذا السيد وعلى مكانته، وحبه للعمل العام الذي يفيد الناس أجمعين.

٢ - يخلط الناس بين رجلين هما السيد ياسين هذا، وآخر هو السيد ياسين الرفاعي الذي تحدثنا عنه فيما سبق من مقالات، ولكننا نرى أن خير ما يمكن أن نقدمه هنا نصٌّ كتبه هارولد ديكسون الذي عرف السيد ياسين الرفاعي عن قرب، وتحدث إليه، ورأى بعضًا من أعماله، يقول ديكسون:

«في ذلك الوقت كان السيد ياسين وهو رجل طاعن في السن طيب شفوق لا يعرف للتعصب معنى. ففي الشتاء والربيع كان يعيش مع عدد من تلاميذه في شبه جزيرة رأس عشيرج التي تبعد خمسة عشر ميلًا إلى الغرب من الكويت. وفي عز الصيف كان يقيم في منزل في وسط مدينة الكويت ليس بعيدًا عن البحر إلى جوار حمد الخالد أحد قدامى تجار الكويت وكانت للسيد ياسين قوة خارقة للشفاء لاسيما إذا كان الأمر يتعلق بلدغة حية أو عقرب. ومع ذلك كان يأتي إليه المصابون بالزكام والحمى والسل على حد سواء كان بعضهم يسمى ذلك شفاء عن طريق الإيمان ولكن السيد ياسين كان يصفه بأنه يد الله التي تعمل من خلاله.

وكان يقول دائمًا:

- أنا نفسي لا أستطيع أن أفعل شيئًا ولكنني أطلب من الله أن يخفف عن المتألم فيستجيب برحمته الواسعة إلى دعائي.

كان السيد ياسين يضع يده على رأس المريض ويقول:

- «آمن بالله وهو يشفيك من كل العلل. اذهب بسلام».

ولم يستخدم دواء سوى الماء. فكان يطلب كأسًا منه ويتصرف كأنه سيبصق فيه دون أن يفعل ذلك ثم يطلب من المريض أن يشرب الماء إلى آخره فيبرأ.

ويبدو أنه كان ينجح، إذ كيف نفسر شفاء العشرات ممن يأتون إليه يوميًّا لشفائهم؟

ولم يكن يتقاضى عن عمله هذا أي أجر، كما أنه لم يقتل قط أي حيوان سام أو مؤذ لأن تلك الحيوانات على حد قوله «مخلوقات الله فلماذا نؤذيها؟».

كانت له طريقة عجيبة في اجتذاب الأفاعي. ولم تكن تلك الأفاعي تلدغه فكان يلتقطها وكأنها أكثر المخلوقات براءة. وكان يخبر أصدقاءه أن الأفعى لا تؤذي أحدا إذا أفهمها أنه لا يقصد بها الشر.

ولعل أكثر أساليب السيد ياسين إثارة للدهشة قدرته على معالجة الذين لدغتهم الأفاعي السامة بشرط أن يؤتى بالشخص الملدوغ إليه في الحال فيدعو له ويمسك بيده فيخف ألمه ويشفى. ومع أنه كانت لدينا إرسالية وأطباء وعدة أنواع من المصل المضاد للسم، لكن العرب على العموم كانوا يفضلون الذهاب إلى السيد ياسين أولًا. وقد عثرت مرتين على رجال فاقدي الوعي يموتون من لدغة الأفعى وفي المرتين توسل هؤلاء إليّ ألا آخذهم إلى المستشفى بل إلى منزل السيد ياسين. ففعلت.

إن أعظم مثل على قدرة السيد ياسين في الشفاء من لدغة الأفعى ذلك الذي رأيته بنفسي. وأعرف أبطال القضية واحدًا واحدًا ولذلك أريد أن أتوخى الحقيقة فقط. ولن أدعي أنني سأفسر الأسباب والنتائج.

في أوائل صيف سنة ١٩٤٥م كان صديقي الشيخ لافي بن معلث من فرع الدياحين في قبيلة مطير مخيمًا مع عدد من قبيلته في أربعين خيمة عند آبار الطويل على بعد ثلاثين ميلًا إلى الجنوب من الكويت (العاصمة) بالقرب من برقان. وبعد غروب الشمس بقليل وبينما كان الشيخ لافي جالسا بقرب النار ينتظر القهوة، رأى على أضواء النار أفعى ذات قرون اجتذبها النور المنبعث من النار فاقتربت منها. وأصيب لافي بهلع مفاجئ فرفس الأفعى برجله الحافية رفسة قوية ولكنها كانت أسرع منه فغرزت أنيابها في رجله وتعلقت بها.

وأخذ الشيخ لافي يصيح طالبًا النجدة فهرع إليه أصدقاؤه بعد قليل ليخلصوه من أنياب الأفعى بعد أن قتلوها. لقد كانت أفعى مكتملة النمو ومميتة دون أي شك. وأوثق أصدقاء الشيخ لافي الرباط فوق ركبته وتحتها ليحصروا مجرى الدم على طريقتهم وقرروا أن ينقلوه إلى السيد ياسين بأسرع وقت ممكن على جمله. وكان شقيقه الأصغر أذكى من البقية فقفز على جمله وخف إلى الكويت لمقابلة السيد ياسين وطلب المساعدة منه. وكان يعرف أنه إذا قدر للشيخ لافي أن يصل إلى المدينة فلن يصلها قبل الصباح. وسار الشاب حثيثًا فوصل الكويت عند منتصف الليل فأيقظ السيد ياسين من نومه وأخبره قصته بسرعة وقال:

- لا أعتقد أن أخي بإمكانه أن يصل إلى الكويت قبل ثماني ساعات أو أكثر وعندها يتسرب السم إلى جسده فيقتله.

وتأمل السيد ياسين برهة ثم قال بهدوء:

- اذهب بسلام يا بني لقد شفى الله الشيخ لافي منذ هذه الساعة. عد إلى ملاقاة أخيك وستجده سالمًا معافى.

فرح الشاب ولكنه ظل قلقًا وذهب من حيث أتى في ظلام الليل. وبعد مسيرة خمسة عشر ميلًا من المدينة التقى بشقيقه راكبًا على جمله يسير ببطء ولكنه بصحة جيدة مع أنه كان لايزال يعاني من تأثير الصدمة.

وبادره لافي بقوله:

لقد زال عني تأثير السم فجأة وشعرت بالحياة تعود إليّ.

ولما سأله عن الوقت الذي حدث فيه ذلك تبين أن المعجزة وقعت تمامًا في الوقت الذي أبلغ فيه السيد ياسين شقيق الشيخ لافي أن شقيقه سيشفى بعون الله رأيت الشيخ لافي بعد ثماني ساعات من الحادث في مجلس الشيخ عبدالله الأحمد الابن الأكبر لشيخ الكويت. وكان يصف كيف أنقذت حياته في الليل شاكرًا الله. وزيادة في الإيضاح أراني الجرح الذي أحدثته أنياب الأفعى في ساقه وأخبرني والجمع في المجلس كيف أنه بعد عشرين دقيقة من لدغ الأفعى له انتابه نعاس وخدر شديدان فقد بعدهما الوعي كليًّا بعد أن قطع مسافة ميلين نحو الكويت. وقد ربطه صحبه إلى ظهر الجمل وأرسلوا معه رجلًا ليدل على الطريق ولم يكن بالإمكان السير بأكثر من المشي العادي. وحوالي منتصف الليل أفاق الشيخ لافي ودعا رفاقه أن يوقفوا الجمل وينزلوه إلى الأرض ففعلوا ثم فكوا رباط الشيخ لافي بسرج الجمل فوقف ولكن ضعيفًا وقال:

– وبعد ساعة شعرت بتحسن مذهل. بحيث أني نزعت الرباطين من رجلي لأنهما كانا يؤلمانني. ووصلت إلى الكويت عند الفجر شاكرًا الله على رحمته. وتوجهت رأسًا إلى منزل السيد ياسين لأعبر له عن شكري وعرفاني لجميله، ولكنه قال: أشكر الله وحده. أنا لم أفعل شيئًا دعوت الله فاستجاب لدعائي، تبارك اسمه.

لقد قابلت السيد ياسين مرة واحدة وخرجت بانطباع طيب عنه. وكنت أنا وزوجتي غالبًا ما نراه جالسًا على دكة قرب البحر وقد توفي سنة ١٩٤٨ بسبب كبر السن ولم يترك أولادًا فحزن عليه الجميع».

٣ - وجد الناشرون العراقيون سبيلاً إلى إدخال كتبهم إلى الكويت على الرغم مما فيها من غمز ولمز وأكاذيب تاريخية وإصرار على ما كان الأمر عليه أيام زعيمهم المعدم وادعاءات لا أساس لها من واقع. هذا السبيل هو اتجاههم إلى الأردن الذي لا يقل الكثيرون من أهله عن العراقيين في حمل المشاعر المناوئة للكويت يدل على ذلك ما نقرؤه في الصحف مما يتعرض له وطننا من غمز مستمر من بعض الفئات، ومما يتعرض له أبناؤنا من مشكلات وصل بعضها إلى مراحل قاسية جدًّا.

بين يدي الآن كتاب عنوانه: «العراق في عهد السيطرة العثمانية» وهو يؤرخ تاريخ هذه السيطرة منذ سنة ١٩٠٨م حتى سنة ١٩١٨م، ألفه الدكتور شكري محمود نديم الذي لم ينس أن يضيف إلى اسمه لقبه العسكري: عميد ركن.

ناشر الكتاب: دار دجلة في عمان بالأردن، وقد بدأ المؤلف كتابه بإهداء غريب يقول: إلى العراق العظيم قرة عين العرب؛ وكأنه نسي أن كتابه صادر في سنة ٢٠٠٨م وأن هذه العنتريات قد انتهى زمانها، والأوضاع اليومية في العراق نفسه تناقض الإهداء مناقضة تامة.

يتكون الكتاب من ٢٨٨ صفحة، تتحدث عن الأوضاع الإدارية والاجتماعية والعسكرية في العراق العثماني وفيها تفصيلات كثيرة لكل ذلك، ولكن الذي يعنينا هنا ما فيه من إشارات إلى الكويت، فمن ذلك:

أ- تحدث في ص ٤٦ عن ولاية البصرة، وذكر الألوية التي تتكون منها فقال «البصرة، وتضم ثلاثة أقضية، وهي البصرة والفاو والكويت»، ولم تكن الكويت في يوم من الأيام قضاء تابعًا لولاية البصرة، وقد تحدثنا كثيرًا عن هذا الأمر، ومما قلناه إن الحكومة العثمانية المركزية في عاصمتها كتبت إلى الشيخ مبارك الصباح أنه إذا أراد شيئًا من هذه الحكومة فإنه يستطيع طلبه من العاصمة مباشرة، ولا

يستمع إلى ما يقوله ولاة البصرة أو بغداد. وهذا القول ضمن وثيقة عثمانية مثبتة ولو كان الأمر كما قال مؤلف الكتاب لما صدرت هذه الوثيقة التي تُسكِتُ كل متحدث بما لا يفقه.

ب - أورد المؤلف في ص ١٢٤ ذكر رجل اسمه عبداللطيف الثنيان، فقال عنه: «ولد في بغداد من أسرة كويتية الأصل نزحت إلى البصرة بسبب التجارة» وقد تحدث عنه كثيرًا باعتباره أحد أدباء العراق وصاحب جريدة (الرقيب)، وذكر - أيضًا - إنه كان مديرًا للأوقاف في بغداد سنة ١٩٢٣م، وانتخب عضوًا في المجلس النيابي سنة ١٩٣٤م.

أورد كل ذلك ليوهم أن هذا الشخص هو عينه المرحوم عبداللطيف محمد ثنيان الغانم، رئيس المجلس التأسيسي في الكويت، وليبين أن الكويتيين يعيشون في العراق عيشة أهله يصدرون الصحف ويعملون في رئاسة الدوائر الحكومية، بل ويحق لهم الترشيح للانتخابات النيابية.

بينما الأمر مختلف فهذا الشخص لم يرحل إلى العراق من الكويت، وقد أصدر جريدته ببغداد في سنة ١٩٠٩م في الوقت الذي نعرف فيه أن عبداللطيف محمد الثنيان قد ولد في الكويت في سنة ١٩١٠م، فمن غير المعقول أن يصدر جريدة وهو ابن سنة واحدة.

جـ - عقد الفصل الثاني للحديث عن احتلال ولاية البصرة، وما جاء في هامش ص ١٧٤ نقله لأقوال مؤلف آخر هو حسين محمد القهواني، من كتابه «دور البصرة التجاري في الخليج العربي» الذي كتب «من الأمور الغريبة أن بريطانيا كانت تعارض وتحتج كلما أرادت الدولة العثمانية إنشاء تحصينات في الفاو في داخل بلادها، وضمن حدودها شأن بقية الدول، وكانت بريطانيا تحرض الحكومة الإيرانية وشيخ الكويت على الاحتجاج، وكان هذا ديدنها منذ سنة ١٨٧١م».

وهذه خرافة أخرى ففي السنة التي ذكرها لم تكن الكويت قد ارتبطت ببريطانيا. ولم يشهد تاريخ الكويت في يوم من الأيام أن حاكمًا من حكامها قدم مثل هذا الاحتجاج، بل على العكس من ذلك فإننا وجدنا حكام الكويت يقدمون المساعدات المتنوعة للدولة العثمانية باعتبارها دولة إسلامية كبرى، مما يدل على أن هذا القهواني قد جاء بهذه الأقوال من عنده، دون أن يقدم عليها دليلًا من الوثائق التاريخية المعتمدة وهي عادة وجدناها كثيرًا عند أمثاله من مؤلفي الكتب في بلاده.

آخر ما نود أن نتكلم عنه كتاب كان مخطوطًا ثم قام بتحقيقه الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف ونشرته دار دجلة العراقية الكائنة في الأردن سنة ٢٠٠٦م. وهو من حيث المرامي امتداد للكتاب السابق الذي تحدثت عنه قبل هذا. ألفه الشيخ عبدالله بن إبراهيم الغملاس وعنوانه: «تاريخ الزبير والبصرة، مع إشارات إلى تاريخ الكويت والأحساء».

يبدأ هذا الكتاب بمقدمة من المحقق يشكك فيها بنسبة الكتاب إلى مؤلفه على الرغم من أنه يقول: إن هناك من القرائن ما يدل على صحة هذه النسبة. ويصف المخطوط بقوله:

«ليس للمخطوط الذي نحن بصدده مقدمة، أو خاتمة، كما هو معتاد في مثله، وإنما هو يبدأ فجأة بذكر أحداث السنين التي يعنى بتسجيلها، وينتهي بالطريقة نفسها».

وقد بذل المحقق جهدًا في تحقيق الكتاب ووضع الحواشي المفيدة له، ولكنه لم يوفق توفيقًا كاملًا في الفهارس.

ولد المؤلف في سنة ١٨٤٨م، وتوفي في سنة ١٩٣٥م، وقد بدأ تدوين الأحداث منذ سنة ١٨٨٢م إلى نهاية السنة التي تبدأ في شهر المحرم وهي سنة ١٣٣٣هـ

وتوافق ١٩١٤م. وتغلب اللهجة العامية كثيرًا على صياغته للمعلومات بحيث أجهد المحقق نفسه في تفسير معاني بعض الكلمات. أما مراجعه عن الكويت فقد ذكر المحقق أن كاتب اليوميات كان يعتمد على شخص اسمه ناصر مسلم المزين، وعلى كتاب «تاريخ الكويت» وأنا شخصيًا لم أستطع الوصول إلى معلومات عن الرجل وإن كانت أسرة المزين الكريمة معروفة لنا جيدًا، أما تاريخ الكويت فقد صدر في سنة ١٩٢٦م أي بعد سنوات عديدة من كتابة آخر سطر من الكتاب، وفيما عدا ذلك فقد كانت فيه إشاراته عامة غير محددة كقوله «هكذا سمعناه» و«بلغنا» و«هذا الذي شاع» و«هذا الذي شاع بين الناس» وغير ذلك. إضافة إلى أن أخته قد تزوجت من أحد تجار الكويت، وكانت تزوره وتنقل الكثير من الأخبار هي ومن كان برفقتها عند الزيارة، ولو كان هذا صحيحًا لوجدنا أكثر من نصف الكتاب يتحدث عن الكويت لا كما أحصى ذلك المحقق فوجده ٤٪.

نعود الآن إلى محتوى الكتاب فيما يتعلق بالكويت وذلك أيضًا تخصه نقطتان هما:

١ - ذكر من أخبار سنة ١٨٩٢م ما يلي: «وفي سابع ذي الحجة بلغنا أنه حصل في الكويت حرق بيوت، في اليوم والليلة يحترق عشر بيوت ونحوها، فتشوش الناس واختلفوا بسبب ذلك، منهم من يقول: إن جابرًا عمّر قيصرية وخانًا في مقبرة السادة وقد نهوا عن ذلك وحذروا فلم يسمعوا فحدث الحريق، وقيل هم الإنجليز يركبون بلورة وقيل إن امرأة رأت فتيلة تنزل من السماء، فتخرق السقف، فيقع».

ونحن إن كنا لم نسمع عن أمر هذا الحريق، ولم يذكره كبار السن عندنا ولا في كتابي التاريخ المعروفين إلا أنّ هذا الحادث قد يحدث، ولكن الأسباب التي ذكرها المؤلف بعيدة عن الواقع، وذلك لأنه ليست في الكويت مقبرة تدعى مقبرة السادة، ولا كان للإنجليز وجود في الكويت خلال ذلك التاريخ، أما حكاية المرأة والفتيلة فهي حديث خرافة.

أما بناء القيصرية والخان فقد كان ذلك في زمن الشيخ محمد بن صباح الذي تولى الحكم من سنة ١٨٩١م إلى سنة ١٨٩٦م وليس في هذه الفترة حاكم اسمه جابر.

٢ - تصعب معرفة السنة التي حدثت فيها الأحداث الذي ذكرها المؤلف اعتبارًا من ص ١٣٨ من الكتاب، فهو قد ذكر عدة سنوات تختلف إحداها عن الأخرى، ففيها من السنوات ١٣٠٤هـ و١٣١٣هـ و١٣٢٩هـ. وكان على المحقق أن يتأكد من ذلك. ولكن الأمر الذي يغلب على الظن أن السنة المقصودة هي سنة ١٣٢٨هـ كما ورد في ص ١٣٩ وهي توافق سنة ١٩١٠م. وفيها حدثت أحداث مما كانت تحدث في السابق بين الناس، ولكن المؤلف نسبها إلى الشيخ مبارك الصباح، وعلى كل حال فإن كل ما ورد في ص ١٣٨ إلى ص ١٤٠ حديث مهلهل لا يقف على رجلين وليس له مرجع معتمد يرجع إليه، ومن المعروف أن الشيخ مبارك لا يتعاطى مثل هذه الأمور التي لا يقوم بها إلا شذاذ الآفاق. أما تعليق المحقق فلنا اعتراض على حديثه عن أم قصر إذ قال: كانت تسمى الصابرية، والصابرية موجودة في مكان آخر حتى اليوم، ونسب القصر إلى أحمد بن رزق وهو أمر غير ثابت.

أردت من عرضي لما ورد عن الكويت في هذين الكتابين أن أنبه أبناء وطني إلى الأكاذيب التي تختلق من أجل الإساءة إليهم وإلى حكامهم وإلى تاريخ الكويت بصورة عامة. ولم أقدم كل ما عثرت عليه فيهما لأن هذا سوف يكون حديثًا طويلاً لا يستوعبه مقامنا في هاتين الصفحتين من «الوطن». آملاً من وزارة الإعلام أن تهتم من حيث المبدأ بكل ما يكتب فعلى الأقل إن لم تقم بتفنيدها وتنوير الرأي العام حول المسائل التي ترد فيها، فإن المنع هو الحل حتى لا نكون كما يقول المثل الكويتي: «مثل اللي يطز عينه بصبعه».

هذا وقد قصدت في موضوع (١) و(٢) التذكير بأمرين مهمين من الأمور التي بدأنا في نسيانها، فلابد من العودة إلى إثارة الجوانب المهملة من تاريخنا حتى لا تضيع المعلومات مع ضياع العارفين بها.

****

ألم أقل لكم؟ (1)

ضَمّني لقاء مع أحد الأصدقاء قبل بضعة أيام، وكان حديثنا متنوعًا، ولكنه أراد أن يسألني عن كتاباتي الخاصة بوضعنا الحالي مع العراق، وقد ادعى في ذلك اللقاء أن الغزو قد مرت عليه سنوات، وأننا ينبغي أن نتجاوز عن كثير من الأمور التي تركت آثارها في نفوسنا من جرّاء ذلك. وهو يقول: إن ما تكتبه لا يساعد على النيسان، ويرى أن الأفضل لنا جميعًا أن ننظر إلى أمور علاقاتنا مع الجار الشمالي بمنظار آخر.. هكذا وكأنه يعلم من أين يأتي النسيان، بينما أنا أصر على أن النسيان غير ممكن، وذلك لسببين أولهما أن الدول التي تحترم نفسها، لا يمكن أن تنسى الإساءة إليها مهما طال الزمن، فالشخص العادي قد يتجاوز عن الكثير من الأمور، ولكن الدول يصعب عليها النسيان لأن ما يحدث لها من إساءة يسجل في تاريخها وتقرؤه الأجيال المتتالية في الكتب التي تتناول تاريخ الحقب التي مرت بها، والأحداث التي شهدتها على مر السنين.

وثاني السببين يكمن في أن هذا الجار الشمالي لا يريد أن يتعايش معنا كما تتعايش الدول المتجاورة حتى ولو لم يكن يربطها ببعض رابط ديني أو أخوي أو تاريخ قديم مشترك. ولقد حاولت الكويت - يعلم الله - أنها قد بذلت غاية الجهد في علاج ما في نفوس أبناء هذا البلد الجار، وحاولت بقدر المستطاع أن تستل من قلوبهم الأحقاد الدفينة المزروعة فيهم من أيام ملكهم الغابر غازي مرورًا بعبدالكريم قاسم وصدام حسين، ولكن دون جدوى. ولقد كُتبَ الكثير عن

(1) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ١٥/٧/٢٠١٠م.

الماحكات والتدخلات، والغمز واللمز التي تكثر على ألسنة السياسيين منهم، ونجدها مكتوبة في صحفهم إذ ليس أمامي إلا أن أدافع عن وطني بالقول مادام السكوت عندنا هو سيد الموقف، وعلى الرغم من ذلك فإن أجهزة العراق المتعددة لم تتوقف عن إلحاق الأذى بنا، حتى لقد صرنا نتحدث عن المستقبل، إذ يتساءل الكثيرون منا: أي مستقبل ينتظرنا ونحن نعايش هذا الجار المؤذي؟ وإلى متى نستمع منهم إلى كيل الأراجيف، والتهم؟، وليس هذا في الصحف فقط بل يأتي -عادة- على ألسنة أعضاء في مجلسهم التشريعي الذي لم يتوقف فيه واحد منهم يومًا عن شتمنا وإلحاق الأذى بنا، وإثارة المشكلات من كل نوع أمامنا. وليس هذا فحسب، بل إن كثيرًا من الأمور المعلقة معهم منذ حرب تحرير الكويت لا تزال على حالها، ولا نسمع حولها إلا تصريحات لا يصل إلى حيز التنفيذ منها شيء على الإطلاق، ولم نجدهم يومًا وصلوا معنا في مفاوضات حول أي منها بل هم يطوون أوراقهم ويلوذون بالصمت، إلى أن نسمع تصريحًا آخر بأنهم على استعداد لبحث الأمور المعلقة التي لن تبحث أبدًا ما دامت هذه هي طريقتهم.

كيف نثق بقوم قدمت لهم الكويت في الماضي وفي الحاضر الكثير من الدعم على اختلاف أنواعه، ثم نسمع السياسيين منهم يتبارون في التصريحات المتشنجة والادعاءات الباطلة والأضاليل التي لا حد لها وكل ذلك بحق الكويت وشعبها.

وآخر أمور التهييج التي وردت إلينا ما قاله مندوب العراق لدى جامعة الدول العربية الذي أعاد الأمور مع بلاده إلى بداياتها، وبداياتها - كما نعلم - هو الغزو. لقد عاد العراق على لسانه إلى مزاعمه القديمة وبخاصة فيما يتعلق بالحدود والتعويضات وكل ما أقره مجلس الأمن.

والغريب أننا سمعنا من سفيرهم في الكويت قوله: لا علينا مما يثيره بعض أعضاء مجلس الشعب في بغداد، وهو يشير بذلك إلى أن الصفة الحكومية هي

التي سوف تتغلب لمصلحة العلاقات مع الكويت. إذن ما رأي سعادة السفير في تصريحات قيس العزاوي، وهو سياسي عراقي تابع للحكومة العراقية وممثل لها وناطق بلسانها؟ أتريدوننا أن نصدق بعد هذا بأن هناك نوايا حسنة يحتفظون بها تجاهنا؟ لا أظن ذلك بل ليس هناك إلا الحقد، والكراهية، والأطماع التي لا تزال تسيطر على نفوسهم وتمتلك قلوبهم.

بقي أن أقول لأبناء وطني أنه لا فائدة ترجى من انتظار تغير المواقف العراقية تجاهنا إلى الأحسن فنحن نرى في كل يوم المزيد من مشاعر الكراهية، ونستمع في كل يوم من السياسيين والأبواق الإعلامية عندهم ما ينسف كل جهد للنسيان. فتذكروا ما حلّ بوطننا واقطعوا كل أمل بالتواصل مع هؤلاء لأننا لا نأمن متى أو من أين تأتي الضربة المؤلمة التي لا يزالون يأملون في توجيهها إلى وطننا المسالم الذي لم يقدم لهم إلا كل خير. وأخيرًا: من أين يأتي النسيان؟

****

تجارة الكويت القديمة ١٧٠٩م [1]

موقع الكويت الممتاز على الخليج العربي من جهة وعلى الجون المتفرع منه من جهة أخرى أضفى على البلاد أهمية كبرى وأتاح لأهلها استغلال موقعها استغلالاً جيدًا عاد بالنفع على الجميع بما في ذلك البلدان المجاورة التي كان ميناء الكويت يمدها لفترة طويلة بكافة ما تحتاج إليه من سلع، بل وكان عدد من الراغبين في العمل من أبناء تلك البلدان يجدون فيها فرصة عظيمة لكسب الرزق سواء أكان ذلك في دخول البحر على السفن الكويتية للعمل مع العاملين عليها من الكويتيين أو القيام بأعمال أخرى لها علاقة بالنشاط البحري بصفة عامة. يضاف إلى ذلك أن العمل في البحر قد أدى إلى نشأة صناعة السفن التي كان لها دورها في سد حاجة البلاد من السفن الشراعية التي تبحر إلى عدد من الدول وترسل معها البضائع وتجلب ما يتيسر لها جلبه من تلك الموانئ التي تبحر إليها، وقد أدى العمل في بناء السفن إلى قيام صناعات أخرى تخدم الورش التي نشأت لأداء هذه المهمة، ولا ننسى أن من أهم هذه الصناعات: الحدادة، التي ينتج الرجال العاملون بها كل ما يحتاجه باني السفينة من مسامير وغيرها بحيث لا يحتاج إلى جلبها من خارج البلاد.

كان النشاط البحري قويًا في الكويت منذ حل بها الرجال الأوائل، واكتشفوا أن مصدر رزقهم سوف يكون عن طريق هذا البحر الممتد أمامهم.

وقد مرّ بنا في أحد مقالات الأزمنة والأمكنة أن الكويت في سنة ١٨٣٩م كانت تمتلك أسطولاً بحريًا كبيرًا ومجهزًا تجهيزًا طبيًا، وكان يتولى نقل البضائع إلى

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢١/٧/٢٠١٠م.

عدد من الموانئ ذكر منها ميناء الحديدة اليمني الذي استقبل في شهر نوفمبر من السنة المذكورة سفينة كويتية حملت منه بضاعة اتجهت بها إلى القطيف.

ومن واقع هذه الحادثة يتبين لنا أن السفن الشراعية الكويتية ربما كانت تقوم بمهماتها قبل هذا التاريخ بفترة طويلة، إذ لا يمكن أن تصل إلى المستوى الذي ذكر في المعلومات السابقة دون أن يكون الأسطول الكويتي قد تدرج إلى مستواه هذا منذ بداية أقدم من سنة ١٨٣٩م.

بدأ الحديث عن ميناء الكويت وأهميته في وقت مبكر، وقد وصفه عدد من الرحالة وممثلي الدول وبخاصة البريطانيين منهم، وقد اتفقت كافة الآراء على أهمية هذا المرفق بالنسبة للكويت ثم للمنطقة بصفة عامة، وقد يستغرب المرء حين يرى تاريخ كل تقرير من هذه التقارير التي كتبها هؤلاء، وسوف نوجز شيئًا منها لأهمية ذلك في موضوعنا هنا، وإن كنا قد بسطنا الموضوع في السابق ضمن مقال: «الكويت على ألسنة زوارها» ضمن «الأزمنة والأمكنة» لا نريد أن يكون نقدمه هنا تكرارًا لما سبق أن ذكرناه في ذلك المقال بل إن ما نرمي إليه إنما هو اختيار مقتطفات نستدل بها على ما نريد الوصول إليه هنا.

من أقدم من تحدث عن الميناء البحري الكويتي رحالة عربي اسمه مرتضى بن علوان، زار الكويت في سنة ١٧٠٩م، وهو في طريق عودته من الحج، واتجه منها إلى وطنه سورية عبر العراق، وفي حديث يقول: «والمينة (يقصد الميناء) على حدود البلدة من غير فاصلة، وهذه البلدة يأتيها ساير الحبوب من البحر؛ حنطة وغيرها».

وعندما جاءت سنة ١٧٩٠م كتب كل من صمويل مانستي وهارفورد جونز وهما على التوالي: مدير ومساعد مدير الوكالة التجارية البريطانية في البصرة تقريرًا عن تجارة بلاد العرب وفارس، وقالا عن القرين (الكويت فيما بعد): «والقرين ميناء

بحري يقع على الساحل الغربي من الخليج، بالقرب من رأسه، وكانت القرين منذ أمد بعيد في حوزة بني عتبة، وبين الحين والحين كانت ذات أهمية تجارية.. وحين كانت البصرة في يدي الفرس، كانت القرين هي الميناء الذي تنتقل منه.. منتوجات الهند إلى أسواق بغداد ودمشق وحلب وأزمير والقسطنطينية.. وكانت القرين على الدوام - عن طريق الصحراء - ذات صلة ميسرة ببغداد وحلب، وكانت قوافل كبيرة وفيرة البضاعة تترد بينها وبين المدينتين المذكورتين».

ولعلنا نلاحظ إشارتهما إلى أن القرين كانت منذ أمد بعيد في حوزة بني عتبة. وهذا الزمن المتباعد إلى ما وراء سنة كتابة التقرير وهي ١٧٩٠م، لابد وَأَنْ يصل بنا إلى السنة التي تأسست فيها الكويت وهي سنة ١٦١٣م.

وتحدث جيمس باكنغهام عن رحلته إلى المنطقة التي بدأ في القيام بها في صيف سنة ١٨١٦م، وذكر أنه لاحظ أن البصرة كانت تستقبل تجارًا اعتادوا الوفود إليها من كافة البلاد المجاورة، وذكر أن من هؤلاء الواردين عليها عددًا من تجار الكويت فقال عن هؤلاء: «... المشتغلين بالتجارة من الكويت والقرين وهو ذلك الميناء البحري العظيم الذي يقع في ذلك الجزء من الجزيرة العربية».

هكذا نرى أن الظروف كلها ساعدت على أن تجعل من الكويت بلدًا تجاريًا ناجحًا، فمن موقع جغرافي ملائم يقع بين عدد من الدول إلى ساحل صالح للملاحة ومرفأ صالح لرسو السفن وإقلاعها إلى أسطول تجاري بحري يديره رجال قادرون على إدارته وتُجّارٌ يعرفون كيف ينهضون بالعمل التجاري الذي وضع لهم ولوطنهم مكانة مرموقة بين تجار المنطقة.

جرى حديث كثير عن الكويت من حيث السكان ونشاطهم، واستعدادهم الفطري للعمل في الملاحة والتجارة، وكانت هذه البلاد موضع رصد لأعين عدد من الدول منها على الأخص بريطانيا التي كانت ترسل بين وقت وآخر عددًا

من رجالها المختصين لتقديم تصوراتهم للأوضاع الحالية والمستقبلية لهذا البلد الذي كان في طور النمو السريع، ومن هؤلاء ج.ب. بروكس الذي كلفته الحكومة البريطانية لهذه الغاية بل وطلبت منه بشكل عام أن يكتب بعد قيامه بزيارة الخليج تقريرًا يتناول عادات أهله وتجارتهم ومصادر دخلهم وذلك في سنة ١٨٥٩م، وقد أشاد كثيرًا بمكانة الكويت التجارية، وذكر تميزها بموقع جغرافي جعلها تتاجر مع أبناء البادية ووسط الجزيرة العربية حيث تمد هؤلاء بالقمح والبن ومنتجات الهند، وذكر بروكس أن تجار الكويت لديهم سفن كبيرة بها تستورد الكويت كثيرًا من البضائع مثل الأقمشة والأرز والسكر والتوابل والقمح، والقطن، كما تستورد البن من اليمن، والتبغ والفواكه من بلاد فارس، والقمح والتمور من البصرة وفي مقابل هذا فإن الكويت تقوم بتصدير السمن والخيل التي تحصل عليها من رجال البادية ضمن عملية المقايضة التي تتم عن طريق إمداد هؤلاء بما يريدون من أنواع البضائع على أن يقوموا بتسليم ما يقابل ثمنها من الخيل.

وفي رحلة سابقة لرحلة جورج.ب. بروكس، كان ج.هـ. ستكويلر قد انطلق من بومباي في سنة ١٨٣١م على متن سفينة كويتية من نوع «البغلة» كانت تسمى «الناصرية» اتجهت بحملها من بشر وسلع إلى الكويت وكان ضمن ركابها ستكويلر الذي أفاد فيما بعد أن المسافرين دفعوا لقائد السفينة أجرة نقلهم إلى الكويت مبلغًا وقدره خمسون روبية لكل واحد منهم، وفي طريقها توقفت في ميناء مسقط ونقلت جلودًا وحصائر. وما أشار إليه الرجل هنا يدل على أن هذه السفن الشراعية الكويتية لا تترك فرصة دون الاستفادة منها فهي كما رأينا تنقل السلع والأفراد وتتوقف في طريقها ذهابًا وإيابًا عند عدد من الموانئ، ولاحظ أننا مع ستكويلر في سنة ١٨٣٠م.

وبعد ثماني سنوات من هذا التاريخ قام الملازم فيلكس وهو من بحرية الهند البريطانية بزيارة الكويت وعرّج على جزيرة فيلكا وذلك في شهر نوفمبر لسنة

١٨٣٩م، وكتب تقريرًا مهمًّا عن تجارة الكويت وتحدث فيه عن مستورداتها من الفواكه والخضار والقمح والشعير والأرز والعدس ذاكرًا مصدر كل مادة من هذه المواد. وبين أن مستوردات الكويت من الأخشاب التي يتم بها بناء السفن تأتي من الهند.

وفي اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل لسنة ١٨٤١م ورد إلى اللجنة السرية في مجلس مديري شركة الهند الشرقية الخطاب السري الذي كتبه القبطان هينل الذي زار الكويت في السنة المذكورة وكتب تقريرًا مستفيضًا تحدث فيه عن كل ما يتعلق بالكويت من الناحية الاجتماعية والسكانية، ومن ناحية النشاط البحري على اختلاف أنواعه، وعن الرخاء الاقتصادي الذي يسود البلاد على الرغم من عدم وجود موارد أخرى غير التجارة والأعمال البحرية المتفرقة وكل ذلك كان بفضل مقدرة الأفراد القائمة على تحدي الظروف الصعبة، والوقوف في وجه الأحداث العاصفة واكتساب الأرزاق من كافة الطرق المشروعة، وبفضل تعاون الأهالي وتكاتفهم، ومعيشتهم الخالية من الشقاق والعداء.

كانت زيارة هينل للكويت مختلفة عمن سبقه من حيث إحاطته بكثير من الأمور الخاصة بالبلاد، ومن حيث توسعه في الحديث عن مشاهداته.

لقد زار هذا الرجل الإنجليزي الكويت في سنة ١٨٤١م كما ذكرنا ووصفها بأنها تمثل حالة من الازدهار الاجتماعي، وأن عدد سكانها قارب الخمسة والعشرين ألف نسمة، وأنهم يمتلكون من السفن حوالي ثلاثين (بغلة) و(بتيلا) تستخدم كلها في التجارة بشكل مستمر مع الهند، كما يمتلكون حوالي ثلاثين سفينة متوسطة الحجم تستخدم في مجال النقل بين موانئ الخليج، وهو ما يسمى (القطاعة) إضافة إلى ثلاثمائة وخمسين سفينة صغيرة تستعمل في مهنة الغوص على اللؤلؤ.

وفي هذا يقول هينل: «وتعطينا هذه البلدة نموذجًا من الرخاء التجاري، وبها كل المميزات الأولى ولديها ميناء رائع، وتعداد سكانها كبير، حيث يمكنها توفير

٦ آلاف رجل قادرين على حمل السلاح، وسكانها عددهم في المتوسط ٢٥ ألف نسمة، ويمتلكون ٣١ بغلة وبتيلا، تستطيع أن تحمل من ١٥٠ إلى ٣٠٠ طن من البضائع، وتتاجر باستمرار مع الهند، ويوجد لديها ٥٠ سفينة صغيرة للاتجار مع دول الخليج، وحوالي ٣٥٠ قاربًا يعملون بصيد الأسماك واللؤلؤ، والسكان شجعان ولديهم طاقة كبرى ومتحدون تمامًا ومتكاتفون، وليست بينهم عداوات ولا شقاقات مما يجعل الفئات الأخرى تخشاهم.

وفي الحقيقة هم يردون الإهانة أو العدوان في التو واللحظة، وهم ليسوا متغطرسين ولا يعتدون على جيرانهم المسالمين، والقرصنة حدوثها نادر، وحكومة الشيخ جابر حكومة أبدية، وهو وأولاده يلبسون ملابس تشبه ملابس سائر المواطنين ويسكنون في مساكن تشبه مساكنهم، وقد فرضوا رسومًا جمركية ضئيلة على مشتريات ومبيعات الذين يأتون إلى البلدة، ودخل البلدة الذي يستولي عليه الشيخ لا يزيد عن ٣٠٠ دولار سنويًا، بالإضافة إلى الأرباح التي يحققها من بواخره التجارية التي يرحب بالتجارة معها جميع الأفراد، ومثل هذه الحرية التي يتمتع بها الجميع مع عدم وجود أي تدخل من سلطة خارجية تجعل الشيخ جابر وأولاده محبوبين من رعاياهم إلى درجة كبيرة، والرعايا مخلصون لهم جدًا بدرجة غير عادية ومستعدون لإجابة أي طلب منهم سواء أكان طلبًا يخص أملاكهم أم أي شيء آخر».

وقد استمر النشاط التجاري في الكويت برًا وبحرًا وامتد تدفق التجارة عبر الكويت عن طريق البحر إلى شرق أفريقيا عبر عدن إضافة إلى القارة الهندية، وامتد برًا إلى شمال سورية ففي مدينة حلب كانت قوافل الجمال الكويتية تتوقف لتنقل البضائع والبريد ثم تعود من هنا ببضائع أخرى لها سوق في الكويت وما جاورها.

كانت الامكانات الكويتية دافعًا قويًا إلى قيام نشاط تجاري واسع المجال، وكانت هذه الإمكانات تتمثل في موقع ممتاز، ومرسى ملائم، وأسطول بحري قوي

وكبير ومقدرة على القيادة، وفهم للأساليب التجارية التي دفعت إلى استغلال الوضع الجغرافي استغلالًا مفيدًا.

وقد كانت الكويت فيما سبق، وهذا هو ما أشرنا إليه، سوقًا واسعًا للمنطقة يأتي إليه تجارها لكي يقوموا بشراء ما يحتاجون إليه دون متاعب، فالكميات من جميع أنواع البضائع متوافرة، وحتى البضائع الخاصة التي يحتاج إليها أحدهم موجودة وإن كان أبناء الكويت لا حاجة بهم إليها. وقد لفت هذا الوضع التجاري المتميز الأنظار، حتى صارت الكويت ملتقى للتجار من كل مكان، وصارت العروض التجارية المتنوعة تقدم إلى تجارها، لأنهم اكتسبوا سمعة طيبة في اتقان العمل، وفي الأمانة والصدق اللذين هما رأس المال الحقيقي لكل تاجر.

لكن ذلك لم يمنع عنها نظرة الحسد التي كان ينظر إليها الجار الشمالي بها. وقد ذكرنا فيما مضى أن هذا النازع البشري البغيض قد بدأ في وقت مبكر عندما اعترض أهل البصرة وتبني العثمانيون اعتراضهم هذا على وصول البواخر التجارية البريطانية إلى الكويت مدعين أن هذا يؤثر في تجارتهم، وكأنهم يقولون لنا: اذهبوا إلى الجحيم، ولا يهمنا أن تحصلوا على فوائد هذا العمل مما اضطر الشيخ في سنة ١٨٦٦م إلى الطلب من البريطانيين أن يوقفوا رحلات بواخرهم لهذا السبب رغبة في إيقاف الإثارة وكف ألسنة السوء الشمالية عن الكويت.

وقد استمر الحسد في نفوس هؤلاء - ولا يزال - ففي عهد الشيخ أحمد الجابر الصباح، ومنذ سنة ١٩٣٣م وما بعدها كانت الكويت تلقى العنت والظلم من هذا الجار الذي لا يعرف للجيرة حقها. وقد جاء في هذه المرة بنغمة أخرى، جعلها وسيلة من وسائل التدخل في شؤون البلاد مما تجده مبسوطًا في كتابنا «الشيخ أحمد الجابر الصباح، ومسألة الحدود الكويتية» وهذه النغمة هي المتمثلة فيما كان يسمونه: التهريب، فقد كانوا يدعون أن الكويتيين يقومون بتهريب البضائع

إلى بلادهم، وأن هذا يؤثر في واردات خزينتهم من الضرائب التي كانت باهظة ليس بالنسبة لما هو في الكويت فحسب، بل بالنسبة إلى كل الدول المجاورة لهم. ولكن همهم كان إيذاء الكويت. وقد جرت تعديات كثيرة، وتدخل الجانب البريطاني ليقدم حلاً للطرفين، ولكن هذا الجانب - للأسف الشديد - منقسم إلى قسمين، أحدهما يعمل في العراق ولكنه لا يستطيع أن يؤدي أي خدمة للكويت لأنه مربوط إلى عدة جهات متنافرة وكلها مع ذلك بريطانية. ومما يدل على ذلك ما كتبه هارلد ديكسون، بعد لقائه في شهر يوليو لسنة ١٩٣٣م مع السيد مونك مساعد مدير عام الجمارك في العراق، وهو بريطاني الجنسية. يقول ديكسون: «أخشى أن يكون موقفه موقف الإنجليزي الذي أصبح عراقيًا أكثر من العراقيين. فالكويت هي الآثمة وينبغي أن تعاقب، أما العراق، فهو الفريق المسكين البريء المتضرر، الذي يبذل جهده ليفعل ما هو الصواب. لذلك يتوجب إعادة الكويت إلى رشدها، أما بحرمانها من مياه الشرب التي تحصل عليها من شط العرب، وإما باتباع سياسة مرعبة ضد كل من يلقي القبض عليه متلبسًا بالتهريب، وهذا يعني إطلاق النار على كل من يمسك بالجرم المشهود».

ومن خلال هذه المحاورات غير المجدية، التي لا تدل على حسن النوايا، ولا الرغبة في التعايش بين البلدين قدم العراقيون خلال الفترة المشار إليها عدة مقترحات هي أشبه ما تكون بالأوامر ، وقد رفضها الشيخ أحمد الجابر الصباح ومن ذلك:

١ - قالوا: إن الكويت تستورد بضائع أكثر من حاجتها ولذا فإنها لابد أن تقنن الاستيراد. وهم بذلك يبرهنون على أنهم لا يعرفون حرية التجارة، ولا حتى حرية الفرد التاجر.

٢ - طلبوا تطبيق التعريفة الجمركية العراقية في الكويت، مما يؤدي إلى رفع المبالغ المحصلة من التجار وبالتالي رفع أسعار البضائع، ومن ثم كسادها.

٣ - طلبوا - إذا لم تر الكويت رفع قيمة التعريفة الجمركية - أن تبقى تعريفة الكويت كما هي على أن يقوم مسؤولون من الجمارك العراقية بإدارة الجمارك الكويتية، وذلك مع الحد من الاستيراد. ولا أظن أن وقاحة في الدنيا يمكن أن تربو على هذه الوقاحة الواردة في البند الثالث.

ولقد جرت مهاترات كثيرة من جانب واحد يصعب هنا إدراجها كلها ولكن كتاب الدكتور حبيب الرحمن: «حرب تحرير الكويت وجذورها ومقوماتها» قد قدم تفصيلًا كاملًا لكل تلك القضايا السيئة السمعة.

وبعد؛ فهذا عرض لتجارة الكويت في الزمن والماضي وهو كافٍ لمن يريد أن يعرف حال العمل التجاري، في الحقبة التي تحدثنا عنها. أما ما لحق من نشاط في هذا المجال فهو موجود في كتب كثيرة ودراسات وافرة وكلها مطبوع.

****

ملحاق خير

لا يشك أحد في أهمية سفن السفر الشراعي للكويت فهي كما ذكرنا في مقالنا هذا سبب من أسباب الرزق للبلاد في وقت الحاجة الماسة، وهي بما تجلب من سلع متنوعة وبكميات كبيرة حولت الكويت إلى مخزن تجاري كبير ترتاده أعداد كبيرة من الناس الذين يهمهم الحصول على سلع منوعة، وهي في الوقت نفسه غير مرتفعة الثمن وذلك لأن الحكومة هنا لم تكن تأخذ على البضائع رسومًا تزيد على ٢٪ من قيمتها.

تحدثنا عن جوانب العمل البحري هنا، وذكرنا أن هذا العمل قد فتح مجالات كثيرة للراغبين في كسب الرزق كما أتاح الفرصة لإيجاد صناعات متعددة منها صناعة السفن والحدادة وغيرها مما يتعلق بالسفن.

في بداية أوبريت «الشراع الكويتي» حديث عن بناء السفينة منذ وضع أساسها الأول (البيص) إلى أن ينتهي (القلاف) من إنشائها، ثم يأتي الحديث عن إنزالها في البحر وهو يوم مهم في حياة الناس آنذاك، وذلك لأهمية السفينة لهم من حيث هي مورد مهم للرزق، أما بعد ذلك فيأتي مسيرها من البلاد إلى الاتجاه الذي يرغب نوخذاها بتوجهها إليه، أما باقي الرحلة فالحديث عنه يطول:

هذا هو - أولًا - حديث بناء السفينة:

يا يومُ يا طيفًا تجلّتْ به
أطيافُ أحلامٍ لنا زاهية

ويا مُنًى نَشْوى تمادت بنا
مَالئةً أيامَنا الخالية
يا يومُ جاءَ اليومَ ما نَرتجي
سوف تُرينا الأشْرعَ العالية
ها هو نَجّارُك في جدِّه
مَدلكَ اليومَ يدًا حانية
مُذْ كنتَ في شاطئنا هيكلاً
حتى سمَتْ منْ فوقك السارية
يا يومُ بحّارُك لمّا يزَلْ
منتظرًا رحلتكَ الآتية
حَقّقْ لهُ يا يومُ آمالَهُ
وَهْيَ عليه كلُّها غالية
وانهضْ بوجْه الريح لا تنثني
أو تَنْحني للموجة العاتيه
يَحْرسُكَ اللهُ فتبقى لنا
مَوْرِدَ أرزاق لنا جَارية

وهذا هو - ثانيًا - وصف إنزال السفينة:

وَلْهانُ للبحْرِ قد تهادَى
يختالُ في شكْلِه العجيبِ
يستقبلُ الموجَ عارِضاه
وقد دنَتْ ساعةُ المغيبِ
قد ملّ مثْواهُ بعْدَ دهرٍ
وانْسابَ نحْو المدى الرّحيبِ

تلقاهُ في يَوْمِهِ المرجَّى

جَذْلانَ في موكبٍ مَهيبِ

قدْ قام بَحارُهُ يُغنِّي

ويرتجي الفضْلَ في الغيوبِ

حَشْدٌ تداعى باغنياتٍ

تنداحُ في لَحنِها الغريبِ

قدْ غاصَ في بحْرِنا صداها

فارْتدَّ في جوِّنا القشيبِ

يا بُومَنَا هل علِمْتَ شيئًا

عن الذي ضُمَّ في القلوبِ

وهل رأيت الألى تنادَوْا

إليكَ في يَومِكَ العصيبِ

كلٌّ على رِسْلِه يُنادي

يا نعمةَ الخالقِ استجيبي

أبْحرْ إلى الرِّزْق في الموانـي

وارجَعْ إلى الموْطن الحبيب

أما حديث المسير فهو:

ها نحن نمضي في الطريـ

ـق إلى مُلاقاة الخطرْ

بالأمس ودَّعنا الأحبـ

ـبَةَ عازمين على السفرْ

كَمْ قد تركْنا منْ خليـ

ـلٍ أو فَقدْنا من وَطَرْ

البحْرُ ممتـدٌّ يكا

دُ يُضِلُّ مرآه البصرْ

وقلوبُنا لَهْفى تُرا

قبُ ما يجيءُ به القدرْ

نقضي الليالي جاهديـ

ـنَ ونَنْثني عنْد السَّحرْ

وتغادرُ الأيامُ منْـ

ـنَا مُشْرفينَ على كَدَرْ

ندعو الإلهَ ونرتجي

منه الرجاءَ المنتظرْ

البُومُ مِلْءُ شراعه

أمَلٌ كبيرٌ بالظَّفَرْ

يسري وقد مَلأ الحشا

تمرًا وأشياءَ أُخَرْ

فاختالَ فوق خليجنا

نشوانَ يُعجِبُ منْ نَظرْ

عَلَمُ الكويت على ذُراه،

وحوْلَهُ جَدُّ البشَرْ

****

الموسيقار أحمد علي في الكويت (1)

هذا فنان كبير له دوره في إحياء الموسيقى بصورة عامة، وموسيقى الكويت بصفة خاصة، وله خبرة طويلة في مجاله الموسيقى الذي وهب له حياته، وفيما يتعلق بالكويت فقد كان هنا منذ سنة ١٩٥٩م وصار فور وصوله إلى البلاد عضوًا فاعلًا في فرقة الإذاعة الكويتية، وكانت هذه هي أول فرقة يتم تشكيلها لهذا الغرض، ضمت عددًا من كبار الموسيقيين الذين تفتقر إذاعة الكويت إلى أمثالهم في الوقت الراهن. ولم يكتف بعد ذلك بعمله بصفته عازفًا مع الفرقة بل أسس في الإذاعة عندنا معهدًا للدراسات الموسيقية الحرة، وأسس - أيضًا - مكتبة التراث الشعبي الكويتي ضمن الإذاعة.

عرفتُ الأستاذ أحمد علي في وقت مبكر من سنوات ستينيات القرن الماضي، كان يأتي مع الفرق الموسيقية إلى تلفزيون الكويت - حيث كنت أعمل آنذاك - فيشارك في العزف، وتكون لي فرصة اللقاء به والتخاطب معه، وقد استمرت هذه الصلة التي بدأت بسيطة إلى أن تمكنت، فصار ضمن الأخوة الذين يواظبون على حضور ديوانية الثلاثاء، ولم ينقطع عن ذلك إلا بعد أن أعياه المرض، وتقدمت به السن.

كان الأستاذ أحمد البشر الرومي من أكثر الناس تقديرًا لهذا الموسيقار، وكان يسعى إلى لقائه حين صار مسؤولًا عن مكتبة التراث الشعبي في المجلس الوطني

(1) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٨/٧/٢٠١٠م.

للثقافة والفنون والآداب. وقد حدثني أبوعبدالله كثيرًا عن أحمد علي مثنيًا على جهوده الكثيرة التي حفظت لنا تراثنا الغنائي الشعبي، وكان يقول لي: ألم تستمع إلى الأعمال التي قام بها أحمد علي، حين سجل موسيقى الأصوات القديمة تسجيلًا منفردًا عن أصوات المطربين فأصبحت لدينا موسيقى يستطيع العربي وغير العربي أن يستمع إليها ويتذوقها. ولقد حصلت على نماذج من عمله هذا، وسرني أن أستمع إلى هذه الأعمال المبهرة التي كانت ولاتزال قمة من قمم الفن، يزيدها الزمن رسوخًا وجمالًا.

لم يكن هذا الموسيقار ليكتفي بجمع أشرطة الأغاني المعروفة ووضعها على الأرفف كما يفعل غيره بل كان يصنفها، ويكتب موسيقاها في نوتات تبقى ليستفيد منها القادمون إلى ارتياد هذا الفن.

ومما تحدث عنه الموسيقار أحمد علي في أحد المجالس الخاصة ما دل على اهتمامه بمتابعة تدوين الإيقاعات الكويتية القديمة، يأخذها من مصادرها الحية، فذكر أن من مصادره الفنانة الكويتية عودة المهنا التي أمدته - كما يقول - بثمانية عشر إيقاعًا على «الطار» لم يسمعها من غيرها، ولذلك فإنه يقول عن هذه الفنانة: إنها أستاذتي، لأنها أتاحت له فرصة معرفة هذه الإيقاعات وتسجيلها ولولاها لما تمكن من ذلك.

بقي أن نقول إنَّ: هذه الأعجوبة في عالم اللحن والغناء والإيقاع، التي امتعت الناس طوال السنين بفنها البديع، لم يتركها الناس إلى خالقها عندما توفيت، فقد جن ذوو النفوس التي ركبها الحسد عندما رأوا إحدى بنايات شارع تونس باسمها، وأخذوا يتساءلون عن مواردها المالية في حين أن هذا الأمر لا يخصهم، وليس بمستغرب أن يكون لديها مال لأنها كانت تعمل طوال حياتها. وهم لا يدرون أنها لم تترك وراءها مالًا لأنها كانت تنفق ما تملكه على المحتاجين الذين يلجؤون إليها لذلك، لما عرفوا عنها من فعل المعروف.

أما البناية موضع الحسد فهي ملك إحدى الشركات الاستثمارية الكبرى، وقد رأى مجلس إدارة هذه الشركة – مشكورًا – أن يطلق على البناية الجديدة اسم الفنانة القديرة عودة المهنا. حفظنا الله من الحسد.

قام أحمد علي بتأليف كتاب شامل صدر له في سنة ١٩٨٠م، تحت عنوان: «الموسيقى والغناء في الكويت» وقد قدم له الأستاذ أحمد البشر بمقدمة ضافية تحدث فيها – بداية – عن الفن الكويتي القديم وأرخ له، ثم قال عن أحمد علي ما يلي: «وجاء بعد ذلك من مصر إلى الكويت أستاذ عبقري في علم الموسيقى هو الأستاذ أحمد علي في عام ١٩٥٩م ولإقامته طيلة هذه المدة في الكويت وتعايشه مع الموسيقى الكويتية وفهمه لها الفهم الجيد وتقديمه لها الخدمات الجليلة يضع بين يديك هذا الكتاب الجليل الذي لا أعتقد أن أحدًا غيره يستطيع عمله، فقد درس أصوات واستماعات يوسف البكر فاختار أهمها لهذا الكتاب الذي بين يدي القارئ، فإن ما تراه في هذا الكتاب القيم من الأصوات والاستماعات هي التي كانت تغنى قبل ثمانين عامًا تقريبًا، وأن ما تسمعه في هذه الأيام من الأصوات التي تغني لا تربطه صلة قرابة بالأصوات القديمة سوى الإيقاع.

وإني لأقدر للأستاذ أحمد علي جهوده الشاقة التي بذلها في تأليف هذا الكتاب القيم.. وإن هذا الكتاب سيخلد فننا الكويتي القديم للأجيال القادمة التي يجب أن تعرف تاريخ فننا الغنائي على وجهه الصحيح».

وبعد المقدمة التي كتبها الأستاذ أحمد البشر جاءت مقدمة أخرى كتبها المؤلف تحت عنوان: «هذا الكتاب»، ومما جاء في هذه المقدمة قوله: «لقد كنت محظوظًا بحبي للفن الموسيقي الكويتي الذي أتاح لي الكشف عن كنوز من الألحان والإيقاعات العربية القديمة التي لا تزال تعيش بيننا.

وليس هذا الذي أقوله خيالًا، ولا وهمًا، ولا لونًا من ألوان المدح، ولكنه حقيقة سوف يلمسها كل من يقرأ كتابي هذا، كما لمسها وأقرني عليها أساتذة أفاضل عرب وغرب، وسأظل أشيد بالدور الذي قام به السيد أحمد البشر بتسجيله للألحان الكويتية القديمة بصوت الفنان المرحوم يوسف البكر، وبذلك حفظ لنا كنزًا من «الأصوات» التي سوف تكون الأعمدة التي يقوم عليها هذا الكتاب».

ومن هنا نرى مدى اهتمام هذا الفنان بموضوعه، ومتابعته له، ونرى أنه لم يكتف بالبحث والكتابة، بل سعى إلى إطلاع عدد من المختصين بالموسيقى على ما توصل إليه لكي يطمئن قلبه إلى صحة ذلك، وهذه سمة من سمات العلماء تحسب له.

وأكثر من هذا فإن تعبيره العاطفي عن إنتاجه هذا يلفت النظر، فهو يقول: «ما كان هذا الكتاب، والمعلومات المبثوثة فيه أكثر من شعور شخصي، استمتع به وحدي، بل وأعاني طريقه في الكشف لنفسي، لا أكاد أرى ضرورة لنشره، إلا ما يكون من حديث بين الأصدقاء، ومحاضرة للعارفين والعلماء، وكلهم جميعًا بعد الوقوف على بعض ما تحاورنا فيه، حثوني على تدوين تلك الملاحظات، ظنًّا منهم أن ذلك لازم، وأنه فضلًا عن ذلك: واجب» وعلينا أن نعرف من هذا القول أن الإلحاح الذي واجهه أحمد علي من هؤلاء الرجال هو الذي دفعه إلى تقديم كتابه هذا إلى المطبعة، ولولا هؤلاء لما قرأناه. ويكفينا ما دونه هنا للدلالة على همته، وقدرته العلمية في مجال الموسيقى وإخلاصه في عمله، إضافة إلى حبه للكويت.

وإذا عدنا إلى الكتاب وجدناه على قلة صفحاته (١١٦ صفحة) مليئًا بالمعلومات المهمة عن الموسيقى الكويتية القديمة ولاسيما ما يسمى منها بالأصوات. ومنذ بداية العمل؛ فإننا نجده مؤمنًا إيمانًا حقيقيًا بأن الموسيقى الكويتية الأصيلة القديمة إنما هي صورة للموسيقى العربية الأولى، وهو يتحدث بكل ثقة عن هذا الأمر قائلًا: «وقبل أن تذاع الأغنية الكويتية (التقليدية) وتنتشر بأنماطها الموسيقية

وقوالبها الغنائية وإيقاعاتها عبر وسائل الإعلام المسموعة والمرئية كنا نظن أن ألحان الحضارة العربية التي مارسها الفارابي والموصلي والكندي ومعبد وزلزل وزرياب وغيرهم من صانعي الحضارة الموسيقية الأولى قد اندثرت، وكنا نظن أنها ذهبت إلى غير رجعة.. ولكن ظهور الأغنية الكويتية، وذيوعها، كشف لنا عن كنز عظيم ورائع من هذه الألحان التراثية، فإذا بها (ويا للعجب) لاتزال تعيش بيننا نتداولها حتى يومنا هذا».

إذن فهذا هو الأمر، لقد شُغف الرجل بموسيقى الكويت وصار يتتبع أصولها حتى توصل إلى المصدر الذي جاءتنا منه. وهذا أمر وإن كان عجيبًا على رأي صاحبنا إلا أنه دليل على عمق اتصال هذه البلاد بتاريخها وبثقافة أهلها الأوائل الذين انتجوا ذلك الفن الجميل.

ولقد كان هذا هو منطلقه إلى العمل، فتحدث عن تدوين الكلمات العربية فوق حروف (النوتة) الموسيقية بطريقة جديدة، ثم تحدث عن فن الصوت وطريقة تلحينه وأدائه، وبعد ذلك أورد عددًا كبيرًا من النصوص من أنواع الصوت المختلفة فرصدها وكتل النوتة الموسيقية الخاصة بها، مع تعليقات مهمة لا غنى عنها لباحث.

العمل الذي تضمنه هذا الكتاب عمل جليل، وجدير بالاهتمام، وسوف يخلد ذكر الموسيقار أحمد علي، فإنه قد أتانا بشيء عظيم، ورسخ في الأذهان أهمية الحفاظ على الصوت الكويتي لما له من دلالة تاريخية مهمة، ولما له من أصول عربية ثابتة.

الموسيقار أحمد علي كان منذ بدايته مهتمًّا بالموسيقى، محبًّا لها، يسعى لدراستها بكل السبل. ولد في سنة ١٩١٥م، ودرس القرآن الكريم في الكتاب في المدينة التي ولد فيها وهي الإسكندرية، ولكنه انتظم بعد ذلك في المدارس الحكومية وأنهى دراسة المرحلة الابتدائية في سنة ١٩٢٨م، ولم يتمكن من الاستمرار

بسبب الظروف الأسرية القاهرة، فأكب على التعليم الخارجي، وعلى تعليم الذات والاعتماد في ذلك على نفسه وكان هناك كثير من أمثاله يتبعون هذه السبل بسبب وقوف الظروف ضدهم. بعد ذلك اتجه إلى دراسة الموسيقى، فكان معلموه لهذه المادة من المصريين ومن الأجانب. وبناءً على ما حصله من هؤلاء تقدم إلى امتحان المعلمين في الموسيقى فاجتازه وحصل على شهادة بذلك من وزارة المعارف المصرية في سنة ١٩٣٠م.

فتح له الحصول على هذه الشهادة باب العمل فالتحق بفرقة الإذاعة المصرية والأجنبية عازفًا، واستمر يعمل في هذا المجال بعد أن تطورت فرقة الإذاعة المصرية في سنة ١٩٥٧م. وانتقل خلال ذلك إلى العمل في عدد من الجهات منها إذاعة الشرق الأدنى وكان فيها ملحنًا وعازفًا وقائدًا للفرقة الموسيقية ورئيسًا لها. ولقد كانت له ألحان كثيرة وأنشطة متعددة في مجال الموسيقى، ونال بذلك بعض الأوسمة وعزف خلف عدد من كبار الفنانين في مصر وغيرها. وهو عضو في جمعية المؤلفين والملحنين وناشري الموسيقى في باريس وفي القاهرة، كما أن له عضوية في عدد من الهيئات المماثلة.

وفي جميع الأحوال فقد كانت حياته حافلة بالعمل، والسهر الدائم على الإنجاز في المجال الذي أحبه وتخصص فيه: الموسيقى.

أما ما بعد هذا من حياته فقد تحدثنا عنه في بداية مقالنا هذا. وفي الكويت حصل على تكريمين أحدهما من سمو الشيخ سعد العبدالله السالم الصباح الذي أمر باستمراره في الوظيفة مهما كانت سنه، فقد عرف الشيخ القيمة الفنية التي كان أحمد علي يمثلها، وأراد أن يرعاه في كهولته التي وصل إليها وهو يعمل في الكويت، وكان قد جاءها شابًّا ممتلئًا بالصحة والعافية، وهكذا تثبت الكويت أن الجهد الصادق لا يمكن أن يضيع أو أن ينسى. وأما التكريم الثاني، فقد قامت

به جمعية الفنانين الكويتيين التي أقامت حفلًا كبيرًا في اليوم الرابع من شهر يونيو لسنة ١٩٩٦م، وذلك لتكريم رواد الحركة الفنية والإعلامية في الكويت، وكان أحمد علي من المكرمين، وقد كتبت عن حياته صفحة كاملة في الكتيب الذي صدر عن الجمعية بهذه المناسبة، وجاء في نهاية الصفحة أن هذا التكريم يأتي «تقديرًا لجهوده المخلصة ونشاطه المتميز في مجال البحث الموسيقي، والمحافظة على التراث الشعبي الكويتي».

وهو يستحق فعلًا – التكريم، وبخاصة أن إنتاجه الفني والفكري لايزال يسمع ويقرأ، ولا يزال فنانونا يهتمون بمتابعة ما صنع خلال فترة نشاطه.

وإضافة إلى ما سبق أن أشرنا إليه بخصوص تكريمه وتقدير أعماله في الكويت نذكر – أيضًا – أنه نال الجائزة الأولى من مؤسسة الكويت للتقدم العلمي وذلك ضمن جوائز معرض الكتاب الذي يقام في الكويت سنويًا، عن كتابه «الموسيقى والغناء في الكويت» وصار هذا الكتاب مقررًا للدراسة في جامعة ميونخ الألمانية باعتباره يوضح الأجواء المحيطة بالفن الغنائي في الكويت وفي منطقة الخليج العربي بصفة عامة.

وتحدث في إحدى المناسبات عن أنه قد حصل على شهادة تقدير من وزارة الإعلام هنا بمناسبة العيد الوطني السادس عشر عن مجمل أعماله على مدى خمس عشرة سنة قضاها في خدمة البلاد ضمن المجال الذي تخصص فيه.

وَنُشِرتْ له مذكرات شخصية في مجلة «عالم الفن» التي تصدرها جمعية الفنانين الكويتيين، وكان نشر هذه المذكرات على حلقات متوالية، بدأت المجلة بنشر الحلقة الأولى منها في العدد رقم (٩٠٨) الصادر في شهر أبريل لسنة ٢٠٠١م، واستمرت في نشر الحلقات حتى العدد رقم (٩١٥) الصادر في شهر يناير ٢٠٠٢م.

ولقد كانت هذه المذكرات غنية بالمعلومات التي لا يمكن لنا أن نتعرفها إلا عن هذا الطريق؛ طريق صاحبها الذي عايشها، وأمضى حياته معها، فتفاعل مع أحداثها ومع الأشخاص الذين كان معهم أثناء ورودها وحدوثها.

تحدث – مثلًا – عن عمله في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب منتدبًا من وزارة الإعلام (إذاعة الكويت) وهنا بدأ عمله في مكتبة التراث الموسيقي التي أقر المجلس إنشاءها، وتولى صاحبنا القيام بكل ما يلزم لتنفيذ قرار الإنشاء هذا.

وتحدث بصفة خاصة عن تجربته مع أول سيارة اقتناها وعن جهوده في التدرب على قيادتها، وبين ما جرى له في بدايات التعامل مع هذه الآلة التي لم يكن يدير لها بالًا، أو بالأحرى أنه لم يكن يظن أنه سوف يستعملها في يوم الأيام ولكن الحاجة الملحة هي التي دفعته إلى ركوب الصعاب، ولقد استمر في حديثه هذا ذاكرا النوادر الغريبة التي حدثت له مع سيارته.

كما تحدث في مذكراته عن الحفلات التي أطلق عليها يومذاك اسم «ليالي الخليج» وكانت تقام ضمن ما كان يسمى: «الترويح السياحي» الذي كان يديره الأستاذ صالح الشهاب رحمه الله، وقد ذكر أحمد علي أنه كان قائد الفرقة الموسيقية التي تعزف مع المغنين المشاركين في تلك الحفلات. وتحدث – كذلك – عن مشاركته في الأعمال الفنية المرتبطة بتسجيل النشيد الوطني، الذي كان متابعًا لكافة إجراءات اختياره بصفته فنيًّا متخصصًا في هذا المجال المهم.

وذكر أنه في اليوم الأول من شهر فبراير ١٩٨٨م، شارك ضمن فعاليات الموسم الثقافي لكلية التربية الأساسية بإلقاء محاضرة عنوانها: «قراءات في الموسيقى والغناء في الكويت» وقد بدأ موضوعه بالحديث عن الأشكال الموسيقية الغنائية ووظائفها في منطقة الخليج العربي، وقام بتحليل ما بين سطور كتابه الذي تحدثنا عنه فيما سبق، لكي يقرب إلى أذهان الجمهور ما غمض من هذه الدراسة العلمية الموسيقية.

وذكر في بداية المحاضرة أنه يتناول في بحثه هذا مشكلة من أهم المشكلات التي تواجه المسيرة الغنائية والموسيقية في المنطقة، وكان يقصد بذلك مشكلة تعدد المصطلحات والمسميات الغنائية والموسيقية، على الرغم من التشابه الكبير في الأشكال والقوالب الموسيقية في هذا الموقع من العالم.

هذا ولم تكن بقية المذكرات قليلة القيمة، ففيها معلومات كثيرة عن حياته وعن عمله، بل وعن الحياة العامة في الكويت فقد ذكر تفصيلًا للمحاولة التي بذلها من أجل إنشاء معهد للموسيقى يتبع إذاعة الكويت، وتحدث عن تبني الوزارة لهذه الفكرة وعن الاجتماعات التي تمت من أجل هذا الأمر، وبيّن نتائجها.

وتحدث عن بعض أعماله الصغيرة مثل اختيار ألحان لمقدمات لبعض البرامج الإذاعية، ومشاركته في لجنة إعداد مهرجان الأغنية الكويتية، وعن عمله بالتدريس في معهد الموسيقى.

ومن الأمور العامة ذكر أن إيجارات المساكن قد ارتفعت في خلال سنوات الستينيات ارتفاعًا كبيرًا لفت الأنظار، وذكر من ذلك حادثة رواها له الفنان عبدالله فضالة، وهي حادثة غرق تعرض لها هذا الفنان وذلك بعد تحطم السفينة التي كان على متنها وهي في عرض البحر، وكانت عائدة بركابها من الغوص.

وهنا تحدث عن أعماله الخارجية التي كان لا يقوم بها إلا بعد الحصول على تصريح من جهة عمله في الكويت. وبقي يقدم كثيرًا من الألحان لإذاعة الكويت وبخاصة تلك الألحان المرتبطة بالمسلسلات الإذاعية مثل «العباسة أخت الرشيد» و«صبيحة في الأندلس» و«حبّابة» ولكنه انتدب بعد إنجازه هذه الأعمال في سنة ١٩٧٦م إلى المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - كما ذكرنا سابقًا - حيث أنشأ مكتبة التراث الشعبي الكويتي وأشرف عليها بقية حياته. وخلال فترة عمله هذه لم ينقطع عن الإنتاج الإذاعي بل كان ينتج بعض الأعمال بتكليف من المجلس،

ومن ذلك ما قدمه في اليوم العاشر من شهر يونيو لسنة ١٩٥٨م في تلفزيون الكويت، وكان عبارة عن سهرة تحت عنوان: «بنيات الديرة» وقد تحدث عن هذه السهرة كثيرًا، وفصل في موضوعها، وذكر أن مخرجها كان الفنان المرحوم كنعان حمد.

ومن خلال سطور المذكرات نلمح خبرًا من أخباره لم يرد من قبل وهو قوله: «في الفترة من ٢١ إلى ٢٦ من شهر ديسمبر لسنة ١٩٨٦م شاركت في المؤتمر العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم الذي عُقد في تونس وكنت ضمن لجنة الموسيقى».

إن ما يلفت النظر في مجمل ذكريات الأستاذ الموسيقار أحمد علي أن له ذاكرة قوية جدًا، فهو لا ينسى التفصيلات، ولا يترك أمرًا مر عليه في حياته أثناء وجوده في الكويت إلا ذكره مهما كان صغيرًا، وهذا يدل إضافة إلى قوة الذاكرة على اندماجه في عمله، وفي المجتمع الكويتي بشكل عام.

هذا هو الموسيقار أحمد علي الذي خدم الموسيقى الكويتية القديمة، واستطاع أن يعيدها إلى أصولها العربية الأولى، عاش بيننا أخًا عزيزًا وصديقًا محبًا، وكان لا يحب الحديث عن نفسه لولا أن الأستاذ أحمد بدوي استطاع أن يستدرجه في الحديث فيأخذ بعض ما عنده من ذكريات ثم ينشر كل ذلك في مجلة «عالم الفن» الكويتية. ولكننا في حاجة إلى المزيد من التفصيلات عن حياة الرجل وعن فنه بصفة خاصة، فهل يقوم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب عندنا بإحياء ذكرى هذا الرجل فيصدر عنه كتابًا جامعًا مبينًا - على الأقل - تراثه الموسيقي الذي هو في الوقت نفسه تراث الكويت، أليس هو الساهر على تأسيس المكتبة الموسيقية بالمجلس والعامل بها إلى آخر رمق من حياته؟ فهل من مجيب؟

****

اللورد هادنغ، حاكم الهند البريطاني

في الكويت ١٩١٥م [١]

هذه سنة تبدأ حيث تنتهي، ذلك لأن الأحداث المهمة التي جرت خلالها، وهي التي ننوي عرضها في هذا المقال إنما تمت في أواخرها.

ولذلك اعتبرناها تبدأ من حيث تنتهي، مع ملاحظة أن هذه السنة مختلطة في أحداثها من حيث التسلسل مع سنة ١٩١٥م حتى لكأننا نرى السنتين وقد صارتا سنة واحدة تتكون من أربعة وعشرين شهرًا.

إن الأمر المهم الذي سوف يأخذ معظم ما في مقالنا هذا هو قيام الحرب العالمية الأولى، ومشاركة الكويت فيها بحسب الوضع الذي يمكنها من القيام بهذه المشاركة، ولكننا نلاحظ أن بعض الأمور قد حدثت قبل ذلك ومنها:

- استكمال بناء المستشفى الأمريكي الذي بدأ بناؤه في عهد الشيخ مبارك الصباح، وقد زاره الشيخ زيارة تفقدية في اليوم السابع والعشرين من شهر يناير لسنة ١٩١٥م بعد أن تبين له حسن سير العمل فيه منذ تم ابتداء العمل واستقبال الحالات المرضية في السنة التي سبقتها.

- وجرى في سنة ١٩١٤م تشغيل جهاز تحلية مياه البحر الذي اشتراه الشيخ مبارك الصباح، ولكن هذا الجهاز لم يؤدّ النتيجة المطلوبة منه فأوقف وأعيد إلى مصدره.

---

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٠/٨/٤م.

- وعقد فيها مؤتمر أطلق عليه اسم: مؤتمر الصبيحية لأنه عقد على أرضها حضره من الكويت الشيخ جابر المبارك الصباح كما حضره الملك عبدالعزيز آل سعود، وممثل عن الدولة العثمانية.

- وفي اليوم الرابع والعشرين من شهر يونيو ١٩١٤م تم تعيين الكولونيل وليام جورج جراي ممثلًا سياسيًّا لبريطانيا في الكويت.

- وفي اليوم الرابع عشر من شهر ديسمبر لسنة ١٩١٤م تم رفع علم الكويت الأحمر المعروف لأول مرة. وقد تحدثنا عنه فيما سبق من مقالات.

كانت الدنيا في سنة ١٩١٤م على أبواب الحرب العالمية الأولى بل هي قد ولجت تلك الأبواب بالفعل كانت أمور العالم مضطربة والناس لا تدري مصيرها وإن كانت تتوقع تغييرًا كبيرًا في المواقع والنظم السياسية، لأن القوة المقابلة للدولة العثمانية والألمانية كانت قوة كبيرة بحيث يتوقع الجميع انتصارها فهي مكونة من الحلفاء الذين تحركوا إلى حرب مكثفة ذات عدة جبهات.

والكويت وإن كانت دولة صغيرة في ذلك الوقت فإن الأمر كان يعنيها، لأن تعديات الدولة العثمانية عليها كانت كثيرة وشديدة ولم تترك هذه الدولة مجالًا من مجالات التضييق على الكويت وعلى حاكمها - آنذاك - الشيخ مبارك الصباح إلا وسلكته. ولذا فقد كان الشيخ على استعداد للمشاركة في الحرب مهما كلفه الأمر، على الأقل من أجل أن يستريح من الأذى المستمر الذي يجابهه، ومن أجل أن يطرد الجنود العثمانيين من بعض المواقع الحدودية التي احتلوها. ولذا فقد كان أول عمل قام به هو طردهم واستعادة أرضه وذلك فور إعلان الحرب رسميًّا.

ولقد سبقت لنا إشارة إلى هذا الأمر، وإلى نتائج الحرب من ناحية القانون الدولي في كتابنا «الكويت تواجه الأطماع» واستأنسنا هناك بقول الدكتور حسين

محمد البحارنة الذي ألف كتابًا بهذا الخصوص تحت عنوان: «الوضع القانوني لدعوى العراق بالسيادة على الكويت» الذي أصدره في سنة ١٩٩١م. وكان مما قلناه في كتابنا المشار إليه: «عندما دخلت تركيا الحرب ضد بريطانيا في أكتوبر ١٩١٤م أعلن الشيخ مبارك وقوفه إلى جانب بريطانيا، ولعب دورًا نشطًا في الأعمال الحربية ضد الأتراك في البصرة، وباعتباره شريكًا في الحرب، فله حق المنتصر. وقد تضمنت معاهدة سيفر لسنة ١٩٢٠م ومعاهدة لوزان لسنة ١٩٢٣م وجهة نظر القانون الدولي حين فرضتا قيودًا محددة توضح الموقف من الدولة العثمانية وممتلكاتها السابقة، ولم يكن وضع الكويت مثل وضع العراق لا من الناحية الواقعية ولا من الناحية القانونية».

في ظروف بداية الحرب العالمية الأولى التي بدأت شرارتها - فعلًا - في شهر أكتوبر يونيو لسنة ١٩١٤م، أحست بريطانيا بأنها ينبغي أن تحشد لذلك كل ما تستطيع حشده من قوات مسلحة، ومن إمكانات إعلامية وغيرها، وكان يهمها - أيضًا - الحصول على دعم أولئك الذين ترى أنهم الحلفاء الذين يمكن أن يقدموا لها الدعم في مثل هذه الظروف، فهي - بصفتها دولة عظمى - تعلم حجم الحرب التي سوف تخوضها، وتعرف قوة غريمها معرفة جيدة، ولذا فإن التحسب لكل شيء ينبغي أن يكون أمام أعين السياسيين والعسكريين على حد سواء، ومن هذا التحسب إحياء وتدعيم الصلات مع الحلفاء في هذه المنطقة المتاحة للدولة العثمانية، أو التي تقع على تخومها.

بدأت بريطانيا ذلك بإرسال رسائل إلى الشيخ مبارك الصباح الذي تعتقد أنه سوف يتحمس إلى ما تدعوه إليه من أجل طرد محتلي المواقع الحدودية الكويتية، ومن أجل التنفيس عن الهموم التي أودعتها الدولة العثمانية في نفسه جراء التصرفات غير السليمة وغير المنطقية التي كانت تتبعها معه.

وقد كان من أبرز ما أرسلته بريطانيا إلى الشيخ مبارك الصباح بهذا الخصوص رسالة أبلغته فيها ببدء نشوب الحرب في شهر أغسطس لسنة ١٩١٤م كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق. وأبلغته بدخول تركيا إلى معترك هذه الحرب مما يجعلها في مواجهة بريطانيا مباشرة من ناحيتنا حيث إن لهذه الدولة العظمى وجود عسكري وسياسي في الخليج العربي لا ينكر أحد قيمته، ولا مقداره، ولها روابط كثيرة من أهمها المعاهدات المبرمة مع أكثر بلدانه. من هنا رمت بريطانيا بثقلها واتجهت في عدة اتجاهات من أجل أن تحقق الانتصار في حربها مع العثمانيين. وقد تجاوب الشيخ مبارك مع هذا الإبلاغ وسارع إلى الإعلان عن تأييده لحليفته التي ترتبط معه باتفاق تعاقدي منذ سنة ١٨٩٩م، وقد ارتاحت بريطانيا لهذا الموقف الذي اتخذه الشيخ، وأصدرت بيانًا تقدم به المقيم السياسي البريطاني في الخليج الميجور ستيوارت نوكس في اليوم الثالث من شهر نوفمبر لسنة ١٩١٤م، أكد فيه للشيخ مبارك الصباح تقدير دولته للموقف الذي اتخذه من الحرب، وقدم له التأكيدات التالية ضمن البيان المشار إليه، وقد بدأه بالقول: مقابل تعاونكم القيم الذي نتوقعه منكم، فوضتني الحكومة البريطانية في حال انتصارنا، وسننتصر إن شاء الله، أن أؤكد لكم ثانية أن البصرة لن تكون أبدًا خاضعة للسلطة التركية. كما أنني مفوض لأنقل إلى سعادتكم، شخصيًّا، التأكيدات التالية الخاصة:

١ - إن بساتين النخيل التي تملكونها الآن في الفاو والقرنة ستظل ملككم وملك ورثتكم وستكون معفاة من الضرائب إلى الأبد.

٢ - إن الحكومة البريطانية تضمنكم ضد كافة عواقب هجومكم على سفوان وأم قصر وبوبيان.

٣ - سيجري الاعتراف بالكويت إمارة مستقلة في ظل الحماية البريطانية.

الكولونيل ستيوارت. نوكس من مواليد سنة ١٨٦٩م، تلقى في بلده (بريطانيا) تعليمًا عسكريًّا وانتقل إلى العمل في منطقة الخليج وتقلب في عدد من المناصب

السياسية، وكان أول معتمد سياسي بريطاني في الكويت إذ تم تعيينه في هذا المنصب في اليوم السادس من شهر أغسطس لسنة ١٩٠٤م، وتوفي في سنة ١٩٥٧م.

لقد كان الموقف في المنطقة شديد الغليان، وكان الناس في الكويت منقسمين في داخل أنفسهم حول موقف بلادهم من الحرب، ولكنهم يعلمون أنهم بدون هذه الحرب لا يستطيعون أن يتخلصوا من الضغوط التي تفرضها عليهم الدولة العثمانية بين آونة وأخرى، مما يجعل الحياة في وطنهم غير مستقرة الاستقرار المطلوب لاستمرار المصالح، والأعمال، وأهم من كل هذا راحة البال. ولكنهم على الرغم من الموقف الديني الذي يدفعهم إلى عدم محاربة دولة إسلامية كبرى هي الدولة العثمانية، فإنهم بالنظر إلى الاعتبارات التي سقناها هنا، وثقة بأميرهم وحسن رأيه، وقفوا معه وأيدوه منذ البداية.

وصل إلى الكويت في اليوم الثلاثين من شهر يناير لسنة ١٩١٥م رجل من كبار رجال الدولة البريطانية هو اللورد تشارلز هادنغ حاكم الهند المعين من قبل بريطانيا، وكان قدومه إلى هنا بسبب الحرب التي بدأت نذورها في المنطقة بل في العالم، ولم يكن حضوره مشابها لحضور اللورد كيرزون وهو أيضًا كان حاكم بريطانيا للهند، وقد وصل إلى الكويت في اليوم الثامن والعشرين من شهر نوفمبر لسنة ١٩٠٣م، فقد لقي - آنذاك - حفاوة بالغة، وأعدت له احتفالات كبيرة، واستقبله الشيخ مبارك الصباح استقبالًا يليق برئيس دولة، ولكن الأمر اختلف عند مجيء تشارلز هادنغ إلى الكويت، فمع أنه كان حاكم الهند من قبل بريطانيا كما كان كيرزون إلا أن الشيخ لم يستقبله كما سوف نرى. وإنما أرسل إليه ولي العهد الشيخ جابر، ثم لقيه في قصره وأولم له. لقد كان الأمر مختلفًا في هذه المرة فالوقت كان وقت حرب، وكان هذا الرجل قد جاء في مهمة محددة، أضف إلى ذلك أن الشيخ مبارك الصباح كان مرهقًا ومتعبًا وقد بدأت الأمراض تسري إلى

جسمه، وكان صعبًا عليه أن يتحرك بالصورة التي كان يستطيع أن يتحرك بها في سنة ١٩٠٣م يوم جاء اللورد كيرزون إلى الكويت، ويكفينا أن نعرف أن الشيخ توفي في اليوم التاسع والعشرين من شهر نوفمبر لسنة ١٩١٥م، وهذه كانت من ضمن الإشارات الفارقة بين زمني حضور الحاكمين البريطانيين. ولكن الشيخ عندما استقبل هادنغ كان قادرا على أن يتحدث عن حقوقه التي هي حقوق وطنه، ولم يتح لضيفه الفرصة كي يُدِلَّ عليه بأي عمل قامت به بريطانيا باتجاهه. وقد ذكر الشيخ عبدالعزيز الرشيد في كتابه «تاريخ الكويت» تفصيلًا لما حدث خلال الزيارة فقال: «اشتعلت الحرب العامة ودخل الأتراك معمعتها، وجرى ما جرى من احتلال الإنجليز البصرة وإخراجهم الحكومة العلمانية منها، فأرادت إنجلترا - آنذاك - أن تجس نبض أمراء العرب وتعرف أهواءهم في تلك الحرب العالمية الكبرى، وما يضمرونه لها من جرائها، حتى إذا ما وجدت منهم ميلًا إليها، جمعت كلمتهم تحت من تراه من المخلصين لها، والناصحين في خدمتها، ومن كان له الأثر الظاهر في معاضدتها، أرادت ذلك، فضربت موعدًا واحدًا لاجتماع ابن سعود، وخزعل خان، وحاكم البحرين، وسلطان مسقط، في ضيافة مبارك بمدينة الكويت، لتوسطها وأهميتها.

ضرب الموعد هناك وقرر أن الذي سيتولى الرئاسة فيه هادنغ حاكم الهند، وفي يوم الأحد ١٥ ربيع الأول سنة ١٣٣٣هـ (١٩١٥/١/٣٠م) وصل هادنغ إلى الكويت فقابله الشيخ جابر والسير برسي كوكس الذي جاء من البصرة لملاقاته، والكولونيل (جراي) قنصل إنجلترا في الكويت، على ظهر الباخرة.

أما الشيخ مبارك فلم يذهب إليه هناك إلا يوم الإثنين ثم نزل الحاكم المدينة بعد الظهر من ذلك اليوم لإعادة الزيارة على مبارك، ولم يحضر من الأمراء في الكويت إذ ذاك إلا سمو الأمير الشيخ حمد بن الشيخ عيسى آل خليفة حاكم

البحرين، أمّا ابن سعود فمنعته عن الحضور واقعة جراب التي وقعت بينه وابن الرشيد، وصدت خزعلًا وتيمورًا أمور في بلديهما كانت قائمة إذ ذاك، فأجل الحاكم البحث إلى وقت آخر مناسب، غير أنه لم يشأ أن يَنفضّ هذا الاجتماع من غير استفادة منه فأراد أن يُذكر مباركًا بفضل الحكومة البريطانية عليه وعلى رعيته وبما نالته من الأمن والراحة أثناء الحرب، وتمتعها بالأرباح الطائلة دون سواها. أراد ذلك لعل مباركًا ينقاد ويطيع الحكومة إذا ما حاولت منه مأربًا ومآربها فيه وفي بلده كثيرة. وقد أحس مبارك بما يجول في خاطره وتفرس بما سيقوله له، فأراد أن يكون هو البادئ بالحديث ليسد أمامه الباب الذي يريد فتحه، وبعد جدال بين الاثنين سمح الحاكم أن يقول مبارك كلمته الوجيزة وهي بيت من الشعر:

المستجيرُ بعمرو عند كربتهِ
كالمستجيرِ من الرَّمضاءِ بالنَّارِ

أراد مبارك بهذا البيت أننا لم نجف الأتراك، وقد جمعتنا وإياهم جامعة الدين القوية إلا لطمعهم فينا، وقد اخترنا المعاهدة مع إنجلترا لتصد بعدلها وإنصافها الاعتداء عنا، غير أن ما يبديه بعض معتمديها من الطمع فينا وفي بلدنا يكاد يحقق فينا معنى هذا البيت الجاهلي، وأننا لم نفر من الرمضاء (أي الأتراك) إلا إلى النار (أي الإنجليز). وقد فهم الحاكم ما يرمي إليه مبارك فقال: (لا يا حضرة الأمير ليس للحكومة طمع فيك ولا في بلدك، ولم نأت إلا لصد المعتدي عليكم، وإذا يبدو من أحد معتمديها شيء تكرهه فما عليك إلا أن ترفع الأمر إليها وهي ستنصفك».

كان هذا هو النص الذي أورده الرشيد في كتابه، ولم نغير فيه إلا أشياء طفيفة يلحظها القارئ المقارن للنص الأصلي مع ما جاء في هذا المقال بكل سهولة.

أما السير بيرسي كوكس فقد كان قبل ذلك مقيمًا لبريطانيا في مدينة بوشهر الإيرانية، ثم صار رئيسًا للجنة التي وضعت حدود دول المنطقة بعد أن جلت منها تركيا.

وكان الشيخ مبارك حريصًا على تحصيل حقوق وطنه كاملة من بريطانيا، فهو لم يسع إلى الارتباط بهذه الدولة إلا من أجل حمايته وحماية بلاده، فإذا وجد منها تهاونًا في تنفيذ ما اتفق معها عليه لم يسكت، بل هو يعبر لها عن سخطه كما رأينا هنا، وكانت له مواقف أخرى مماثلة روى الوكيل الإخباري لبريطانيا في الكويت شيئًا منها، فقد ذكر هذا الوكيل وهو علي غلوم رضا في رسالة منه إلى رئيس الخليج في اليوم الخامس من شهر يناير لسنة ١٩٠٣م يبلغه فيها أن الشيخ قد استدعاه ليعبر له عن تذمره الشديد، طالبًا منه إبلاغ رؤسائه بذلك. وقال الشيخ إنه قد أوضح للمقيم السياسي البريطاني في الخليج بموجب كتاب أرسله إليه أنه قد تمت غارة شديدة الوطأة على أطراف بلاده، وأن المعتدي قد قام بنهب العشائر المقيمة في حدود الكويت وهي عشائر كويتية ينبغي أن تتمتع بالحماية الكاملة. وأضاف: «إن مسؤولية هذا الأمر تقع على عاتق الحكومة البريطانية التي طلبت مني ألا أتجاوز حدودي، ولو لم أحافظ على عهودي مع هذه الحكومة لقمت بمطاردة المعتدين إلى داخل الصحراء واستعدت ما نهب»، ويعلق مرسل الرسالة (علي غلوم رضا) قائلًا: «كان الشيخ مبارك غاضبًا، وطلب مني أن أخبركم بوجهة نظره، كما طلب الرد عليها» ثم يقول: «أرجو أن ترسلوا إليه القليل من الكلمات التي تخفف عنه، وتدخل السرور إلى قلبه».

هذا ولقد كانت العبارات التي أوردناها أخيرًا ذات دلالة على ما أحس به المراسل من تشدد الشيخ مبارك واهتمامه الشديد لما يراه حقًا من حقوقه، فهو يرى أن بريطانيا إن لم تقم بحماية بلاده في هذه الظروف، فمتى تقوم بهذه المهمة؟ ثم لماذا تم عقد الاتفاق معها أصلًا؟

وإضافة إلى ما سقناه هنا نورد ما يلي:

في سنة ٢٠٠٨م أصدر مركز البحوث والدراسات الكويتية كتابًا ضخمًا عن الشيخ مبارك تحت عنوان: «مبارك الصباح، مؤسس الكويت الحديثة» من

تأليف ب.ج. سلوت، وترجمة السيد عيسوي أيوب، وقد تم تأليف الكتاب بإشراف ومراجعة الأستاذ الدكتور عبدالله يوسف الغنيم.

أورد الكتاب ذكر اللورد هادنغ فقال ضمن حديث عن الأحوال العامة خلال سنة ١٩١٤م وما بعدها. فقال: «كان مبارك لايزال مهمًّا للبريطانيين، وفي نهاية يناير ١٩١٥م وصل نائب الملك اللورد هادنغ إلى الكويت، وصعد نجل مبارك بالنيابة عنه وبرفقته كوكس على ظهر السفينة للترحيب بنائب الملك، وجاء مبارك فيما بعد وتسلم وسام الفارس من رتبة قائد، وهو من أعظم نياشين الهند، ومن الطبيعي أن مبارك احتاج إلى شيء جديد حيث لم يعد في حاجة إلى ارتداء النياشين العثمانية الثلاثة، لقد أصبح مبارك الآن – يقف بقوة – في المعسكر البريطاني».

هذه معلومات عن فترة من فترات الحياة في الكويت، صحيح أنها كانت فترة عصيبة، ولكن البلاد استوعبتها واستطاعت أن تعبر المخاطر، بل وأن تستفيد من الوضع الجديد الذي فرضته الحرب، وكان وجودها في الحفل الكبير الذي أقامه ملك بريطانيا بمناسبة النصر وتكريمًا للحلفاء ممثلة بالشيخ أحمد الجابر الصباح دليلًا على أن دورها كان مهمًّا، ولم يكن هامشيًّا بأي حال من الأحوال.

****

ملحاق خير

من الملاحظ أن مقالنا لهذا العدد على الرغم من تركيزه على زيارة اللورد تشارلز هادنغ للكويت في سنة ١٩١٥م غير أنه يدور حول محور مهم جدًّا له أثره في حياة العالم كله خلال تلك السنوات العصيبة وهو موضوع الحرب العالمية الأولى ١٩١٤م – ١٩١٨م، وعلى الرغم من أن الحديث عن هذه الحرب يحتاج إلى وقت طويل، وأنه قد تم إصدار عدد كبير من المؤلفات التي تناولته غير أننا هنا ينبغي أن نقدم عنها شيئًا بمنتهى الإيجاز حتى نرى صورة سريعة عما حدث في ذلك الزمان.

عندما اغتال الصربي برنشيو الأرشيدوق فرانسيز فرديناند ولي عهد النمسا بسراييفو في ٢٨ يونيو سنة ١٩١٤م أشعل نار الحرب العالمية الأولى التي استمرت من سنة ١٩١٤ م حتى سنة ١٩١٨م، وقد تكونت في البداية مجموعة الحلفاء من إنجلترا وفرنسا وروسيا وبلجيكا وصربيا والجبل الأسود واليابان في مقابل المجموعة المناوئة المكونة من ألمانيا والنمسا والمجر والدولة العثمانية، وقد كانت الولايات المتحدة الأمريكية على الحياد في بداية الأمر ولكن ألمانيا استفزتها سنة ١٩١٥م حينما أغرقت إحدى سفنها، فأعلنت الحرب على ألمانيا في ٦ من أبريل سنة ١٩١٧م ، وقد كان لذلك تأثير كبير في مجرى الحرب التي انتهت بانتصار

الحلفاء ضد ألمانيا ومن معها. وليس هذا مجال الحديث عن تفصيلات الحرب العالمية الأولى التي انتهت في ١١ من نوفمبر سنة ١٩١٨م، وأسفرت عن حوالي عشرة ملايين قتيل ونحو عشرين مليون جريح، بالإضافة إلى التغيرات التي حدثت على خريطة العالم إثر المؤتمر الذي عقد بعد أن وضعت الحرب أوزارها.

هذا هو الموجز الذي أردنا تقديمه، ومن أراد أن يزداد معرفة بشؤون هذه الحرب فعليه الرجوع إلى أخبارها في مظانها من الكتب التي تناولتها، وهي كثيرة.

****

الصحابي الأمير: العلاء بن الحضرمي في الكويت [1]

ها نحن - بحمد الله - نستقبل شهر رمضان المبارك من جديد، شاكرين لله فضله على أن أعادنا إليه وأعاده إلينا، وهو شهر مليء بالخيرات والبركات، أيامه صيام ولياليه قيام، وفيه تواصل بين أبناء الأمة، وهو فرصة حميدة للتلاقي بين الجميع، وهو الشهر الذي أنزل فيه القرآن، وذكر الله الأمر بصيامه في الكتاب الكريم.

وبمناسبة إطلالة شهر رمضان علينا لابد وأن نجد لنا اتجاهًا آخر في مقالات الأزمنة والأمكنة، فلئن كان همنا دائمًا هو التاريخ فليس لنا أولى من كتابة ما يتعلق بالتاريخ الإسلامي الذي مر على بلادنا، فهذا يتلاءم مع التذكير بأيام الإسلام الأولى التي ينبغي أن نتحدث عنها إحياءً لتاريخ تلك الفترة وبخاصة ما مرّ على الكويت من أحداث آنذاك. ولذا فقد وجدت أن أتوقف قليلًا منذ بداية الشهر الكريم إلى نهايته، من أجل تقديم شيء من تاريخ الإسلام في هذه الأرض التي نعيش عليها، ولن أجد مناسبة أفضل من هذه المناسبة لبحث مثل هذا الموضوع المهم.

رجعت إلى تقويم العجيري الذي أصدره لسنة ٢٠١٠ ميلادية لأستخلص أيام الأربعاء التي تمر بنا خلال شهر رمضان، فوجدت أن أستاذنا الدكتور صالح محمد العجيري قد بدأ شهر رمضان في اليوم الحادي عشر من شهر أغسطس ٢٠١٠م، وأنهاه في اليوم الثامن من شهر سبتمبر لسنة ٢٠١٠م، وبذلك ينبغي أن أقدم لهذا

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٠/٨/١١م.

الغرض الذي تحدثت عنه خمس مقالات تبدأ مع أول يوم من رمضان وتنتهي مع آخر يوم فيه (وكلا التاريخين يُصادف يوم الأربعاء)، وأنا متقيد بما قال الدكتور العجيري، وأضع ثقتي الكبيرة في كل إصداراته، وإذا تغير شيء من تواريخ أيام رمضان فأنا أسير على نهج الدكتور ولن أحيد عنه، وعلى كل حال فإن المطلوب هو الفائدة التي يمكن أن نجنيها من هذا الذي نقدّمه هنا.

هذه معلومات عن رجل جليل، من المسلمين الأوائل اسمه الذي اشتهر به هو: العلاء بن الحضرمي، والحضرمي - والده - هو عبدالله بن ضماد، كان قد ورد مكة من حضرموت اليمن، ولكنه عاش بها هو وأهله، واختلط بأهلها، وتحالف مع بني أمية بن عبد شمس بن عبد مناف.

كان العلاء موضع ثقة رسول الله ﷺ، ومن أجل ذلك اختاره رسولًا إلى البحرين، وقد ورد في كتاب الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد ما يدل على ذلك حين قال: «وكتب رسول الله ﷺ إلى عبدالقيس: من محمد رسول الله إلى الأكبر بن عبدالقيس أنهم آمنون بأمان رسوله على ما أحدثوا في الجاهلية من القحم، وعليهم الوفاء بما عاهدوا ولهم ألاّ يُحبسوا عن طريق الميرة ولا يُمنعوا صوب القطر ولا يُحرموا حريم الثمار عند بلوغه والعلاء بن الحضرمي أمين رسول الله على برها وبحرها وحاضرها وسراياها وما خرج منها من أهل البحرين خُفرَاؤُهُ من الضيم وأعوانه على الظالم وأنصاره في الملاحم عليهم بذلك عهد الله وميثاقه لا يبدلوا قولًا ولا يريدوا فرقة ولهم على جند المسلمين الشركة في الفيء والعدل في الحكم والقصد في السيرة حكم لا تبديل له في الفريقين كليهما والله ورسوله يشهد عليهم».

وكتب رسول الله ﷺ كتابًا آخر إلى المنذر ابن ساوي العبدي، وكان هذا متوليًا من قبل قومة (وهم بنو عبدالقيس) في البحرين، فجاء في رسالته دعوته للمنذر

إلى الإسلام، وقد حمل هذه الرسالة العلاء بن الحضرمي، وكان معه في هذه المهمة الصحابي الجليل أبو هريرة، فرد رئيس عبدالقيس بأنه يستجيب إلى دعوة الإسلام، ويصدق بالرسول الكريم، وقد تقدم بعدد من الأسئلة حول طريقة عمله مع قومه، فأوضح له ﷺ ما ينبغي أن يقوم به.

ولقد استمر العلاء في عمله بالبحرين أميرًا لها إلى أن دبَّ بينه وبين القوم خلاف، فتم عزله وإرسال بديل له، ولكن أبا بكر الصديق أعاده إلى ذلك العمل وأبقاه عمر بن الخطاب على وضعه، وبعد فترة من الزمن رأى الفاروق أن ينقله إلى البصرة واليًا عليها خلفًا لمؤسسها: عتبة بن غزوان، وجهز العلاء نفسه لتنفيذ أمر نقله، ولكنه لم يوفق إلى الوصول إلى حيث يريد فقد توفي في الكويت قبل أن يبرحها إلى هناك، كما سوف يرد فيما بعد.

كان عمل العلاء بن الحضرمي في البحرين مورد رزق لعدد كبير من أصحاب رسول الله ﷺ الذين كانوا مشغولين بالدفاع عن دينهم وعن أنفسهم وعيالهم، وكانت موارد الرزق في المدينة المنورة ضيقة، ولكن العلاء بن الحضرمي كان يرسل ما يتوافر له من الأموال إلى النبي ﷺ، وقد وردت حادثة لطيفة بهذا الخصوص رواها ابن سعد في كتابه «الطبقات الكبرى» فقال: «بعث العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله، ﷺ، من البحرين بثمانين ألفًا فما أتى رسول الله ﷺ مال كان أكثر منه، لا قبل ولا بعد، فأمر بها فنشرت على حصير ونودي بالصلاة، فجاء رسول الله، ﷺ، فمثل على المال قائمًا وجاء الناس حين رأوا المال وما كان يومئذ عدد ولا وزن، ما كان إلا قبضًا، فجاء العباس فقال: يا رسول الله إني أعطيتُ فداي وفدى عقيل بن أبي طالب يوم بدر ولم يكن لعقيل مال، فأعطني من هذا المال، فقال: خذ، قال فحثا العباس في خميصة كانت عليه ثم ذهب ينهض فلم يستطع فرفع رأسه إلى رسول الله، ﷺ، فقال: يا رسول الله ارفع علي، فتبسم رسول الله، ﷺ، حتى خرج

ضاحكه أو نابه، قال: ولكن أعد في المال طائفة وقم بما تطيق، ففعل فانطلق بذلك المال»، والخميصة رداء فيه خطان أسودان.

ومن هذه الحادثة التي رواها ابن سعد تتضح أعمال العلاء بن الحضرمي، ويتضح تأثيرها في مجتمع المدينة في زمن الرسول ﷺ.

كان الصحابي الجليل أبو هريرة مرافقًا للعلاء بن الحضرمي كما مر بنا، وكان يشهد معه كل المشاهد، ويراقب تصرفاته إعجابًا به، وكان أبو هريرة يقول عنه: «رأيت من العلاء بن الحضرمي ثلاثة أشياء لا أزال أحبه أبدًا، رأيته قطع البحر على فرسه يوم دارين وورد من المدينة يريد البحرين، فلما كان بالدهناء نفد ماؤهم فدعا الله فنبع لهم من تحت رملة فارتووا وارتحلوا، وأنسي رجل منهم بعض متاعه فرجع فأخذه ولم يجد الماء، وخرجت معه من البحرين إلى صف البصرة فلما كنا بتياس مات ونحن على غير ماء فأبدى الله لنا سحابة فمطرنا فغسلناه وحفرنا له بسيوفنا ولم نلحد له ودفناه ومضينا، فقال رجل من أصحاب رسول الله، ﷺ: دفناه ولم نلحد له فرجعنا لنلحد له فلم نجد موضع قبره».

وكانت ساعة وفاة هذا الأمير في منطقة تسمى «تياس» وهي موضع على الحدود الجنوبية الكويتية مع المملكة العربية السعودية، وفيه مركز مراقبة كويتي، وبالقرب منه نجد تلالًا صغيرة تدعى «ضليعات تياس» وتياس واقع على بعد (١٠٥) كيلومترات عن العاصمة، وقد كتب اسمه في خريطة البلدية (اللتياس) وهذا مخالف لاسمه التاريخي. وكان هذا الموقع ضمن ديار بني تميم يقصده المتجه إلى البصرة وهذا هو الذي دفع العلاء وصحبه إلى المرور من هذه الناحية التي كان عبورها صعبًا بحسب الوصف الذي قدمه الصحابي الكريم أبو هريرة.

كانت البحرين سابقًا غير البحرين حاليًا. فهي يومذاك منطقة واسعة متنوعة البيئات، يسكنها عدد من قبائل العرب، وإن كان معظم سكان المنطقة التي تطل

على الخليج العربي من جهة المنطقة الشرقية للمملكة العربية السعودية من قبائل عبدالقيس الذين اتجه إليهم العلاء أولًا وحمل إليهم رسالة رسول الله ﷺ.

ولقد كان أبو محمد الحسين بن أحمد بن يعقوب الهمداني يطلق على أولى المدن في المنطقة التي تولاها ابن الحضرمي اسم: «البحرين العظمى»، الأمر الذي يدل على اتساعها ونموها وازدهارها في عصره.

ففي كتابه: «صفة جزيرة العرب» حديث عن البحرين ذكره في ص٢٨٠ وجاء في ضمنه: «مدينة البحرين العظمى: هجر، وهي سوق بني محارب من عبدالقيس، ومنازلها ما دار بها من قرى البحرين، فالقطيف؛ موضع نخل وقرية عظيمة الشأن، وهي ساحل، وساكنها جذيمة من عبدالقيس، سيدهم ابن مسمار ورهطه، ثم العقير من دونه، وهو ساحل وقرية دون القطيف من العطف، وبه نخل، ويسكنه العرب من بني محارب، ثم السيف سيف البحر، وهو من أوال على يوم، وأوال جزيرة في وسط البحر مسيرة يوم في يوم، وفيها جميع الحيوان كله إلا السباع. ثم الستار، تعرف بستار البحرين، وهو منادي بني تميم، فيه متصلة البيضاء، وكان بها نخل وسكن، والفطح وهو طريق بين الستار والبحر إلى البصرة، ومن المياه المتصلات معقلات، ثم خمس، ثم معقلًا طويلع وهو عن يمين سنام، كاظمة البحور؛ ساحل، وفيها يقول فروة الأسدي:

عدتهن المخاوف عن سنيح
وعن رمل النقار فهن زور
ضمنت لهن أن يهجرن نجدًا
وأن يسكن كاظمة البحور

ويستطرد الهمداني في ذلك مضيفًا إلى البحرين كثيرًا من القرى والمنازل، وموارد المياه المشهورة كقطر وثيتل وغيرهما من الموارد والأمكنة، ونرى بذلك مدى سعة البحرين، وتباعد أطرافها، وما كاظمة إلا جزء بسيط منها، ولكنه جزء له

أهميته في نفوس العرب، ولذلك نرى الهمداني قد اهتم به فسمى كاظمة: كاظمة البحور، ثم نراه يُورد بيتين من الشعر قيلا فيها ليبرز مكانتها».

هذا ما جاء عن البحرين القديمة أما فيما يتعلق بتياس، فقد ذكر ياقوت الحموي له أكثر من موقع في جزيرة العرب منها موقعنا الذي أشرنا إليه، وقد وقع الرأي على أنه هو الذي تمت فيه وفاة الصحابي الجليل العلاء بن الحضرمي من واقع حديث كتب التاريخ عن الطريق الذي سلكه إلى البصرة، أو كان ينوي سلوكه إليها، وليس مما ذكر من المواقع باسم تياس يؤدي إلى ذلك إلا هذا الموقع الذي نراه في آخر خريطة الكويت إلى الجنوب.

ولئن كان العلاء بن الحضرمي قد تولى ما تحت يد المنذر بن ساوي حين بعثه رسول الله ﷺ في السنة التاسعة من الهجرة، فإنه صار واليا على منطقة البحرين كلها بما فيها أرض الكويت التي نعيش عليها اليوم، ومع أن هذا الاسم (أي الكويت) محدث إلا أن الأرض معروفة كما ذكرنا آنفًا باسم البحرين، وكان فيها عدد كبير من الناس عامتهم من فروع قبيلة بني تميم، ولقد وجد أبو بكر الصديق في ابن الحضرمي الصفات التي وجدها فيه رسول الله ﷺ، فدعاه بعد أن تولى الخلافة وقال له: إنني وجدتك من عمال رسول الله ﷺ الذين ولاهم، فرأيت أن أوليك ما كان رسول الله قد ولاك، فعليك بتقوى الله «ومن هناك بدأت ولايته للبحرين في عهد الصديق رضي الله عنه. ولم يكن الأمر ممهدًا له في هذه المرة فقد كانت الاضطرابات تغلب على المواضع التي ابتعث إليها، ولكنه لم يكن من النوع الذي يتخلف عن أداء واجبه، وهو الذي حظي بثقة الرسول الأمين واثنين من خلفائه هما أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

وقد صارت له في هذا الوقت مساهمة كبيرة في حروب الردة التي اشتعلت نارها بعد وفاة رسول الله ﷺ، ولم تكن منطقة البحرين بعيدة عما حدث في بعض المناطق الأخرى من جزيرة العرب وقد هب ابن الحضرمي في وجه المرتدين فوفقه الله.

كان رسول الله ﷺ مهتمًّا بهذا الجزء من جزيرة العرب، وكان يحب أن ينجح مبعوثه العلاء بن الحضرمي في مهمته التي انتدب إليها. ولذلك فقد كان يرسل إليه الرسائل. يوصيه، ويدله على طرق العمل، ويوضح له أمور الدين فيما يتعلق بشؤون الحكم، وقد كتب الرسول الكريم كتابًا إلى العلاء ذكر له فيه فرائض الصدقة في الإبل وفي البقر والغنم والثمار والأموال، وأمره أن يأخذ صدقاتهم على ذلك، كما أمره بطريقة التصرف فيما تتم جبايته من أموال الصدقات وذلك بأن يأخذها من أغنيائهم ثم يردها على فقرائهم. وحرصًا من رسول الله على نجاح ممثله في البحرين أرسل معه - كما ذكرنا - أبا هريرة معينًا له، وداعمًا لجهوده، وأوصاه به خيرًا. وفي ذلك يقول الصحابي الجليل أبوهريرة: بعثني رسول الله ﷺ مع العلاء بن الحضرمي، وأوصاه بي خيرًا، فلما فصلنا (أي خرجنا من المدينة) قال لي: إن رسول الله ﷺ، قد أوصاني بك خيرًا، فانظر ماذا تحب، يقول أبوهريرة فكان ردي هو: تجعلني أؤذن لك، ولا تسبقني بآمين. وقد أقره العلاء على ذلك تلبية لوصية الرسول الكريم.

وفي الوقت الذي كان فيه العلاء بن الحضرمي مقيمًا في البحرين، مشغولًا بأمور كثيرة استدعتها ضرورة استتباب الأمور للدولة الإسلامية الوليدة في هذه المنطقة من جزيرة العرب، كان الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يفكر - آنذاك - بتغيير بعض القادة ومنهم عتبة بن غزوان وكان واليًا على البصرة، وهو الذي أسسها بناءً على أمر عمر. لأمر ما كان الخليفة يريد أن يغير عتبة بشخص آخر، ولم تكن للخليفة أي ملاحظات تدين الوالي، ولكن الأمر مكنون في نفس عمر الذي كتب إلى العلاء بن الحضرمي، بعد أن وقع عليه اختياره، فقال له: «سر إلى عتبة بن غزوان فقد وليتك عمله واعلم أنك تقدم على رجل من المهاجرين الأولين الذين سبقت لهم الحسنى لم أعزله إلا يكون عفيفًا صليبًا شديد البأس ولكني ظننت أنك أغنى عن المسلمين في تلك الناحية منه فاعرف له حقه، وقد

وليت قبلك رجلًا فمات قبل أن يصل، فإن يرد الله أن تلي وليت وإن يرد الله أن يلي عتبة فالخلق والأمر له رب العالمين، واعلم أن أمر الله محفوظ بحفظه الذي أنزله فانظر الذي خلقت له فاكدح له ودع ما سواه فإن الدنيا أمد والآخرة أبد، فلا يشغلنك شيء باقٍ شره، واهرب إلى الله من سخطه فإن الله يجمع لمن شاء الفضيلة في حكمه وعلمه، نسأل الله لنا ولك العون على طاعته والنجاة من عذابه».

ونحن حين نمعن النظر في هذه الكلمات، نلمس فيها روحًا شفافة، وحرصًا على سمعة العاملين في الدولة وإخلاصًا في إبداء النصح، ولقد كان تلميح الخليفة إلى العلاء أشبه ما يكون بالتصريح، فإن الإشارات الواردة في الرسالة قد صدقتها الحوادث فيما بعد، إذ سار الوالي المعين بموجب هذه الرسالة تنفيذًا لأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولكنه توفي في تياس، قبل أن تسعد كاظمة بمروره على أرضها، وتحقق ظن الخليفة الذي أشار إليه في رسالته. وكنا قد أشرنا إلى وفاة الرجل، ومكان وفاته، ولكن حديثنا الذي نقلنا عن رسالة عمر دعانا إلى إعادة سريعة لما سبق به القول.

هذا رجل من رجال الإسلام الأوائل، عرضنا سيرته، وبينا أعماله، وذلك لأن عمله الذي كلفه به رسول الله ﷺ والخليفتان من بعده: أبو بكر وعمر، إنما هو عمل يمس المنطقة التي نعيش عليها اليوم وقد ذكرنا ما تمثله لنا البحرين قديمًا من حيث الموقع ومن حيث الأهمية التاريخية.

وفي شهر رمضان المبارك فإننا نرى أن خير ما نقدمه في «الأزمنة والأمكنة» هو ما قدمناه هنا.

****

ملحاق خير

إن خير من نستذكر في أيامنا الكريمة هذه، ذلك الرعيل الطيب الطاهر من أصحاب رسول الله ﷺ ومن التابعين لهم الذين اتبعوا هديهم وساروا على الدرب الذي سلكوه قبلهم، لنا في سلوكهم عبرة، وفي سيرتهم هداية إلى الطريق المستقيم، وهذه نماذج اخترناها من واقع ما ذكرنا تدل كلها على حرصهم على التأسّي بالرسول الكريم، وانتهاج نهجه.

من يقرأ في كتب التاريخ الإسلامي، أو الكتب التي كتبت عن هؤلاء الرجال يجد عجبًا في حياتهم، وفي أسلوب معايشتهم للناس، ويرى عندهم السماحة غير المتناهية، والصدق والعفاف والوفاء.

عرفنا الكثير عن حياة سيدنا بلال بن رباح، وذلك منذ دخل الإسلام إلى قلبه إلى أن هاجر مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة، وعرفنا أن سيدنا أبا بكر قد اشتراه لكي يخلصه من الرق ومن التعذيب الذي ناله بسبب إسلامه ثم أعتقه. عاش بلال بعد ذلك صحابيًا يعد من كبار الصحابة، وكانت له منزلته عند الجميع وهو أول مؤذن في الإسلام. ولم يجد في حياته بعد أن أسلم فرقًا بينه وبين بقية المسلمين، وكان سيدنا عمر بن الخطاب يذكره حين يثني على أبو بكر فيقول: «أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا»، وفي هذا نرى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد ساوى بين الرجلين في الفضل وفي المكانة بل وفي السيادة، ولم ينظر إلى ماضي بلال في الرق، ولكنه نظر إلى مكانته في الإسلام، ونعته بأنه (سيدنا).

وهذه السماحة التي كان يتحلى بها الصحابة هي مضرب المثل، وهي الدليل على أن التشدد والتزمت أمران مكروهان كان هؤلاء الأصحاب ينأون بأنفسهم عنهما، وكانت علاقاتهم لا تخلو من الطيبة والرقة، وكان الرفق في تطبيقات ما يدعو إليه الإسلام من طبائعهم التي لا يتخلون عنها، ألم يقل لهم الرسول الكريم: «إن هذا الأمر متين فأوغل فيه برفق...».

حدثنا أحد التابعين ممن امتد به العمر إلى زمن الصحابة فقال: «كان من أدركت من أصحاب النبي ﷺ، أكثر ممن سبقني، فما رأيت قومًا أهون سيرة ولا أقل تشديدًا منهم».

فلينظر المتشددون اليوم أي مخالفة ارتكبوا بابتعادهم عن كل ما كان يتمثل به أصحاب رسول الله ﷺ من رفق وبعد عن العنف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي كل جوانب سلوكهم في حياتهم العامة، وفي علاقاتهم بغيرهم.

نموذج آخر من النماذج التي نعتز بها هو عبدالله بن زيد الجرمي، وكنيته أبو قلابة، وهو من التابعين المعروفين بصلاحهم، ودرايتهم بالحديث والفقه، ولقد قال قولًا يدل على مدى اهتمام هؤلاء التابعين بأحاديث رسول الله ﷺ باعتبارها ركنًا من الأركان التي يعتمد عليها في معرفة الدين الإسلامي القويم، وهم يرون أن أخذ المسلم بما جاء في هذه الأحاديث واجب يمليه عليه إسلامه، واتباعه لأوامر الشرع الشريف.

لا يرى هؤلاء استبعاد الحديث في مجال الفقه من عبادات وعادات وهم يرون أن الذي يقوم بهذا الاستبعاد إنسان مارق.

هذا هو أبو قلابة يقول: «إذا حدثت الرجل بالسُّنة فقال: دعنا من هذا، وهات كتاب الله، فاعلم أنه ضال».

إن هذا الرجل وأمثاله من أولئك الصالحين لا يفرقون بين الأخذ بما في كتاب الله، وما في سنة رسول الله، كلاهما مصدر من مصادر التشريع، ومرجع من المراجع التي ينبغي أن يعود إليها المسلم في كافة شؤون حياته.

نرى عددًا من الناس يستهينون بالحديث النبوي على الرغم من معرفتهم بأن في عدم الأخذ به ضلالة كما أرشدنا أبو قلابة رضي الله عنه.

ألا ترى أنه يجدر بنا أن نتذكر هؤلاء، وأن نستحضر أقوالهم التي كم لنا فيها من عبر ومن عظات، هذا وقد وجدنا أن مناسبة حلول شهر رمضان علينا في هذه الأيام هي خير الأوقات لتقديم ما قدمناه.

****

حبر الأمة: عبدالله بن العباس في كاظمة (1)

في شهر رمضان المبارك يحلو لنا الحديث عن سيرة بعض رجال الإسلام الأوائل، الذين بهم انتشر الدين وعمت المعرفة به حتى وصلت إلى آفاق بعيدة، نحن نعرف أن شهر رمضان هو شهر العبادة واستذكار فضل الله علينا، ولعل من فضله أن هدانا وأنار لنا سبلنا وهيأ لنا بعد رسول الله ﷺ هؤلاء الرجال الذين حملوا الرسالة وأدوا الأمانة، وكان وجودهم بعد وفاة الرسول الكريم فضلًا من الله ونعمة، ولولاهم لغابت عنا أمور كثيرة من أمور ديننا الحنيف، ولعدنا إلى ظلام دامس، لا نرى من خلاله شيئًا، ولكن الله سبحانه قد شاء أن يهيئ لنا هؤلاء الهداة المهتدين، وأن ينفعنا بهم.

ومن هؤلاء رجل يتردد اسمه كثيرًا في كتب التاريخ الإسلامي، وكتب الحديث، وله سيرة عطرة، ونفع كبير للناس وللإسلام، هذا الرجل هو عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب الذي ولد قبل سنة الهجرة بثلاث سنوات، وكان مولده في الشعب الذي حصرت فيه قريش أهله من بني هاشم.

التحق بالمدينة المنورة، وصحب الرسول الكريم وهو حدث، سمع منه، ونقل عنه عددًا من الأحاديث النبوية الشريفة، وسمع أحاديث أخرى من عدد من كبار الصحابة، وقرأ القرآن الكريم على حفاظه في ذلك الوقت. وكان أمينًا في جمع الأحاديث حتى ذكر عنه أنه قال: إنني أعرض الحديث الواحد على ما لا يقل عن

(1) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ١٨/٨/٢٠١٠م.

ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ، وكان اهتمامه في هذا المجال كبيرًا حتى إنه ليذهب إلى الشخص من أجل سؤال ما فيجده نائمًا، فيجلس على عتبة بيته حتى يستيقظ فيسأله، وكان بإمكانه أن يطلب من أهل الرجل إيقاظه، ولكنه يحترم الأصحاب الكرام، ويرى أن طلب العلم يقتضي منه التواضع، وبذل الجهد من أجل التحصيل.

ونتيجة لهذا الاجتهاد فإن علمه قد فاض حتى انتفع به عدد كبير من التابعين الذين كانوا يسعون إلى تلقف ما يحفظه من أحاديث رسول الله، حتى بلغ عددهم حدًّا تصعب الإحاطة به.

وصفه الذهبي صاحب كتاب «سيَر أعلام النبلاء» بأنه كان وسيمًا، جميلًا، مديد القامة ، مهيبًا، كامل العقل، ذكي النفس، من رجال الكمال.

وذكر أنه انتقل مع أبويه إلى دار الهجرة سنة الفتح، وكان قد أسلم قبل ذلك الوقت.

وكانت له مواقف في الوعظ لا يصل إليها أحد من أقرانه، روى بعض التابعين عنه شيئًا من ذلك فقال: كان ابن عباس من الإسلام بمنزل، وكان من القرآن بمنزل، وكان يقوم على منبرنا هذا ، فيقرأ سورة البقرة وسورة آل عمران، فيفسرهما آية آية.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول عن ابن عباس إذا ذكره: ذلك فتى الكهول، له لسان سؤول وقلب عقول.

أمضى حياته في طلب العلم الديني، وفي نشره بين الناس وحرص على تفسير القرآن الكريم، وإحياء حديث رسول الله ﷺ، إلى نهاية حياته. إذ توفي عن إحدى وسبعين سنة، وكان ذلك في السنة الثامنة للهجرة، رحمه الله، وأبقى ذكره الكريم نبراسًا لنا ولأولادنا من بعدنا.

لقد نشأ ابن عباس في بيت النبوة، فوالده العباس بن عبدالمطلب هو عم رسول الله ﷺ، وأمه أم الفضل: لبابة بنت الحارث أخت أم المؤمنين ميمونة زوجة رسول الله وكانت هذه خالته وخالة الصحابي الجليل خالد بن الوليد.

وكان عبدالله بن عباس لذلك يدخل إلى بيت رسول الله ﷺ، وكان حظه سعيدًا حين دعا له الرسول الكريم أن يلهمه الله الحكمة، وأن يزيده علمًا وفهمًا. ولذلك فقد حظي من العلم والحكمة بالشيء الكثير، حكى طاووس- وهو من كبار التابعين- قائلًا: كنت إذا رأيت ابن عباس قلت: أجمل الناس، فإذا نطق، قلت: أفصح الناس، فإذا تحدث، قلت: أعلم الناس.

وروي عنه أنه فات الرجال بخصال؛ بعلم ما سبق، وفقه ما احتيج له من رأيه، وحلم، ونسب، ونائل، ويقول راوي هذا الوصف: ما رأيت أحدًا أعلم بما سبقه من حديث رسول الله ﷺ، ولا بقضاء أبي بكر وعمر وعثمان منه، ولا أعلم بما مضى..

ولهذه الصفات فقد كان سيدنا عمر بن الخطاب معجبًا بذكائه وفهمه، وكان يقربه دون غيره ممن هم في مثل سنه. واهتم والده العباس بهذه البادرة من عمر، وأحب أن يكون ابنه عند حسن ظن الخليفة به، فقال له ناصحًا: «يابني إني أرى أمير المؤمنين قد اختصك دون من ترى من المهاجرين والأنصار، فاحفظ عني ثلاثًا: لا يجرِّبنّ عليك كذبًا، ولا تغتب عنده مسلمًا، ولا تفشين له سرًّا».

هذا نموذج للتربية الكريمة التي نالها عبدالله بن عباس من والده عم رسول الله ﷺ. ودليل على حرص الوالد على أن يظل ابنه متمتعًا بالثقة الكريمة التي وضعها فيه الخليفة.

كان عبدالله بن عباس رضي الله عنه بحرًا متدفقًا من العلم، ولذا أُطلق عليه لقب: البحر، كما أُطلق عليه لقب: حبر الأمة لما يحويه قلبه من علم بكتاب الله وسنة رسوله. وكان يتصدى لإيضاح كل ما يحتاج إلى إيضاح من أمور الدين التي يسأله جلساؤه عنها، ولم يتعود السكوت عن أمر سُئل عنه، فإن إجابته حاضرة لكل سؤال.

وهكذا نرى أن هذا الصحابي الجليل لم يهدأ في حياته عن طلب العلم وعن تعليمه، بدأ حياته حريصًا على أن يحيط بحديث رسول الله ﷺ، وبالقرآن الكريم وأخبار الماضين من العرب، وأنهاها معلما لمن يُريد من طالبي العلم لا يتأخر عن تقديم ما وهبه الله من معرفة وحكمة إلى هؤلاء الذين ينهكون إبلهم في سبيل الوصول إليه والاستماع إلى علمه الغزير.

وكما كان منظمًا في تحصيله، كان منظمًا - كذلك - في تعليمه. قال التابعي عمرو بن دينار يصف طريقة ابن عباس في التعليم: «ما رأيت مجلسًا كان أجمع لكل خير من مجلس ابن عباس، الحلال والحرام، والعربية والأنساب، والشعر» وقال الآخر وهو عطاء بن السائب أحد كبار التابعين: «كان ناس يأتون ابن عباس في الشعر، والأنساب، وناس يأتون لأيام العرب ووقائعهم، وناس يأتونه للفقه والعلم، فما منهم صنف إلا يقبل عليهم بما يشاؤون، وكان كثيرًا ما يجعل أيامه: يومًا للفقه، ويومًا للتأويل، ويومًا للمغازي، ويومًا للشعر، ويومًا لوقائع العرب».

ألا ترى أن هذا الرجل قد هيأ له مدرسة ذات نظام يقبل الناس من كل مكان ليأخذوا منها العلوم التي يحتاجون إليها، فهو منظم في عمله التدريسي يخصص لكل علم يومًا حتى لا تختلط الأمور على مريديه، إنه يقوم بتدريسهم خمسة علوم مختلفة خصص لكل علم منها يومًا كما رأينا.

وعلى الرغم من هذا العلم الغزير فإن ابن عباس لم يترك شيئًا مكتوبًا منه، واقتصر طوال حياته على إلقاء ما عنده مباشرة على تلاميذه، أو الراغبين في معرفة ما عنده من معارف. ولكن الله هيأ له من يقوم بجمع بعض ما ورد عنه فصدر له كتاب: تفسير ابن عباس، وهو مطبوع، وقد قام بجمعه في كتاب بعض أهل العلم، التقطوه من مرويات المفسرين عنه، فجاء متناسقًا نافعًا.

كما صدر له «مسند عبدالله بن عباس»، الذي ضم عددًا كبيرًا من الأحاديث التي رواها. وجاء هذا ضمن كتاب تهذيب الآثار الذي حققه وطبعه شيخنا الأستاذ محمود محمد شاكر، في سنة ١٩٨٢م وهو من تأليف أبي جعفر الطبري، صاحب تفسير الطبري وغيره من الكتب المهمة.

ولقد جاء هذا الكتاب في مجلدين كبيرين، قام الشيخ بإعداده للطبع وتحقيقه وتزويده بكل ما يفيد القراء من شروح وتعليقات وتحقيقات، ووضع على الغلاف قول أبي العلاء المعري: «ما نحن فيمن مضى إلا كبقل في أصول نخل طوال»، وهذا تعبير استعاره الشيخ محمود شاكر ليوضح لنا القيمة العالية التي يتمتع بها عبدالله بن عباس راوي الأحاديث النبوية الشريفة الواردة في هذا المسند الذي عني بنشره محققًا.

لقد قام شيخنا الأستاذ محمود محمد شاكر بعمل جليل حين قدم إلى قراء العربية هذا الكتاب، فقد كان جهده في إخراجه واضحًا من حيث المراجعة والفهرسة، والرجوع إلى كتب الحديث الأخرى لمقارنة ما ورد فيها بما ورد في فرع كتاب تهذيب الآثار: مسند عبدالله بن عباس. جزاه الله خيرًا وأثابه على ما فعل.

وكانت لعبدالله بن عباس في مجالسه أقوال منيرة تفيض بالحكمة وحسن الرأي، وتدل على المكانة التي وصل إليها من العلم والمعرفة، ومن أقواله الجميلة التي يهتدى بها، ويقتدى بمثلها قوله: «لجليسي عليّ ثلاث: أن أرميه بطرفي إذا أقبل وأوسع له إذا جلس، وأصغي إليه إذا تحدث».

ومن أقواله أيضًا: «ما رأيت رجلًا لي عنده معروف إلا أضاء ما بيني وبينه»، وقوله رضي الله عنه: «أربعة لا أقدر على مكافأتهم: رجل بدأني بالسلام، ورجل وسع لي في المجلس، ورجل أغبرت قدماه بالمشي في حاجتي. فأما الرابع فما يكافؤه عني إلا الله عز وجل، قيل ومن هو؟ قال: رجل نزل به أمر فبأت ليلته يفكر فيمن يقصده، ثم رآني أهلًا لحاجته، فأنزلها بي».

وفي هذه القطوف التي قدمناها من أقواله الكريمة دلالة على الروح العالية التي يتمتع بها، وعلى حب الخير وصنعه، وعلى تقديره للناس حتى ولو ذكروه - فقط - عند حاجتهم إليه، وفي أقواله دلالة على رحابة النفس التي يتمتع بها فتجلب إليه حب الجميع وتبقي له الذكر الحسن، وما جاءه كل ذلك إلا لأنه من بيت النبوة الشريف وقد شهد كل من عاصره، ورآه يقول ويفعل بكل ما ذكرناه من خصال طيبة.

في أيام متأخرة من خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، كان عبدالله بن عباس متوليًا له على البصرة وخراجها، وفي قصة طويلة رواها أحمد بن عبدربه في كتابه «العقد الفريد» ج٤ ص٣ وما بعدها، فصّل فيها ما حدث بين الرجلين ومنه نعرف أن خلافًا نشب بين ابني العم أدى إلى مغادرة ابن عباس للمنطقة كلها، واتجه إثر ذلك إلى مكة سالكًا طريق البصرة إلى اليمامة، ثم استقر في جوار المسجد الحرام.

وقد وصف ابن عبدربه هذا الطريق كما وصفه ابن خرداذبة في كتابه «المسالك والممالك» غير أن الأول منهما كان يميل إلى الحديث الأدبي، فذكر الأشعار التي تم ترديدها في أثناء الرحلة بما يردده الحداة عادة لكي يحثوا الإبل على الجد في السير.

وكان الطريق بعد البصرة يمر بكاظمة، وهو طريق معروف تسلكه القوافل العابرة عادة وفي الموضوع الخاص بالشعر، يقول ابن عبدربه: «فجعل راجز لعبدالله، يسوق له ﴿إبله﴾ في الطريق ويقول:

صبّحن من كاظمة القصر الخرب
مع ابن عباس بن عبدالمطلبِ

وذكر ابن خرداذبة في كتابه «المسالك والممالك» الطريق من البصرة إلى اليمامة. واليمامة جزء من جزيرة العرب الأساس مثل البحرين. والمار إليها لابد

وأن يمر بقسم من البحرين حيث كاظمة، ونص ابن خرداذبة هو ما يلي: «الطريق من البصرة إلى اليمامة: منها إلى منزل (لم يذكر اسمه)، ثم إلى كاظمة، قال الراجز:

صبحن من كاظمة الخص القصب
يحملن عباس بن عبدالمطلبِ

وأضاف: «قال آخر:

فسار في ليلةٍ من بين كاظمة
إلى النَّواصف من ثهلان فالبينِ

ثم إلى منزل، ثم إلى منزل، ثم إلى منزل، ثم إلى القرعاء...» ولم يسم المنازل الثلاثة اختصارًا فيما يبدو. وهذه هي التي تحط فيها القوافل للراحة، واستقاء الماء لأن هذه الأماكن تكون عادة مهيأة لذلك تحيط بها الأعشاب لتغذية الرواحل، وفيها الآبار من أجل السقيا.

وجدنا في رواية البيتين اختلافين أحدهما هو قوله: «يحملن عباس بن عبدالمطلب»، وقد ذكروا أن في هذه العبارة مقصدًا نحويًّا لعله هو الذي أوحى باستعمال هذه الرواية، وذلك لأن قوله: «مع ابن عباس بن عبدالمطلب»، سليم ولا يحتاج إلى تغيير. وثاني الاختلافين هو استعمال كلمة «الخُصّ» وإغفال كلمة القصر. وكلمة الخص تعني في اللغة الفصحى البيت المبني من شجر أو قصب. وهو معروف عندنا بهذا اللفظ ولكن أكثر ما يقال عن الخص هنا هو ترقيع الجدار إذا سقط منه جزء بشيء من القصب وسعف النخيل، وفي الكويت القديمة موقع يسمى فريج الخوص، اكتسب هذه التسمية من مادة خوص النخيل التي تم تشكيل البيوت منها، وكانت هذه قد بنيت في أعقاب سيول غامرة.

أما موقع فريج الخوص فهو على ساحل البحر في مواجهة الامتداد الحالي لقصر السيف عند الناحية الشمالية لبنك الكويت المركزي بامتداد قليل إلى الشرق.

يبدو لنا أن استعمال كلمة «القصر» أولى لأن الخص عرضة للزوال السريع بينما يكون القصر ثابتًا حتى لو تهدّم جزء منه. وقد مر بنا أن في كاظمة بعض القصور منها قصر فاطمة بنت المنذر. وهذا ما يدعونا إلى اعتماد رواية (القصر الخرب).

هذا وقد سبق لي أن كتبت عن هذا الفريج بصورة مختصرة ضمن كتابي: «مواقع ومشاهد كويتية على ساحل جون الكويت الجنوبي» وذلك عندما قلت: «في الموقع الجنوبي المحصور بين مسجدي العبدالجليل غربيًا وابن بحر شرقًا، كان هناك حي قديم يسمى فريج الخوص وقد حدثني أخي المرحوم الشيخ أحمد الغنام عن هذا الحي، وذكر أنه يعرف هذه التسمية قديمًا، وأنها أطلقت على هذا الموقع دون أن يرى فيه أيًّا من البيوت المعدة للسكن على هذه الهيئة مما يدل على قدم التسمية، أو أنها كانت لمساكن مؤقتة تم صنعها في بداية انتقال الكويتيين من القرين إلى الكويت، وأنهم أزالوها فيما بعد، وأقاموا المباني الثابتة في مكانها هذا».

هذا والمسجدان المذكوران هنا أزيلا منذ مدة من الزمن في اعتداء بغيض على بيوت الله شملهما وعددًا آخر من المساجد.

هذا حديث عن عبدالله بن عباس رضي الله عنه، الصحابي الجليل والمحدث والمفسر، الذي تملأ سيرته كتب التاريخ الإسلامي، فتجلو شخصيته الفريدة للمسلمين أجمع.

رحمه الله ورضي عنه، ونفعنا بعلمه.

****

الصحابي الجليل خالد بن الوليد بكاظمة (1)

بشّر رسول الله ﷺ المسلمين بقدوم ثلاثة رجال جاءوا من مكة لكي يدخلوا في دين الإسلام، وقال: هذه قريش قد رمت لكم بفلذات أكبادها، وهؤلاء الثلاثة هم عمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة، وخالد بن الوليد، ولكل واحد منهم قصة تحكي كيف دخل دين الإسلام إلى قلبه، وكيف استقبله رسول الله ﷺ على الرغم مما فات منه من أعمال مضادة للدين الحنيف ولأهله؟.

يهمنا هنا الحديث عن خالد بن الوليد، وهو البطل الشجاع الذي سماه الرسول الكريم: سيف الله المسلول. فقد حكى أبوسليمان ما حدث له في ذلك الموقف الرهيب، حين حان وقت التقائه بالرسول الكريم، فقال: «قدمنا المدينة على رسول الله ﷺ، أوّل يوم من صفر سنة ثمان، فلما اطلعت على رسول الله سلمت عليه بالنبُوّة، فرد علي السلام بوجه طلق، فأسلمت، وشهدت شهادة الحق، فقال رسول الله ﷺ: قد كنت أرى لك عقلًا رجوت ألاّ يُسْلمك إلا إلى الخير».

وهذا يدلنا على أن الرسول الكريم كان يعرفه ويعرف أعماله، ويعرف ما يمكن أن يقوم به في خدمة الإسلام، كما يدلنا على أن الإسلام دين العقل لا دين الشعوذة، إذ كان عقل خالد بن الوليد هو المرجو في دخوله إلى حظيرة هذا الدين العظيم.

ولم يكتف هذا القادم على رسول الله بذلك فطلب أن يرتاح نفسيًا مما سبق له أن صنع في مخالفته للدين وسأل النبي ﷺ أن يستغفر له، وعندما قال له

(1) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٠/٨/٢٥م.

الرسول: إن الإسلام يجب ما قبله بمعنى أنك مادمت قد أسلمت فإن ما مضى من عملك انتهى وأنت اليوم تحيا حياة جديدة طاهرة، ولكنه عندما سمع هذا القول أصر على الرغم من ذلك على أن يحصل على الاستغفار من الرسول الكريم، فإن ذلك ادعى إلى استقرار نفسه وراحة قلبه، وهنا دعا له الرسول بقوله: «اللهم اغفر لخالد بن الوليد كلّ ما أوضع فيه من صدٍّ عن سبيلك».

كان المسلمون في حاجة إلى مثل خالد، وكان هو في حاجة إلى عمل أشياء يكون فيها تعويض عن تقصيره السابق فاجتهد في الدفاع عن الإسلام، ويوم موقعة مؤتة كان له موقف عظيم سوف نقدم هنا موجزًا عنه:

كانت هذه المعركة من معارك الإسلام الكبرى، وقعت في شهر جمادى الأولى للسنة الثامنة من الهجرة. واشترك فيها خالد بن الوليد على الرغم من أنه حديث عهد بالإسلام وبالمشاركة في معاركه، وقد مر بنا تاريخ وروده إلى المدينة المنورة وإسلامه.

ميدان المعركة كان في موضع هو اليوم ضمن الأردن وكان جيش المسلمين مكونًا من ثلاثة آلاف جندي من أصحاب رسول الله ﷺ. وكان عدوهم ملك الروم الذي كان يحشد الجيوش من أجل أن يمحو الإسلام من الوجود، ولكن إصرار الرسول الكريم على أن يحمي دينه وأمته دفعه إلى إرسال هذا الجيش ولأنه كان خائفًا على المشاركين بسبب كثرة عدد عدوهم فقد أمّرَ عليهم ثلاثة من كبار الصحابة هم: زيد بن الحارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبدالله بن رواحه، بحيث يتولى القيادة أولهم فإذا استشهد فالثاني، ثم الثالث. كانت معركة قوية وغير متكافئة، لولا إيمان المسلمين بالرسالة التي يحملون شعارها، وقد استشهد القادة الثلاثة، فاجتمع أمر المحاربين من المسلمين على خالد بن الوليد. وقد تحدث الرسول الكريم عن كل ما حدث في المعركة، حتى إذا وصل حديثه إلى موضع استشهاد القادة، قال: «ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله؛ خالد بن الوليد».

هكذا كان أبوسليمان منذ البداية، ولقد استمر على ما هو عليه من مسارعة إلى نشر الدين الحنيف ثم الدفاع عنه في كل موقع يطلب منه الدفاع عنه.

وكانت حروب خالد في اليمامة مشهودة، فهي حروب الردة التي حدثت بعد أن تولى الخلافة أمير المؤمنين أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ومسألة الردة مشهورة في التاريخ، وهي مما يذكر للخليفة الصديق إذ حافظ على الإسلام، وضمن استقراره، وسار في طريق شاقٍ من أجل ذلك، ولكنه لم يستمع إلا إلى الحق، ولم ير نفسه إلا حاملًا لأمانة الإسلام لابد له وأن يؤديها. ولقد كان خالد بن الوليد سيفًا باترًا في تلك الحرب مما أعاد إلى الإسلام هيبته وإلى الدولة الإسلامية الوليدة - آنذاك - قوتها.

ولم تكن هذه الحروب وحدها هي ما قام به أبو سليمان، فقد اكتشف الصديق أن الفرس بدأوا يكيدون للإسلام وأنهم أعدوا لذلك عدة كبيرة من رجال وسلاح، وكانت بداية ذلك ما رواه ابن كثير في كتابه: «البداية والنهاية»: «لما فرغ خالد بن الوليد من اليمامة، بعث إليه الصديق أن يسير إلى العراق، وأن يبدأ بفرج الهند؛ وهي الأبله، ويأتي العراق من أعاليها، وأن يتألف الناس ويدعوهم إلى الله عز وجل، فإن أجابوا وإلا أخذ منهم الجزية، فان امتنعوا عن ذلك قاتلهم. وأمره ألا يكره أحدًا على المسير معه، ولا يستعين بمن ارتد عن الإسلام وإن كان عاد إليه، وأمره أن يستصحب كل امرئ مر به من المسلمين».

لم يترك الصديق هذا القائد دون أن يمده بنصائحه وهي نصائح تضمن في أساسها ألا يشارك في هذه المعركة إلا من هو على استعداد لها قدرة ودينًا. ولم يكتف الخليفة بذلك بل شرع في تجهيز السرايا والبعوث والجيوش إمدادًا لخالد رضي الله عنه، فهو لا يعتبر مجرد تكليف القائد كافيًا لكسب المعركة بل لابد من المتابعة، وذلك بالإمداد والدعم المستمر حتى يتم النصر. ولقد أثبت الخليفة أنه على مقدرة كبيرة على إدراك ما يدور في المعارك وإن كان بعيدًا عنها.

ولشدة رجاحة عقل الصديق، وفهمه للرجال فإنه عندما استمده خالد بن الوليد بعدد آخر من الجند أمده بشخص واحد فقط هو القعقاع بن عمرو التميمي، وعندما قيل له: اتمده برجل واحد! قال: لا يهزم جيش فيهم مثل هذا.

وعندما استعد ابن الوليد لخوض المعركة التي كلفه بخوضها الخليفة، وزع جيشه على ثلاث فرق، فرقة مع المثنى بن حارثة الشيباني، وفرقة مع عدي بن حاتم، وأخرى مع عاصم بن عمر. فسارت إحدى الفرق قبل الأخرى بيوم واحد، وخرج خالد بعد ذلك مواعدًا إياهم في موقع يسمى الحفير ليجتمعوا فيه ويصادموا عدوهم. ولما كان الصديق قد طلب من خالد أن يبدأ بالأبلة ليأتي العراق من أعلاه فقد ذهب إلى هناك، ودعا إليه المثنى بن حارثه، وكانت الأبلة هي الثغر التي تسير منه التجارة إلى الهند والسند، وعندما أشرف خالد على الأبلة أرسل إلى قائد الفرس (هرمز): «أما بعد؛ فاسلم تسلم، أو اعتقد لنفسك، فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة» وهاج هرمز لهذا الخطاب الذي وصله من خالد، وأقبل سريعًا لملاقاة الجيش الإسلامي قبل أن يصل إليه هؤلاء في موقعه فبادرهم هم بأن أسرع باختراق مواقعه إلى كاظمة حتى يلقى خالدًا. ولما علم أن خالدًا وجموعه قد تواعدوا «الحفير» اتجه إلى هناك، فلما علم خالد بذلك مال بجيشه إلى كاظمة، وبلغ هرمز ذلك فبادره إليها، واستعد مع أصحابه، واقترنوا بالسلاسل، وكان عندهم ماء وليس عند المسلمين ماء، فقيل لخالد عن ذلك، فأمر مناديه فنادى: انزلوا وحطوا أثقالكم، ثم جالدوهم على الماء، فلعمري ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين. فحُطت الأثقال وبدأ القتال.

كان انتصارًا باهرًا هو الذي حصل للمسلمين في هذه المعركة «ذات السلاسل»، وكان بداية الانتصار هو ما رواه أحد المقاتلين حين قال: «.. فلقينا هرمز بكاظمة، فبارزه خالد فقتله».

وقد استمر أبو سليمان في طريق الفتوح، وكانت له معارك مشهورة في التاريخ الإسلامي، وقد تحدث الذهبي في كتابه «سير أعلام النبلاء» عما تم بعد

معركة «ذات السلاسل» فقال: «... ثم اخترق البرية السماوية «صحراء السماوة» بحيث إنه قطع المفازة من حد العراق إلى أول الشام في خمس ليال في عسكر معه، وشهد حروب الشام، ولم يبق في جسده قيد شبر إلا وعليه طابع الشهداء ثم يقول: «ومناقبة غزيرة، أمّره الصديق على سائر أمراء الأجناد، وحاصر دمشق، فافتتحها هو وأبو عبيدة»، وأضاف: «عاش ستين سنة وقتل جماعة من الأبطال، ومات على فراشه فلا نامت أعين الجبناء».

وكان خالد بن الوليد قد اعتزل الحروب بعد أن تولى عمر بن الخطاب أمر المسلمين بعد وفاة أبي بكر، وكان عمر يقول: «لأنزعن خالدًا حتى يعلم أن الله إنما ينصر دينه» يعني بدون خالد، وهذا اجتهاد من الخليفة لم يصدر كراهية منه لابن الوليد، وقد ورد عن عمر أنه لقي حجاجًا من الشام في قباء، فقال: من القوم؟ قالوا: «من اليمن ممن نزل حمص، ويوم رحلنا منها مات خالد بن الوليد، فاسترجع عمر مرارًا، ونكس، وأكثر الترحم عليه، وقال: كان والله سدّادًا لنحر لا عدوًّا، ميمون النقيبة. وروي أن عمر قد سمع أن خالدًا عندما مات لم يدع إلا فرسه وسلاحه وغلامه. فقال: «رحم الله أبا سليمان، كان على ما ظنناه به».

هذا هو عمر بن الخطاب الذي تحدث عنه بعض الناس كثيرًا فيما يتصل بالعلاقة بينه وبين خالد، وهم لا يعرفون طبيعة عمر ولا طبيعة صاحبه، ولا العلاقات الأخوية التي تسود بين الصحابة جميعًا. وقد ورد عن ابن الخطاب رضي الله عنه، ما يسد الأفواه بالنسبة لموقفه من خالد، فقد قيل له بعد أن أصيب: لو عهدت يا أمير المؤمنين، «أي لو وليت أحدًا من بعدك» فقال: لو أدركت أبا عبيدة ثم وليته قدمت على ربي، فقال لي: لمَ استخلفته؟ لقلت: سمعت عبدك وخليلك يقول: لكل أمة أمين، وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة، ولو أدركت خالد بن الوليد، ثم وليته، فقدمت على ربي لقلت: سمعت عبدك وخليلك يقول: خالد سيف من سيوف الله سله على الكفار.

ها نحن نرى الرجل وهو في حالته تلك يختار خالد ابن الوليد ويقدمه في أمر الخلافة. ولو كان في نفسه عليه أدنى شيء لما أشار إليه مع أبي عبيدة بن الجراح.

زرت مدينة حمص، وكان ذلك في يوم جمعة فدخلت جامعها الذي دفن في جانب منه سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه. وقد أحسست يومها أنه حي يرزق، وأنني بحضرته، فأخذتني رهبة الموقف، وبخاصة أن الناس قد تقدموا إليه بالمئات يتلون له الفاتحة ويدعون له، ويدعون لأنفسهم بجوار قبره الكريم.

وتذكرت خاشعًا ومتأثرًا ما روي عنه من أنه عندما حضرته الوفاة بكي، وقال: «لقيت كذا وكذا زحفًا، وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة بسيف، أو رمية بسهم، وها أنا أموت على فراشي، حتف أنفي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء».

هذا وكان ظن خالد بن الوليد بالخليفة الراشد عمر بن الخطاب كريمًا وسليمًا، ولم يكن في نفسه شيء، مكنون يدل على أدنى حد من عدم الرضا منه، والدليل على ذلك أنه عندما مرض، ثم اشتد به المرض وأشرف على الموت. عاده في مرضه هذا الصحابي الجليل أبو الدرداء، فذكر خالد لصاحبه أنه قد حبس بالثغر خيلًا تُعلف من ماله، وأن داره بالمدينة صدقة، يقول: «وقد كنت أشهد عليها عمر، والله يا أبا الدرداء لئن مات عمر، لترين أمورًا تُنكرها». وقد جاء الأمر كما قال واضطربت الأمور من بعد الفاروق رضي الله عن الجميع.

وتوفي خالد في سنة إحدى وعشرين للهجرة، ودفن في الموقع الذي أشرت إليه من مدينة حمص.

كانت الفرقُ الثلاث التي كونها خالد بن الوليد من أجل أن يخوض بها المعركة التي سميت فيما بعد ذات السلاسل، وطورت بعد الانتصار فيها إلى فتح لبلاد فارس امتد إلى سنوات لاحقة مع جيوش إسلامية أخرى نجد الحديث عنها في كتب التاريخ الإسلامي.

كانت هذه الفرق ذات رئاسات عالية القدر، والاستعداد لمثل المهمة التي كلفت بها، وهي فيما ذُكر لنا كما يلي:

١ - القائد القعقاع بن عمرو التميمي، وهو فارس من فرسان العرب في الجاهلية، وهو كذلك من فرسان المسلمين في الإسلام، صحب رسول الله ﷺ، وشارك في عدد من المعارك، وكان شاعرًا فحلًا له آثار في كتب الأدب كما له آثار في كتب التاريخ حين تصف المعارك التي اشترك فيها، وقد مرّ بنا قول الصديق رضي الله عنه أنه لا يهزم جيش فيه القعقاع. وقد قال عنه أيضًا: «صوت القعقاع في الجيش خير من ألف رجل».

توفي القعقاع - رضي الله عنه - بعد بلاءٍ شديدٍ في الحروب، وذلك في نحو سنة أربعين للهجرة.

٢ - المثنى بن حارث الشيباني، أحد كبار المجاهدين من المسلمين الأوائل، أسلم على عهد رسول الله ﷺ، وكان الخلاف على سنة إسلامه وقدومه على النبي بين سنتي تسع وغيرها، وكان مقيمًا في التخوم المجاورة لفارس، وآثاره ما وجد من اعتداءات يتكبدها العرب من الغارات عليهم، فأعد نفسه للدفاع عن قومه، وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول عن المثنى في هذه الفترة: من هذا الذي تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه. وقد قدم المثنى بعد ذلك إلى المدينة وطلب من الخليفة الصديق أن يبعثه في مهمة الدفاع عن الإسلام وهي المهمة التي تولاها بأمر الخليفة، وإن كان قد بدأ بها قبل ذلك حتى سماه عمر بن الخطاب: مؤمّر نفسه، واتسع المثنى بن حارثة في مجال المجابهة، فبعث أخاه مسعودًا إلى أبي بكر يطلب المدد من الرجال والعتاد، ولذا أرسل إليه خالد بن الوليد، فكان في ذلك بداية للفتوحات الإسلامية التي استمرت بعد ذلك.

كان المثنى رجلًا شهمًا شجاعًا ميمونًا حسن الرأي، توفي في سنة أربع عشرة للهجرة، رضي الله عنه.

٣ - عدي بن حاتم بن عبدالله الطائي والده مشهور بالكرم، وليس هناك من هو أشهر من حاتم الطائي في هذا. أسلم في سنة تسع للهجرة وقيل بل سنة ستة عشر منها. كانت مشاركته في ذات السلاسل وما تلاها مشاركة تدل على بطولته واقتناعه بما يفعل، وكان موضع ثقة أبي بكر الصديق، روى أحاديث عن الرسول ﷺ بما يدل على أنه من مواليد السنة التاسعة، لأن وفاة النبي الكريم كانت في السنة الحادية عشرة للهجرة.

وبعد أن كبر سنه توقف عن الحروب وأقام بالكوفة، ثم توفي عن عمر مديد، رضي الله عنه.

مهما أكثرنا في الحديث عن هؤلاء الرجال، وعن الوقائع التي تمت على أيديهم فإن ذلك لا يكفي فقد جاءت الكتب عنهم بالكثير من الأخبار. أما نحن فإنه ليسعدنا أن يكون هم ومن معهم من أصحاب رسول الله ﷺ من المجاهدين قد مروا ببلادنا وتعطرت كاظمة بمرورهم على أرضها:

يا أرض كاظمة وأنتِ عزيزة
ومواقف التاريخ فيك أصولها
لكِ في القلوب مكانة ومحبة
ليستْ تصاريفُ الدُّهور تُزيلها

****

ملحاق خير

لعل من أفضل الحديث في أيام هذا الشهر المبارك هو الحديث عن أصحاب رسول الله ﷺ، فهم الذين تلقوا الرسالة ودافعوا عنها ونشروها، وهم النجوم الزاهرة في تاريخ الإسلام، وقد صدق الرسول الكريم حين قال: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم». لقد كانوا رجالًا من نوع خاص إذا تأمل المرء في تاريخهم العطر، وجدهم أناسًا يختلفون كثيرًا في طباعهم واقتدائهم بالرسول الكريم ومحبتهم لبعض عن كثير من الناس الذين لحقوهم وإن كان في المتأخرين بعض من الخير لا ينكر. إن دراسة العلاقات الأخوية والإنسانية بين الرعيل الأول من الصحابة تلزم الدارس باحترام هذا الجيل الطيب الذي كان شاهدًا صادقًا أمينًا على رسالة الإسلام ولولا حرصهم وقوة إيمانهم لما وصلتنا الرسالة كما جاء بها رسول الله ﷺ نقية واضحة لا لبس فيها.

من هؤلاء رجل هو من أوائل الذين دخلوا إلى عالم الإسلام من أهل المدينة المنورة.

هذا الصحابي الجليل هو سيدنا معاذ بن جبل الذي أسلم وهو ابن ثماني عشرة سنة، على يد الصحابي الجليل مصعب بن عمير الذي أرسله النبي الكريم إلى المدينة ليفقه الناس بالدين عندما طلبوا حضور شخص إليهم يتولى هذه

المهمة الكريمة. ولقد تعلم منه معاذ بن جبل الكثير، وكان أن رحل بعد ذلك إلى مكة المكرمة ليبايع الرسول ﷺ بيعة العقبة الثانية مع جمع من مسلمي المدينة، ولقد صار أبو عبدالرحمن – فيما بعد – من جنود الدعوة الإسلامية البارزين في القول والعمل وشارك في غزوة بدر والخندق وبقية الغزوات، وعندما تم فتح مكة أمره الرسول ﷺ بالبقاء فيها من أجل تعليم الناس أصول الدين. ولكنه عاد إلى الجهاد عندما استنفر الرسول الناس إلى غزوة تبوك. وبعد هذه الغزوة جاءت وفود من اليمن تطلب من رسول الله أن يبعث إليهم من يفقههم في الدين فوقع الاختيار الكريم على معاذ بن جبل لكي يتولى مهمتين هما: تفقيه الناس بالدين، والقضاء بينهم فيما يحدث لهم.

قبل أن ينطلق أبو عبدالرحمن منفذًا الأمر النبوي، سأله ﷺ: «بم تقضي إذا عرض عليك القضاء؟ فقال: أقضي بما قضى به كتاب الله، فإن لم أجد، قضيت بما قضى به رسول الله ﷺ، وإن لم أجد ما قضى به رسول الله أجتهد أمري لا آلو. فقال الرسول الكريم: «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يُرضي الله ورسوله».

ولما عزم معاذ على الانطلاق شيعه رسول الله ﷺ، وأوصاه بمجموعة من الوصايا. وقد ترك آثارًا خالدة في موقعه هناك ونشر الدين الإسلامي الحنيف وقضى بالحق بين الناس، ولم يعد إلى المدينة إلا بعد وفاة رسول الله وقيام سيدنا أبي بكر الصديق بالخلافة.

حظي أبو عبدالرحمن بثناء رسول الله ﷺ حين قال: «أعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ بن جبل» كما أثنى عليه عدد من الصحابة منهم سيدنا عبدالله بن

مسعود الذي قال عنه: «إن معاذ بن جبل كان أمةً قانتًا لله حنيفًا». وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: «عجزت النساء أن يلدن مثله، ولولاه لهلك عمر» ثم قال: «من أراد الفقه فليأت معاذ بن جبل».

كان أبو عبدالرحمن ورعًا كثير التطوع في العبادة مجتهدًا فيها، كان جوادًا كريمًا. وهو إضافة إلى ذلك حريص على تعليم الناس أصول دينهم. حريص على الجهاد في سبيل الله. وقد حانت وفاته وهو يومئذ على جيش المسلمين في الشام بعد أن توفي من سبقه وهو سيدنا أبو عبيدة عامر بن الجراح متأثرًا بإصابته بالطاعون، الذي أصاب معاذًا بعد ذلك، وكان في الثالثة والثلاثين من عمره وقيل إنه في الثامنة والثلاثين. وكان الطاعون الذي انتشر في عمواس من أعمال فلسطين قد فتك فتكًا ذريعًا بالناس، وأودى بحياة عدد من كبار الصحابة منهم أبوعبيدة وأبو عبدالرحمن رحمهما الله ورضي عنهما.

****

ملحاق خير

بدأت الإشارات الدالة على اندلاع حرب بين العرب وفارس في أواخر سنة ثلاث عشرة للهجرة، ففي هذا الوقت، بدا أن الفرس قد أعادوا صفوفهم واستعدوا ليوم قادم، وقد لاحظ هذا الأمر القائد المعروف المثنى بن حارثة فكتب بذلك إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فوجد الخليفة أن الأمر جد، وأنه إن لم يقم بمبادرة تحمي الإسلام وأرضه ومقدساته، فإن أمر أولئك سوف يستشري وسوف يأتي الوقت الذي يصلون فيه إلى حوزة الإسلام: المدينة.

وقيل: إنه لم يدع رئيسًا ولا ذا رأي، وذا شرف، ولا خطيبًا ولا شاعرًا إلا أرسلهم إلى المثنى، وتكاثر الناس حتى قال ابن الأثير في كتابه الكامل: إن قسمًا منهم كان على مرتفعات غضي في شمالي كاظمة، وذلك لاتساع انتشارهم.

ودخلت سنة أربع عشرة للهجرة، وبدأت معركة القادسية على ما هو موصوف في كتب التاريخ، ونحن نستطيع أن نستخلص منها كثيرًا من الدروس والعبر ونعرف من أحداثها منذ البداية اهتمام خليفة رسول الله بأداء الأمانة التي وكلت إليه. ولعل من أبرز ما يلفت النظر هو طريقته في الحشد إلى المعركة ألا ترى إنه عزم على كل ذي رأي، ورئاسة في قومه وكل خطيب وشاعر على المشاركة.

ألا ترى أن في حرصه على مشاركة الخطباء والشعراء جزءًا من الاهتمام بالنواحي الإعلامية والنفسية. وقد توصل سيدنا عمر إلى الاهتمام بها بموجب فطرته السليمة التي كانت تقوده إلى كل خير رضي الله عنه.

****

ريم على القاع [١]

موقع كاظمة من المواقع التي يهتز لها شعراء العرب، ورد ذكره كثيرًا في أشعارهم على اختلاف العهود، وعلى تعدد البلدان التي يعيشون فيها، فقد سكنها من شعراء الجاهلية المرقش الأصغر: ربيعة بن سفيان بن مالك بن ضبيعة، وكانت له قصة غرامية فيها مع إحدى النساء التي كانت تسكن قصرًا هناك، وتردد على كاظمة الفرزدق وجرير وذو الرمة من شعراء العصر الأموي، إضافة إلى شعراء غيرهم من شعراء هذا العصر، أما شعراء الأندلس فقد ذكرها الشاعر ابن خاتمة الأنصاري الأندلسي في بضعة أبيات.

وكانت للشاعر مهيار الديلمي عدة قصائد ذكر فيها هذا الموقع الكويتي العزيز، ومن أشهرها ما جاء في قوله الذي تردد كثيرًا على الألسنة، ومنه:

يا نسيم الصُبح من كاظمةٍ
شَدّ ما هِجْتَ الجوى والبُرحَا

الصَبا إن كان لا بدّ الصَبا
إنها كانت لقلبي أرْوَحا

وليس ذكر كاظمة واردًا عند من ذكرناهم من الشعراء فحسب، بل هناك شعراء متأخرون قد ذكروها منهم الدكتور عبدالوهاب عزام الذي زارها حين جاء إلى الكويت فقال:

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ١/٩/٢٠١٠م.

بكاظمة طوفت في ميعة الضُحى
وقلبي إلى الماضين جَمُّ التشوُّق

أكادُ أرى في رملِها قبر غالب
وأسمعُ في الآفاقِ شعر الفرزدقِ

وقد أثار هذان البيتان قريحة شاعرنا الأستاذ فاضل خلف فأنشد مجاوبًا له قصيدة نشرها في ديوانه: كاظمة وأخواتها، ومما قال:

حديثكَ عنها قد أهاج تَشَوُّقي
إليها، إلى تاريخها المتألِّقِ

إلى صيتها المعطار والشعر والهوى
إلى الحب في ينبوعه المترقرق

ولئن كان هذان الشاعران قد عرفا كاظمة وزاراها وتمتعا بربيعها الجميل، فإن هناك عددًا كبيرًا من الشعراء ممن جرى ذكرها في شعرهم ولكنهم لم يروها، وكل ما دفعهم إلى ذلك إنما هو تردد اسمها على ألسنة الشعراء الذين سبقوهم، وما دام هذا الموقع قد ذكر كثيرًا في مجالات الوصف والغزل وذكر جمال الطبيعة، فإن الشعراء المتأخرين ينحون نحو من سبقهم فيذكرون الموقع باعتباره من المواقع العربية الشهيرة المعروفة التي تخطر ببال الشعراء دائمًا. ومن هؤلاء الشعراء المتأخرين لابد وأن نذكر الشاعر هبة الله البوصيري الذي ولد في أوائل القرن السادس الهجري بمصر، واشتهر بمستواه العلمي الفائق.

والبوصيري عالم من العلماء الكبار الذين تضلعوا بدراسة العلوم الدينية الإسلامية، وكان أديبًا وكاتبًا، له اتصال كبير مع عدد كبير من علماء عصره،

استفاد من الكبار، وقام بتعليم من هم أصغر منه سنًا. وكان أصل والده من بلد يُسَمّى المنستير في تونس ولكنه أقام بمصر، وولد له ابنه هبة بها. وتوفي هذا الأخير في سنة ثمان وتسعين وخمسمائة للهجرة. وقد لُقّب بالبوصيري لأنه استوطن بلدًا في مصر يطلق عليها اسم: بوصير، وقد اشتهر بهذا اللقب.

ويختلف هذا الرجل عن صاحبنا الذي نريد أن نتحدث عنه في هذا المقال وهو محمد بن سعيد البوصيري، وكان شاعرًا رقيق الحاشية عذب الشعر، له قصائد متنوعة، وله اهتمام بالظريف من الأشعار، وله قصائد أخرى في شكوى حاله، وما جرى له في زمانه، وفي ذم الموظفين ووصف الحالة الاجتماعية لعصره إلى غير ذلك.

وللبوصيري قصيدة عالية القدر، مشهورة بين الناس قالها في مدح رسول الله ﷺ، وقد اطلق عليها اسم: البردة، وإذا قارنا قصيدته هذه بقصائده الأخرى التي أشرنا إلى موضوعاتها، وجدنا الفرق كبيرًا ووجدنا أن دلالتها على مستواه الشعري تفوق بكثير ما كان عليه شعره الآخر. انظر إلى بعض أبيات من قصيدة بعث بها إلى أحد وزراء عصره يشكو فيها حاله وحال أسرته، وما هم فيه من الضيق المعيشي:

وأقبلَ العيدُ وما عندهم
قمْحٌ ولا بُرٌّ ولا فطْرَة
فارحمهمو إن عاينوا كعكةً
في كفِ طفلٍ أو رأوا تمْره
تَشخَصُ أبصارهمو نحوها
بشَهْقَةٍ تَتبَعُها زفْره

وقبل أن ننتقل إلى الحديث عن القصيدة التي نريد أن نتحدث عنها فإنه يجدر بنا أن نقول:

كان للبوصيري اهتمام بالقصائد التي يذكر بها رسول الله ﷺ ومنها:

أمن تَذكُّرِ جيرانٍ بذي سَلَمِ
مزجتَ دمعًا جرى من مُقلةٍ بدمِ

ومنها:

كيف ترقى رُقيَّك الأنبياءُ
يا سماءً ما طاوَلَتها سماءُ

ومنها قصيدة عارض فيها الشاعر الصحابي كعب بن زهير بن أبي سلمى المشهور التي مطلعها:

بانتْ سعادُ فقلبي اليومَ متبولُ
متيمٌ إثرها لم يُفدَ مكبولُ

وقد قال البوصيري يعارضها:

إلى متى أنتَ باللذاتِ مشغولُ
وأنتَ عن كلِّ ما قدمتَ مسؤولُ

ولد محمد بن سعيد البوصيري في سنة ٦٠٨ للهجرة (١٢١٢م) وتوفي سنة ٦٩٦ للهجرة (١٢٩٦م). وله ديوان شعر مطبوع ومتداول بين الناس.

اكتسبت قصيدة البوصيري التي سماها (البردة) شهرة واسعة وعارضها عدد كبير من الشعراء حرصوا على صياغة قصائد تكون على منوالها لفرط ما وجدوا فيها من جمال في المعنى ونسق جميل في اللفظ. ومن هؤلاء أمير الشعراء أحمد

شوقي الذي لم يعارض هذه القصيدة وحدها بل عارض قصيدة البوصيري الثانية التي ذكرناها قبل قليل فجاء مطلع قصيدته كالتالي:

وُلِدَ الهدى فالكائناتُ ضياءُ
وَفمُ الزمانِ تبسُّمٌ وثناءُ
الروحُ والملأُ الملائِكُ حولَهُ
للدِّينِ والدُّنيا به بُشراءُ

أما قصيدته الأولى فهي:

ريمٌ على القاعِ بينَ البانِ والعَلَمِ
أحلَّ سفكَ دمي في الأشهرِ الحُرُمِ
رمى القضاءُ بعيني جُؤذَرٍ أسدًا
يا ساكنَ القاع أدرك ساكنَ العَلَمِ

وكلتا القصيدتين من القصائد الطوال، وكلتاهما مليئة بالمعاني الرائعة والعبارات الرائقة، وقد أجمعتا على مدح رسول الله ﷺ، كما فعل البوصيري بقصيدتيه، ولعل مما ينبغي أن نذكره هنا أن قصيدتي شوقي قد نالتا شهرة كبيرة بعد أن غنتهما بأداء رائع كوكب الشرق أم كلثوم فخلّدتهما، ولا نزال نستمع إليهما في المناسبات الدينية المختلفة.

وشعر أمير الشعراء كله معجب، يسر النفوس وإضافة إلى ما فيه من شعر عاطفي غزير الأحاسيس، فإن فيه تأريخًا لكثير من الحوادث التي مرت بمصر والمنطقة العربية والإسلامية.

أمير الشعراء أحمد شوقي بن علي أحمد شوقي، شاعر مشهور، لا تزال قصائده تتردد على أذهاننا على الرغم من مضي مدة على وفاته، وديوانه

«الشوقيات» ومسرحياته الشعرية على كل لسان، وكان جيلنا يسعد بسماع شعره، ويعتبره من الشعراء العرب المجددين بل إنه قد أحيا الشعر في عصره، على الرغم من وجود عدد من الأدباء دفعتهم الغيرة إلى انتقاده ومهاجمة شعره، لم يمنعهم من ذلك إبداعه الفني العجيب، ولا إنتاجه الغزير الذي تطرق فيه إلى أمور شتى.

نقل عنه خير الدين الزركلي في كتابه «الأعلام» قوله: «سمعت أبي يُرَدِّدُ أنّ أصلنا إلى الأكراد فالعرب» وكان قد نشأ في ظل البيت المالك في مصر، وتعلم به ثم أرسله الخديوي توفيق في سنة ١٨٨٧م إلى فرنسا لدراسة الحقوق، وهناك اطلع على الأدب الفرنسي اطلاع رجل راغب في المعرفة تواقًا إلى الأدب والثقافة بصفة عامة، والشعر بصفة خاصة. وعندما عاد إلى مصر في سنة ١٨٩١م صار رئيسًا للقسم الإفرنجي في ديوان الخديوي عباس حلمي وعندما نُحِّيَ هذا عن منصبه طلب من أحمد شوقي أن يختار له منفى خارج مصر فسار إلى أسبانيا في سنة ١٩١٥م وعاد في سنة ١٩١٩م بعد الحرب العالمية الأولى وفي أسبانيا قال قصائد كثيرة يتشوق فيها إلى وطنه منها القصيدة التي عارض فيها ابن زيدون ومطلعها:

يا نائحَ الطلح أشباهٌ عوادينا
نشجى لواديك أم ناسى لوادينا
ماذا تَقُصُّ علينا غيرَ أنّ يدًا
قَصّت جناحَكَ جالت في حَواشينا

ومنها قصيدة عارض فيها إحدى قصائد البحتري الشهيرة ومطلعها:

اختلاف النهار والليل يُنسي
اذكرا لي الصّبا وأيامَ أُنسي

عاش شوقي بعد أن عاد من منفاه عيشة مرفهة، وحظي بمال وفير كان ينفقه على وسائل راحته. وتم له التكريم باختياره أمير الشعراء العرب، وذلك في حفل

كبير شارك فيه ممثلون لشعراء البلدان العربية، وكتب عنه كثير من الأدباء كتبًا تحكي حياته وتُحلل قصائده ولا أظن أحدًا من الشعراء المحدثين نال ما ناله هذا الرجل من متابعة لأعماله، بحيث بقيت محفوظة لا ينال منها الدهر على تقلباته.

كان مولد أحمد شوقي بالقاهرة في سنة ١٨٦٨م، وبها توفّي في سنة ١٩٣٢م. عاش علمًا، ومات علمًا.

هنا يأتي الحديث عن قصيدتي البوصيري وأحمد شوقي، فهما الأصل الذي بنيت عليه فكرة هذا المقال، وسوف نرى أن الأول منهما قد ذكر موضعًا من المواضع الكويتية التي ترددت في الشعر العربي كثيرًا، وذلك ما ألمحنا إلى ذلك من قبل، والثاني عارض هذه القصيدة بقصيدة أخرى.

قد لا يكون البوصيري ممّن زار كاظمة، أو مر بها أو أقام فيها، فهي بعيدة عن سكنه، ولكنه ذكرها كما تولى ذكرها الشعراء من قبله، وقد أشرنا إلى ذلك منذ البداية، ولم يذكرها وحدها بل ذكر غيرها مواقع أخرى تبعد عنها كثيرًا مثل: إضم، وهذا واد بين المدينة ومكّة، وليس بمستغرب أن يرد إسما الموقعين متباعدين في قصيدة البوصيري، وقد تتردد أسماء مواقع عدة في إحدى القصائد، ولا يلزم ذلك أن تكون تلك المواقع متقاربة.

وفي مثل هذا يقول الدكتور زكي مبارك: «وذكر البوصيري لهذه المواطن، وشغفه بها، وحنينه إليها، ينافي مصريته، وكان له أن يَتَشوّق إلى أحبابه في بلبيس أو فاقوس، كما يتشوق بعض الناس إلى أحبابه في سنتريس وأسيوط، ولكن يظهر أن المغاني العربية كانت احتلّت رؤوس الشعراء، فكان من ذلك أن أكثروا من ذكر نجد وسلع وأروند، وإن لم يكن لهم بهذه المواطن هوى».

يقول البوصيري في قصيدته المشهورة باسم «البردة»:

أمِن تذكُّرِ جيرانٍ بذي سَلَمِ
مزجتَ دمعًا جرى من مُقلةٍ بدمِ
أم هَبَّتْ الريحُ من تلقاءِ كاظمةٍ
وأوْمَضَ البرقُ في الظلماءِ من إضمِ
فما لعينيكَ إن قلتَ اكففاهَمَتا
وما لقلبكَ إن قلتَ استفِقْ يهمِ
أيحسبُ الصَّبُّ أن الحبَّ مُنكَتِمُ
ما بينَ منسجمٍ منه ومُضطرمِ
لولا الهوى لم تُرِقْ دمعًا على طَلَلٍ
ولا أرِقْتَ لذكرِ البانِ والعلمِ
فكيف تُنكرُ حبًا بعدما شهدتْ
به عليكَ عدولُ الدَّمْعِ والسَّقَمِ

هذه هي بداية قصيدة البوصيري، والقصيدة كما قلنا طويلة كثيرة الأبيات متنوعة لفظًا ومعنًى، ولما كان اشتهارها باسم (البردة) فإن من الأفضل أن نورد هنا نصًا نقله صلاح الدين الصفدي صاحب كتاب الوافي بالوفيات عن الشاعر يبين فيه السبب في هذه التسمية فهو يقول: «قال البوصيري: كنت قد نظمت قصائد في مدح رسول الله ﷺ، منها ما كان اقترحه عليّ الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير ثم اتفق بعد ذلك أنه أصابني فالج أبطل نصفي ففكرت في عمل قصيدتي هذه البردة فعملتها واستشفعت به إلى الله عز وجل في أن يعافيني وكررت إنشادها وبكيت ودعوت وتوسلت به ونمت فرأيت النبي ﷺ فمسح على وجهي بيده الكريمة وألقى عليّ بردة فانتبهت ووجدت فيّ نهضة فخرجت من بيتي».

هذه الروح التي كتب بها البوصيري ما كتب وإن كانت تدلنا على سبب تسمية (البردة) على لسانه، فهي تدلنا على طيبة هذا الشاعر ومدى تعلقه بأمور دينه وبذكر الرسول الكريم ﷺ.

أما أمير الشعراء أحمد شوقي فإنه قال قصيدته نهج البردة التي سار فيها على ما سار عليه البوصيري من حيث الوزن والقافية، ومن حيث استيحاء السيرة النبوية الشريفة. وهو وإن قالها على هذا النحو إلا أن لها مناسبة دعته إلى إبداعها وهذه المناسبة هي حج الخديوي حاكم مصر الأسبق في سنة ١٢٢٧هـ (١٨١٢م) وقد قدمها الشاعر بكلمة صغيرة إلى الحاكم المصري ابتهاجًا بهذه المناسبة.

وكما قدمنا الأبيات الأولى من قصيدة البوصيري فإننا نقدم هنا الأبيات الأولى من قصيدة أحمد شوقي، وسوف يراها القارئ قريبة إلى نفسه لكثرة ما سمعها من كوكب الشرق فهي من القصائد الشهيرة التي غنّتها.

يقول شوقي:

ريمٌ على القاع بين البان والعَلَمِ
أحلَّ سفكَ دمي في الأشهُرِ الحُرُمِ
رَمَى القضاءُ بعيني جُؤذَرٍ أسدًا
يا ساكنَ القاع أدرك ساكنَ الأجم
لمّا رنا حدثتني النفسُ قائلةً
يا ويحَ جنبكَ بالسهم المصيبِ رُمي
جَحَدتُها وكتمتُ السّهم في كبدي
جُرحُ الأحبةِ عندي غير ذي ألم

ومنها:

يا لائمي في هواهُ والهوى قَدَرٌ
لو شفَّك الوجدُ لم تعذل ولم تَلُمِ
لقد أنلتكَ أُذنًا غيرَ واعيةٍ
وربَّ مُنتَصِتٍ والقلبُ في صَمَمِ
يا ناعسَ الطرفِ لاذُقتَ الهوى أبدًا
أسهرتَ مُضناكَ في حفظِ الهوى فَنَمِ

ولن يكون لنا مجال للمقارنة بين القصيدتين فهما طويلتان ومعانيهما متنوعة. ولكننا نحيل على كتاب مهم في هذا المجال وهو الكتاب الذي ألفه الدكتور زكي مبارك، وأصدر الطبعة الأولى منه في اليوم الخامس عشر من شهر أكتوبر لسنة ١٩٣٦م. وهو كتاب «الموازنة بين الشعراء» وقد خَصَّصَهُ للحديث عن القصائد المتشابهة، ومنها هاتان القصيدتان. ولكنه نَوّع كثيرًا في الكتاب وأضاف إلى هاتين القصيدتين حديثه عن قصيدة قالها الشاعر أحمد سامي البارودي على غرار الأولى، وجاء مطلعها كما يلي:

يا رائدَ البرق يَمِّم دارةَ العلمِ
واحدُ الغمامَ إلى حيٍّ بذي سَلَمِ

وكانت مقارنات زكي مبارك جيدة ومفيدة للقارئ، وكان يترسل في الحديث مقدمًا فوائد عديدة يُمكِّن المرء من خلال الاطلاع عليه من فهم الشعر وتَمَثُّله. ولم يكتف بذلك بل ضم إليها قصائد متشابهة مما قاله البحتري وأبو فراس الحمداني وابن زيدون، وغيرهم من محدثي الشعراء. ولم يترك مجالًا يتيح له الموازنة بين الشعراء إلا طرقه، مما جعل كتابه هذا مليئًا بالفوائد، عامرًا بكل ما يعود بالنفع على قارئه، وما جعل له وزنًا بين الكتب المشابهة.

يلحظ القارئ أن السبب المباشر لكتابة هذا المقال هو ذكر البوصيري لكاظمة في بداية قصيدته (البردة)، وهذا هو الذي أدّى إلى الحديث عن شوقي والاستفادة من زكي مبارك، والتعريج على بعض الموضوعات التي لا غنى عن إيرادها ونحن نتحدث عن قصيدة مشهورة وشاعر مشهور، وكان شوقي فيما قدمناه قمة شعرية يملك بسببها كل الحق في أن يكون أميرًا لشعراء وهذا واضح في مختاراتنا التي قدمناها هنا.

كانت (البردة) تنشد في (الموالد) عند بعض مجالس الكويت القديمة، ويرددها الناس سعيدين بها، وقد نالت هنا من الاهتمام والشهرة ما نالته في وطن شاعرها وهي التي لفتت أنظار أبناء الكويت إلى الذكر القديم لكاظمة وبقي الأمر طويلًا إلى أن نهض الأستاذ أحمد البشر إلى جلاء هذا الأمر في عدد من المقالات في منتصف خمسينيات القرن الماضي.

****

ملحاق خير

كان المشايخ من مدرسينا رحمهم الله يقولون لنا: إن مجالس الرسول ﷺ مع صحبه مدرسة، وهي بالفعل كذلك فقد تعلم فيها أولئك الرجال من أصحابه القرآن واستمعوا إلى أحاديثه الشريفة ووعوها وأبلغوها لمن جاء بعدهم، وساروا على الهدى الذي أرادهم أن يسيروا عليه، ولذلك فإن حياة الصحابة وسلوكهم وعلاقاتهم ببعضهم صورة لنتاج هذه المدرسة الشريفة، وهم لنا قدوة حسنة لا نجد مثلها قدوة.

كان رسول الله ﷺ حريصًا على أن يغرس في نفوس أولئك كل خير، وأن يدلهم على النهج الذي إذا ساروا عليه أوصلهم إلى خيري الدنيا والآخرة، ولقد تركت هذه التربية النبوية أثرها في نفوسهم، كما قد تركت أثرها في قلوبهم وفي سلوكهم، فهم مثال للصلاح، ومنار يُهتدى به، ومن تتبع أخبارهم، واطلع على أحوالهم حتى بعد وفاة الرسول الكريم وجد ذلك كله واضحًا فيهم، متمثلًا في تقديرهم لبعضهم، ومتانة العلاقة بينهم، وقد حفظت لنا الكتب الكثير عنهم فما وجدنا فيهم إلا ما يدل على طيب الغرس الذي غرسه فيهم رسول الله ﷺ. انظر إلى ما ذكرناه في غرة هذا الشهر المبارك عن سيدنا عمر بن الخطاب وهو يتحدث عن أبي بكر الصديق: «أبو بكر سيدنا واعتق سيدنا» ذلك لأن الصديق كان قد أعتق بلالًا من الرق في أول ظهور الإسلام بمكة. وعلى الرغم من أن مؤذن رسول الله لم يكن من أسرة من الأسر الكبيرة، فإن الإسلام رفعه حتى أطلق عليه رجل مثل عمر

لقب السيد. لقد كان ابن رباح أحد أبناء المدرسة النبوية، وكان من أنبغ تلاميذها ولذا فقد حظي بمكانة مرموقة في ظل الإسلام.

وحكاية أخرى تدل على توقير أصحاب الرسول الكريم لبعضهم البعض. حدث في عهد معاوية بن أبي سفيان حين كان خليفة، يقول محمد بن سعد في كتابه: «الطبقات الكبرى»: «قحطت السماء، فخرج معاوية بن أبي سفيان وأهل دمشق يستقون (أي يصلون صلاة الاستسقاء)، فلما قعد معاوية على المنبر قال: أين يزيد بن الأسود الجُرشي، وكان صحابيًّا، فناداه الناس وأقبل يتخطى الصفوف، فأمره معاوية فصعد المنبر وقعد عند رجليه فقال معاوية: اللهم إنا نستشفع إليك اليوم بخيرنا، وأفضلنا، اللهم إنا نستشفع إليك بيزيد بن الأسود الجرشي، يا يزيد ارفع يديك إلى الله، فرفع يزيد يديه ورفع الناس أيديهم، فما كان أوشك أن ثارت سحابة في المغرب وهبّت لها ريح، يقول الراوي الذي حضر ذلك الموقف: فسقينا حتى كاد الناس لا يصلون إلى منازلهم».

فانظر إلى درجة احترام وتقدير عمر بن الخطاب لسيدنا بلال بن رباح مؤذن رسول الله ﷺ، ثم انظر إلى الثناء الذي كاله معاوية للصحابي يزيد بن الأسود الجُرشي، حتى لقد عده خيرهم وأفضلهم، ولقد كان الله سبحانه وتعالى كريمًا إذ استجاب لهذه الدعوات التي احتفظ أصحابها من خلالها بالقيم السامية التي عرفوها في المدرسة النبوية الشريفة.

لا تجد اليوم قومًا في مثل هذه النفوس الشفافة الكريمة، ولكننا نأمل بأن نكون مقتدين بهم، متأسين بسلوكهم الذي وضعهم كما توضع المشاعل المنيرة في تاريخ الإسلام منذ نشأ. والله الموفق.

وبعد، فإنه لايزال في استطاعتنا أن ننهل من مناهل مدرسة النبوية الشريفة، فبين أيدينا سيرة رسول الله ﷺ كتبها رجال تقاة وهي مطبوعة ومنشورة في كل

أرجاء العالم الإسلامي، كما أن بين أيدينا الأحاديث الكريمة التي جمعها الصحابة الأوائل واعتنى بها التابعون الذين جاؤوا من بعدهم، وبين أيدينا - أيضًا - سيرة الرجال الأوائل الذين كانوا مع الرسول الكريم، اتبعوه في ساعة العسرة، وجاهدوا معه واقتدوا به، وشاهدوا أعماله واستمعوا إلى توجيهاته، وقد صاروا صورة كريمة للمسلم الحق، وكيف لا وهم قد تلقوا مباشرة أصول هذا الدين الحنيف وكما بينا فإن هؤلاء هم القدوة الصالحة وهم وكل ما ذكرناه من مناهل المدرسة النبوية، وقد قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: «محمد رسول الله، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم، تراهم ركعًا سُجّدًا يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا، سيماهم في وجوههم من أثر السُّجود...»[1].

هذه هي مناهلنا التي إن نهلنا منها استقامت حياتنا وسرنا في طريق مستقيم برعاية الله وفضله.

****

(1) سورة الفتح الآية ٢٩.

الصحابي سعد بن إياس في كاظمة (١)

عرف العرب الأقدمون كاظمة بصفتها مرعى جيدًا يكثر فيه الكلأ وتزدهر الأعشاب على اختلاف أنواعها، وهذا هو ما يبحثون عنه من أجل إشباع إبلهم وأغنامهم، إنهم يحبون دائمًا الأرض الطيبة المليئة بالخيرات، ولن يجدوا مثل كاظمة بأنها كانت موضعًا من هذا النوع الغني بإنتاج الطبيعة الصالحة للرعي. ولقد أدركتُ كاظمة منذ سنين وكان ربيعها جميلًا يغمرها بالأعشاب والزهور البرية، وهي اليوم – للأسف الشديد – أقل بكثير من ذلك في العطاء.

ومما يدل على شهرة كاظمة مجالًا خصبًا لرعي الإبل والأغنام، ما رواه أبوالفرج الأصفهاني في كتابه «الأغاني» عن الشاعر الجاهلي المرقش الأصغر: ربيعة بين سفيان بن مالك بن ضبيعة، وهو شاعر جزل الشعر رقيقهُ، روى الأصمعي عددًا من قصائده وكذلك المفضل الضبّي في كتابيهما الأصمعيات والمفضليات بحسب توالي اسميهما. لقد قال الأصفهاني عن هذا الشاعر إنه كان ترعية بمعنى أنه يرتاد المراعي الجيدة، ويعرف كيف يختار أفضلها لإبله، وكان حريصًا على الأماكن الخصبة التي تغطيها الأعشاب، ثم يتتبع موارد المياه ليستفيد من مادتي الكلأ والماء. واختياره لكاظمة حيث حدثت له فيها قصة ذكرناها في كتابنا: كاظمة في الأدب والتاريخ دليل على أن كاظمة من الأماكن التي توافق هوى في نفس هذا الترعية، حيث يجد فيها ما يبحث عنه من أجل سد حاجة ماشيته وإبله، ولو لم يكن المكان ملائمًا له لما استقر فيه.

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٠/٩/٨م.

وإلى جانب ما تميزت به كاظمة من حيث أجواء المراعي الجاذبة لذوي الأملاك من أصحاب الإبل والغنم، فإن لها ميزات أخرى، ولذا فإنها كانت مليئة بالسكان منهم من هو مقيم بها، ومنهم من يمر بها في طريقه فيبقى فترة قصيرة ثم يواصل رحلته.

فنحن نعرف ممّا قرأناه في كتب التاريخ، والكتب الأخرى التي تتناول ذكر المواقع أنه يمر بكاظمة الحجاج الخارجون من البصرة، وما جاورها في ذهابهم، ثم يمرون بها في إيابهم، وربما اجتمعوا بها مع مسافرين آخرين فتصير ملتقى لهم، وربما كانت – كذلك – مجتمعًا للتجار، فهي ممر وموضع التقاء في آن واحد للذاهبين والآيبين بين البصرة ومكة واليمامة وغيرها من المواضع الواقعة في جزيرة العرب، ولقد دلنا على هذا الاجتماع حديث شخص مرسل للتجسس في كاظمة على أناس مطلوبين في مسألة ثأر، وكان هذا الشخص مرسل من قبل المدعين بالحق، الثائرين من أجل الانتقام، ولقد أبلغهم هذا الجاسوس حين عاد أن «جوف كاظمة ملآن من حجاج وتجّار».

وليست كاظمة – في ذلك الوقت – موضعًا للالتقاء بين القوافل فقط، بل أن فيها مساكن يعيش فيها الناس يدلنا على ذلك قول الشاعر المخضرم عوف بن عطية الخرع:

شدّوا المطِيَّ على دليل دائبٍ
من أهلِ كاظمةٍ فسيفِ الأبحُرِ

فقوله: من أهل كاظمة، فيه دلالة على أن لكاظمة أهلًا يعيشون فيها، وأنها لم تكن أرضًا خالية كما يتصور الناس. وقد ذكر أبوعبيدة معمر بن المثنى في كتابه «النقائض» أن زياد بن أبي سفيان طلب الشاعر الفرزدق لكي يقوم بمعاقبته على

أمر فعله، ففر الشاعر إلى كاظمة وأقام في بيت امرأة هناك اسمها: مُرّار، ذكر أنها تسكن قصبة كاظمة.

هذا وكان موقع كاظمة – شرقًا – باتجاه حدود دولة فارس، وكان موقعًا له أهميته الحربية، بسبب القرب من ذلك البلد، ولما كان منفذًا لكثير من أبناء الصحراء الذين يعبرون منه إلى جارتهم الكبيرة ثم يعودون محملين بما يحصلون عليه نتيجة لغاراتهم التي كانوا يسدون عن طريقها حاجتهم في أوقات القحط، حيث إن تلك الدولة الغنية لم تلتفت إلى مد جيرانها بحاجتهم ولو بأقل القليل مما يدفعهم إلى امتلاك ما يريدون على طريقتهم الخاصة. ولقد كان هذا الموقع وما يحدث عن طريقه سببًا يؤلم الإمبراطورية الكبرى لعدم تمكنها من السيطرة عليه، وقد دعا ذلك ملكهم إلى التفكير في وسيلة ناجحة للمكافحة، فقام بإنشاء خندق يفصل بين العرب ومملكته. وكان هذا الخندق ممتدًّا من هناك إلى كاظمة.

ولا يحسبن أحد أن كاظمة – قديمًا – كانت عند حدودها التي نعرفها اليوم، كما وردت في الخرائط الحديثة، بل لقد كانت أوسع من هذا كثيرًا، وما كان يطلق عليه اسم كاظمة في الوقت الذي صنع فيه ذلك الخندق أو الذي احتدمت فيه معركة ذات السلاسل كان موضعًا واسعًا تدلنا عليه أخبار كثيرة واردة في التاريخ، وتشهد الأحداث المارة بهذا المكان على سعته.

ونعود مرة أخرى إلى الحديث عن الخبر الذي كتبه أبو عبيدة معمر بن المثنى عن الفرزدق وهو أنه سكن عند امرأة يقال لها مُرّار تسكن قصبة كاظمة. فالمعروف أن القصبة هي وسط المنطقة العامرة بالسكان كالعاصمة مثلًا، ولا يقال قصبة إلا إذا كانت المنطقة المحيطة بها تضم مساكن تعيش فيها أعداد من الناس، ولم يكن لأبي عبيدة أن يقول عن بيت هذه المرأة إنه في قصبة كاظمة لو كان بيتها في منطقة صحراوية خالية من المباني وسكانها.

يضاف إلى ذلك ما أورده الحسن بن عبدالله الأصفهاني في كتابه: «بلاد العرب» فهو يدل على أن كاظمة لم تكن أرضًا خالية كما كان البعض يتصور، ولكنها كانت تضم مباني كثيرة وكان فيها سكان يعيشون على ثراها وينعمون بأجوائها الطيبة، يقول الأصفهاني مفصلًا ذلك: «وكاظمة على ساحل البحر، وبها حصن وفيها سلاح، قد أعدّ للعدو، وبها تجار ودور مبنية وعامتهم (يقصد سكانها): تميم».

تحدونا الرغبة إلى إكمال ما بدأنا به في شهر رمضان حيث قلنا إن «الأزمنة والأمكنة» قد لبست خلال هذا الشهر الكريم ثوبًا رمضانيًّا. وهذا الثوب اخترناه بحيث يرمز إلى أيام الإسلام الأولى، فكان أن قدمنا أربع مقالات وهذا هو المقال الخامس الذي ننهي به ما وعدنا به مع نهاية الشهر الكريم.

وفي هذا المقال لنا حديث عن رجل كريم من الرعيل الأول من المسلمين له ارتباط بأرض بلادنا لأنه كان من المقيمين في كاظمة.

هذا هو سعد بن إياس، واسم هذا الرجل دائم التردد في الكتب عند الحديث عن كاظمة أو عند مؤلفي كتب أسماء الصحابة والتابعين، فقد كان مقيمًا فيها بحسب ما ورد عنه، ولم يكن مقيمًا فيها وحده بل مع أهله الذين كان يعمل لهم كما سوف نرى.

هذا وقد ذكر ابن حجر العسقلاني في كتابه «الإصابة» صحابيًّا يشابه اسمه اسم صاحبنا هذا، وذكر أنه كان ممن حضر معركة بدر من الأنصار مع رسول الله ﷺ، وهذا كاف لتمييزه عن سعد كاظمة.

أدرك سعد بن إياس الشيباني، وكنيته أبو عمرو رسول الله ﷺ، وكان سعد إذ ذاك صغيرًا، ولكنه آمن برسالة النبي وصدق بها واتبع النور الذي جاءت به، وقد

قيل إن سعدًا لم ير رسول الله ﷺ لأن موقعه كان بعيدًا عن المدينة المنورة ولأنه كان صغير السن بحيث يصعب عليه الرحيل إلى مهاجر رسول الله. وهو إلى جانب ذلك مشغول بالعمل لأهله، وقد روي عنه أنه قال: «بعث النبي ﷺ، وأنا أرعى إبلًا لأهلي بكاظمة» وقوله - لأهلي - دليل على صغر سنه فهو لا يملك الإبل ولكنه يؤدي مهمة كلفه بها من هم أكبر منه سنًّا.

قال بعض الكتّاب عنه إنه معدود في التابعين لأنه لم ير رسول الله ﷺ، ولم يشهد مجلسه أو يتلقى من نوره مباشره، ولكنه كان معاصرًا للرسول، مؤمنًا برسالة الإسلام، حريصًا على متابعة ما يصل إليه وهو في مكانه بكاظمة من أخبار الرسول ومن الأحاديث النبوية الكريمة، وكانت له متابعة لأخبار انتشار الإسلام، ومعرفة بكل ما يحدث في مسيرة الدعوة الشريفة. وبسبب متابعته للأحاديث فقد تمكن من لقاء بعض من كانوا قد حصلوا على علم ببعض الأحاديث النبوية الكريمة فنقلها عنهم، ومن هؤلاء نفر من أصحاب رسول الله ﷺ الذين بادروا إلى الإسلام فور علمهم به ومن هولاء: الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود، والصحابي الجليل حذيفة بن اليمان، وغيرهما.

إن تعلق سعد بن إياس بهذا الدين، وبالدعوة النبوية الكريمة وهو بعيد عن الموقع الذي يعيش فيه الرسول دليل على إيمانه العميق وتصديقه بالرسالة الخالدة.

وفي موضع آخر في كتاب من كتب التاريخ الخاصة بفترة ظهور الرسالة المحمدية الكريمة؛ تحدث ابن سعد في كتابه «الطبقات الكبرى» عن سعد بن إياس، فذكر أنه من المقاتلين في معركة القادسية الشهيرة، التي تمت تحت قيادة الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص، في سنة ١٤هـ، وذكر ابن سعد - أيضًا -

شيئًا عن رواية ابن إياس لحديث رسول الله ﷺ، فأضاف إلى الاسمين اللذين سبق ذكرهما روايته عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وسيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وأبي مسعود الأنصاري. وأكد ابن سعد أن هذا الرجل «يعني سعد بن إياس» كان ثقة في نقل الحديث، وأنه عُمِّر فكانت سنه عالية في أواخر أيام حياته، إذ كان وهو يرعى إبل أهله بكاظمة في بداية حياته ولكنه عندما شارك في معركة القادسية فإنه بلغ الأربعين من عمره، وعاش حتى بلغ عشرين ومائة سنة عند يوم وفاته. وفيما يتعلق بسنّه يوم القادسية فهو يقول عن نفسه: «تكامل شبابي يوم القادسية فكنت ابن أربعين سنة».

إلى هنا نكون قد تتبعنا حياة سعد بن إياس منذ كان في بداية حياته يرعى إبل أهله بكاظمة، حتى شارك في معركة مهمة من معارك الإسلام هي معركة القادسية، وحتى وصل إلى نهاية عمره. وعلى الرغم من أن ما كتب عن هذا الرجل قليل جدًّا بالنسبة إلى غيره ممن كُتب عنهم إلا إننا نستطيع أن نتلمس الكثير من مظاهر الحياة التي عاشها سواء أكان ذلك في أول حياته أم في نهايتها. ويبدو لنا من سيرته أنه كان متعلقًا بدينه، محبًّا للرسول الكريم يستذكر الزمان الذي سمع فيه برسول الله ﷺ، ويتتبع الأحاديث النبوية يحفظها نقلًا عن كبار الصحابة ويتمتع بثقة رواة الحديث الذين نقلوا عنه وهم مطمئنون إلى صدقه وحرصه على سلامة النقل والحفظ.

وبعد فإن من خير ما يمكن أن نقدمه هنا هو أن نختتم مقالنا هذا الذي خصصناه للحديث عن أبي عمرو سعد بن إياس الشيباني أن نذكر بعض الأحاديث التي رواها، وبذا ننهي آخر ما وعدنا بكتابته خلال شهر رمضان المبارك، والحمد لله على بلوغ الغاية.

وإذا كان الرجل كما رأينا فيما مضى مشهودًا له بالأمانة وحسن النقل والصدق فإن تتبعنا لبعض الأحاديث التي رواها سوف يكون مفيدًا، لأنها سوف تكون موثقة صادرة من رجل مثل أبي عمرو بن إياس.

والواقع أنه كما روى عن كبار أصحاب رسول الله ﷺ، فقد روى عنه عدد من التابعين ممن عني بحفظ الحديث وجمعه ودراسته منهم أبو إسحاق الشيباني والحارث بن شبل، والوليد بن الجزار، والأعمش وآخرون.

ولم يكن راويًا للحديث فحسب، فقد كان في فترة من أيامه الأخيرة يُقرئ القرآن في المسجد الكبير في الكوفة حيث سكن أخيرًا، يقول أحد من قرأ عليه واسمه عاصم بن أبي النجود: فقرأت عليه، ثم سألته عن آية فاتهمني بهوى. ذلك لأنه كما قيل عنه: من رجال الكتاب والسنة، ولا يرضى أن تقدم إليه أسئلة تشغل أذهان الناس دون فائدة، وبخاصة وأنه يعلم أن بعض الأسئلة قد يجر الحديث حول إجاباتها إلى شبهات مما منعه عن الرد على سؤال أبي النجود كما رأينا.

ومما رواه قوله: «حدثني صاحب هذه الدار، وأشار إلى دار الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود، وكان وثيق الصلة به، فقال: «سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها، قال: ثم أي؟ قال: بر الوالدين، قال: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله». قال ابن مسعود: حدثني بهن ولو استزدته لزادني».

وهذا حديث مشهور، روي في عدد من كتب الحديث وأكده عدد آخر من الرواة. وهو يدل على أدب أصحاب الرسول الكريم في السؤال إذ لم يُكثر عبدالله بن مسعود في الطلب مع إنه يعرف إنه لو استزاد النبي ﷺ لزاده، ولكن الإلحاح وكثرة السؤال ليست من أخلاق أولئك الرجال، ولذا لم تدخل الأهواء في قلوبهم.

وهذا حديث آخر من الأحاديث المشهورة الثابتة عن النبي ﷺ، نقلها سعد بن إياس عن أبي مسعود البدري رضي الله عنه عن النبي الكريم، وذكر ان رجلًا اتى النبي ﷺ، ليقول له إنه منقطع لا يجد دابة تحمله إلى موطنه، فقال له الرسول: إئت فلانًا، فأتاه فحقق له ما أراد، فقال رسول الله ﷺ: «من دل على خير فله مثل اجر فاعله».

وللعلم فإن اسم الصحابي المروي عنه وهو أبو مسعود البدري: عقبة بن عمرو.

وروى ابن إياس أحاديث أخرى منها حديث في موضوع الربا، وآخر في موضوع المحرمات من النساء اللاتي لا يجوز التزوج بهن.

ومما مر بنا – أخيرًا – أن سعد بن إياس الشيباني كان قد صحب عبدالله بن مسعود، واشتهر بصحبته وروى عنه بعد أن سمع منه الكثير من الأحاديث، وابن مسعود صحابي من كبار الصحابة، وله فضل وعقل، وكان قريبًا من رسول الله ﷺ، وهو من أهل مكة من السابقين إلى الإسلام، وكان أول من جهر بقراءة القرآن الكريم بمكة توفي في سنة ٣٢ للهجرة رضي الله عنه، وعن أصحاب الرسول الكريم، من ذكرنا ومن لم نذكر.

****

ملحاق خير

المتتبع لأخبار الرجال الأوائل من أصحاب رسول الله ﷺ، والتابعين لهم، يجد في سيرهم إضاءات مشرقة تدل على مدى فهمهم لدينهم، وعلى مدى إيمانهم، وحرصهم على أن يكونوا مثالًا صالحًا طيبًا للمؤمنين الأخيار الذين يستحقون حمل الأمانة والنقل عن الرسول الكريم.

ونحن نحمد الله – جل شأنه – حيث قيض لنا رجالًا قاموا بتسجيل كثير من الروايات التي نقلت عن أولئك الرجال، فوصل إلينا كل ما كتبوا بحيث تم الاحتفاظ بما ورد عنهم وعمّن لحق بهم بعد ذلك، وكان هذا في كتب كثيرة تتجاوز الكتب الخاصة بالتاريخ الإسلامي إلى الكتب التي تناولت تاريخ الصحابة والتابعين، وكان من أهم تلك الكتب:

١ – كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبدالبر.

٢ – كتاب الإصابة في معرفة الصحابة لابن حجر العسقلاني.

٣ – كتاب الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد.

فممّن ذكرهم هذا الأخير رجل صالح من التابعين كان أبوه صحابيًا، ولذا فقد نشأ في كنف شخص قد تلقى الإسلام من مصدره وهو رسول الله ﷺ، وتطبّع بالطباع الكريمة، التي كان يتطبع بها أصحاب الرسول الكريم، واشتهر بالصدق والحرص على أداء فروض دينه، والوفاء لأصحابه، والنصح الدائم للناس فيما

ينفعهم. هذا الرجل هو: بلال بن سعد، وقد نقل عنه صاحب كتاب الطبقات الكبرى قولًا حكيمًا يجدر بنا أن نتأمله، ونأخذ ما فيه من عبرة ومن معنى كريم. وفي هذا القول يخاطبنا بلال بأن أية خطيئة مهما صغرت، فهي معصية لله جل شأنه، وأن المرء لابد أن يراقب خالقه في كل ما يعمل لأن المعاصي واحدة سواء منها ما كبر أو صغر، وقد جاء قوله الذي نقله محمد بن سعد في كتابه معبرًا عن هذا المعنى حيث يقول بلال: «لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر من عصيت» هذا لأن معصية المرء لربه أمر خطير مهما كانت معصيته، وهو هنا يحثنا على مراقبة ما نصنع، فنحذر من أن نقترف أيًّا من المعاصي، لأنها في حق الله سبحانه كبيرة مهما صغر شأنها. وهذا تحذير مهم من رجل عاش في الأجواء الأولى لظهور الإسلام، وتتلمذ على عدد كبير من أصحاب رسول الله ﷺ ومنهم والده.

هذه إضاءة مشرقة أحببت أن أقدمها هنا كما أشرت في بداية هذا الملحاق الذي أرجو أن يكون ملحاق خير.

****

رجال لن ينساهم الوطن:
عبدالباقي عبدالله النوري (١)

توفي هذا الرجل الكريم منذ عهد قريب، ففقدت الكويت بفقده من أحبها، وأخلص لها وعمل الكثير من أجلها طوال حياته، وفقدت أنا صديقًا عزيزًا وجدت فيه الإخلاص والوفاء، واحتفظت له بأغلى ما في قلبي من المودة. عرفته منذ فترة طويلة تصل إلى السنوات الأولى من ستينيات القرن الماضي، ولم أجد منه إلا التفاني في رعاية أصدقائه والتواصل معهم، ولم يكن يترك فرصة تمر دون أن يتم لقاء أو اتصال هاتفي يعبر فيهما عن محبته، وحرصه على ألا ينقطع عن ارتباطه بأصدقائه. وكان رحمه الله حريصًا على أن نلتقي في ديوانية الثلاثاء، وحتى أيامه الأخيرة فإنه كان يأتينا وهو مُتعب من أثر الأمراض التي ألمت به في أواخر سني حياته، وكنا نراه في أيامه الأخيرة فنتألم للضعف الذي أصابه، ونعجب لحرصه وهو في هذا التصرف على عدم الانقطاع عن أولئك الذين أحبهم وأحبوه وارتبطوا معه برابط الأخوة والصداقة طوال سنيٍّ مضت، وله مع أكثرهم ذكريات لا تُنسى.

هذا هو عبدالباقي عبدالله النوري الذي فقدناه أخيرًا وخسرنا بوفاته أخًا عزيزًا، وخسرت الكويت بذلك ابنًا من أبنائها الذين عملوا من أجلها في شتى المجالات.

ولد صاحبنا في اليوم الرابع والعشرين من شهر يناير لسنة ١٩٢٩م في مدينة الكويت، وكان سكن أهله وقتذاك في سكة عنزة، وهي سكة معروفة كان يسكنها عدد من أبناء البلاد، وكان محبًّا لمسقط رأسه ويذكر أيامه الأولى هناك بكل خير.

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٠/٩/١٥م.

وكانت نشأته في ظل والده الشيخ عبدالله النوري المعروف بعلمه وفضله، وكان مدرسًا في المدرسة المباركية والمعهد الديني ومفتشًا للمساجد، وصاحب منصب مهم في دائرة المحاكم، وكان مديرًا للإذاعة الكويتية عند نشأتها، وكانت له مؤلفات متنوعة وديوان شعر، وله برامج يرد بها على أسئلة السائلين في كل من الإذاعة والتلفزيون، وكانت نشأة الأستاذ عبدالباقي في بيت العلم هذا وفي ظل هذا الوالد الحريص على نشر العلم بين الناس من أهم الأسباب التي كفلت إقباله على الدراسة وتقدمه فيها.

بدأ أبونوري ونحن نكنّيه دائمًا: أبو عادل، دراسته في مدرسة الشيخ زكريا الأنصاري، وموقعها ليس ببعيد عن سكنهم، ثم مدرسة ملا عثمان بسوق الماء، وانتقل فجأة إلى مدرسة الملا محمد المسباح في حي العاقول، ومن بعد هذه المدرسة توجه إلى الدراسة في المدارس التابعة لدائرة معارف الكويت، فتقدم أولًا إلى المدرسة القبلية، ثم اتجه إلى المدرسة الشرقية، ثم المباركية، وعندما أنهى الصف الأول الثانوي في مدرسته الأخيرة أرسل في بعثة إلى القاهرة لاستكمال دراسته، وكان التعليم الثانوي غير مكتمل في الكويت آنذاك، ولذلك أرسل هو وزملاؤه الذين كانوا معه في هذه السنة الدراسية إلى هناك.

وفي القاهرة كان له اهتمام كبير بمتابعة دراسته وكان له في الوقت نفسه اهتمام بمزاولة الأنشطة المختلفة التي كان بيت الكويت في القاهرة يقوم بها التحق بمدرسة الصناعات الميكانيكية هناك، وبدأ كعادته بالنشاط فاشترك في ندوة أقيمت هناك في ذلك الوقت. وكان موضوع الندوة هو: «ما هي أهم الوسائل الثقافية التي لابد من توافرها لخلق جيل مثقف، وما الذي ينقصنا في الكويت؟».

وقد أدار الندوة المشرف على بيت الكويت في ذلك الزمان وهو الأستاذ عبدالعزيز حسين وشارك فيها كل من محمد الفهد ويوسف إبراهيم الغانم

وعبدالحميد الناصر، وإبراهيم الملا وفيصل الصالح وعبدالرحمن العوضي بالإضافة إلى عبدالباقي النوري.

وفي شهر يوليو لسنة ١٩٤٧م انتقل صاحبنا إلى السنة الثالثة بمدرسة الصناعات الميكانيكية، وكان معه أربعة من زملائه. واستمر في تقدمه الدراسي حتى أتم دراسته في شهر يوليو لسنة ١٩٥٠م مجتازًا السنة الخامسة والأخيرة من مدرسة الصناعات الميكانيكية. وشد الرحال بعد ذلك إلى بريطانيا فوصلها في شهر سبتمبر لسنة ١٩٥٠م من أجل إكمال دراسته التي بدأت في مصر، وكان - آنذاك - حاملًا لدبلوم الصناعات.

أما من حيث أنشطته المصاحبة لمسيرته الدراسية فإنه كان يشارك في كثير مما يشد اهتمام المبعوثين معه، وقد ذكرنا أنه شارك في ندوة من الندوات التي عقدت في بيت الكويت بالقاهرة. ولقد شارك في ندوة أخرى في المكان نفسه في شهر أغسطس لسنة ١٩٤٨م، كان مدير الندوة هو الأستاذ عبدالعزيز حسين واشترك فيها بالإضافة إلى عبدالباقي النوري كل من خالد الجسار وأحمد العدواني وسليمان إسحق وعبدالرحمن العوضي وآخرون. وكان موضوع الندوة هو ملاحظات الحاضرين على التطورات التي حدثت في البلاد مما لمسوه خلال زيارتهم لوطنهم أثناء العطلة الصيفية.

واستمرارًا لحبه للتمثيل فإنه اشترك مع زملائه في القاهرة في شهر يناير لسنة ١٩٤٩م في تمثيلية أقامها بيت الكويت بمناسبة المولد النبوي الشريف. ولم يشغله هذا النشاط عن التقدم في دراسته فانتقل في السنة نفسها إلى الصف الخامس في مدرسة الصناعات الميكانيكية. وفي شهر يوليو لسنة ١٩٥٠م أعلن تخرج عبدالباقي في مدرسته - كما قلنا سابقًا - وآن له أن ينتقل إلى بريطانيا لاستكمال دراسته، ولقد كان ضمن مجموعة من الطلاب احتفت بالشيخ فهد

السالم الصباح عند وصوله إلى لندن في شهر ديسمبر لسنة ١٩٥٠م والتقطت بعض الصور بهذه المناسبة، كما شارك في حضور مأدبة أقامها الشيخ سعد العبدالله السالم الصباح في لندن تكريمًا للطلبة الكويتيين هناك.

وفي لندن عاود الاشتراك في الندوات، وكان ذلك في سنة ١٩٥٢م حين دعا الأستاذ عبدالعزيز حسين إلى لقاء حول موضوع المقارنة بين طبيعة الأعمال في بريطانيا وفي الكويت، وكان مما قاله الأستاذ عبدالباقي النوري في هذه الندوة: «إن من أهم ما لحظته هنا، هو العناية بالعمال عناية رفعت من مستواهم، وحسنت أحوالهم المادية والاجتماعية، وبذلك كفل نجاحهم في عملهم، فحبذا لو أُلِّفت عندنا لجنة تشرف على شؤون العمال الكويتيين، وتنظر في أمورهم ورفع مستواهم» وكأن صاحبنا ينظر بعين الغيب فلم تمض مدة طويلة حتى نشأت دائرة الشؤون الاجتماعية والعمل في الكويت وتولت هذه المسؤولية.

تخرج عبدالباقي عبدالله النوري وصار متخصصًا في الهندسة الميكانيكية وذلك في سنة ١٩٥٥م، وفور عودته من بريطانيا حيث درس وصار مدرسًا في الكلية الصناعية وسرعان ما رقي فصار وكيلًا لها، وفي السنة الدراسية ١٩٦٢-١٩٦٣م صار أول مدير كويتي لهذه الكلية.

ولما وجد أن طاقاته أكبر من هذا العمل عزم على خوض انتخابات مجلس الأمة ففاز في الفصل التشريعي الأول (١٩٦٣-١٩٦٧م) بعضوية هذا المجلس كما فاز في الفصل التشريعي الثاني (١٩٦٧-١٩٧٠م) ولم يكتف هذه المرة بعضوية المجلس فرشح نفسه لأمانة السر وفاز بها.

وكان نشاط صاحبنا كبيرًا بصفته عضوًا في مجلس الأمة، وكانت مبادراته تتوزع على عدة وجوه من وجوه المتابعة التي يقتضيها المجلس وهي:

١ - الأسئلة المقدمة للوزراء.

٢ - الاقتراحات بقانون.

٣ - الاقتراحات برغبة.

وفيما يتعلق بالبند الأول فقد وجدنا له في الفصل الأول سبعة عشر سؤالاً يتعلق بعضها بالأمور التربوية وبعضها الآخر بالإسكان، والشؤون الصحية، وتنظيم الأراضي وإنشاء مركز الضاحية الخاص بالقادسية والفيحاء، ومشروعات الطرق، وآخرها تساؤل عن السبب في تأخير تقديم الحساب الختامي لميزانية الدولة عن السنة المالية ٦٥/٦٤ إلى مجلس الأمة. وهكذا نرى تنوع اهتماماته، واختياره للموضوعات المهمة ذات الأثر في حسن سير العمل في الدولة، وهي - أيضًا - أسئلة عامة لا ترتبط بمنطقة انتخابية معينة إلا في موضع واحد فقط هو سؤاله عن إنشاء مركز الضاحية كما أشرنا قبل قليل ولاشك في أن هذا السلوك يدل على يقينه بأن عضو مجلس الأمة يمثل الكويت جميعها لا المنطقة التي جاء منها فحسب.

أما البند الثاني وهو الخاص بالاقتراحات بقانون، فمن المعروف أن التقدم باقتراح من هذا النوع يقتضي أن يتعاون مع عضو مجلس الأمة واحد من زملائه أو أكثر وهذا هو ما رأيناه في الاقتراحات التي قدمها، وهي أربعة قوانين كان المشارك له في تقديمها المرحوم خالد المضف، واشترك معهما في الاقتراح الأول المرحوم خالد المسعود الفهيد، وكان هذا الاقتراح بقانون يدعو الحكومة إلى أن تضع يدها على الأراضي الواقعة بين الطريقين الدائري الرابع والدائري الخامس.

وكان مشروع القانون الثاني يدعو إلى تمليك موظفي وعمال شركة نفط الكويت من الكويتيين المساكن التي خصصتها لهم الشركة المذكورة بموجب عقد إيجار.

أما المشروع الثالث فكان بشأن بدل الأطفال الثلاثة الأول بحيث يكون للعمال والمستخدمين الكويتيين والاقتراح الرابع يتضمن مشروع قانون ينظم علاقة العمال بشركات النفط.

هذا وقد يكون الزمن قد تقدم كثيرًا بعد هذا، وقد تكون بعض الأمور قد جاء ما هو أفضل منها بحكم التطور ولكنها اقتراحات كانت مهمة في وقتها، وكانت هي البداية التي فتحت الطريق أمام مكاسب أخرى.

وإذا انتقلنا إلى سير الأمور في مجلس الأمة، فإن البند الثالث الخاص بالاقتراحات برغبة ينبغي أن يشترك فيه عدد من الأعضاء للحصول على الدعم الملائم، ولذا فإن أول اقتراح من هذا النوع اشترك صاحبنا في تقديمه مع اثني عشر عضوًا، وكان موضوعه: طلب تشكيل لجنة من سبعة أعضاء من مجلس الأمة لدراسة أوضاع أجهزة الدولة وإصلاح الخلل الموجود فيها. ولقد جاء منه هذا الاقتراح مع أربعة عشر اقتراحًا آخر تناولت طلب طرح موضوع الجنسية، وتعديل تعيين خريجي الكلية الصناعية، وطلب إلغاء البند الذي يبيح لبريطانيا أن تهب لمساعدة الكويت عند تعرضها للخطر وذلك ضمن المراسلات التي أدت إلى استقلال الكويت، وقد أثبتت الأيام عدم جدوى هذا الاقتراح على الرغم من نجاح المجلس في إقراره، وكان ضمن تلك الاقتراحات برغبة ما يتعلق بالطرق، وأسعار اللحوم، وتحديد أسعار المواد الغذائية، وغير ذلك من الأمور العامة ذات الأهمية في وقتها.

بعد أن اجتاز الأستاذ عبدالباقي مرحلة التعليم ثم مرحلة عضوية مجلس الأمة دخل مرحلة جديدة واسعة متشعبة إذا عرضنا شيئًا منها عرف القارئ كيف أن هذا الرجل مقبول لدى الناس، موفق في أعماله يتجدد نشاطه من وقت إلى آخر بحيث نراه مرة في نشاط صناعي وأخرى في نشاط نفطي، ثم في نشاط اجتماعي، وآخر تربوي إلى آخر القائمة الطويلة من أعماله.

أسس وتولى رئاسة مجلس إدارة المواصلات الكويتية (شركة النقل العام)، وقدم الكثير في هذه الشركة حتى عمت خدمتها كافة الأماكن في البلاد.

ثم صار مديرًا لشركة الصناعات الوطنية، وسار بها خطوات مهمة، ولم ينتقل منها إلا وقد أسهم في تأسيس عدد من المشروعات المهمة التي كان منها مصنع البطاريات ومصنع المنظفات الكيماوية.

وبعد هذه المرحلة صار رئيسًا لمجلس إدارة شركة صناعة الكيماويات البترولية وعضوًا منتدبًا بها، وقد تأسست خلال فترة عمله شركة الخليج لصناعة البتروكيماويات في البحرين، وخلال هذه الفترة كان عضوًا في مجلس إدارة مؤسسة البترول الكويتية، وعضوًا في لجنة تنمية الصناعة ممثلًا لغرفة تجارة وصناعة الكويت، وكان عضوًا منتخبًا في مجلس الغرفة المذكورة.

أسهم في تأسيس الاتحاد العربي لصناعة الأسمدة الكيماوية وصار رئيسًا له، وترأس مجلس إدارة المنظمة العالمية لصناعة الأسمدة، وهي منظمة عالمية تشارك فيها كل الشركات المنتجة للأسمدة الكيماوية في دول العالم، وكان أول رئيس في تاريخ هذه المنظمة يكون منتميًا إلى دول العالم الثالث.

وشارك في عدد كبير من المؤتمرات والندوات المحلية والخليجية والعربية والإقليمية وكذلك ما يعقد منها في دول العالم الأخرى، وكان مسهمًا بارزًا في قيادة أعمال هذه المؤتمرات والندوات فقدم لها أبحاثًا كثيرة وزودها بأوراق عمل مهمة في مجالي الصناعة والتعليم الصناعي، مع تركيزه على موضوع صناعة البتروكيماويات.

وكان في هذه الفترة نائبًا لرئيس مجلس إدارة البنك التونسي الكويتي للتنمية.

وكان رئيس مجلس إدارة الشركة الصينية العربية للأسمدة، وكذلك شركة الخليج لصناعة البتروكيماويات، وكان - في الوقت نفسه - رئيس مجلس إدارة

الشركة التركية الكويتية للأسمدة الكيماوية، ومن أنشطته الأخرى: - مساهمته في تأسيس جمعية المعلمين الكويتية وكان دوره بارزًا في هذا العمل إذ تولى مسؤولية رئاسة لجنة التأسيس.

- شارك في تأسيس جمعية الشيخ عبدالله النوري الخيرية التي لاتزال تعمل في مجال الخيرات.

- أنشأ عددًا من المدارس الخاصة وتولى مسؤولية إدارتها ومتابعة أنشطتها. وبهذه الصفة تولى رئاسة مجلس إدارة الاتحاد الكويتي لأصحاب المدارس الخاصة والمعاهد الثقافية.

- كان عضوًا في مجلس إدارة الجمعية الكويتية لمساعدة الطلبة، وكانت هذه الجمعية عند تأسيسها تعمل تحت اسم: جمعية الجنوب والخليج العربي لمساعدة الطلبة.

هذا الذي ذكرناه قليل من كثير مما قام المرحوم عبدالباقي عبدالله النوري بعمله، وسوف تُبدي الأيام لنا أمورًا أخرى كان يقوم بها على هذه الشاكلة من الأعمال، ولم تتح لنا فرصة الاطلاع عليها.

إن الحياة العريضة التي عاشها هذا الرجل، والتجارب الكثيرة التي خاضها صنعت منه إلى جانب حبه لوطنه وإخلاصه له إنسانًا يعمل دون كلل في سبيل تقديم ما ينبغي تقديمه من عمل للوطن وللمواطنين، وكان ذلك كما رأينا جدًّا لا يقتصر على فرع من فروع الحياة في الكويت بل كان يهتم بكل شيء، ولذا فقد كانت له بصمات واضحة في عدد من المشروعات الحيوية، وكان له دور بارز في مجلس الأمة عندما كان أحد أعضائه.

في ذمة الله هذا الإنسان الوفي العامل الذي ترك في نفوس أصحابه - وأنا منهم - لوعة لفراقه وأسفًا عليه.

****

ملحاق خير

بعد أن تقاعد الأستاذ عبدالباقي عبدالله النوري من جميع أعماله تفرغ لأمرين أولهما: التزاور مع الأصدقاء، واستقبالهم في ديوانية النوري، وزيارة بعض الديوانيات، وحضور جلسات أوائل أعضاء جمعية المعلمين التي تعقد يوميًا فيحضرها الرعيل الأول من مؤسسي الجمعية، فهناك يجد له أصدقاء أمضى معهم فترة سعيدة من حياته، بحيث لا يستطيع الاستغناء عنهم. أما ثاني الأمرين: فكان اهتمامه بالزراعة عن طريق اقتناء مزرعة في الوفراء كان يقضي بها أيامًا كثيرة، ويتتبع إنتاجها تتبع المربي لولده تسعده الخضرة، ويهنأ بالهدوء، ويجد في ذلك المكان كل ما يغذي هوايته، ويملأ وقت فراغه بشيء منتج. ولذا فقد رأيناه يستزرع نباتات لم تكن تُزرع في الكويت من قبل، ويأتي بها إلى أصدقائه مسرورًا بما أنتج مرتاحًا إلى حسن تقبل الصحب لهذا الإنتاج. أذكر أنه دخل علينا يومًا في ديوانية الثلاثاء وكان يحمل معه عددًا من العلب البلاستيكية تضم نوعًا مما أنتجته مزرعته وكان هذا النوع مثيرًا لدهشتنا إذ لم نكن نظن أن استنباته في الكويت ممكن. كان ذلك هو السبال (ولغير الكويتيين هو ما يسمى الفول السوداني) كان عجبًا أن نراه طازجًا بين أيدينا، واشتد عجبنا حين أخبرنا أنه من إنتاج مزرعته في الوفراء.

ولقد داعبته مرة بأبيات أرسلتها إليه مع أخيه الأستاذ الصديق أنور عبدالله النوري، وكتبت أريده ألا يطيل المكث هناك لأننا نريده بيننا، وفي الأبيات إشارة إلى صعوبة البقاء في الوفراء لمدة طويلة وقد بدأتها هكذا:

جاوزتْ طول الكون والعُرض
واخترتَ منه آخر الأرضِ
أحدثتَ في الوفراء مزروعةً
في كلِّ يومٍ نحوها تمضي
إن تكن الخضرة مطلوبة
هناك حول الزَهَر الغضِّ
فإن فيها فيلقًا كاملا
من الذُّبابِ الجارحِ الغضِّ

ثم قلت في نهايتها:

دمتَ سعيدًا يا أبا عادلِ
وعشتَ من دنياكَ في خَفضِ
كم نتمناكَ هنا بيننا
بفكركَ الثَّاقبِ ذي الومْض
حديثك العذب شفاء لنا
إن جاءَ في بَسْط وفي قبض
والكلُّ مشتاق إلى ساعة
تشعرُ فيها بالهوى المحض

وبعد، فإن الذكريات من صاحبنا كثيرة، ولذا فإنني أشعر أن كتابتي عنه وإن طالت لا تكفي لكي أقدم عنه كل ما عندي، ولا يسعني في نهاية المطاف إلا أن أدعو له الله سبحانه بالرحمة والمغفرة.

****

رجال لن ينساهم الوطن:
السفير مجرن أحمد الحمد (١)

بكل تأكيد فإن وطننا لن ينسى رجلًا مثل هذا الرجل عمل لصالحه في أكثر من مجال وتواصل مع المواطنين بحيث لم ينقطع عنهم حتى في أيامه الصعبة، وترك في نفوس كل الذين يعرفونه مودة ثابتة لا تزول.

إنه المرحوم مجرن أحمد الحمد المجرن الذي أمضى حياته في خدمة الكويت وأهلها، ولم ينقطع عن التواصل مع الناس حتى وهو مريض، فكم من مَرّةٍ قد شاهدته في بعض الديوانيات يزور روادها على الرغم من عدم قدرته على المشي، وكان هذا الأمر يرفع قَدْرَه في عيون الجالسين، فيسعون إلى السلام عليه والدعاء له قبل أن يباشرهم بالسلام.

ولد مجرن الحمد في سنة ١٩٢٩م، وابتدأ عمله في الدوائر الحكومية في اليوم الأول من شهر يونيو لسنة ١٩٥٠م وكان ذلك في دائرة الشرطة والأمن العام التي صارت فيما بعد وزارة الداخلية، وبقي فيها ما يقرب من اثنتى عشرة سنة كان خلالها مثال الموظف الأمين الذي يُشَرِّفُ وظيفته قبل أن يتشرف بها. ولما كان عمله في هذه الدائرة مشهودًا، فقد قامت وزارة الداخلية بإطلاق اسمه على قاعة المراجعين في مبنى الإدارة العامة للجنسية ووثائق السفر. وبعد هذه الفترة الخصبة من العمل في مجال الشرطة والأمن العام انتقل في اليوم العاشر من

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٠/٩/٢٢م.

شهر فبراير لسنة ١٩٦٢م إلى وزارة الخارجية ليعمل في السلك الدبلوماسي الذي كان وليدًا في الكويت يومذاك، وقد عين فورًا بسفارة الكويت في طهران بدرجة سكرتير ثان. رقي بعدها بشهور قليلة إلى درجة سكرتير أول.

وفي اليوم الثامن من شهر يونيو لسنة ١٩٦٣م، عاد إلى العمل في الديوان العام للوزارة، وكلف بمهمة مديرًا إدارة المحفوظات بالنيابة. وفي هذه الأثناء كان يواصل رُقيّه في السلك الدبلوماسي، فصار بدرجة مستشار يوم السابع عشر من شهر يناير لسنة ١٩٦٥م، وبقي في عمله الأخير هذا إلى اليوم الأول من شهر يوليو لسنة ١٩٦٧م حيث نقل إلى سفارة الكويت في دمشق، وفي اليوم الثالث من شهر أغسطس لسنة ١٩٦٨م رقي إلى درجة وزير مفوض، وصار هو سفير دولة الكويت لدى الجمهورية العربية السورية. وانتقل بعد ذلك للعمل سفيرًا للكويت لدى المملكة العربية السعودية في اليوم الثالث من شهر مايو لسنة ١٩٨٠م، وحصل على درجة سفير في اليوم التاسع من شهر سبتمبر لسنة ١٩٧٢م، وفي اليوم الرابع عشر من شهر أكتوبر لسنة ١٩٧٢م صار سفيرًا لدولة الكويت لدى الجمهورية التونسية.

وفي اليوم الخامس عشر من شهر نوفمبر لسنة ١٩٨٧م، جرى نقله إلى ديوان الوزارة العام، وعين في ديسمبر وهو الشهر الذي تلا نقله مديرًا لإدارة الشؤون الإدارية والمالية، وبقي بها حتى شهر فبراير لسنة ١٩٩٣م. ثم تقاعد في شهر أبريل من السنة ذاتها.

ولم ينس أصحابه ولا الذين كانوا يشهدون عمله في مواقع العمل التي تولاها جهوده ولا خدماته لهم، ولا حرصه على أداء واجبه تجاه وطنه، ولذا فقد كانت الصلة به قوية وهو بعيد عن المناصب وكان يذكر دائمًا بكل خير ويدعو له الجميع بالصحة والعافية، وبقي كما ذكرنا على تواصله مع الجميع حتى أقعده المرض ثم انتقل إلى رحمة الله تعالى.

كان مجرن أحمد الحمد شعلة من النشاط طوال حياته وكان عمله خارج الحكومة لا يتعارض مع عمله الحكومي، ولذا فقد أنجز الكثير من الأعمال التي كان منها اشتراكه في النشاط الرياضي منذ سنة ١٩٤٧م، فهو من مؤسسي النادي الأهلي الرياضي الذي اكتسب سمعة طيبة في مجال الرياضة والثقافة في الكويت، وكان مجرن أحد إدارييه ولاعبيه.

وفي الأخبار التي وردت في نهاية سنة ١٩٥١م خبر مؤداه أن دائرة معارف الكويت قد أزمعت تكوين اتحاد رياضي كانت الحاجة ماسة إليه، ويومذاك كان من مهام هذه الدائرة الإشراف على النشاط الرياضي في البلاد؛ وقد تقرر تشكيل لجنة فيهم المرحوم مجرن الحمد لدراسة الفكرة من حيث المبدأ ثم وضع تصورات للعمل في حالة قبولها، وقد تم عمل اللجنة بنجاح.

ومما حدث - رياضيًّا - في سنة ١٩٥٢م أنه قد جرت انتخابات في النادي الأهلي الكويتي لاختيار الهيئة الإدارية المشرفة عليه، وقد تم انتخاب مجرن الحمد عضوًا فيها. وكانت الهيئة تتكون بالإضافة إليه من كل من:

١ - عبدالرزاق أمان.

٢ - عبدالعزيز محمد جعفر.

٣ - الدكتور أحمد الخطيب.

٤ - يعقوب يوسف الحمد.

٥ - يوسف إبراهيم الغانم.

واهتم إلى جانب ذلك بالصحافة فكان له نشاط بارز فيها يتمثل في إصداره لمجلة أضواء الكويت وقيامه برئاسة تحريرها، وهي مجلة أسبوعية مصورة يجدُر بنا أن نقف على عدد من أعدادها حتى نلم بصورة من صور الصحافة في أوائل

ستينيات القرن الماضي، وجهود أبناء الكويت المبذولة للحاق بالمسيرة الصحافية التي كانت نشطة - آنذاك - في الوطن العربي كله.

بين يدي الآن العدد الثامن من مجلة أضواء الكويت الصادر في يوم السبت السابع من شهر يوليو لسنة ١٩٦٢م، ولا ننسى أن هذا التاريخ قريب من تاريخ انتهاء الاتفاق التعاقدي مع بريطانيا في اليوم التاسع عشر من شهر يونيو لسنة ١٩٦١م، وكانت الكويت في وقت صدور «أضواء الكويت» في حركة نشطة لتعويض ما فات خلال السنوات التي سبقت الاستقلال، وكانت الحياة في مختلف جوانبها تُنبئ عن جهود قائمة وعن جهود قادمة من أجل أن يلحق الوطن بالبلدان التي سبقته، وقد كان له ذلك في فترة قصيرة دلت على أن الرغبة العارمة التي كانت تسيطر على الحكومة وعلى أبناء الشعب كانت تملأ الجميع أملًا في التقدم والرقي. ومجلة أضواء الكويت إنما هي صورة للأعمال الصحافية وغيرها في ذلك الوقت، ويكفي أن يطلع القارئ على مجمل الإعلانات التجارية الواردة في العدد الذي بين يدي من هذه المجلة ليعرف مدى النشاط والحركة في البلاد كلها لأن السوق إنما هو صورة للحيوية التي تعم كل شيء، وكثرة الإعلانات دليل على نمو السوق وسرعة حركته.

مجلة أضواء الكويت التي نعود هنا إلى الحديث عنها مجلة صغيرة الحجم ولكنها مليئة بالمحتوى، كانت تطبع في مطبعة الشرق الأوسط بالكويت، وكان ثمنها في سنة ١٩٦٢م لا يزيد عن عشرين فلسًا، وكان هذا هو مستوى أسعار الصحف في ذلك الوقت قبل أن تتطور فتصبح أكثر كلفة وقبل أن ترتفع أسعار الورق إلى حد غير معقول.

قارئ هذا العدد وهو الثامن يلاحظ بعض الملاحظات وهي ملاحظات قد تدل على طبيعة الصحف في ذلك الوقت وقد تدل على تميز ظهرت به هذه المجلة. فمن الملاحظات أن صفحات أضواء الكويت غير مرقمة إلاّ فيما ما ندر، ويبدو

أن الترقيم لا يأتي إلا في حالة واحدة وهي أن يكون المقال المكتوب في صفحة ما له بقية في صفحة أخرى. كما أن من الملاحظات كثرة الإعلانات بصورة تلفت النظر، وقد لاحظت أن أكثر السلع المعلن عنها قد انقطعت عن المجيء إلى أسواق الكويت، أو أن الجهة المعلنة قد أغلقت أبوابها في هذه الأوقات التي نعيشها خذ مثلًا ثلاجة (بهر) التي أطلق الإعلان عليها: ثلاجة القرن العشرين أين هي الآن؟ وسيارة (برنس) التي كانت وفق الإعلان: ثورة في عالم السيارات وفخر الصناعة اليابانية أين هي؟ وأين مكيفات عنتر التي كانت مشهورة في ذلك الزمان؟ وكان منها أول مكيف استعملته في حياتي؟

ولكن المجلة – على كل حال – منوعة، وفيها فوائد كثيرة لا يستغني عنها القارئ. وحتى الإعلانات التي قد تزعج كثرتها، هي بمثابة تذكير بما كان سائدًا في وقت صدورها من محلات تجارية وفنادق، وما كان يباع من أدوات كهربائية منوعة.

يبدأ العدد الذي نتحدث عنه بإعلانين كبيرين على صفحتين، ثم يأتي مقال تحت عنوان: حديث السبت وهو اليوم الذي تصدر فيه المجلة، والمقال طويل بحيث كانت له بقيتان في موضعين آخرين من المجلة، وكان كاتبه ياسر عبدربه، ونحن نعرف أن شخصًا بهذا الاسم كان ناطقًا باسم عرفات ولعله أن يكن هو، ونكتفي بالظن لأننا نفتقد إلى من يدلنا على حقيقته. ويبدو أن المجلة كانت مهتمة بهذا الكاتب بدليل أنها نشرت في باب «مع القراء» في آخر العدد مناشدة لثلاثة من قرائها يطلبون استمراره في الكتابة وأحدهم يعرض عليه موضوعًا للكتابة عنه. ومن ذلك قول المجلة: «أما السيد مصطفى خالد فقد قال: إن أول شيء أقرأه في مجلتكم هو حديث السبت، فإنه ممتع، ومفيد، وفيه صور من مجتمعنا حقيقية ومنطقية، فإلى ياسر عبدربه تحيتي على تصويره الرائع لمجتمعنا المنهك»».

ونحن نعرف أن بعض الصحف كانت تلجأ إلى ما يسمى الفبركة في ذلك الوقت الذي لا يتجاوب فيه القراء مع الصحافة، وواضح في هذه الصفحة ما أرمي

إليه من واقع ما أراه من اهتمام «أضواء الكويت» بهذا الكاتب ورغبتها في (تلميعه)، وقد لمح إن كان هو ما أشرت إليه، أما ما جاء في الرسالة فهو غريب لأننا لا ندري عن هذا المجتمع المنهك الذي يقصده، هل هو مجتمع الكاتب في البلد الذي ينتمي إليه؟ أم أنه يقصد مجتمع الكويت، ولم يكن مجتمع الكويت منهكًا في ذلك الوقت بل كان مجتمعًا نشيطًا تكثر فيه الأعمال ويعم فيه التواصل بين الناس، وأية إشارة من هذا النوع الذي ورد في رسالة القارئ لا معنى لها إلا إذا كانت إشارته إلى مجتمع آخر ينتمي إليه الكاتب والقارئ معًا.

نعود الآن إلى العدد الثامن من المجلة فنجد بعد ذلك كلمة تحتها توقيع مبهم هو «صحافي» وهي تحت عنوان: «بلا قيود» وفيها ينحو باللائمة على منتحلي الصفة الصحفية، ومحاولتهم المستمرة للنيل من زملائهم.

وفي الصفحة ذاتها تأتي بيانات المجلة كاملة وقد أشرنا إلى شيء منها فيما سبق. ومن المعروف أن صاحب الامتياز هو مجرن أحمد الحمد، وقد تبين أن المجلة تصدر عن شركة هي: شركة سنيبكو للإعلان والتجارة، وأن هذه الشركة يمتلكها كل من مجرن الحمد ومصطفى مناع.

وفي صفحة لاحقة نجد العنوان التالي: «باسم الكويت: سعادة وزير الإرشاد والأنباء يهنئ الجزائر بيوم نصرها المبين» وكان الوزير هو صاحب السمو الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح أمير البلاد، وقد وضعت له المجلة صورة تمثله في ذلك الوقت. وغني عن التعريف أن نذكر موقف الكويت من دعم وكفاح الجزائر من أجل استقلالها، وأن نذكر ما بذل من جهود وأموال في إطار هذا الدعم، وقد قالت المجلة يومذاك: «أذاع صاحب السعادة الشيخ صباح الأحمد وزير الإرشاد والأنباء الكلمة التالية بمناسبة إعلان استقلال القطر الجزائري الشقيق: في هذا اليوم التاريخي الذي أعلنت فيه الجزائر الشقيقة إرادتها واغتصبت حريتها وبرهنت

للعالم أجمع على أنها جديرة بالسيادة والاستقلال أقف وأنا في غمرة من فرح واعتزاز لأبعث باسمي وباسم الشعب الكويتي التهاني للشعب الجزائري البطل الذي أراد الحياة حرة كريمة فكان له ما أراد.

وفي هذا اليوم التاريخي الذي انتصر فيه إخواننا المناضلون من أحرار وحرائر في الجزائر الشقيقة المجاهدة، بعد أكثر من سبع سنوات من حرب التحرير وبعد مائة وثلاثين سنة من الاحتلال الفرنسي، يهلل الشعب العربي لهذا النصر الرائع الذي حققه شعبنا البطل في جزائرنا العربية. كما يلتفت العالم كله إجلالاً وإكبارًا للنضال الشريف الأبي الذي طلع على الدنيا بالنتيجة الحتمية الخالدة والكويت، أيها المواطنون في هذا اليوم الأغر بوصفه جزءًا من الوطن العربي الكبير وعضوًا في الأمة العربية الواحدة باقية على العهد. حكومةً وشعبًا لمواصلة عزمها الدائم الأكيد على مناصرة الجزائر الشقيقة وشد أزرها في المعركة المقبلة. معركة البناء والعمران معركة النهضة الخلاقة حتى يستطيع الركب العربي أن يضرب في ميادين الحضارة مؤديًا رسالة العروبة الخيرة إلى الإنسانية جمعاء.

فباسم دولة الكويت وعلى رأسها أميرنا المحبوب وباسمكم أيها الأخوان والأخوات أهنئ الجزائر البطلة وأهنئ الكويت وكل أرض عربية بهذا الحدث التاريخي العظيم. والله أكبر والسلام عليكم».

بعد ذلك تأتي فقرة عنوانها (قالوا..) وهي عبارة عن أقوال منوعة، ولقد كانت أقوال هذه الفقرة كلها تنصب على المرأة، ومن ذلك:

- كل امرأة مخطئة حتى تبكي، وعندها تصبح على حق فورًا.

- أشد ما يغضب المرأة أن تقول لها أنها عجوز.

وهكذا..

وكأن هذا لم يكف فجاءت بعد ذلك فقرة عنوانها: قالوا في المرأة، وهي أقوال على النمط السابق ذكره.

وفي مقال لاحق تحت عنوان: «المراهق. لمجتمعه صورة واضحة، وحقيقة فاضحة» كتب إسماعيل الصمادي عن المراهقة والمراهقين ولكن من يقرأ المقال يدرك أنه لا يقصد مجتمعنا ولا مراهقنا وإنما يقصد ما شاهده في البيئة التي جاء منها فالكاتب من وحي اسمه نستطيع أن نعرف من أين أتى.

وتحدثت المجلة عن دليل الكويت التجاري الذي صدر في ذلك الوقت، ولم يكن الدليل خاصًا بالكويت فقد شمل عددًا من الدول العربية، ومن الجدير بالذكر أنه طبع في مطبعة الطلبة التي كان يملكها الأخ عبدالرحمن الخرجي.

وشهدت الصفحات التالية مزيدًا من الطرائف حول العالم يصعب علينا الآن أن نثبت شيئًا منها لضيق المجال.

أما قصة العدد فكانت تحت اسم: «الغفران» وهي مترجمة عن هنري مورياك، ولكننا لا نعرف اسم مترجمها، وفي صفحتين متقابلتين نشرت «أضواء الكويت» على صفحة منهما أغنية من أغاني فيروز المعروفة وهي: «اسهار بعد اسهار»، وكان الفنان محمد عبدالوهاب قد قام بتلحينها لها.

ثم نشرت فيما يقابل هذه الصفحة إعلانًا عن منتج كان مهمًا في ذلك الوقت ولكنه الآن قد تراجع إلى الوراء، وهو موقد الكيروسين المعروف، والسراج الذي كان يستعمل في المناسبات لقوة إضاءته وكنا نطلق عليه اسم «تريك» وسوف يرى القارئ صورة لهذه الصفحة مع مقالنا هذا.

هذا وكان للمرأة نصيبها في موضوعات لاحقة، وكان دور مصطفى مناع بارزًا في الكتابة للمجلة، وهو يكتب عادة تحت عنوان: «لمع من التاريخ»، وموضوع هذا

العدد عن حكاية تمت في زمن الخليفة العباسي المنصور، وواضح أن كل ما في المقال منقول نصًا من أحد كتب التاريخ جاء به أخونا مصطفى دون تعديل أو تعليق.

وعلى الرغم مما ورد في العدد الثامن من مجلة «أضواء الكويت» عن المرأة فإننا نجد بعد كل ما سلف صفحة خاصة اسمها صفحة المرأة. وكان آخر ما ورد في العدد الذي نتحدث عنه باب عنوانه: «الناس في أسبوع» وقد لفت نظري ما نشر عن الطفل (فيما مضى) نضال ابن الأخ العزيز المرحوم عبداللطيف العمر، الذي كان في ذلك الوقت زميلًا لي في وزارة الإرشاد والأنباء رئيسًا لقسم العلاقات العامة، وما ورد في صفحة «الناس في أسبوع» فيه خبر نجاح نضال من الصف الثالث وانتقاله إلى الصف الرابع، ولم يذكر كاتب الخبر شيئًا عن المرحلة الدراسية التي كان نضال فيها عندما نشر ما نشر، ولكن الصورة التي جاءت مع الخبر، ويراها القارئ مع هذا المقال تدل فيما أظن على ذلك.

كانت مجلة «أضواء الكويت» التي أصدرها المرحوم مجرن أحمد الحمد مرآة للكويت في وقت صدورها وكان تتابع أعدادها، وما تحتويه من معلومات وأخبار وتعليقات من الأمور التي تدل على مدى اهتمام صاحبنا بمجلته، ومدى حرصه على استمرار صدورها.

هذا وفي بعض الأوقات. ربما كانت هي الأوقات التي يعمل فيها مجرن في الخارج بحسب ما مرّ بنا في هذا المقال كان أخوه خالد أحمد الحمد يتولى الإشراف على هذه المجلة، وكنا نرى اسمه على بعض أعدادها مما يدل على أنه كان يزاول هذه المهمة بصورة رسمية.

والأخ خالد صديق عزيز توطدت صلتي به يوم كان مساعدًا لأمين عام مجلس الوزراء، وهو رجل عصامي حرص على بناء ذاته وتدرج في الوظائف منذ كان يعمل في دائرة معارف الكويت سنة ١٩٥٢م، أما آخر عمل له فكان توليه رئاسة الهيئة

العامة للشباب والرياضة، وعندما تولى هذه المهمة فإنه لم يكن غريبًا عن الشباب أو الرياضة فقد بدأ نشاطه الرياضي منذ سنة ١٩٥٨م حين انتخب رئيسًا لمجلس إدارة النادي الأهلي الرياضي، وكان قد مارس عددًا من الألعاب الرياضية منها ألعاب القوى، وكرة السلة والكرة الطائرة وكرة القدم، وكان في أثناء دراسته الثانوية بالمدرسة المباركية من أبرز لاعبي كرة السلة.

مازالت صلتي بالأخ خالد قوية، وهو بطبعه حريص على علاقاته بأصدقائه والالتقاء بهم. متعه الله بالصحة والعافية.

كانت هذه فرصة ملائمة للحديث عن المرحوم مجرن أحمد الحمد، وعن أنشطته المتعددة، والصفات التي تميز بها، والخدمات التي قدمها لوطنه. وكانت فرصة لعرض عدد من أعداد مجلة «أضواء الكويت» التي كان يصدرها ويشرف عليها. وسوف تكون ذكراه باقية في نفوسنا وفي نفوس الذين عرفوه وسعدوا بالاتصال به.

رحمه الله رحمة واسعة.

****

عن ابن لعبون (١)

في العدد الصادر يوم الأحد الماضي من «الوطن» (٢٠١٠/٩/١٩م) حديث نشر في صفحة الفنون مع أحد الفنانين هو السيد عبدالوهاب الراشد، وحيث إنه يصعب عليّ الاتصال المباشر به فإنني أكتب هنا ما أود إبلاغه إياه به بشأن أمر أشار إليه في حديثه المذكور الذي أجراه معه المحرر فيصل العلي.

إن ما أريد أن أشير إليه يتمثل في جزئية من جزئيات الحديث تتعلق بالسؤال الذي وجهه إليه الأستاذ فيصل، وهو سؤال عن الشاعر محمد بن لعبون .

ذكر السيد عبدالوهاب أن الشاعر محمد بن لعبون «مبدع وفنان غني عن التعريف» وهذا أمر معروف، ثم ذكر عن إبداع هذا الشاعر في الفنون والخماري، ولكنه أضاف إضافة هي الموضع الذي أردت أن أثيره هنا وهو قول السيد عبدالوهاب: «ويقال إن قبره (يقصد ابن لعبون) قرب مجلس الأمة الحالي، بدليل وجود قصيدة قال فيها:

أنا البارحة نومي تملمال
ولا نامت العين الشجية
على صاحبي زين التعزّال
لطيف الحشا جالي الثنية
يجر الهوى في سبعة أشكال
يقوده كما قود المطية

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٠/٩/٢٥م.

وانا إن مت حطوني على الجال
وحطوا لي على قبري بنية
ياكوده يمره ظبي الاسهال
يمره ويقرالي التحية

والملاحظة التي أود ذكرها هنا فيما يتعلق بهذه المعلومات هي: أولًا: أن هذه الأبيات ليست لابن لعبون، وهي مذكورة في ديوانه على أنها من الشعر المنسوب إليه.

ثانيًا: هي في المطبوعة ستة أبيات منها بيت يقول:

ولا من وطا حد المحل مال
وتلقى الزبيدي في وطيّة

وبحسب معرفتي بشعر هذا الشاعر المبدع، فإنه لا يمكن أن يقول مثل هذا البيت التافه.

ثالثًا: لأنها لا تدل على الموقع بالتحديد، ولأن هذا قول شاعر، حتى لو صح أنه من شعر ابن لعبون، والشاعر يعبر عما في نفسه، ولكنه لا يعبر عن الغيب، ولا يُلزم الناس بأن يدفنوه في مكان معين حين يموت، ونحن إذا قرأنا هذه الأبيات واستدللنا بها على ما ذكره الأستاذ عبدالوهاب فكأننا نأخذ بقول الشاعر الآخر الذي يقول في إحدى توشيحاته الصوت:

وإن مت يا أهل الهوى
بين النهود ادفنوني
لا تدفنوني بقاع

فهل يتخيل الأخ عبدالوهاب هذا الدفين الشاذ، وهل يرى أن تحقيق رغبة هذا الشاعر محقة وواجبة التنفيذ؟

على أنني أقول: إن قبر شاعرنا ابن لعبون هو - فعلًا- بالقرب من مجلس الأمة، وقد وصفته وصفًا دقيقًا دون أن أنظر إلى الأبيات التي ذُكرت؛ في مقال

من مقالات «الأزمنة والأمكنة»، وأشرت إليه كذلك في كتابي : «الأغاني في التراث الشعبي الكويتي» الذي صدر في سنة ٢٠٠٠م، وكان أول مرجع يشير إلى موقع قبر ابن لعبون، ومن كتب بعده إنما لجأ إليه دون أن يشير إلى ذلك، وتفصيل هذا في كتابي المذكور، وقد كان مما جاء فيه: «وكان من قبل (أي القبر) ظاهرًا للعيان، ولكن عوادي الزمن أزالت أثره، ونذكر ممن يعرف مكانه من القدماء جدي سليمان العبدالله الجراح، وهو أصلًا من سكان «حرمة» الوطن الأصلي لأسرة الشاعر، وقد أوقف (الجد) حفيده الشاعر المرحوم عبداللطيف عبدالرزاق الديين على موقع القبر، وقام عبداللطيف بتعريف عدد من الناس بهذا الموقع منهم الأخ الشاعر عبدالعزيز سعود البابطين، وكاتب هذه السطور».

إذن فإن المسألة واضحة، والخبر منقول عن ثقة وصاحب صلة بالشاعر، وليست مسألة (يقال) كما ذكر الفنان عبدالوهاب الذي كان يجدر به أن يقول الحقيقة وهو - ولاشك - يعرفها ولكنه صدّ عنها ومال.

وليس هو الوحيد في مسألة استخلاص هذه المعلومة من الأبيات المذكورة بل فقد سبقه إليها أحدهم. ولم يكتف بما أشار فناننا إليه بل زاد عليه بأن ذكر أنه كانت على قبر ابن لعبون قُبّة أو قبتان، لأنه قرأ قول الشاعر «وَحطوا لي على قبري بنية» وقد فندت له ذلك القول في المقال الذي أشرت إليه.

هذا هو ما أردت إيضاحه، وأرجو من الأخ عبدالوهاب أن يتقبل كلامي، فهو الحقيقة بعينها.

****

رجال لن ينساهم الوطن:
السفير عيسى أحمد الحمد (١)

هذا رجل جم النشاط، شديد التأثير، محبوب لدى كافة أصحابه، بدأ اسمه يلمع في أنحاء الكويت عندما عاد من دراسته التي أنهاها في مصر بمعهد حلوان للتربية البدنية وتولى مهام العمل المرتبط بتخصصه في دائرة معارف الكويت سنة ١٩٦٠م، بدأ عمله مفتشًا للتربية الرياضية وكان اهتمامه بارزًا بهذا التخصص، وكان حرصه على أداء واجبه نحو هذا العمل شديدًا بحيث ظهرت آثار ذلك في أسرع وقت.

كنا نسمع عنه وعن دقته في العمل، وعن اهتمامه بأن يكون عمل المدرسين والطلاب متكاملًا. وكنا نراه عندما يمر على المدارس شابًّا نشيطًا لطيفًا محبوبًا له شخصية آسرة، وله - كما قلنا - تأثير في العمل والعاملين معه بحيث توصل خلال فترة وجيزة إلى إنجاز كثير من الأعمال في مجال الرياضة البدنية، ولم تنهض هذه إلا بعد قدومه، وكأن دائرة معارف الكويت كانت تنتظره حتى يؤدي هذه الواجبات التي كان أهلًا للقيام بها، فحصل التطور الكبير في المجال الرياضي الكويتي وسوف يأتي تفصيل لأعماله.

كان عيسى الحمد مدرسًا في المدرسة المباركية ثم مدرسة روضة البنين القديمة في الفترة من سنة ١٩٤٥ حتى سنة ١٩٤٧م، وكان يقوم بمهمة مدرس الفصل الذي يقدم لتلاميذه كافة المواد المقررة.

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٩/٩/٢٠١٠م.

وفي هذه السنة الأخيرة تم إرساله في بعثة للدراسة في مصر، وقد ذهب إليها ناضجًا حاصلًا على خبرة في الحياة والعمل ولذا فقد كان وجوده مع زملائه في بيت الكويت وجودًا مميزًا وكانت له أنشطة عديدة فيه وسوف نمر عليها فيما بعد.

ولما كانت أعماله كثيرة، وتدرجه في الوظائف متلاحقًا، ومتعدد النواحي فإن من الأفضل لنا أن نبدأ من حيث بدأ دراسته في معهد حلوان للتربية البدنية في مصر ثم ننتهي إلى عمله الذي لحق تخرجه من هذا المعهد، ثم نستأنف الحديث عن حياته العملية فيما بعد.

التحق عيسى الحمد بدراسته في القاهرة منذ السنة الدراسية ١٩٤٧/١٩٤٨م، وقد وصل إلى القاهرة ومعه كل من:

- جاسم القطامي لدراسة الطب.
- عبدالمطلب سيد رجب لدراسة الطب.
- عبدالعزيز الغربللي لدراسة التربية والآداب.

أما صاحبنا فكان توجهه لدراسة التربية البدنية، وقد بدأت دراسته في شهر يوليو لسنة ١٩٤٧م ولم يكد يصل إلى القاهرة حتى انخرط في أنشطة بيت الكويت فقد كان نشطًا بطبعه، وكان له استعداد للمشاركة بسبب خبرته السابقة في التدريس.

وقد اشترك في ندوة أقيمت هناك في شهر سبتمبر لسنة ١٩٤٧م وكان موضوعها «استغلال أوقات الفراغ»، وقد أدارها الأستاذ عبدالعزيز حسين حين كان مشرفًا على بيت الكويت في ذلك الوقت، وجاء في بداية محضر الجلسة:

«افتتح الأستاذ المشرف الحديث مشيرًا إلى تأخر الدراسة في مصر عن ميعادها المحدد، ومتسائلًا عن الوسائل التي نستطيع بها أن نستغل هذا الفراغ.

«وعلى الرغم من أن عيسى الحمد كان مدرسًا للرياضة البدنية فإنه يرى أن المطالعة هي الوسيلة الأولى لشغل الفراغ» هذا هو ما جاء في المحضر وهو يدلنا على اهتمام آخر من اهتمامات صاحبنا.

ومن أنشطته كتابة المقالات ذات العلاقة باهتماماته ومنها مقال نشره في شهر نوفمبر لسنة ١٩٤٧م، وكان موضوعه عن المعسكرات الكشفية، وطبيعة تنظيمها وطرق إنجاحها، وأساليب تنمية الروح الكشفية بين الكشافين.

واهتم أيضًا بالتمثيل، وكان مهتمًّا به منذ كان مدرسًا بالمدرسة المباركية، وقد نشرت له صورة مع فريقه عندما كان يُدرِّبهم، أما في بيت الكويت فقد شارك في التمثيل يوم الرابع عشر من نوفمبر لسنة ١٩٤٧م، وكانت التمثيلية هي: المروءة المقنعة، وشاركه عدد من زملائه.

ولم يفته الاشتراك في الأنشطة الرياضية، فقد كان عضوًا في فريق كرة السلة المشكل من الطلاب الكويتيين في القاهرة وكانت لفريقه مباريات منها ما ورد ذكره في شهر مارس لسنة ١٩٤٨م.

وعاد إلى كتابة المقال في شهر يوليو لسنة ١٩٤٨م وهو مقال يتعلق بتخصصه - أيضًا - إذ كان عنوانه: «حاجتنا إلى التربية البدنية»، يدعو فيه إلى افتتاح نواد رياضية في الكويت.

وفي رحلة الصيف التي يقوم بها الطلاب إلى أحد المصايف المصرية كان هؤلاء يثيرون كثيرًا من القضايا التي تهمهم وتهم وطنهم. وفي إحدى الرحلات، وكانت في صيف سنة ١٩٤٨م جرت مناقشات كثيرة بينهم، وقد ورد بخصوص ذلك

ما يتعلق بصاحبنا ما يلي: «وفي الاجتماع الثاني كان عيسى الحمد يخبئ لنا حزمة من مشكلات الكويت، نثرها على بساط البحث، فاشترك المشرف والطلبة في محاولة الوصول إلى حل لمشكلات الزواج، والطفولة، وعلاقات الأسرة».

وفي السنة الدراسية ١٩٤٨-١٩٤٩م انتقل عيسى إلى الصف الثاني ناجحًا من الصف الأول، قاطعًا مرحلة من مراحل دراسته التي استمر فيها حتى نهايتها.

ولكثرة اهتمامه بالرياضة والملاعب الرياضية كتب عيسى الحمد مقالاً في شهر يناير لسنة ١٩٤٩م، نادى فيه بضرورة إنشاء ملاعب رياضية في الكويت، ولم تكن عندنا ملاعب في ذلك الوقت، وهو يرى في هذا المقال أن الأنشطة الرياضية لن تتقدم في البلاد إلا بوجود ملاعب مجهزة وكافية، وقد كان مقاله تحت عنوان: «نريد ملاعب».

وفي الشهر نفسه جاءت مشاركته بالتمثيل مرة أخرى، وكان ذلك بمناسبة احتفال بيت الكويت بالقاهرة بالمولد النبوي الشريف خلال شهر يناير من السنة المذكورة آنفًا، وبتاريخ الثاني عشر من شهر ربيع الأول لسنة ١٣٦٨ هجرية، وقدمت الفرقة التي قامت بالتمثيل وشارك فيها عيسى الحمد تمثيلية «المروءة المقنعة» مرة أخرى، وهي للشاعر محمود غنيم، ثم قدمت فصلًا من فصول مسرحية «مجنون ليلى» لأحمد شوقي.

وفي المجال الرياضي استمر عيسى الحمد في اندفاعه والاستفادة من تجاربه ودراسته، فشارك في تأسيس فريق للجوالة ضمن بيت الكويت، وقد بدأ هذا الفريق نشاطه برحلة استغرقت خمسة أيام قضاها في معسكر الكشافة بحلوان، وهو غير بعيد عن مقر دراسة صاحبنا.

هذا وقام هذا الفريق بمعسكره السنوي اللاحق في المدة من ٢١ إلى ٢٦ من يناير لسنة ١٩٥٠م وكان عيسى الحمد هو رئيس المعسكر الذي كان من أنجح المعسكرات من حيث تعددت أعماله وأنشطة المشاركين فيه.

واستمر في هذا النشاط المتعدد، ولكنه لم يتخلف قط عن دراسته ففي سنة ١٩٤٩م كان في السنة الثالثة بمعهد التربية البدنية بحلوان.

وفي شهر مارس لسنة ١٩٥٠م كتب عيسى الحمد مقالاً عن اللعبة التي يحبها أكثر من غيرها وهي لعبة كرة السلة وقد تحدث عن ضرورة العناية بهذه اللعبة، وعن الوسائل التي يمكن الاستعانة بها في ذلك الوقت قبل استكمال الملاعب المطلوبة التي تكفل انتشار كرة السلة في البلاد.

ولكنه لم ينس كرة القدم، فكتب عنها مقالاً نشر في التاريخ نفسه الذي نشر فيه مقالة عن كرة السلة، وكان يعطي لعبة كرة القدم اهتمامًا كبيرًا يوازي اهتمامه بالألعاب الأخرى، ولذلك قدم في هذا المقال ثقافة رياضية تتعلق بكرة القدم على الرغم من تعلقه بكرة السلة ولعبه الدائم مع فريقها الذي تكون في بيت الكويت بالقاهرة. ولم يكتف بذلك فسار على الطريق الذي اختطه فيما يتعلق بنشر الثقافة الرياضية، فكتب بعد المقال السابق عن ألعاب المضرب وذكرها كلها، وبين ملاعبها، وكيفية لعب كل منها، وكان حديثه عنها حديث الخبير المجرب.

وأتم عيسى أحمد الحمد دراسته في مصر في سنة ١٩٥٠م ولكنه بقي هناك لأنه كُلِّف بالقيام بأعمال المشرف على بيت الكويت حيث انتقل مشرفه الأستاذ عبدالعزيز حسين إلى الكويت لكي يستعد لعمل جديد هو تكليفه من قبل مجلس معارف الكويت باستلام إدارة المعارف.

ولم تطل مدة بقاء عيسى الحمد بهذا العمل إذ تمت عودته إلى الكويت لكي يزاول العمل الذي أرسل من أجله إلى القاهرة. وقد صدر فورًا قرار دائرة معارف الكويت بتعيينه مشرفًا على شؤون التربية البدنية والكشافة وباشر عمله بهمة ونشاط، وسعدت البلاد بقيام أحد أبنائها بهذه المهمة، ولا سيما وأنه كان مؤهلًا لذلك من حيث الدراسة ومن حيث الخبرة.

ولم ينقطع في السنوات الأولى من عمله الجديد في الكويت عن بيت الكويت في القاهرة فقد كان يرسل إلى مجلة البعثة بين وقت وآخر مجموعة من المعلومات التي تشمل النشاط الرياضي في البلاد، وتحت عنوان: «مباريات الشهر» أورد عيسى الحمد بيانًا بكافة المباريات التي قام بتنظيمها الفريق الأهلي لكرة القدم وذلك على كأس سمو أمير الكويت، وكان ذلك في شهر فبراير لسنة ١٩٥١م.

وبعد أن تحدثت مجلة البعثة عن بعض الفعاليات الرياضية التي تمت في الكويت وكان وراءها صاحبنا؛ قالت: ولا يفوتنا أن نذكر الأستاذ عيسى الحمد بأنه لايزال في البداية ونحن لا نريد أن نكيل له المديح على الرغم من توفيقه، لأننا نتوقع له نجاحًا وتوفيقًا أكثر».

واستمرت المهرجانات في مواعيدها السنوية، وكان يتولى الإشراف عليها ويتابع كل ما يتعلق بها، ومن المهرجانات التي أشرف عليها ذلك المهرجان الذي أقيم في اليوم السابع والعشرين من شهر أبريل لسنة ١٩٥١م.

ومن الأدلة على مداومته على الاتصال بمجلة البعثة وفقًا لما أشرنا قبل قليل هذا المقال الذي نشره فيها في شهر سبتمبر لسنة ١٩٥١م، وهو تحت عنوان: «خدمة الشباب في مصر» أراد به أن يوضح للقائمين على المعارف آنذاك ولكافة المهتمين ما تقوم به الدول تجاه شبابها من رعاية وعناية وتوجيه.

واستمر بالاتصال مع «البعثة» ففي شهر يناير لسنة ١٩٥٢م، وكانت المجلة قد عقدت ندوة كان بين مقترحاتها ضرورة تكوين اتحاد رياضي كويتي، وكان خطاب عيسى الحمد للمجلة يدور حول هذا المحور فقال: «لا... يظهر أنه حصل توارد خواطر بيننا وبين ندوتكم الرياضية، لأنه في الوقت الذي فكرتم فيه بوجوب تكوين اتحاد رياضي هنا في الكويت، كنا نحن نفكر في ذلك، وهذا ما عملناه:

اجتمعت بالإخوان عبداللطيف أمان، ومجرن الحمد، ومجيد محمد، وصالح شهاب، وعبدالعزيز جعفر، وجميل الصالح، وجاسم محمد الغانم، ولكن الأخير تغيب عن الاجتماع لأسباب قهرية. وبحثنا فكرة الاتحاد والهدف الذي نرجوه منه، وقد لاقت الفكرة حماسًا وتقديرًا من الجميع.

وقد أجمع الإخوان على أن يهدف هذا الاتحاد إلى العمل على دفع المستوى الرياضي في الكويت. وسميناه (الاتحاد الرياضي الكويتي) وسيكون عمله في الوقت الحاضر مقصورًا على رعاية لعبة كرة القدم، ورفع مستواها».

واستطرد قائلًا: «وقد قرر الاتحاد الرياضي الكويتي في جلسته المنعقدة في اليوم الثاني من شهر فبراير لسنة ١٩٥١م ما يأتي:

١ - سن قانون عام للاتحاد الرياضي الكويتي.

٢ - سن قانون لاتحاد كرة القدم.

٣ - تنظيم البطولة العامة لكرة القدم في اليوم الخامس عشر من شهر نوفمبر لسنة ١٩٥١م».

وهكذا استمر في الحديث عن مشروع الاتحاد وما توصل إليه المجتمعون مما لفت نظر محرر صفحة الرياضة فقدم له الشكر على مبادراته في الحقل الرياضي.

ولقد ظل عيسى الحمد متابعًا لهذا النوع من النشاط، يجد فيه رغبته في عمل يحبه، ويجد بمواصلة مكاتبته لمجلة البعثة فرصة للتعبير عن اهتماماته، حتى لقد قام بوصف المباراة الودية في كرة القدم التي أقامتها المدرسة المباركية بين أساتذتها وطلابها في يوم الاثنين الثالث من شهر ديسمبر لسنة ١٩٥٢م، وقد كان وصفًا بارعًا أضفى عليه شخصية صاحبنا ظرفًا وإشراقًا.

لقد صار اسمه معروفًا في كل مكان، وكان عمله يشهد له بالتفوق والمقدرة التامة على الإنجاز، ومن أدل الأمور على ذلك هذه الرسالة التي نشرتها البعثة، وكان قد أرسلها السيد يعقوب يوسف الحمد، وهو يقول فيها: «عزيزي... وبعد فإني أهنيكم على هذه الروح الجديدة التي يلمسها القارئ في باب «الحقل الرياضي» من البعثة. كما أرجو أن تسجلوا على صفحات المجلة إعجابي الشديد بالأستاذ عيسى الحمد لما يبذل من جهود صادقة في حقل الرياضة المبارك في الوطن العزيز، وإني لأهنئه على خطواته الموفقة في تأسيس اتحاد كرة القدم، لأن أوانه قد آن».

ثم يضيف الأستاذ يعقوب الحمد قائلًا:

«ولكنني أرغب أن أهمس في أذنه بأن يوجه أغلب جهوده إلى المواد الأولية، إلى الخامات الصالحة، إلى طلبة المدارس الصغار، فإن باستطاعته أن يخلق من هذه العناصر الفتية الغضة، مَنْ سوف تفخر بهم الكويت في ملاعب الكرة في المستقبل القريب إن شاء الله».

ولقد تلقف محرر الباب الرياضي في البعثة هذا الاقتراح فقال: إنك يا أستاذ يعقوب تهمس في أذن الأستاذ عيسى بهذا الاقتراح ولكننا سوف لا نكتفي بالهمس بل إننا سوف نصرخ منادين وداعين إلى تنفيذ اقتراحك المفيد هذا، أما إعجابك بمجهود الأستاذ عيسى الحمد الكبير في حقولنا الرياضية، فلا أظن أحدًا من القراء يخالفك في ذلك، فإلى الأمام يا أستاذ عيسى وقلوبنا معك.

ونشأ نادي المعلمين في الكويت، فوجد عيسى الحمد فيه مجالًا للعمل، ووجد في مجلته (الرائد) سبيلًا لنشر أفكاره ومقترحاته. ولقد شارك في مساء يوم الثلاثاء السابع والعشرين من شهر فبراير لسنة ١٩٥٢م بندوة أقامها النادي ونشرتها مجلته، كان رئيس الندوة هو الرئيس الفخري للنادي سمو الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح، وقد اشترك فيها عدد من كبار موظفي دائرة المعارف،

وكان عيسى الحمد ضمن المشاركين، أما موضوع الندوة فقد تناول شؤون التعليم في الكويت، وقد جاء في المجلة المذكورة أن أهم ما اتضح في الندوة هو وحدة الشعور، والرغبة في كل ما من شأنه رفع مستوى الشؤون الثقافية والصحية في مدارس الكويت.

كان الأستاذ عيسى الحمد يدافع عن تخصصه من خلال هذه الندوة فيدعو إلى إنشاء الملاعب، وحمامات السباحة ومواقع ثابتة للمعسكرات الكشفية.

وفي موضع آخر من مجلة الرائد نشر الأستاذ عيسى الحمد مشروعه الذي أطلق عليه اسم: مشروع تنظيم أوقات الفراغ لطلبة المدارس في العطلة الصيفية، ولقد كانت هذه هي الدعوة الأولى لإنشاء الأندية الصيفية التي تقام في هذه الفترة من السنة فتقضي على كثير من المشكلات الناجمة عن فراغ الطلاب، وتملأ أوقاتهم فائدة.

ويصر الأستاذ عيسى الحمد على أن يعبر عن أفكاره الخاصة بدعم الأنشطة الرياضية بأنواعها المختلفة حين نراه ينشر في المجلة تقريرًا مهما عن: التربية البدنية والكشافة في مراحل التعليم. وهو يفصل كثيرًا في هذا الموضوع، ولا يترك مجالًا إلا طرقه من أجل أن يقدم للمهتمين خلاصة فكره وتجربته، ومن أجل أن يدل في الوقت نفسه على وفائه لعمله الذي ارتضاه لنفسه، وقد زود بحثه هذا بالإحصائيات المفيدة، وَبَيّنَ طرق الوصول إلى تنفيذ مقترحاته.

وفي موقع آخر من مجلة (الرائد) استعرض عيسى الحمد أنشطة الاتحاد الرياضي الذي نشأ بفضل جهوده ومتابعته وبيّن الأعمال التي قام بها منذ نشأته. وألحق ذلك بمقال في الثقافة الرياضية يدل عنوانه على فحواه، فهو: كيف نشأت الألعاب الأولمبية؟ ثم نشر تقريره المهم عن التربية البدنية في المدارس قائلًا: «يدفعني شعوري بالواجب نحو بلادي، ورغبتي بالمساهمة في العمل على تقدمها

وارتفاعها أن أقدم فيما يلي تقريرًا عن شؤون التربية البدنية والكشافة في المدارس راجيًا أن يتحقق ما في هذا التقرير من مقترحات».

سار عيسى الحمد في طريقه الوظيفي، مخلصًا لوطنه ثم لعمله، وترقي في سنة ١٩٥٤م إلى وظيفة مفتش (موجه فني)، وفي اليوم الثاني عشر من شهر يونيو لسنة ١٩٦٣م صار وكيلًا مساعدًا لوزارة التربية لشؤون التربية الاجتماعية، ثم انتقل في شهر مايو لسنة ١٩٦٥م إلى السلك الدبلوماسي الذي عمل فيه بجده المعروف فترقى فيه، وانتقل إلى عدة عواصم. وبقي على متابعة الرياضة التي يهواها فلم ينقطع عنها. هذا وكان خلال عمله في دائرة معارف الكويت قد تلقى دراسات في الخارج ضمن تخصصه، وقام بجولات بين عدد من الدول لاكتساب الخبرة. ولا مجال هنا لإنكار جهوده الكبيرة في العمل وفي المجتمع فقد كان علمًا بارزًا من أعلام التربية لا يجود الزمان بمثله.

توفي في سنة ١٩٩٦م، رحمه الله.

****

ملحاق خير

من أبناء الكويت رجل أعتز بمعرفته، وأسعد بالحديث معه، وبلقائه، ذلك هو الأستاذ يوسف الشهاب الذي تناول تاريخ رجال الكويت وتراثهم، ثم تحاور معهم ونشر مجموعة حواراته في كتاب من عدة أجزاء، كل ذلك وهو لا يضيف إلى اسمه اللقب الذي صار متداولًا الآن وهو: خبير في التراث والتاريخ الكويتي، فهو يأبى ذلك لأنه يعرف أن القارئ يدرك الكاتب الحقيقي المتتبع لتاريخ وتراث وطنه دون الحاجة إلى هذه الإضافة وهذا الرفض يسجل لصالح الأستاذ يوسف، فقد ترك لنا حرية متابعته ثم الحكم على كامل إنتاجه.

تتناول الأجزاء التي أصدرها - وفق ما أشرنا هنا - الحوارات التي أجراها مع عدد من أبناء الذين خدموها منذ وقت مبكر من تاريخ نهضتها الحديثة، وقاموا بواجباتهم كاملة تجاهها، ولذا فإن الأخ يوسف الشهاب يوجه في بداية الجزء الرابع من كتابه «رجال في تاريخ الكويت» رسالة من القلب: «إلى أولئك الذين يبست أيديهم من صخور الكويت، وتحدوا أمواج البحار فوق سفن الأشرعة بحثًا عن لقمة الحياة. وإلى حريم الكويت اللواتي افترشن شاطئ البحر يغسلن ثياب الأمس، وإلى كل الشرفاء المخلصين العامرة قلوبهم بالأمانة والنزاهة وصدق الكلمة، وإلى الذين أحبوا الكويت أرضًا وسماء وهوية أهدي هذا الكتاب: رجال في تاريخ الكويت».

هذه العبارات الصادقة تدل على ما يحس به الكاتب تجاه وطنه وأهل وطنه، وتدل على صدق يتميز به عندما تناول كل ما كتب. وأنا لا أريد أن أكثر من الحديث الشخصي عنه فهو معروف للجميع، وكتاباته الصحافية مستمرة بصفة شبه يومية، وله قراء كثيرون يحرصون على متابعة كل ما يكتب. كما أنني لا أستطيع أن أستعرض كل ما ورد في أجزاء كتابه الذي أشرت إليه، فقد كان كتابًا شاملًا مليئًا بالمعلومات والصور النادرة، وكان في مجمله إضافة إلى كونه كتاب حوار مع شخصيات نُجلُّها ونُحبّها تاريخًا للكويت من خلال هذا الحوار.

فإلى الأخ الأستاذ يوسف الشهاب جزيل الشكر على كل ما قدم، وسوف تذكر له الأجيال القادمة كل ذلك عندما تبحث عن المعلومات الصادقة عن الكويت فتجدها ماثلة في كتابه الكبير الذي نوهنا عنه. وكل ما أتمناه هو أن يستمر أخي يوسف في هذا السبيل النافع للوطن.

وفقه الله تعالى.

****

ملحاق خير

ما أحوجنا في هذه الأيام إلى نصيحة ناصح، فما يمر بنا، ومنا نسمعه في مجتمعنا، وما تقع عليه أعيننا كلها أمور تجلب الأسى، وتدفع إلى اليأس، وذلك على الرغم من أننا عشنا زمنًا ماضيًا كان من أسعد الأزمان من حيث تعاوننا، وانتشار المودّة بيننا، لم نكن نحس بفوارق بين أبناء المجتمع، ولم نكن نسمع بمثل ما يدور بين بعض الأشخاص الذين صاروا يسمحون لأنفسهم باستعمال ألفاظ نابية عند محاورتهم لزملائهم حتى لقد صار الرجال الذين عاشوا الجيلين الأخيرين يقولون: أين جيلنا من جيلكم؟ كيف كنا وكيف أصبحتم، ها أنتم تعيشون على التباغض والتنافر، يحسد بعضكم بعضًا، ويسعى من يستطيع إلى الاستيلاء على حقوق الآخرين إلى ما يُريد، ولم تعد للمواطنة أهمية كما كانت، بل لقد صار بعضكم يسعى إلى الإساءة إلى وطنه في المحافل الخارجية، بل ويفخر بذلك دون أن يقدر مدى الضرر الذي يلحق بالبلاد وبأهلها جراء ما يفعل. وبلغ التنافس بين الجميع على الأموال وعلى الوظائف القيادية مبلغًا لا حد له، وصار الطامع في مصلحته لا يتورع عن إيذاء من يعتبره خصمًا لا منافسًا، ووصل به الأمر إلى الإساءة إلى سمعة الأشخاص الآخرين حتى يدفعهم عن طريقه ويحتل مكانهم. ولا تسأل عما يحدث في أيام الانتخابات، ولا عن الصراعات المتعددة التي تحدث ونراها كل يوم بين الذين فازوا والذين لم يفوزوا، ويكفي أن نطلع على الأحداث اليومية التي تنشرها

صحف الكويت لنعرف مدى ما يحيق بنا من أذى، وما يحيط بنا من مساوئ سببها تخلِّي البعض عن المبادئ الأساسية التي عاش عليها المجتمع الكويتي فيما سبق.

لقد بدأت هذا بقولي: «ما أحوجنا إلى نصيحة ناصح»، وهل هنا ناصح أمين كريم بعد رسول الله ﷺ؟ إنه رمز الهداية، وأحاديثه مرفأ الأمان، والاستماع إلى ما وصل إلينا منها يكفي لدفع جميع الشرور عنا، ويكفي لفتح دروب الخير لنا. ولقد خشي عليه الصلاة والسلام على أمته من أن يقع عليها ما وقع علينا في هذه الأيام فجاء قوله الكريم معبرًا عما يريده منا.

روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يَحِلُّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام».

فهل نستمع إلى هذا القول الكريم، وننتهي عما نهانا عنه رسول الله فنطرد التباغض من حياتنا ونحن نعلم أن انتشار البغضاء بيننا من أسس البلاء. وهل نبعد الحسد تنفيذًا لأمر نبينا، ونحن نعلم أن الحسد بيننا صار عارًا يلحق بنا، وصفة سيئة نُعرف بها، ثم يأتي النهي الثالث في الحديث، وهو «ولا تدابروا» والتدابر هو الإعراض وإبداء العداوة، لا يريدنا الرسول الكريم أن نكون متفرقين يعيش كل واحد منا في عالمه الخاص، معاديًا لغيره، كارهًا لمخالطة أبناء أمته، إن إقامة الصلات الطيبة بين الناس تكسب الأجواء العامة لطافتها وتحبب المواطنين إلى بعضهم، وعلى العكس فإن التدابر لا يأتي إلا بشر، ولذا فإن رسول الله ﷺ ختم حديثه الشريف بنهي المسلم عن هجر أخيه المسلم أكثر من ثلاثة أيام، بل اعتبر الهجر أطول من هذه المدة أمرًا محرمًا لا يجوز لمسلم أن يقوم به، وفي حديث آخر حول المتهاجرين: «يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام».

لن نجد ناصحًا ينصحنا مثل رسول الله، ولن نجد إرشادًا إلى الحق أهدى من إرشاده، ولعل المتأمل في هذا الحديث الشريف يعرف الآن سوء ما نحن فيه، ويقر في نفسه ضرورة الالتفات إلى الأمور التي دعانا إليها ديننا الحنيف على لسان رسول الله ﷺ، وعندما نتجه إلى هذا الاتجاه فإن كثيرًا من الأمور السلبية التي نعاني منها سوف تزول لأن الأحداث بمسبباتها، وما أسباب النواقص التي أشرنا إليها إلا مخالفتنا لهذه النواهي والأوامر التي تضمنها الحديث الشريف. فينبغي أن نتمسك بما جاء فيه، ونهتم بتنمية روح الأخوّة بيننا ألم يقل لنا: «وكونوا عبادَ الله إخوانا».

****

الشيخ محمد الشنقيطي في الكويت [1]

كان الشيخ محمد الشنقيطي رجلًا من رجال العلم، والإرشاد الديني، يتميز بالحس الوطني الإسلامي ويدافع عن حوزة الإسلام في أي مكان يحط به رحاله.

ارتبط هذا الرجل بالكويت منذ سنة ١٩١٣م، ففي هذه السنة تأسست الجمعية الخيرية الكويتية، باجتهاد من المرحوم فرحان فهد الخالد، وقد كان هذا الرجل من أصحاب الفضل في قيام كثير من الأعمال الخيرية في البلاد وفي خارجها، وكان قد دعا إلى إنشاء هذه الجمعية من أجل تحريك المجتمع نحو الأعمال المفيدة سدًّا للنقص الذي كان الجميع يحسون به في خدمات التعليم والصحة وذلك للظروف المالية الشحيحة التي كانت تسيطر على البلاد آنذاك، واهتمت الجمعية الخيرية منذ قيامها بإرسال عدد من طلاب العلم إلى الخارج، واستقدام عدد من المرشدين الذين قاموا بالدعوة إلى الله وتوضيح ما ينبغي على المسلم أن يعرفه من أمور دينه، وكان من هؤلاء المرشدين الشيخ محمد الشنقيطي الذي كان له دور بارز في التوعية الدينية أدى من خلاله ما كان متوقعًا منه بصفته عالمًا من علماء الإسلام المعروفين.

ولم تكتف الجمعية بذلك فقد أحضرت طبيبًا مزودًا بما يحتاج إليه المرضى من أدوات علاجية مناسبة وأدوية، كما قامت بعدد آخر من الأعمال النافعة.

ولا نريد الإطالة في الحديث هنا عن الجمعية الخيرية، فقد سبق لنا أن نشرنا في «الوطن» مقالًا شاملًا عنها جاء ضمن «الأزمنة والأمكنة» وكان فيه من التفصيلات ما يكفي للإحاطة بكل شيء مما يتعلق بها.

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٠/١٠/٦م.

لقد كانت على قصر مدة عملها ناجحة في أداء المهمة التي نشأت من أجلها، وكان كل ما أنجزته يدل على إخلاص العاملين فيها، وحرصهم على أداء الرسالة التي نذروا أنفسهم للقيام بها.

الشيخ محمد أمين الشنقيطي، وهو من مواليد سنة ١٨٧٦م، منسوب إلى بلد شنقيط الذي يدعى اليوم موريتانيا، طلب العلم منذ حداثة سنه، وحفظ القرآن الكريم قبل أن يبلغ الحلم، وواظب على حضور حلقات الدرس التي كان يعقدها العلماء في بلده حتى استطاع الحصول على مقدار كبير من العلم، وقد تردد على عدد كبير من العلماء درس عليهم علم النحو، والفقه والعروض وحفظ جملة من أشعار العرب في جاهليتهم وفي إسلامهم، وكانت للشعر مكانة في شنقيط (موريتانيا) ولا تزال إذ قل أن تجد عالمًا أو فقيهًا لا ينظم أي منهما الشعر.

وبعد أن وجد الشيخ الشنقيطي أنه قد أخذ حظًّا كبيرًا من المعارف المتوافرة في بلده، رأى أن من الأفضل له أن يسافر طلبًا لمزيد من العلوم في خارجه، وكان أول بلد انتقل إليه هو المغرب الذي زار فيه عددًا من المدن ولكنه لم يستطع الاتصال بأحد من العلماء وإن كان قد تمكن من لقاء عدد من علماء موريتانيا الذين كانت له معرفة بهم منذ أيام طلبه للعلم في شنقيط، ولم يكن بقاؤه مفيدًا الفائدة التي كان يرجوها وبخاصة وأنه قد أصيب بمرض الجدري هناك. ولذا فإنه عندما شفي عزم على المغادرة، فسافر إلى مصر في سنة ١٩٠٠م، ولقي هناك العلامة اللغوي المشهور الشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي وقد أوصله هذا الشيخ إلى لقاء الشيخ محمد عبده الذي استقبله هو واثنين من زملائه رحلا معه من المغرب وبسط على الجميع رعايته، ويسر لهم كل ما يحتاجون إليه، ولما علم بنيتهم السفر إلى الحج استخرج لهم كتابًا من الحكومة المصرية إلى محافظ السويس لإيصالهم إلى جدة فأركبهم إليها، وانطلقوا- محرمين بالعمرة- إلى مكة المكرمة،

ثم عادوا إلى جدة لينتقلوا منها إلى المدينة المنورة، وكان الشنقيطي في أثناء إقامته بها يدرس على عدد من المشايخ مواد الحديث والفقه واللغة والأدب وغير ذلك. ثم رحل مرة أخرى إلى مكة حيث تفرغ فترة للدراسة والاتصال بالعلماء، واستفاد فائدة كبرى في هذا الوقت، وكثر اطلاعه، وازدادت معلوماته في شتى فروع العلم. وقد أطال الشيخ الشنقيطي بقاءه في مكة بسبب احتلال فرنسا لبلاده شنقيط آنذاك وفي سنة ١٩٠٨م سافر إلى الهند، وعندما عاد منها كان مروره بالبحرين ثم الأحساء. وظل منتقلًا يتعلم ويعلم ويعظ ويحث المسلمين على طلب التقدم والرقي، ويهاجم التصرفات غير السوية، ويدعو إلى الاستقامة، إلى أن وصل إلى الكويت ليتابع نشاطه هذا.

كانت المحطة المهمة في حياة الشيخ محمد أمين الشنقيطي هي الفترة التي أقام خلالها في بلدة الزبير، وقد أعجب الناس بعلمه وفضله، ولكنه سرعان ما تلقى طعنات الحاسدين الذين بدأوا يكيلون له التهم، ويغمزون في اعتقاده الديني، وقد أشاعوا عنه إشاعات كثيرة، أثارت عليه الدولة العثمانية التي كانت تحكم تلك المنطقة في ذلك الوقت، واستغل حساده العامة من الناس لكي يدفعوا بهم إلى نشر الإشاعات وبخاصة ما يتعلق بالعثمانيين فقد هبوا في وجهه «ناسبين إليه التشهير بالحكومة العثمانية، والتقليل من هيبتها لدى الناس، بكثرة انتقادها، والتحامل عليها، ناسبًا إليها سبب جهل الأهالي بالدين»، وإضافة إلى ذلك فقد «ترددت أقوال تؤكد أن هذا الرجل الغريب يجب إبعاده لأنه يثير الفتن، ويقدح بالحكومة، ويحرض الناس على الثورة عليها».

في وسط هذه المشكلات المثارة في وجه الشيخ الشنقيطي كان هذا يفكر في طريقة للخلاص مما كان يعانيه من رعاع الناس الذين لم يتركوا مجالًا من مجالات إلحاق الأذى به إلا وسلكوه. وقد جاءه الفرج بالدعوة التي وصلته من الكويت لكي يستقر فيها ويقوم بدوره الإصلاحي بين سكانها.

دعي الشنقيطي إلى الكويت في سنة ١٩١٣م، وتولى دعوته المرحوم فرحان الفهد الخالد لكي يسهم في بعض أعمال الجمعية الخيرية كما ذكرنا في بداية مقالنا هذا. وقد قام بدوره خير قيام، وصار يقدم دروسه في المساجد وفي غيرها من الأماكن المتاحة، وحرص في هذه الدروس على المحافظة على منهجه الذي سار عليه من قبل في شجب البدع والضلالات، والتنديد بالمنكرات والمحرمات، داعيًا إلى عدم الخضوع إلا لله مؤكدًا حرية المسلم الفكرية مشيرًا إلى أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق وقد كانت دعوته هذه هي ما كان يكرره في كل مكان يفد إليه، لأنه شديد الإيمان بمبادئه حريص على أن يستمر في الخط الذي استنه لنفسه ووجد فيه مصلحة المسلمين، وكان هذا الذي ذكرناه هو الصورة الجلية التي كتبت بإيجاز عن عمله في الكويت حين حط رحاله بها.

لقد وجد الشنقيطي المجتمع الكويتي متعطشًا إلى الأحاديث التي تنير له طريقه، وتنشر الوعي بين أبنائه، وهذا ما دفع الأستاذ (كما ينعته الشيخ عبدالعزيز الرشيد) إلى تقديم كل ما لديه من علم، وكل ما يمكن أن يقدمه من نصح وإرشاد، فنال ثقة الجميع واحتفى به أولئك الذين دعوه إلى الكويت، وأولئك الذين استمعوا إلى محاضراته القيمة. ومن نماذج اهتمام أبناء البلاد به أنهم أقاموا له حفل استقبال وتكريم حين عاد إليهم مرة أخرى في شهر رمضان لسنة ١٣٤٣هـ الذي يوافق شهر يوليو لسنة ١٩١٦م. وقد عني النادي الأدبي الكويتي بقيام هذا الحفل تقديرًا لجهود الرجل الماضية وتعبيرًا له عن المحبة الخالصة، وتعويضًا عما ناله من الأذى خلال رحلته السابقة إلى الكويت دون أن يكون للمحتفين يد فيما حدث له فيها كما سوف نرى. شارك في الحفل عدد من الشعراء والخطباء وكان منهم السيد سليمان العدساني الذي ألقى قصيدة جاء في مطلعها:

يا قومُ إن نزيلكمْ
هذا، هو الرجلُ الوحيدْ

الناطقُ الحقُّ الصرا
ح، وإنه في ذا فريدْ
إني وقفت خطيبكمُ
يا ليت شعري هل أجيد؟
يا شيخُ أنت رجاؤنا
في نهضة النشء الجديد

ويمضي العدساني في قصيدته معبرًا عن إعجابه الشديد بالشيخ الشنقيطي، ويذكر فرحة البلاد بقدومه إليها مرة أخرى، كما يذكر أن الآمال معلقة عليه في تفنيد الخرافات والأهواء الزائفة، ثم أشار إلى ما حدث له في قدومه الماضي فقال:

إن الكويتَ لبعدكم
كادت لبلواها تميد
فاصفح لماضيها وغضّ
الطَّرف عن ذاكَ البعيد
هذي الكويت تنسمت
أرجاؤها لك من جديد
واستبشرت بقدومكم
فكأنما كانت بِعيد

تزاحمت الأحداث في الكويت بعد احتلال الإنجليز للبصرة في سنة ١٩١٤م، وذلك لأن القوم كانوا ينظرون إلى الحرب التي أدت إلى ذلك على أنها حرب بين المسلمين وغيرهم. ولذا فإن أثرها هناك قد أدى إلى خروج عدد من المحاربين إلى القيام بأعمال ضد الشيخ خزعل بن مرداو أمير عربستان، وقد حاول الشيخ مبارك الصباح أن ينقذ صديقه من هذه الضائقة. وهذا هو ما حدث بحسب رواية الشيخ عبدالعزيز الرشيد في كتابه «تاريخ الكويت» فقد فصّل كثيرًا هذا الموضوع،

ثم عاد لمتابعة ما حدث فيما يتعلق بالشيخ الشنقيطي بعد وفاة الشيخ مبارك وتولي الشيخ سالم المبارك الذي جاء إلى الحكم بعد وفاة أخيه الشيخ جابر المبارك.

يقول الشيخ عبدالعزيز الرشيد:

«بعد احتلال الإنجليز للبصرة في أوائل سنة ١٩١٤م ثار الثائرون على خزعل خان، وأعلنوا عليه الجهاد لشده أزر المقاتلين للحكومة العثمانية وكان مع الثائرين ثلة من الأتراك فاشتعلت نار الثورة ودامت مدة خشي خزعل من شرها ولم يفت مباركًا ما كان يخافه ويخشاه فأراد أن يمده بجند من الكويتيين يشد ساعده بهم. ولكن الكويتيين وقد علموا أنهم سيقاتلون إخوانهم أظهروا العصيان وجاهروا بالامتناع ولاسيّما والعلامة المحدث الشيخ الشنقيطي والشيخ حافظ وهبة المصري آنذاك كانا يطوفان المجالس ويغشيان الأندية لتحذير الناس من الطاعة وأن من إنقاد فقد يحكم عليه بالارتداد عن الدين فأثار ما قالاه الحماس في النفوس حتى صمم القوم على الإباء مهما كان في الأمر من شدة ومهما نزل بهم من بلاء».

وعندما بلغ هذا الخبر أسماع الشيخ مبارك الصباح كان له وقع سيئ عنده، إذ لم يتصور أن يقف الكويتيون هذا الموقف وهو الذي اعتاد منهم السمع والطاعة. وكان يتميز غضبًا على من ظنهم من مدبري العصيان من الرؤساء، يقول الرشيد: «فشرع يتوعدهم بما يقض عليهم المضاجع ويعكر عليهم الصفو، وقد حاول الرؤساء بعد أن بلغهم غضبه إقناع الناس بما يراد منهم فما قنعوا ولا رضوا فاضطروا آنذاك إلى أن يذهبوا بأنفسهم لعرض الطاعة عليه وإزالة ما علق في ذهنه ولكنهم وقد اجتمعوا به في الفيلية اسمعهم من التأنيب القارس واللوم الشديد ما أطار النوم من أعينهم وزهدهم في أنفسهم ولكنه من جهة أخرى خامره شيء من الخوف للحماس الذي انتشرت جذوته بين أحياء الكويت والذي لم يُعهد له نظير في أيامه كلها غيّر لهجته أمامهم وقال أنا لم أرد رجالًا لقتال وإنما طلبت سفنًا لنقل أثاث

أخي خزعل وأمواله وعائلته إلى الكويت إذا احتاجوا إلى ذلك فأرجعوا إلى الكويت وبادروا بإرسال ما أريد فرجعوا وقد وقعوا بين أمرين عظيمين أرضاء العامة بسخط مبارك أو رضائه بسخطهم وهما خطتا خسف يصعب عليهم التخلص منها، وأخيرًا اهتدوا إلى أمر خدّروا به الأعصاب وإطفاء النار المتأججة قالوا: إن مبارك بلّ الثرى بدموعه رحمة بالكويتيين وقال: إن أهل الكويت أولادي لهم من الخير ما أود لنفسي وإني آسف على ما أصابهم من الانزعاج وما حصل لهم من الاضطراب فخدع بقوله هذا الكثيرين حتى تمكنوا من تجهيز ١٨٠ رجلًا في ست سفن شراعية».

وعندما عاد الشيخ مبارك إلى البلاد بعد رحلته التي كانت إلى الفيلية عند صديقه خزعل بن مرداو؛ بدأ ببحث الموضوع الذي أزعجه، وصار ينقب في كل مكان عن مثيري ما حدث، وهنا استدعى الشيخ محمد الشنقيطي والشيخ حافظ وهبه إلى قصره «وكان هناك القنصل الإنجليزي في الكويت، وقد أدار الشيخ مبارك معهما الحوار التالي نقلًا عن «تاريخ الكويت»: «قال الشيخ مبارك: قد ورد إلي كتاب بأنكما وثالثًا معكما اسمه عثمان ممن أثاروا الناس في الكويت وحرضوهم على العصيان ضدي والكويت بلدي وأنا الحاكم فيها واللي ينازعني فيها فليس له عندي إلا القتل فقال الشنقيطي – إن من أخبرك فقد أخطأ ولم يتحر الحقيقة.

مبارك – لا بل هو صادق فيما قال.

– من هو الرجل الثالث الذي ذكر لك في الكتاب.

– لا أعرفه ولكني سأبحث عنه حتى أعرفه.

– هذا أدل شيء على كذب الخبر فإنه لا يعقل أن يوجد في الكويت من يأخذ برأيه ويسمع لقوله وأنت لا تعرفه وأمر البلد وأهلها راجع إليك وقد علمت بكل ما

يجري فيها من صغير وكبير وأما أنا فلم أسع في شيء مما ينسب إليّ، أنا أحد طلبة العلم وظيفتي الوعظ والإرشاد والتربية والتعليم.

– هذه وظيفة عالية لا لوم عليك فيها (ثم التفت) إلى الشيخ حافظ فقال له: (إن أبناء المدارس في الكويت يجهرون في الشوارع والأسواق بسب الإنجليز ومدح الألمان ولا ريب أنهم لصغرهم لا يعرفون إلا ما يلقنهم معلموهم فصاحب المثل يقول (خذ رأي القوم من أسفافها) (اللفظ الأخير يقابله في الفصحى: من سفهائها).

حافظ – «أنا لم أعلمهم شيئًا من هذا القبيل ولم ألقنهم من أمور السياسة ولا كلمة واحدة ومع هذا فسأزجرهم عما يقولون) وفي النهاية أمرهما مبارك بمغادرة المجلس وانتظاره في إحدى حجر القصر ثم جرى بين مبارك والقنصل ما يأتي:

مبارك – أسمعت ما قاله الرجلان من الأعذار؟.

القنصل – نعم سمعته والذي يظهر لي أن المصري مقنع وأنه صادق فيما قال وأما صاحبه فأنا من صدقه في ارتياب.

– ماذا ترى إذًا؟.

– بعد ثلاثة أيام سأعلمك برأيي، ثم بعد هذا أرسل مبارك كاتبه الخاص ملا صالح ليأذن للإثنين بالانصراف ويضرب للشنقيطي وحده موعدًا بعد ثلاثة أيام فبلغ الكاتب الاثنين ما أمر به ولكن الأستاذ الشنقيطي ارتاب من هذا البلاغ وخشي أن يكون من ورائه مكيدة فرأى الحزم يقضي عليه بأخذ الحيطة لئلا يقع في الشبكة فاختفى عن العيون وهو يتسمع ما يجرى من الأخبار إلى أن أقبل في اليوم الثالث مركب من البصرة فيه رجال من العشار قبضت عليهم الحكومة فبعث مبارك أحد خدامه يبحث عن الأستاذ لكن الخادم لم يستقص في التفتيش ولعله

كان بأمر من سيده الذي لم يشأ أن يشارك المعتمد في الأمر ومهما يكن فإن الأستاذ علم مما جرى صدق ما أشيع عن دائرة القنصل من عزمها على القبض عليه فنأى بجانبه عن محيط الكويت».

لقد أغاظ الشيخ مبارك الصباح أن يأتي اثنان من خارج بلده ليثيرا عليه ثائرة الأهالي، وهو في الوقت نفسه يحس أن القنصل البريطاني له نظرة أخرى فقد لاحظ الشيخ دفاعه عن حافظ وهبه وتحامله على الشنقيطي، ولذا فإنه لم يرد أن يكون هو يد القنصل التي يعاقب بها من أراد ويمنع عقابها عمن أراد، وفيما يتعلق بحافظ وهبة فإن لنا وقفة نتحدث فيها عن الشكوك التي تساورنا حوله على الرغم من أنه نال حظوة بين الناس في الكويت وهم معذورون في ذلك.

ومرت الأيام وجاء زمن حكم الشيخ سالم المبارك للكويت، وكان الشيخ الشنقيطي قد أقام في بلدة عنيزة من إقليم القصيم إلى أن وضعت الحرب أوزارها، وسرت الهدنة بعدها في كل مكان. وبناءً على نصيحة أصدقائه عزم الشنقيطي على العودة إلى الكويت لأنه وجد الراحة بين أهلها، وقد وصلها في شهر شعبان لسنة ١٣٣٧هـ الموافق لشهر مايو لسنة ١٩١٩م، وذهب بعد وصوله إلى الشيخ سالم من أجل السلام عليه في قصر الشعب، وكان معه أحد رجال الكويت البارزين، فوجدا الشيخ منفعلًا غاضبًا وقد جرى بينه والأستاذ الشنقيطي حديث نقله بحذافيره الشيخ عبدالعزيز الرشيد هكذا:

«سالم: أيسوغ لك أن تجيء إلى بلدي وأنا الحاكم فيها ولا تنبئني بذلك، فكأنك بعملك هذا تقول: أن الذي يُخشى منه (وهو مبارك) قد مات، ولم يخلف من بعده من حقه أن يُخاف منه ويُحذر.

الأستاذ: أنا لم أخرج إلا خوفًا من الحكومة الإنجليزية، لا من مبارك.

سالم: الحكومة الإنجليزية موجودة الآن فكيف أتيت؟

الأستاذ: جئت بعد أن حصلت الهدنة التي تخول كل شخص الرجوع إلى وطنه ولو كان سياسيًّا.

بعد هذا خرج الرجلان من عند الشيخ سالم وهما في غاية القلق والاضطراب، يقول الشيخ الرشيد إنَّ الأمير قد كتب إلى الشنقيطي فيما بعد: «فقال مخاطبًا إياه:» إني أحترم العلم وأهله. ولولا ذلك لعاقبتك عقابًا شديدًا تكون فيه عبرة لمن بعدك ولكني سأغض النظر عن معاقبتك الآن. غير أني لا أطيق بقاءك في بلدي وعليك أن تغادرها بعد ثلاثة أيام. وإذا ما ذكرت لي بعدها في أي محل فسأحرقه عليك وعلى من معك؛. فقال الأستاذ البلد بلدك ولا يمكنني البقاء فيها إلا بإذن منك ورضى، غير أني أرجوك إنظاري إلى رجوع القافلة التي جئت منها ولم يجد منه إلا تشددًا وتصلبًا، فخرج الشنقيطي من الكويت ضمن المدة ولكنه ذهب إلى بلد آخر لعدم توافر قافلة تأخذه إلى القصيم».

وقد أوضح الرشيد في نهاية سرده لهذا الحادث كثيرًا من الأمور، منها تخلص القنصل البريطاني أمام الشيخ سالم من أي تبعة تقع بخصوص ما حدث للشنقيطي، وأنه قال في النهاية أن هذا الرجل غير مسجل في دفاتر الحكومة البريطانية ضمن من تحاذر منهم هذه الحكومة، وقال أخيرًا للشيخ سالم: بقي النظر فيه لك وحدك، فاعمل ما تراه يوافقك.

هناك بعض الملاحظات ينبغي أن نذكرها هنا ونحن في نهاية مقالنا هذا وهي:

١ - ينبغي ألا يلتبس علينا اسم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي الذي تحدثنا عنه في هذا المقال من غيره، فهناك شنقيطي آخر هو - أيضًا - محمد الأمين الشنقيطي العالم صاحب المؤلفات الكثيرة المدرس بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة المتوفي في مكة سنة ١٩٧٣م.

٢ - وجدت فيما يتعلق بحافظ وهبة الذي نظن به دائمًا الخير ما يغير رأيي بعض الشيء حوله، ومن ذلك دفاع القنصل البريطاني عنه أمام الشيخ مبارك الصباح كما رأينا، ومنه رسالة كتبها إلى رئيس الخليج عندما كان مديرًا للتعليم في البحرين سنة ١٩٢٢ م وفيها أمور كثيرة تدل على الخضوع وطاعة أمر الإنجليز مما يحفظ من قيمته التي كنا نظنه عليها باعتباره أحد العلماء الذين لا ينبغي أن تخط أيديهم مثل ما ورد في رسالته المدرجة صورتها مع هذا المقال.

٣ - ألف الأستاذ عبداللطيف الدليشي الخالدي كتابًا عن الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، وتناول تفصيل حياته منذ نشأته حين ولد في سنة ١٨٧٦م إلى وفاته في سنة ١٩٣٢م، وذكر طلبه للعلم، وقيامه بالإرشاد الديني والجهاد في سبيل الله، كما تحدث عن كل ما جرى له في الكويت وفي غيرها من البلاد، وذلك لأنه ذكر رحلاته العديدة ولقاءاته بالناس في كل تلك الأمكنة. وعلى كل حال فإن المؤلف كان حريصًا على الأمانة العلمية بعيدًا عن الهوى مما جعل الكتاب مفيدًا لقارئه.

٤ - إن الأسباب التي دفعت كلا من الشيخين إلى مواجهة الشنقيطي بهذا العنف لها أسبابها الكثيرة غير أن كل واحد منهما له منظاره الخاص وزاويته التي ينظر منها، وعند التمعن فيما كتبه الشيخ عبدالعزيز الرشيد ما يكفي لكشف ذلك.

****

الكويت في أوائل الستينيات [1]

كانت أوائل ستينيات القرن الماضي، من أخصب السنين في تاريخ الكويت، من حيث تزاحم الأعمال وتتابعها، ومن حيث انتقال الكويت خلالها من مرحلة إلى مرحلة أخرى، وقد مر بنا كثير من أخبار هذه الفترة التي كان من أهمها استقلال الكويت، ودعوى عبدالكريم قاسم الباطلة، وما لحق ذلك من قيام دولة الكويت بمسؤولياتها، وانفتاحها على العالم وقيام المجلس التأسيسي ومجلس الوزراء والدستور ومجلس الأمة، وسوف نتتبع ما حدث في هذه الفترة بعد قليل حين نستعرض الكتاب الذي بين يدينا الآن وهو كتاب شبيه بتلك الكتب التي صدرت بعد سنة ١٩٦١م، وتولينا عرض بعض منها في «الأزمنة والأمكنة» ولم نجد فيها ذلك الحس الأدبي، ولا العمق التاريخي، ولم يكن فيها إلا المبالغات ونقل المعلومات ورصها على صحائف كتبهم دون دراسة أو وعي.

ولا نستطيع أن نغض الطرف عن هذه الكتب، مهما كان فيها من قصور، ومهما وجدنا فيها من مبالغات لأنها كانت تعبر عن فترة مهمة من فترات تاريخ بلادنا؛ ولأننا إن لم نجد كل ما جاء فيها مصورًا لحقيقة الحال؛ فإن بعضه ربما أفادنا في معرفة الجو العام الذي عشناه آنذاك.

وهذا كتاب لم نستطع أن نعرف تاريخ تأليفه، ولم نعرف الجهة التي أصدرته إلا ما نراه مكتوبًا على غلافه، ففي أعلى ذلك الغلاف كتب ما يلي: «مكتب التضامن

---

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ١٣/١٠/٢٠١٠م.

العربي الإسلامي - العراق بغداد» ولا نعرف عن هذا المكتب أكثر مما رأيناه على غلاف الكتاب الذي نحن بصدد الحديث عنه، ولكننا نجد في أسفل الغلاف ما يدل على كاتبه ففي ذلك الموضع: «إشراف وتدبيج هاشم بكر عمر» وهذا كل ما نستطيع أن نلم به عن مصدر الكتاب، ولكن عنوانه هو: «الكويت الحديث، في عهد أميره الزاهر»، ومن حيث تاريخ التأليف والإصدار فإننا نستطيع أن نقوم بتخمين ذلك، حيث إنه تحدث عن بعض الأمور التي حدثت في الكويت خلال سنة ١٩٦٣م، إذن فيمكن أن نقول: إنه صدر في أواخر هذه السنة أو في أوائل السنة التي تلتها وهي سنة ١٩٦٤م، وسوف يأتي من تصفحنا للكتاب ما يؤكد ذلك.

إنه شبيه بتلك الكتب التي انثالت على الكويت في أعقاب استقلالها في اليوم التاسع عشر من شهر يونيو لسنة ١٩٦١م، وهو لا يعتبر كتابًا بمعنى الكلمة بل هو مجرد تجميع لقصاصات تحتوي على بعض المعلومات التي ليس فيها جديد، وقد طبع طبعة رديئة لاختصار الزمن حتى يخرج في أسرع وقت، واختصار المال لأن الطباعة الجيدة مكلفة.

نلاحظ أن هذا الكتاب قد صدر متأخرًا عن غيره من الكتب التي صدرت للغرض الذي ذكرناه وهو استقلال الكويت والتسابق على الحصول على حظوة عند حكومتها بقصد التكسب واستدرار المال الذي اضطرت البلاد إلى صرفه في تلك الفترة من باب الرغبة بالتعريف بالكويت المستقلة وتقديم صورة لها للناس الذين هم من خارجها ولكن هذا الكتاب مختلف من حيث إنه جاء متأخرًا عن كل ما سبقه من كتب، ففي السنة التي صدر فيها كانت قد مرت على استقلال الكويت بضع سنوات والمكتب الذي أصدره الكتاب كان آنذاك في العراق ولم يكن في مقدوره أن يقدم على مثل هذه الخطوة في وجود عبدالكريم قاسم حاكم العراق الأسبق الذي كانت مطالبته بالكويت من المشكلات التي واجهتها بلادنا فور استقلالها ولكنه لم يحصل على شيء مما أراد بدعواه، كما لم يحصل نظيره صدام حسين على شيء، بل عاد كل ما صنعه ضد الكويت سوءًا ووبالًا عليه وعلى بلاده إلى اليوم.

وعلى الرغم من أن عبدالكريم قاسم قد ولى عندما صدر الكتاب، وعلى الرغم من اعتراف حكومة العراق اللاحقة بالكويت دولة عربية مستقلة ذات سيادة، وقد أقر بذلك المجلس الوطني العراقي بعد حرب تحرير الكويت وأقر بها في سنة ١٩٦٣م، في اتفاق وقعه أحمد حسن البكر بعد أن أخذ موافقة الحكومة وحزب البعث الحاكم آنذاك.

على الرغم من كل ذلك فإن مدبج الكتاب كما نعت نفسه لم يكلف نفسه الإشارة إلى ما حدث للكويت في الأيام القريبة منه، ولم يذكر شيئًا عن المطالبة التي قادها - ظلمًا - عبدالكريم قاسم، وكأن هذا الأمر الخطير لم يمر بتاريخ الكويت ولا بتاريخ العراق. ونحن بعد أن نقرأ هذا الكتاب نحس أن المدبج بسكوته قد مالأ المعتدي، ولم يجد في عمله شيئًا يعاب، على حين ضجت الدنيا لما فعل قاسم، وتحمل الكويت الكثير في سبيل دعواه الكاذبة بل وتحمل العراق أكثر من ذلك، ولقد كان أقسى ما تحمله الناس في العراق تصديقهم لهذه الدعوة الكاذبة حتى لقد صار من الصعب عليهم أن ينسوا أن كل ما دار في عهد قاسم لا يؤيده عقل ولا تاريخ، ولا ما ينبغي أن يتحلى به العراقيون من حسن الجوار.

وعلى الرغم من ذلك فإنهم يريدون منا أن ننسى ما حدث لنا منهم، دون أن يقوموا بتقديم عمل يساعدنا على النسيان، ومع الأسف الشديد فإن عددًا من أبناء وطننا صاروا يتناسون كل ما حدث ويتنكرون للأسرى والشهداء الكثيرين من أبناء وطنهم، وها هم المغنون والمغنيات يأتون من العراق للغناء في أفراح بعض الأسر التي لا يهمها ما حدث وكأنه جرى في بلد آخر لا يحملون جنسيته، ولا أريد أن أتحدث في هذا الموضوع بأكثر من ذلك فإن التفصيلات كثيرة ومؤلمة.

وليس أمامنا بعد كل ما تقدم إلا الدخول إلى موضوعات الكتاب الذي آثرنا الحديث عنه وهو كتاب «الكويت الحديث في عهد أميره الزاهر»، وهو يتكون من

اثنتي عشرة ومائة صفحة من القطع المتوسط، يضم عددًا من المعلومات المتنافرة منها ما هو تاريخي، ومنها ما هو وصف للأحداث مع رصد عدد من الأنظمة والقوانين التي صدرت في بدايات عهد الاستقلال، إضافة إلى عدد من الصور الشخصية لبعض المسؤولين القائمين بالعمل الحكومي في ذلك الوقت وعلى رأسهم المرحوم الشيخ عبدالله السالم الصباح.

يبدأ الكتاب بمقدمة قصيرة جدًّا، قال فيها معد الكتاب ما يلي: «أقدم هذا الكتاب شارحًا فيه الأعمال البناءة، والمنجزات التي قامت بها الحكومة الكويتية خلال فترة قصيرة، وعند تطلعك على المصادر والأرقام المشروحة سوف تجد أن الكويت الحديث ساير الأمم المتقدمة، ورفع مستوى الفرد الكويتي، ونحن نذكر هذه الحقائق الملموسة إنصافًا للحق والواقع، والله من وراء القصد».

ثم ابتدأ الكتاب بكلمة عن الشيخ عبدالله السالم الصباح فتحدث عن مولده واستعداده لقيادة البلاد بما قام به من أعمال، ومتابعة للكثير من الأمور التي نمت بمتابعتها خبرته، وذلك أن الشيخ يعتبر حجة في تاريخ الكويت وفيما يتعلق بالشؤون العربية. وجاء - أيضًا - إنه كان للشيخ عبدالله السالم اهتمام بالمسائل النفطية وتنمية إيراداتها، ومن ثم صرف هذه الإيرادات فيما يعود على البلاد وأهلها بالخير في مختلف المجالات التعليمية والصحية، وفي مجال الإعمار والتنمية حتى تقدمت الكويت في خلال سنوات قليلة تقدمًا ملموسًا يلاحظه المراقبون فيعجبون من الهمة الكبيرة التي دفعت بكل هذه المنجزات إلى أرض الواقع.

ويقول الكتاب: «وبإعلان استقلال الكويت فتح سموه عهدًا جديدًا لبلاده، فجرى - تنفيذًا لرغبته - انتخاب أول مجلس تأسيسي يضع للبلاد دستورًا يكون أساس الحكم فيها، وقد جرت انتخابات هذا المجلس بموجب أحدث الطرق الديموقراطية الصحيحة، وفي جو من الحرية التامة.. وقد أوضح سموه عند

افتتاح المجلس في اليوم العشرين من شهر يناير لسنة ١٩٦٢م السياسة التي اختطها لبلاده، كما بين أهداف حكومته».

وبعد تقديم مقتطفات من خطابات الشيخ تحدث الكتاب عن بعض الأعمال الإصلاحية التي قامت في البلاد، وعن التفات الحكومة إلى عدد من الأعمال التي استفادت منها دول أخرى مثل الصندوق الكويتي للتنمية وغيره من المؤسسات المشابهة، ووردت هنا الإشارة الوحيدة من نوعها حين قال الكاتب: «ولقد كان من جراء هذا كله أن ساد الأمن في البلاد وعمت الطمأنينة ربوعها، وازدادت أواصر الثقة والتعاون والمحبة بين الشعب وحكومته، وتجلى ذلك واضحًا حين تآلف الشعب حول قائده وهب للدفاع عن حياض الوطن تجاه الخطر الذي تعرضت له الكويت غداة استقلالها».

ولم يكن هذا الخطر الذي أشار إليه الكتاب غير ادعاءات عبدالكريم قاسم ضد الكويت، ولكن الكاتب لم يرد أن يذكر ذلك، وكأن الخطر قد جاء من جهة أخرى لا يعرفها، ولا نعرفها نحن. وكان الأجدر به أن يكون أكثر تجردًا أو أن يمتنع من تأليف هذا الكتاب مادام لا يستطيع أن يقول كلمة الحق.

وكأن الكاتب يناقض نفسه حين يقول: «وكان للسياسة العربية المخلصة البناءة التي اختطها الأمير الأثر الفعال في توطيد أواصر الأخوة والمحبة بين الكويت وشقيقاتها الدول العربية التي بادرت إلى نصرتها ودعم استقلالها، وتبنى قضيتها بعد أن رحبت بها عضوًا كاملًا في الجامعة العربية».

ولم يقل لنا ما هي هذه القضية ومن الذي تسبب بها ومن الذي وقف صارخًا ينادي بعدم الموافقة على انضمام الكويت إلى جامعة الدول العربية، ولا أظن القارئ يجهل ذلك ، ولكن يد (المدبج) هاشم بكر عمر لا تستطيع أن تكتب ذلك، لأنه حتى في ذلك الوقت الذي زال فيه الصنم العراقي عبدالكريم قاسم فإنه ليس

في العراق من ينظر إلى الكويت النظرة التي ينبغي أن ينظر بها كل إنسان محايد إلى بلد عربي مستقل.

ولقد كانت لنا وقفة مهمة حول هذا الموضوع في كتابنا «من أين يأتي النسيان» الذي صدر في سنة ٢٠٠١م، وفيه كثير من المقارنات بين أوضاع البلدين: الكويت والعراق، وتفنيد للادعاءات التي نعق بها قاسم ، وكل ما يحتاجه المرء للإحاطة بالوضع الخاص بموقف العراق من الكويت. وهو موقف - للأسف الشديد - لم يتغير على الرغم مما تبذله حكومتنا من جهود في سبيل امتصاص الحقد الدفين، والسير معًا في طريق يفيد الشعبين بعيدًا عن نظرة الرغبة في الاستيلاء. ولن نصل معهم إلى الموقف السليم إلا إذا انتزعوا من نفوسهم الأطماع التي غرست فيها من أيام ملكهم غازي الذي كان أول من بذر الطمع، وقد عاد ذلك عليه بالفشل الذريع كما عاد الطمع نفسه على قاسم وصدام وليس بمستغرب أن نرى الثلاثة وقد قتلوا وكأن هذا كان جزاءً وفاقًا لهم من الله سبحانه وتعالى بسبب ما قاموا به من عدوان متنوع الأشكال على بلد عربي مسالم آمن هو: الكويت.

بعد أن انتهى حديث الكتاب السابق، دخل إلى مجال تاريخي ذكر فيه أصول آل صباح، وحضورهم إلى الكويت واختيار المواطنين لصباح الأول كما هو مذكور في الكتب واختار لتولي صباح الأول سنة ١٧٥٦م وهذا التاريخ عليه علامات استفهام كثيرة، لأن من المعروف الآن أن قيام دولة الكويت كان في سنة ١٦١٣م.

ثم تحدث عن موقع الكويت ومساحتها، ومناخها وموارد المياه فيها، وعن محطات إنتاج المياه العذبة، وعن التشجير وأثره في تحسين الجو وتلطيفه، وعن البترول. والمدن الكويتية، وعن الجزر، ومنها كما قال بوبيان وربه، وكأنهما جزيرة واحدة كان ينبغي أن يقول بوبيان وورية. وأخذ حديثه عن الميناء والنشاط التجاري الأسطر الثلاثة الأخيرة من حديثه هذا.

وتحت عنوان: «أمير الكويت يُلَبِّي نداء الواجب» ذكر المؤلف معلومات عن أعمال الشيخ عبدالله السالم الصباح، وذكر منها مشاركته في اجتماع ملوك ورؤساء الدول العربية، ثم تحدث عن هذا الاجتماع وعن دور الكويت فيه.

وتحت عنوان: «الثروة البنائية الكبرى» تحدث عن النشاط الإنشائي، وكلمة الثروة هنا يقصد بها الثورة كما هو واضح في تفصيلات هذا الموضوع، وتحدث حديثًا سريعًا عن سور الكويت الذي كان قد أزيل في وقت تأليف الكتاب وعن تعبيد الطرقات والساحات، وعن المحلات التجارية الحديثة التي تصطف بمحاذاة الشوارع الرئيسية، التي جلبت عددًا كبيرًا من الزوار مما يبشر بنشاط سياحي كبير كما يقول.

وفي موضوع خصصه للحديث عن «الإسكان» أورد معلومات عن إسكان ذوي الدخل المحدود، وعن التوسع في المناطق السكنية التي شيدت لسد حاجة الأهالي بعد استهلاك مساكنهم، أما بيوت ذوي الدخل المحدود فقد ذكر المؤلف أن الحكومة قد قسمتهم إلى فئات بحسب الدخل الشهري لكل أسرة، وقررت لكل فئة مبلغًا بسيطًا يدفع شهريًّا مقابل استغلال البيوت التي كانت تقدم لهؤلاء مؤقتًا إلى أن يقيموا المساكن الخاصة بهم، وذكر أن هذا يتم من خلال لجنة إسكان ذوي الدخل المحدود.

وجاءت بعد ذلك موضوعات متفرقة بعضها تمت الإشارة إليه فيما سبق منها موضوع «الكويت في الأمم المتحدة» وقد تم ذلك في اليوم الرابع عشر من شهر مايو لسنة ١٩٦٣م، ومنها موضوع «العدالة الاجتماعية» الذي يكفل سد حاجة المحتاجين بحسب حالات محددة، وموضوع «النفط» الذي هو بيت القصيد في مسألة الموارد المالية للكويت ولكنه لم يأخذ من الكتاب إلا صفحة واحدة وبضعة أسطر، وفي موضوع «المالية» ركز على الاستثمار بشكل عام، وعلى المشروعات الصناعية

المنتظرة التي تفكر في إقامتها دائرة مالية الكويت، وتحدث عن المساهمات المالية الكويتية التي تقدمها الكويت لبعض الدول العربية، ثم عن انضمام الكويت إلى بعض المؤسسات المالية ومنها البنك الدولي للإنشاء والتعمير وصندوق النقد الدولي وغيرها.

وعاد في ص ٤٠ إلى الحديث عن الماء ووصف الكتاب فيه أسلوب جلب المياه من الخارج، وطريقة الإنسان الكويتي في استغلال مياه الأمطار للاستفادة منها طوال السنة، ثم جاء الحديث عن تحلية مياه البحر، وهو حديث معاد كما نرى.

بعد ذلك جاء الحديث عن التعليم العام، والتعليم الصناعي وكل ذلك كان في إيجاز شديد، أما بقية الموضوعات المتداخلة التي يتسلسل إيرادها فهي «مصنع الإسبست» و «مركز إيواء العجزة» و «الاستقرار الأمني» و «دار الطفولة» و «المستشفيات» وكان الأجدر بالمؤلف أن يحسن تصنيفها ويسلسلها بحسب الموضوعات. ومن ضمن الموضوعات غير المترادفة «الفتاة الكويتية» و «التجار» وليس الحديث عن الفتاة الكويتية إلا سردًا لوضع مركز التدريب المهني للفتيات الذي كان تابعًا لوزارة الشؤون الاجتماعية في ذلك الوقت، وليس الحديث عن التجار إلا سردًا للحديث عن وزارة التجارة وأعمالها وواردات الكويت وصادراتها ونظام الشركات المساهمة، وتوزيع أعمال الوزارة إلى عدة فروع منها مراقبة السجل والعلامات التجارية، ومراقبة التجارة الخارجية، ومراقبة الأسعار، ومراقبة البحوث الاقتصادية، والإحصاء، ومراقبة الشؤون الإدارية والمالية.

أما الموضوع الذي لحق كل ذلك فهو موضوع تعداه الزمن وأصبح في حكم الماضي، وكان عن الغوص على اللؤلؤ.

ولقيت أعمال البرق والهاتف مجالًا للحديث، كما لقيت الزراعة وبخاصة الزراعة من غير تربة مجالًا لها أيضًا، وفي وسط الكتاب، وفي غير الوضع الملائم

كلمة عن صورة الكويت من الجو ثم عودة إلى الموضوعات المتنافرة مثل: «مصانع كيماوية كويتية» و «الكويت في الأمم المتحدة».. وهو موضوع معاد هنا و «الجهراء» و «جزيرة فيلكا»، و «بلدية الكويت» و «مطبعة حكومة الكويت» و أخيرًا «علاقات الكويت الخارجية» و «مجموعة من القوانين».

إن أهم ما يلاحظ في الكتاب التسرع في طبعه ونشره رغبة في إنجازه بأسرع وقت ممكن، وكذلك عدم التنسيق، وعدم الدراية التامة بكل ما فيه من موضوعات، والإيجاز المخل.

ونلاحظ - أيضًا - أن المؤلف عندما جمع كل ما قدر على جمعه من معلومات ورماه على الصفحات رميًا، وجد نفسه أمام مشكلة هي أنه لم يملأ إلا ما يقرب من خمس وثمانين صفحة، فملأ باقي الكتاب بمجموعة من القوانين نسخها نسخًا من أصولها دون دراسة أو تنسيق، وقد وصلت صفحات الكتاب بذلك إلى ١١٢ صفحة، فاطمأن إلى ذلك وقدمه للطبع، ثم للبيع على الدوائر الحكومية الكويتية وفقًا للقصد من إنشائه وطبعه.

هذا عرض سريع للكتاب المنوه عنه، مع تعليقات سريعة جاءت في ثنايا العرض، وإن كان لنا أن نقول شيئًا إضافة إلى ما سبق فهو أن سنة ١٩٦٤ م التي كتب وصدر فيها الكتاب كانت من أهم السنوات في تاريخ الكويت لامتلائها بالأحداث التي كان ينبغي أن تكون موضع اهتمام المؤلف.

في سنة ١٩٦٤م جرت في الكويت عدة أمور كلها تدل على التحرك السريع نحو الارتقاء بمستوى الحياة من جميع النواحي، وفي اليوم الثالث عشر من شهر يناير شارك الشيخ عبدالله السالم الصباح في مؤتمر القمة الذي عقد في ذلك الوقت بالقاهرة ممثلًا للكويت يصاحبه وفد رسمي كبير، وتأسست مجموعة من الجمعيات والأندية الرياضة والاجتماعية وقامت فيها مسارح، ووزعت دائرة

بلدية الكويت عددًا كبيرًا من قسائم السكن في مواقع متعددة منها ما هو في الجهراء وما هو في بو حليفة والفنطاس، وافتتحت سفارات لدول عديدة في الكويت وفي مقابلها افتتحت الكويت عددًا من سفاراتها في الخارج. وشهدت هذه السنة - أيضًا - توقيع عدد من الاتفاقيات الاقتصادية وانضمت الكويت إلى لجان دولية مختلفة، وبالجملة فقد كانت سنة ١٩٦٤م التي وُقِّع فيها تقديم الكتاب الذي أشرنا إليه سنة حافلة بالنشاط وما ذكرناه نماذج قليلة له، وكنا نتوقع أن نجد لهذا النشاط صداه في الكتاب، ولكن ذلك لم يتحقق كما قلنا قبل قليل، وليست هذه هي أول وآخر ملاحظة سلبية عليه.

****

ذكر صاحب السمو الأمير في الشعر النبطي[1]

أبدأ مقالي هذا بالتذكير بأن صاحب السمو الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح أمير دولة الكويت حفظه الله لا يحتاج منا إلى سرد تاريخ حياته، فهو معروف من قبل الجميع، ومحفوظ في قلوبهم. عاش معهم ورأوه ورأوا أعماله، وتتبعوا أنشطته منذ بدأ حياته العملية التي تدرجت تدرجًا يسّرَ له الحصول على خبرات كثيرة ومعلومات جمة وقدرة فائقة على الإدارة والإحساس بالمسؤولية مما جعله بالنسبة لوطننا مرفأ الأمان الذي نحس أن تدخله في كل قضية شائكة يكفل لها حلاً يرضي الجميع، ويطمئن الناس إلى أنهم اكتشفوا الطريق السليم وهو الطريق الذي اختطه لهم أمير بلادهم، حتى صاروا يقولون: ما يرضاه أميرنا يُرضينا. لقد مرت بنا أمور شائكة اختلطت حولها الآراء، وأظلمت الدنيا أمام الذين يريدون الاهتداء إلى السبل التي تزيل غمامة الاختلاف وتجمع الأهل على رأي واحد، وفي وسط هذه الظلمة يتجلى لنا شهاب ثاقب يهدي إلى الحكمة وينير الطريق أمام المختلفين فسرعان ما يتبين الجميع الصواب. ولذا فإن المواطنين يطمئنون إلى حنكته التي تنبع من خبرة غزيرة، ومن محبة غامرة للوطن وأهله.

ولد سمو الأمير في سنة ١٩٢٨م، وشهد شبابه فترة لا بأس بها من زمن حكم والده المرحوم الشيخ أحمد الجابر الصباح الذي حكم دولة الكويت منذ سنة ١٩٢١ حتى سنة ١٩٥٠م.

كانت المدرسة المباركية آنذاك أول مدرسة نظامية نشأت في البلاد، فالتحق بها، وهي قد تأسست في سنة ١٩١١م. وكان له بها أقران من أبناء

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠/١٠/٢٠١٠م.

أسرته آل الصباح، ومن أبناء الكويت الآخرين، فصار وجوده في هذه المدرسة فرصة لمعرفة عدد من الأفراد، والاختلاط بهم وتكوين صداقات معهم، ولا يخفى أن هؤلاء الذين كانوا الرعيل الأول من الدارسين في المدرسة المباركية هم الذين تولوا كثيرًا من المهمات في البلاد، وخرج منهم عدد من القياديين المعروفين. ولقد كان واضحًا أن والده كان يعده للمهمات الكبرى القادمة، فنظم له ولأخيه الشيخ جابر رحمه الله ما يكفل حصولهما على الخبرات التي تفيدهما في المستقبل عندما يتبوأ كل منهما مهماته التي قُدِّر له أن يتولاها. ولذا فقد كان لذلك أثره فيما سوف نراه في سجل حياتهما الحافل.

وفي السطور الآتية نرى نماذج من طرق الإعداد التي قام بها الشيخ أحمد الجابر، ولذا فإنني سوف أتتبع شريط ذكريات صاحب السمو الأمير حتى سنة ١٩٥٠م لأنه يكون بعدها قد دخل مرحلة جديدة من حياته، وذلك بخوضه للحياة العملية كما سنرى.

كان ضمن عمل الإعداد الذي حرص والده على أن يقوم به تجاهه أمران أحدهما هو اصطحابه في رحلاته الرسمية حتى يرى كيف يلتقي رؤساء الدول، وكيف يتحدثون وكيف يعاملون بعضهم بعضًا، وثاني الأمرين هو إتاحة الفرصة له كي يقوم بزيارات كثيرة إلى خارج البلاد ولا سيما البلاد العربية والأوروبية حتى يرى وسائل الحياة فيها ويتعرف تقدمها وازدهارها، ويستدل بملاحظته على السبل التي جعلتها تتقدم، وبالتالي فإنه سوف يستفيد من ذلك دراية وخبرة، وهذه بعض الإشارات إلى ما تم له خلال هذه الفترة التي كانت بالنسبة إليه فترة البناء المعرفي والنفسي، وهي التي أعطته القدرة على القيادة وفهم الحياة، وقبل ذلك كله فإنها هيأت للوطن رجلًا ملائمًا يقف المواقف التي يُشهد له فيها، ولا يتردد في حماية وطنه وأهله.

وفيما يتعلق بالأمر الأول الخاص بمصاحبة سمو الأمير لوالده نذكر تلك الرحلة التي قام بها الشيخ أحمد الجابر الصباح إلى الرياض لزيارة الملك عبدالعزيز آل سعود، وقد أمضى في ضيافة الملك السعودي واحدًا وعشرين يومًا، وعاد إلى الكويت في اليوم الحادي والعشرين من شهر يونيو لسنة ١٩٤٧م، وكانت هذه الرحلة من الرحلات التي أسهمت في تقوية العلاقات الأخوية بين العاهلين ومن ثم بين البلدين الشقيقين. ولذا فقد نالت اهتمامًا كبيرًا لا على مستوى الكويت وحدها بل تناولتها الصحف المصرية والعراقية وأطرت مثل هذا العمل الذي يوطد الصلات بين أبناء الأمة العربية. ولقد كان الاستقبال في يوم العودة حاشدًا وتوافدت إلى المطار أعداد كبيرة من أبناء الأسرة الحاكمة وأبناء الكويت الذين سعدوا بعودة أميرهم، وكان مع الشيخ في رحلته هذه ولداه سمو الشيخ جابر وسمو الشيخ صباح الذي شهد بهذه الزيارة أول مهمة من المهمات التي سوف تسجل في رصيد خبراته المدخرة للمستقبل.

وقام الشيخ أحمد الجابر الصباح برحلة أخرى امتدت لأكثر من شهرين. وقد ذكر أحد التقارير التي كتبت في هذا الشأن تفصيلًا مفيدًا ندرجه فيما يلي:

«في اليوم السادس والعشرين من شهر أغسطس لسنة ١٩٤٧م غادر سمو الشيخ أحمد الجابر الصباح على الباخرة «دواركا» وكانت باخرة مشهورة في ذلك الوقت تعمل على الخط البحري المتصل من الكويت إلى الهند مارًا بعدد من الدول كالبحرين وعمان وغيرهما. وكانت وجهة الرحلة إلى كراتشي عاصمة الباكستان، وقد رافق سموه في هذه الرحلة صَاحِبا السمو نجلاه الشيخ جابر والشيخ صباح وسكرتيره السيد عبدالله الملا صالح، وبعض حاشيته.

وكان أول ميناء رست فيه الباخرة بعد إبحارها من الكويت هو ميناء البحرين. ووجه سمو الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة أمير البحرين إلى سمو أميرنا المعظم

الدعوة لزيارة إمارته، فلبى الدعوة، وقضى في البحرين حوالي العشر ساعات كان سموه فيها موضع الحفاوة والتكريم البالغين.

وفي كراتشي استقبل سموه السيد محمد علي جناح رئيس دولة الباكستان ورئيس وزرائها استقبالًا حارًّا، وكان القائد الباكستاني الأعظم يتردد على سموه باستمرار أثناء وجوده في العاصمة. وقد أهداه سموه سيفًا أثريًّا مرصعًا، كما قدم هدايا ثمينة أخرى إلى رئيس وزرائه.

وانتهز سموه فرصة وجوده في الهند فزار مدينة بومباي زيارة خاصة واستقبلته هناك الجالية العربية الكبيرة بالحفاوة اللائقة واحتفلت به احتفالًا رائعًا يليق بمقامه ومكانته في قلوب الجميع.

ومن المقرر أن يغادر سموه ميناء كراتشي في طريقه إلى الكويت يوم ٧ أكتوبر ١٩٤٧ وسيزور في أثناء هذه العودة عظمة سلطان مسقط تلبية للدعوة الموجهة إلى سموه من عظمته.

وإضافة إلى ذلك فقد كان سمو الأمير الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح حاضرًا في جميع المناسبات، وبخاصة تلك التي كان والده يحضرها. ومن ذلك المشاركة في استقبال الشيخ سلمان بن عيسى آل خليفة، الذي زار دولة الكويت في شهر نوفمبر لسنة ١٩٤٩م، واستقبل الضيف الكريم استقبالًا كبيرًا، وكان من الاحتفالات التي أقيمت ابتهاجًا بحضوره الحفل الذي أقامته دائرة الصحة العامة، وكان سمو الشيخ صباح من الحاضرين.

وبدأت المرحلة الثانية وهي ما أطلقنا عليها الأمر الثاني. وفي هذا الشأن نشرت مجلة البعثة في عددها الصادر في شهر أغسطس لسنة ١٩٥٠م خبرًا مفاده: «وصل إلى القاهرة حضرتا الشيخ جابر الأحمد والشيخ صباح الأحمد في

طريقهما من لبنان وقد أقاما بالقاهرة أيامًا وسوف يغادرانها إلى أوروبا وفي هذه الفترة زارا بيت الكويت واستقبلا بحفاوة بالغة، واطلعا على ما فيه من أنشطة».

وقد احتفت المجلة بالضيفين الكريمين في العدد الذي لحق العدد السابق المشار إليه، فوضعت في صفحة كاملة صورتين من الاستقبال، وتحدثت عن هذه المناسبة قائلة: «كان مساء الجمعة ١٨/ ٨/ ١٩٥٠م من أبهج أمسيات بيت الكويت، ملأ السرور النفوس وبدت الغبطة على الوجوه.. ووقفت سيارة سوداء كبيرة ونزل منها شابان.. فدب النشاط في بيت الكويت وهرع الجميع لاستقبال الضيفين الشابين لقد كان استقبالًا حارًّا، وكانت كل مصافحة مشفوعة بكلمات، فلقد التقى الزملاء بعد غيبة، وحل الأميران ضيفين على بيت الكويت في تلك الأمسية فنزلا أهلًا وحلّا سهلًا.. هي ساعات لا تنسى تلك التي رتبت لقاء الأميرين الشابين بإخوانهما طلبة البعثة، سيذكرها بيت الكويت وسيذكر الاجتماع حول مائدة الشاي».

وفي يوم الأحد التاسع والعشرين من شهر يناير لسنة ١٩٥٠، توفي الشيخ أحمد الجابر الصباح، وفجعت الكويت كلها بوفاته، وتولى الحكم من بعده الشيخ عبدالله السالم الصباح، وقد سار على سيرة سلفه واحتضن الشيخين جابرًا وصباحًا، وأدل شيء على ذلك اصطحابه لهما حين قام بزيارته البحرية إلى البحرين، وهي زيارة استغرقت أسبوعًا من آخر شهر في سنة ١٩٥٠م. وعلى الرغم من أن الشيخ يعرف الرجلين جيدًا إلا أن هذه الرحلة أبدت له ما يملكانه من قدرات قيادية جيدة يمكن أن تفيد العمل الحكومي في المرحلة التي بدأت بتوليه الحكم، وقد قرر بشأنهما أمرًا فسار عليه، وقد كان إشراك سمو الشيخ صباح الأحمد الصباح في عضوية اللجنة التنفيذية العليا في اليوم التاسع عشر من شهر يوليو لسنة ١٩٥٤م بداية لانخراطه في سلك العمل الحكومي، وكان - آنذاك - في الخامسة والعشرين من

عمره، وكانت اللجنة المذكورة ذات أهمية قصوى بالنسبة للأعمال في البلاد فهي بمثابة مجلس وزراء، ثم أسندت إليه رئاسة دائرة الشؤون الاجتماعية والعمل، فرئاسة دائرة المطبوعات والنشر إلى أن جاء الاستقلال، فاستمر في أعماله التي يعرفها كل الناس فلا داعي إلى تكرارها.

المهم في الأمر أن صاحب السمو الأمير خاض تجارب كثيرة واكتسب خبرات جمة أوصلته مع التدرج الطبيعي في أعماله إلى سدة رئاسة الدولة: أميرًا لهذا الوطن الذي يبادله حبًّا بحب.

نعود - معًا - الآن إلى الحديث المتعلق بعنوان هذا المقال، وهو الحديث الخاص بالشعر النبطي الذي ذكر فيه سمو الأمير. وأنا لا أريد أن أتحدث عن الشعر النبطي الذي يقال في هذه الأيام أو في الأيام الأولى لتوليه سدة الحكم، فهذا شعر كثير وغزير، وقد يلاحظ القارئ أنني كنت أتحدث عن البدايات وهذا ما جعلني أهتم بالشعر القديم الذي كان يحتفي بالشيخ صباح الأحمد ويرى فيه أملًا للمستقبل. ومن أوائل من عرفته أنشد في هذا المجال شاعر الكويت الشعبي فهد بورسلي، والشاعر فهد غني عن التعريف فقد كتبت عنه كثيرًا في أكثر من موقع، وكتب عنه الأستاذ أحمد البشر الرومي وغيره، وهو من مواليد سنة ١٩١٨م، وكانت وفاته في سنة ١٩٦٠م، وقد كانت له شهرة كبرى في البلاد وكان شعره على كل لسان، وقد كتب قصيدة تدل على تقديره ومحبته للشيخ يحييه بمناسبة عودته من السفر فيقول:

يا بو ناصر صابني همٍّ ثجيل
من مُحاتاكم، عَمَتْ عين الحسود
جغل دنياكم عليكم ما تميل
طرشة نَرجي عساها ما تعود
افكر بحالي على الحر الأصيل
زايد همِّي ولا عندي شهود

ثم يشير في قصيدته إلى والد الشيخ صباح فيقول:

يا صباح الخير يا زبن الدخيل
غيرها العضدين ما عندي عضود
طرشة اللي بالعرب جنسة جليل
أبو جابر شيخنا أسد الاسود
حاكم ما بار لو بار العميل
ما انتشكى يوم وأنتم في الوجود
الدليل أنت إذا تاه الدليل
من ورد بالفخر يارد له غدوذ

ولا ينسى فهد بورسلي أن يذكر المرحوم الشيخ جابر الأحمد فهو يتحدث عن رحلة مشتركة قام بها الشيخ أحمد الجابر الصباح مصطحبًا نجليه كما مر بنا في حديثنا السابق:

أنشدك عن صحة الشهم الفضيل
بو مُبارك جابر الحر الجدود
من سفركم تمت عيوني تسيل
شاعر دمعه جرى فوق الخدود

لقد كان - كما توقعنا - يتحدث عن الرحلة التي ذكرنا فهو يقول: (طرشه) وهي في اللهجة السّفرة، ويتحدث عن الرجال الثلاثة في وقت واحد وإن كان محور القصيدة يدور حول سمو أميرنا الشيخ صباح الأحمد الجابر.

وعندما عاد الشيخ من رحلة أخرى قام بها فيما بعد توجه فهد بورسلي إليه بقصيدة يرحب فيها بقدومه ويعبر عن سعادته بعودته، وفيها ما يشعرنا أن هذه الرحلة كانت من ضمن رحلات الصيف التي كان يقضيها (أبو ناصر) في الخارج:

طاب حظك يا بو ناصر واعتلى

يا صباح المجد في كل الأمور

من نشا طبعه الوفا ما بدلا

والنجاح لكل مقدام فخور

كل من حاش الثنا يستاهلا

لا تظن الطيِّب الوافي يبور

والمراجل هكذا ولا فلا

فوق طيب النفس للخلان سور

مرحبًا بعد المصيف ومسهلا

عندنا الأيام تمضي عن شهور

وجاء بعد شعره شاعر آخر، له طريقته في إبداع الشعر، وله دور في إثراء الساحة الكويتية بعدد كبير من القصائد التي جمعها فيما بعد في ديوانه «سبائك العسجد» وهو الشاعر محمد بن مبارك الشريدة، وقد لفت نظري شعره إليه فكتبت عنه كتابًا مستقلًا تحت عنوان: «محمد بن شريدة شاعر الملحمة في الشعر النبطي الكويتي».

وهو من الشعراء المهتمين بالشعر الزهيري، وله فيه ديوان أصدره تحت عنوان: «زهيريات الشريدة» وقد زين هذا الديوان بهذه الزهيرية التي ينوه بها بذكر سمو الشيخ صباح الأحمد الجابر ويعدد فيها مآثره فيقول:

العتب ثولث ورسّاه المجاهد وجد

جاله من الله من جد المواقف وجد

صباح حامي العرين إلى وجوده وجد

يا شيخ عمرك حماية للوطن وأكثر

عملت كل الصفات الخيرة وأكثر

ما شاف فعلك حشا كل السعد وأكثر

عساك دايم حمانه يالمجاهد بجد

وجاء الشاعر سليمان صالح الهويدي في سنة ١٩٧٤م لكي يقدم لنا أبياتًا من شعره تسير على المنوال نفسه، فهو يمتدح بها سمو الأمير حين كان وزيرًا للخارجية، ووزيرًا للإعلام بالوكالة. وكان الهويدي من الشعراء المعروفين ذوي النشاط في مجال تقديم الشعر النبطي، وكان له برنامج تلفزيوني يقدم من خلاله الشعراء الذين يستضيفهم فيه لكي ينشدوا أشعارهم وقد حرص على أن يجمع بعضًا من شعره، وكذلك بعض الأشعار المختارة في كتاب أطلق عليه اسم «مجالس العرب» وأصدره في السنة التي أشرنا إليها آنفًا.

في بدايات كتابه هذا يذكر سمو الشيخ صباح الأحمد الجابر، ويثني عليه، وكان مما جاء في كلمته:

يا بو ناصر وقفتك ما هي خفيه

كل وقفاتك بها حزم وبساله

دمت يا راعي الشهامة والحميه

سمعة الرجال تظهرها فعاله

وهكذا...

هذه معلومات مختصرة عن بدايات سمو أميرنا حفظه الله، وهي - أيضًا - تتحدث عن اهتمام شعراء النبط به منذ نشأ، وذلك ليقينهم بأنه يسير سيرة لها دلالة على مستقبل زاهر ينتظره، وقد حدث ذلك والحمدلله.

****

ملحاق خير

ذكرت في المقال منذ بدايته أنني إنما أردت به الحديث عن الشعر النبطي الذي قيل في سمو الأمير الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح، واشترطت أن يكون ذلك لشعراء قدماء، وقلت: إنَّ الشعراء المعاصرين قد كتبوا كثيرًا من الشعر ورويت لنا أعداد كثيرة من القصائد التي تمتدح الشيخ وتنوّه بمآثره، بل إن هذا النوع من الشعر لايزال مستمرًا في وروده إلينا تتناقله الصحف بصفة مستمرة، بحيث يكون الخوض فيه بمنزلة الخوض في بحر لجي يصعب على الإنسان اجتيازه إلا بعد مشقة وطول معاناة، مع الحاجة إلى الوقت الكافي لذلك.

غير أنني لا أستطيع أن أتجاوز شاعرًا من شعراء النبط المجيدين الذين يعيشون معنا، وهو الأخ الشاعر خالد المنشرح العجمي.

أصبح هذا الشاعر معروفًا في أرجاء الكويت فهو لا ينقطع عن زياراته للناس يتحدث معهم وينشد لهم أشعاره الجميلة وقد أطلقوا عليه لقب: شاعر الإسلام تقديرًا له ولمواقفه المدافعة - شعرًا - عن الدين الحنيف.

أبو راكان- وهذه هي كنيته - حريص على زياراته لديوانية الثلاثاء، وما إن يهلّ علينا داخلًا حتى يقابل بعاصفة من الترحيب، وعندما يستقر به مقعده يبدأ الجالسون بجواره في سؤاله عن شعره وعن الجديد مما قال، فلا يتردد عليهم إذ يلقي عليهم من شعره الرائق ما يعجبهم ويسرهم.

شعر صاحبي هذا قوي جميل المعاني، ولذا فإن مجالسيه يطلبون منه - دائمًا - أن يتحفهم به، وهو من جانبه لا يبخل في تقديم ما لديه تقديرًا منه لمحبة أولئك الذين يجلسون إلى جواره، وتقديرهم له.

وفي موضوع المقال نجد أن الشاعر خالد المنشرح العجمي، قد قال عددًا لا بأس به من القصائد مادحًا لسمو الأمير، ومبينًا مناقبه، ذاكرًا أعماله التي أداها ولا يزال يؤديها في سبيل الوطن والمواطنين.

وبين يدي الآن قصيدة ألقاها الشاعر أمام سمو الأمير في مساء يوم الخميس الثالث عشر من شهر أكتوبر لسنة ٢٠٠٥م، وكان ذلك خلال شهر رمضان المبارك.

يقول في بداية القصيدة:

يا شيخ أنا ودّي أمسّيك بالخير
واعطيك من حلو المعاني عباره
حيث انْ لِكْ بْقلبي معزَّه وتقدير
أغليك يا رمز الفخر والحضارة
لجْلك يا بو ناصر تفيض التعابير
المدح في شخصك يطول اختصاره

ومنها:

كسبت حب الشعب ويّا الجماهير
الشيب والشبّان ويّا العذاره
من حكمتك تقصر جميع المشاوير
يا ماسحٍ دمع العيون السهاره
يا مْدبِّر أوضاع البلد خير تدبير
يا بو الأرامل والضعوف الفقاره

يا اللي زرعت الطيب مثل النواوير
يا اللي كسبت النصر في كل غاره
صباح الاحمد منبع الطيب والخير
مع طول دربه، ما انحرف عن مساره

هذا ما اخترته من أبيات القصيدة، وهي طويلة لا مجال لإيرادها كلها، بقي عليّ أن أقول: إنَّ الشاعر عندما قدم لي هذه القصيدة، قال: ليست هذه أجمل القصائد التي أنشدتها في مدح سمو الأمير وإظهار مآثره ولكنها نموذج من شعري.

صح لُسانك يا أبا راكان.

****

من تراث دائرة معارف الكويت [1]

كان اهتمام مجلس معارف الكويت بالصحة العامة التي تتعلق بطلاب وطالبات المدارس كبيرًا منذ البداية وكان يقوم بعدة مبادرات في هذا المجال منها نشر الوعي الصحي في المدارس عن طريق انتداب طبيب يشرح للتلاميذ كثيرًا مما يخفى عليهم من الأمور الصحية، ويحثهم على ضرورة اتخاذ سبل الوقاية من الأمراض، وهي سبل يبينها لهم. وكذلك عن طريق الفحص الدوري لهؤلاء التلاميذ وتزويدهم باللقاحات اللازمة والمقويات التي لابد منها وأخيرًا بالتغذية.

وعندما جاءت خمسينيات القرن الماضي وجدنا أن هذا الاهتمام قد تعاظم، وأن الجهود التي صارت تبذلها دائرة معارف الكويت بالتعاون مع دائرة الصحة العامة جهود مشهودة توجت بإنشاء إدارة الصحة المدرسية التي بدأت صغيرة يشرف عليها ويعمل بها طبيب واحد إلى أن اتسع مجال عملها وتعدد العاملون فيها من أطباء وممرضين وغيرهم، بالإضافة إلى إنشاء عيادة في كل مدرسة يمر بها الطبيب بين وقت وآخر ويقيم بها ممرض يتولى الإسعافات الأولية ومساعدة الطبيب عندما يأتي إليه.

عندما جاءت سنة ١٩٥١م كانت قد نشأت إدارة الصحة المدرسية، وقد بدأت أعمالها وهي صغيرة قليلة الشأن ولكن سرعان ما كبرت وتعددت أعمالها وصارت تعنى بعلاج طلاب المدارس ووقايتهم من الأمراض، وقد نشأت هذه الإدارة في

(1) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٠/١٠/٢٧م.

أحضان دائرة معارف الكويت ولكنها انضمت فيما بعد إلى منظومة أعمال دائرة الصحة العامة وكان التعاون بين دائرتي المعارف والصحة العامة في هذا المجال جيدًا ومثمرًا.

في سنة ١٩٥٩م وجدت دائرة المعارف ضرورة لإصدار مجلة يقرؤها التلاميذ والتلميذات تكون منبرًا للجميع وتقدم لهم في الوقت نفسه – التوجيهات الصحية التي لا غنى عنها لتنمية قدراتهم الجسمية والنفسية، فكان أن صدرت مجلة الصحة المدرسية التي نتحدث عنها في هذا المقال، ولقد استمرت هذه المجلة في الصدور فترة من الزمن ثم توقف صدورها لأسباب مجهولة، ولقد نسي الكثير من الناس ذكرها وظن كل واحد منا أنها انقرضت من الوجود نهائيًا، ولكن جهود مركز البحوث والدراسات الكويتية أثمرت بالعثور على أعداد منها، وبالتالي القيام بنشرها في مجلد واحد هو بين أيدينا اليوم، وقد قدم لها أخي الأستاذ الدكتور عبدالله يوسف الغنيم بمقدمة موجزة ولكنها مهمة شكر في آخرها كل من أسهم في إيصال هذه المجلة بعد انقطاعها إلى أيدي القراء.

ولما وجدناه غير قادر على شكر نفسه باعتباره المحرك الأساسي لهذا العمل الجليل فنحن هنا نتقدم إليه بالشكر على كل ما قدم ومنه إصدار هذه المجلة في حلة جديدة جميلة مع إضافة الفهارس التفصيلية التي لا غنى للقارئ عنها.

وقبل أن ننتقل إلى صلب الموضوع فإنه لابد من الإشارة إلى أن هذه المجلة كانت تطبع في مطبعة حكومة الكويت وكان كل عدد منها يضم ستًا وعشرين صفحة.

صدر العدد الأول من مجلة الصحة المدرسية في ١٩٥٩/١١/١م عندما كانت الصحة المدرسية – آنذاك – تتبع دائرة معارف الكويت ولذلك فقد أصدرت هذه الدائرة المجلة المذكورة باسمها على أن تصدر مرة في كل شهر خلال السنة الدراسية، وذكر أنها مجلة صحية تربوية.

يضم العدد الأول كثيرًا من المقالات المتعلقة بأهداف المجلة، ويضم كذلك أخبار الجمعيات الصحية التي تشكلت من طلاب وطالبات المدارس، وإضافة إلى هذه الأخبار أضافت مجلة الصحة المدرسية عددًا من الأخبار المهمة مما تقوم به دائرة الصحة العامة ودائرة معارف الكويت.

وصدر العدد الثاني ١٩٥٩/٢/١م، وفيه حديث عن الأمراض وطرق الوقاية منها، وفيه معلومات عن بعض الشخصيات مثل ابن قيم الجوزية، وأسئلة موجهة إلى طبيب، ورسائل متعددة من القراء، هذا بالإضافة إلى أخبار الجمعيات الصحية بالمدارس، وإعلان عن برامج الصحة المدرسية في إذاعة الكويت، وقد حرصت هذه المجلة على التذكير بمواعيدها لما تحتوي عليه من توجيه وتوعية، ودلالة على الأساليب الصحية السليمة.

والعدد الرابع هو الذي صدر في ١٩٦١/٢/١م، وهو يسير على النمط الذي سارت عليه الأعداد السابقة ويلاحظ أن الأطباء ومفتشي دائرة معارف الكويت يسهمون دائمًا بالكتابة في هذه المجلة إذ لا يخلو أي عدد منها من بعض المقالات التي كتبوها. وكان من أبرز كتاب العدد الرابع كل من الدكتور حسان حتحوت والدكتور يحيى الحديدي والأستاذ كامل بنقسلي من أسرة المعارف والدكتور محمد قنديل والصيدلي صالح صفوري.

وفي ١٩٦٠/٣/١م صدر العدد الخامس من هذه المجلة النافعة وسار على الطريق نفسه، ثم في ١٩٦٠/٤/١م صدر العدد السادس بالصفة ذاتها ثم صدر العدد السابع وهو الأخير من تلك السنة، وقد كان صدوره بتاريخ ١٩٦٠/٥/١م. وفي هذا العدد كلمة مدير معارف الكويت الأستاذ عبدالعزيز حسين بمناسبة انتهاء السنة الأولى لهذه المجلة، وقد ذكر أن صدورها كان نتيجة اتفاق بين دائرتي المعارف والصحة العامة على إصدارها وتقديمها للنشء، وشارك مدير دائرة

الصحة العامة - آنذاك - الأستاذ عبدالرحمن سالم العتيقي في تحية المجلة بمناسبة توقفها تمهيدًا لعودتها بعد عطلة نهاية السنة الدراسية ثم بدأت المقالات كالمعتاد. وفي لقطات الشهر نجد صورتين من حفل تكريمي أقامته مدرسة سعد بن أبي وقاص للدكتور محمد سعيد النجار الذي كان من أهم العاملين في مجال الصحة الوقائية والتوعية الصحية، وقد كتبت عنه المجلة ما يلي: «احتفلت مدرستا سعد بن أبي وقاص وابن زيدون بتكريم الدكتور محمد سعيد النجار واشتركت لجنة التثقيف الصحي بتكريمه، وقام الدكتور حسان حتحوت فكرّم فيه إنسانيته التي آثرها على نفسه وعلى عائلته وكرّمت المدرستان تضحياته التي أحيت صحة الجيل، كما هنأه المراقب الفني بدائرة معارف الكويت الأستاذ كامل بنقسلي على سيرته الحسنة».

وفي شهر أكتوبر لسنة ١٩٦٠م (تشرين أول) صدر العدد الأول من السنة الثانية لمجلة الصحة المدرسية، وفي كلمة العدد ومقالات كتبها الكتاب الذين سبق لنا ذكر بعضهم. وقد أضيف إلى هذا العدد «ركن المرأة الصحي» وباشر الدكتور محمد سعيد النجار بالكتابة في المجلة تحت عنوان عام هو: «شخصيات لا تنسى» وكان عن (الجاحظ).

أما العدد الثاني من السنة الثانية فقد صدر في شهر نوفمبر لسنة ١٩٦٠م، وكتب فيه الموجه الفني بدائرة المعارف عبدالعظيم بدوي وهو شاعر كانت له مساهمات في المناسبات التربوية التي مَرّت بالبلاد. وكتب فيه - أيضًا - الدكتور ثابت عبدالمسيح وكان طبيبًا في الصحة ثم اتخذ له عيادة خاصة، وهو مشهور بدقته وحرصه على عمله، هذا بالإضافة إلى موضوعات أخرى متنوعة ولكنها كلها ذات علاقة بأهداف المجلة. أضف إلى ذلك عددًا كبيرًا من الرسوم الكاريكاتورية الهادفة.

جاء بعد ذلك العدد الثالث من السنة الثانية وقد صدر في شهر ديسمبر لسنة ١٩٦٠م، وفيه تتعدد المقالات وتتنوع وكلها تدور حول صحة النفس والبدن، وقد لفت نظري مقال وجهه الأستاذ كامل بنقسلي إلى الجيل الجديد بعنوان: هل أنت متحضر؟، وفي نهاية المقال يقول الكاتب: إن حضارة اليوم، تصرخ في وجه الفتى الذي لا يتكل على نفسه بل على أسرته. وتقول: الجدُّ من شيمي، والصبر من صفاتي، والنجاح الحق من أهدافي، فالذي يصبر على العمل المنتج هو رفيقي، والذي يحمل عقيدة الكفاح في الحياة فهو ابني، وأما المبدع المبتكر فهو ابني الفضل، وقصدي من الحياة - دائمًا - إعلاء شأن الحق والجمال والخير.

وكتب الأستاذ جميل قاسم وكان مدرسًا في المدرسة المباركية مقالًا في العدد ذاته بعنوان: الإجهاد والنوم، وهو يتحدث عن النوم ومتى يكون مفيدًا لجسم الإنسان ويرى أنه لا قيمة للنوم الذي ينامُه المرء ثم لا يقوم بعمل. إن النوم المفيد هو الذي يعيد للجسم طاقته وقوته ويزيل إجهاده بعد أنّ يكون هذا النائم قد بذل جهدًا وقام بعمل أدى إلى حاجته إلى النوم.

ومن ضمن ما ورد في هذا العدد وصف لزيارة جماعة الصحة بمدرسة الصديق لمستشفى الصباح، وكان هذا المستشفى جديدًا في ذلك الوقت، ولم تكثر حوله المباني التي نشاهدها اليوم، وعلى كل حال فإن الطلاب قد قدموا وصفًا جيدًا لهذا المرفق الصحي الكبير، وكانت طريقتهم في العرض جيدة إذ هي تعتمد على أسلوب السؤال والجواب.

ويعجب قارئ هذا العدد لشدة تجاوب المدارس مع مجلة الصحة المدرسية التي صار لها في كل مدرسة جماعة مختصة بالنشاط الصحي والتواصل معها.

ثم جاء العدد التالي لما سبق وهو العدد الرابع من السنة الثانية، وصدر في شهر يناير لسنة ١٩٦١م وجدير بنا أن نلاحظ أن أسماء الأشهر الميلادية قد تغيرت

منذ هذا العدد، وكانت المجلة تستعمل أحيانًا الأشهر السريانية ولذا فقد كتبت على الأعداد الماضية أسماء مثل: تشرين الأول، وتشرين الثاني، وكانون الأول.

في هذا العدد نرى الدكتور يحيى شاكر، وهو طبيب أطفال مشهور في الكويت قد بدأ مساهمته بالكتابة في مجلة الصحة المدرسية فقدم مقالاً مهمًّا عن اكتشاف اللقاح المضاد لمرض الجدري.

وفي هذا العدد - أيضًا - نجد الصديق العزيز بدر عبدالله المديرس، وكان طالبًا في الصف الرابع المتوسط، وقد أرسل إلى المجلة قصيدة حول صحة الإنسان، ولقد كان اختياره لها موفقًا لأنها سهلة التناول قريبة من أذهان الطلاب والطالبات.

ونقرأ فيما بعد قصة كتبتها طالبة في مدرسة حولي المتوسطة للبنات، هذه الطالبة صارت الآن معروفة بكتاباتها ومؤلفاتها وهي الأخت ليلى محمد صالح.

العدد الخامس من السنة الثانية الصادر في شهر فبراير لسنة ١٩٦١م من هذه المجلة فيه شبيه لكل ما مر بنا في الأعداد السابقة من مقالات وقصص وتوجيهات وشعر وفكاهات.

والعدد السادس للسنة الثانية الذي صدر في شهر مارس لسنة ١٩٦١م، يبدو أن صدوره وافق شهر رمضان المبارك ولذا نرى فيه مقالاً كتبه بهذه المناسبة شيخي وأستاذي عبدالحكيم نعناع، وكان وقتها هو شيخ المعهد الديني. وفي العدد نفسه زيارة لمستشفى الأحمدي، وكان يسمى في ذلك الوقت مستشفى ساوثويل.

ولقد تضمن المكتوب عن المستشفى تفصيلاً جيدًا لكل جوانب العمل فيه، وامتلأت الصفحات المخصصة للمقال بالصور المفيدة التي تدل على الجهود التي تبذل في هذا المستشفى.

وصدر العدد السابع للسنة الثانية في شهر أبريل لسنة ١٩٦١م، وفيه مقال عن المشكلات النفسية، ثم زيارة لمرفق مهم للصحة وللتربية هو المطبخ المركزي وكان يومذاك درة لامعة في جبين دائرة معارف الكويت، وقد زين وصف الزيارة بعدد كبير من الصور المهمة.

وفي العدد نفسه مقال كتبه صديقنا المرحوم يوسف عبدالعزيز المساعد موضوعه: الشاعر الكويتي فهد العسكر. وفي العدد - أيضًا - صفحة جديدة عنوانها «حواء» واسمها يدل عليها فهي مخصصة للفتيات بشكل عام، وفيها نصائح وتوجيهات لهن. ومن العناوين الأخرى في هذا العدد: الغضب سم فتجنبه، والخوف مرض تجب معالجته، والرياضة حديقة الصحة، وفيه أيضًا كلمة كتبها الدكتور حسان حتحوت.

وصدر العدد الثامن للسنة الثانية في شهر مايو ١٩٦١م، وهو آخر الأعداد الواردة في المجلد، لأن مركز البحوث والدراسات الكويتية وقد اجتهد في جمع أكبر قدر من الأعداد هذه المجلة ذات الدلالة على النشاط الصحي والتربوي في الكويت وقت صدورها لم يتمكن من العثور إلا على هذا القدر الذي تضمنه المجلد، ومن هنا فإنني أدعو الذين لديهم أعداد أخرى لم ينشرها المركز المذكور لعدم حصوله عليها أن يتقدموا بها من أجل استكمال هذه المجموعة. وهذه الدعوة يمكن أن تطبق على كل ما صدر من مجلات في الفترات الماضية ففي تقديمها اليوم حفظ لها وتسجيل للجهود التي بذلت من أجل إصدارها بالإضافة إلى أنها تحتوي على معلومات تاريخية مهمة.

نعود الآن إلى العدد الثامن الذي أشرنا إليه فنجد مشاركًا جديدًا في الكتابة بالمجلة هو الدكتور محمد محيي الدين سليم، وهو من أشهر أطباء تلك الفترة في الكويت وكان مقاله بعنوان: كيف تحافظ على صحتك، مع إشارة إلى أن الفراغ

مرض ينبغي علينا أن نتخذ الوقاية منه وفي العدد مقال كتبه الموجه بدائرة معارف الكويت الأستاذ عبدالمحسن عجور عن الفيلسوف الطبيب: الرازي وفيه مقال آخر كتبه أحد زملائي المدرسين في مدرسة الشويخ الثانوية هو الأستاذ إبراهيم هلال الذي كان يدرس الفلسفة والمنطق بالمدرسة حين كنت مدرسًا بها في سنة ١٩٦١م وقد تناول في مقاله هذا شيئًا عن الصحة النفسية، وقد اعتبر التعبير الفني نوعًا من أنواع اكتساب راحة النفس.

وفي العدد - أيضًا - إشارة إلى برنامج تثقيفي من عمل دائرة معارف الكويت بالإشتراك مع دائرة الصحة العامة وعدد من المؤسسات الحكومية والأهلية، وقد كان في إطار «أسبوع الصحة ومنع الحوادث» ويبدو أن هذا العمل قد جاء بنتائج طيبة دفعت المجلة إلى القول: «حملت رسائل القراء إلينا إعجاب وتقدير أولياء الأمور ببرامج أسبوع الصحة ومنع الحوادث، وكانوا يتحدثون فيها بفخر عن الصورة الحية التي بلغتها المدينة من النظافة، بفضل نشاط الطلاب والطالبات داخل المدارس وخارجها».

هذا من واجبنا أن نذكر في الختام أولئك الذين بذلوا غاية جهدهم في سبيل إصدار هذه المجلة واستمروا معها إلى النهاية وهم:

الدكتور يحيى شاكر

الدكتور يحيى الحديدي

الأستاذ عبدالعظيم بدوي

الأستاذ طه الحمل

الأستاذ كامل بنقسلي

وقد كان في الهيئة المشرفة على المجلة بالإضافة إلى هؤلاء: الدكتور عمر الألفي، ولكنه لم يستمر فيها لسفره إلى بلاده.

وقد جرى ذكر ثلاثة أسماء خلال استعراضنا للمجلة وهم:

١ - الدكتور محمد سعيد النجار، وهو طبيب إنسان لا ينساه أبناء جيلي الذين أسعدهم وجوده بينهم، وكان يجوب الكويت كلها في سبيل أداء الخدمة الطبية للمحتاجين إليها، ويقوم بتقديم العون إلى كل من يتقدم إليه بطلب وهو منشئ برنامج التلفزيون الصحي وكان يقدمه للمشاهدين فترة طويلة من الزمن، رحمه الله.

٢ - يوسف عبدالعزيز المساعيد، أحد أوائل كتاب الصحف الكويتية الحديثة، بدأ الكتابة الصحفية في جريدة والده «الرأي العام» التي كانت أول جريدة يومية كويتية ثم استمر في نهجه هذا فكتب في مجلة النهضة وكان له فيها مقال أسبوعي، انتقل إلى رحمة الله تعالى وهو في عز شبابه ونشاطه، وكان مؤملًا منه الكثير.

٣ - بدر عبدالله المديرس، صديق قديم له دور بارز في أعمال جامعة الكويت فقد كان آخر عمل له فيها في منصب الأمين العام منصب المساعد، يكتب في الصحف مقالات ذات طابع خاص يحرص فيها على المصلحة العامة ويحث على التفاني في العمل المخلص للوطن، اهتم أخيرًا بالنشاط الإعلامي الأهلي، وله في ذلك دوره الذي لا ينسى، ومن هذا المنطلق فهو دائمًا في الأذهان، أدامه الله، وكتب له الصحة والعافية.

وبعد، فإنه لا يكفي ما سبق لعرض المجلة كما ينبغي لأن الموضع لا يكفي للإفاضة المطلوبة، ولكن ما قدمناه إنما هو دليل عليها، وما على الراغب في الاستزادة إلا الحصول على المجلد المشار إليه وذلك أمر سهل.

****

ملحاق خير

اهتمت مجلة الصحة المدرسية التي كتبنا عنها المقال المجاور لهذا الملحاق بعالم من علماء المسلمين المشهورين هو: ابن القيم. ويجدر بنا هنا أن نُعَرِّفَ بهذا الرجل ثم نذكر السبب الذي دعا المجلة إلى الكتابة عنه.

هو الإمام النابغة شمس الدين محمد بن أبي بكر، ويعرف بابن القيم أو ابن قيم الجوزية، والجوزية مدرسة بدمشق كان والده قيمًا عليها، وكان عالمًا بعلم المواريث (الفرائض) إضافة إلى اهتمامه بشؤون المدرسة، ولشهرة والده في زمنه فقد أطلق على ابنه لقب ابن قيم الجوزية أو ابن القيم اختصارًا.

ذكر عن ابن القيم أنه كان واسع المعرفة، ذا قلم سيال، وأنه كان دقيق الاستنباط، بارعًا في كافة العلوم الإسلامية، ولم يكن له نظير - في وقته - في المعرفة بالفقه والحديث وأصول الفقه، وعلوم العربية. وكانت له مؤلفات عديدة، وباختصار فقد كان رجلًا فذًا وعالمًا كبيرًا وكان مكافحًا تعرض في حياته إلى كثير من المصاعب. وكان من تلامذة شيخ الإسلام ابن تيمية استفاد من علمه، وأعجب بمواقفه وتعرض لما تعرض له شيخه من أذى. وكان قد تلقى العلم إلى جانب ابن تيمية على أيدي عدد من العلماء البارزين، وصار بعد أن استكمل أدواته العلمية عَلَمًا يشار إليه، وكان موضع إطراء من المؤرخين والعلماء وقد ذكره ابن كثير في كتابه البداية والنهاية، وكتب عنه السيوطي في بغية الوعاة في أخبار النحاة، وابن رجب في كتاب ذيل طبقات الحنابلة، وابن حجر في كتابه الدرر الكامنة ولن

نستطيع إحصاء من كتب عنه قديمًا أو حديثًا لكثرة ما جاء عنه في الكتب، وهذا دليل على اهتمام العلماء به ودليل على مكانته في الفضل والعلم.

ترك لنا عددًا لا بأس به من الكتب في مختلف المجالات التي اشتُهر بإجادتها.

ومن كتبه المشهورة: إعلام الموقعين عن رب العالمين وهو كتاب كبير فيه فوائد كثيرة تتعلق بالحديث والرجال والفتاوى. وله كتاب زاد المعاد في هدي خير العباد، وهو كتاب جامع في السيرة والسنة والفقه وعلم الكلام وغير ذلك. وفي هذا الكتاب فصل مهم عن هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في الطب. وهنا نصل إلى ما ذكرناه سابقًا وهو بيان سبب اهتمام مجلة الصحة المدرسية بابن القيم. فقد اهتم بالطب الذي يتماشى مع اهتمامات المجلة، ولكنه سار على الدرب الذي تعود السير فيه فكان موضوعه: الطب النبوي.

طبع كتاب ابن القيم الخاص بهذا الموضوع مُستلاً من كتابه زاد المعاد، عدة طبعات نعرف من طبعاته الطبعة التي صدرت في حلب سنة ١٣٤٦هـ، ثم الطبعة التي أشرف عليها الشيخ الفاضل عبدالغني عبدالخالق وهو من كبار العلماء، وقد أسعدني الحظ بمجالسته عندما كنت في القاهرة رحمه الله وكان صدور هذه الطبعة في سنة ١٣٧٧هـ، وبين يدي طبعة صدرت عن دار التراث بالقاهرة في سنة ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م قام بتحقيقها الدكتور عبدالمعطي أمين قلعجي.

وقد حرص العلماء الأقدمون على إبراز هذا القسم من كتاب زاد المعاد منذ أمد طويل وقد وُجِدَتْ منه خمس نسخ أولها منسوخ في سنة ١١٦٣هـ.

اعتمد ابن القيم على استخلاص ما يتعلق بالطب النبوي على الأحاديث الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد درسها دراسة جيدة وصنفها بحسب نوع ما تتعلق به من أمراض أو علاجات، وقد وجدنا أن ذلك ينتمي إلى عدَّة فروع:

١ – الدعوة الكريمة إلى اتباع الوقاية من الأمراض.

٢ – التحذير من العدوى، وذلك بقوله صلى الله عليه وسلم: «لايوردن ممرض على مصح».

٣ – علاجات متنوعة.

٤ – التحذير من الطبيب الذي يعالج الناس وهو غير ملم بأصول مهنته، وفي الحديث الشريف: «من تطبب ولم يعلم عنه الطب قبل ذلك فهو ضامن».

وبعد؛ فإن هذا الكتاب جم الفوائد، وهو على كبر حجمه لا يمل المرء قراءته لأنه كلما أمعن فيه وجد شيئًا ينفعه وهذه هي صفة كتب ابن قيم الجوزية بعامة.

رحم الله علماء الأمة الأفذاذ الذين تركوا لنا إرثًا ضخمًا من العلم والمعارف العامة.

****

بنت النوخذة: لولوه القطامي [1]

كيف ننسى جهود المرأة الكويتية، وهي التي قامت بتربية أولئك الرجال الذين كتبنا عنهم، ووجهتم إلى الطريق السليم بمساعدة آبائهم الذين لم يقصروا من ذلك في شيء أبدًا.

كيف ننسى المرأة الكويتية وقد كانت منها أول مدرسة كويتية على الرغم من الادعاءات الأخرى، وهذه المعلمة هي: شريفة حسين العلي العمر، التي افتتحت لها كتّابًا لكي تعلم فيه بنات الكويت بل وأبناؤها فقد كان كتّابًا مشتركًا، ولم تكن تتقاضى أجرًا على قيامها بالتدريس.

انظر إلى ما جاء عنها في «موسوعة تاريخ التعليم بدولة الكويت».

«وقد ولدت المطوعة شريفة في حي القبلة سنة ١٢٤٧هـ – ١٨٣١م، وكان أبوها من المتنورين الحريصين على نشر العلم بين الناس، فأخذت العلم عنه ولا سيما القرآن الكريم، ثم أنشأت في فريج الصقر كتّابًا للفتيات استمرت تعلم فيه القرآن حتى آخر حياتها وقد قامت بتدريس الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود، وقد نشأ في الكويت، وكان قد أعطاها بعض الجنيهات الذهبية أجرًا لها فرفضت محتسبة أجرها عند الله. ومن تلميذاتها شاهة حمد الصقر (التي وهبت المكتبة العامة مكانًا ليكون مقرًّا لها) وكانت تحب الذكر الطيب وعمل الخير. توفيت المطوعة شريفة سنة ١٣٥٨هـ – ١٩٣٩م عن عمر يناهز مئة وثماني سنوات».

---

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٠/١١/٣م.

ولحقت بها المدرسة موزة بنت حمادة، وقد ولدت في الكويت سنة ١٢٥٢هـ - ١٨٣٦م، ونشأت في أسرة كويتية متدينة، فهي عمة الشيخ عبدالعزيز قاسم حمادة وأخيه علي، وجدة الشاعر منصور الخرقاوي لأمه. تعليمها على يد والدها الذي علمها القراءة والكتابة وبعض علوم القرآن. ومن تلميذاتها أخت الملك عبدالعزيز آل سعود، وكانت مولعة بكتب التفسير والحديث النبوي، محبة للشعر وبخاصة الديني منه، وتحفظ الكثير منه وتردده في المناسبات الدينية والموالد. وإلى جانب ذلك أولعت بالقصص الشعبي وسيرة عنترة وغيرها وكانت تقرؤها للنساء، كما كانت مولعة بالكتب فأسست لنفسها مكتبة حسنة. توفيت سنة ١٣٦٧هـ - ١٩٤٧م».

وفي سنة ١٢٧٧هـ - ١٨٦٠م ولدت المعلمة لطيفة محمد جاسم الشمالي، وقد تعلمت في الكويت، ودرست سيرة الرسول الكريم والصحابة رضوان الله عليهم، كما تعلمت القراءة والكتابة، ويظن مؤلفو موسوعة التعليم أنها قد افتتحت كتّابها في حوالي سنة ١٢٩٨هـ - ١٨٨٠م، أو قبل ذلك بقليل.

لقد ثبت بعد البحث أن هؤلاء المعلمات الثلاث هن على الترتيب المذكور أوائل من عمل في سلك التدريس بالكويت ولا ينبغي أن تُهضم حقوقهن في التكريم وفي الذكر فقد قمن بالتدريس فعلًا وأدين واجبهنّ حقًّا في هذا المضمار.

ولو أردنا أن نتحدث عن أعمال النساء الكويتيات في الماضي لوجدنا الشيء الكثير من أعمالهن، وهي أعمال كلها تدل على الرغبة في عمل ما يفيد الناس، وما يكسبن وراءه من أجر يكتبه الله تعالى لهن.

وإذا كانت المدرسة شريفة العمر، قد ورد ذكرها على أنها المدرسة الأولى في الكويت، وهي من مواليد سنة ١٨٣١م، فإن هذا قد يكون تحديدًا لأول تاريخ معلن للمدرسات الكويتيات ولكننا إذا علمنا أن الكويت قد نشأت في سنة ١٦١٣م فإنه من غير المعقول ألا تكون قد سبقتها إلى العمل التربوي مدرسات قمن بالعمل في

الفترة من نشأة البلاد إلى أن بدأت المدرسة شريفة بالعمل في ميدان التعليم وفق ما جاء في الموسوعة (المرجع) التي أشرنا إليها، وإلى ما ذكرته عن أوائل المدرسات قبل قليل.

إذن فليس ينبغي أن ننسى المرأة الكويتية وجهودها، أما فيما يتعلق بمقالات «الأزمنة والأمكنة» فقد كتبنا فيها كثيرًا عن بعض نساء الكويت، وبخاصة منهن أولئك اللآتي برزن في دنيا التربية أو الفنون التشكيلية أو التمثيل أو غير ذلك من الأمور، مما لا داعي إلى تكراره، وإن كان قد حدث نقص في ذلك فهذا مقال نخصصه عن إحدى بنات الكويت البارزات في دنيا التربية ودنيا العمل العام، والنشاط الاجتماعي بواسع أبوابه، وهذه هي الأخت الفاضلة لولوة القطامي، وهي وإن كانت شهرتها عظيمة، حتى لقد صارت نارًا على علم فإن الجيل الجديد يحتاج إلى أن يعرف عنها ما لم يكن يعرف.

لقبها بنت النوخذة، وهي التي أطلقت هذا اللقب على نفسها حين أصدرت كتابها الذي يحكي قصة حياتها وكفاحها من أجل اكتساب العلم والخبرة في وقت كان تحصيل هذين الأمرين من أصعب الأشياء هنا، وهي بنت النوخذة فعلًا، كما أنها كانت ولا تزال تؤدي مهمات النوخذة ولكن بدون سفينة، فهي نوخذة في قيادتها لأعمالها منذ بدأت السير في طريق العمل في الوظيفة، وطريق النشاط الاجتماعي في الأعمال المبهرة التي كانت تقوم بها بهمة كبيرة لا تعرف الكلل، ولا تعترف بالعوائق.

أسعدني الدهر الذي يُسعد أحيانًا بأن أتعرف على هذه الإنسانة الطيبة المكافحة عندما انتقلت إلى العمل في وزارة التربية إبّان سنة ١٩٦٥م، وكانت يومها مديرة لمدرسة المرقاب الثانوية للبنات، واعتبارًا من سنة ١٩٦٦م انتقلت هي إلى العمل في جامعة الكويت، وكنت أتابع نشاطها، وجدّها في العمل، والحق أنها كانت

تقوم بكل عمل يوكل إليها باهتمام بالغ، وتنتج إنتاجًا يحسب لها إذ كانت تُعطي عملها حقه على الرغم من اهتمامها الآخر بالأعمال التطوعية فقد كانت تعرف لكل موقع حقه بحيث لا يؤثر نشاطها الخارجي على نشاطها في الجامعة. ولقد سعدت بلقائها فيما بعد في لندن عندما كان والدها رحمه الله يتلقى علاجه هناك، فقد زرته في المستشفى أكثر من مرة حتى أطمئن عليه، وكانت ترافقه وتعنى به ولا تترك له رغبة ما دون أن تقوم بتلبيتها، ومن يراها في ذلك الموقف يظن أنها متفرغة لهذا العمل الذي فرضته عليها رقتها ومحبتها لوالدها وبرُّها به. ثم التقيت بها بعد فترة أخرى في المدينة المنورة أثناء فترة الحج، وكانت تؤدي واجباتها الدينية بكل إيمان، وفي الوقت نفسه فإنها كانت لا تنسى أن تتلفت حواليها لتبدي بعض الملاحظات العابرة التي هي مهمة في الوقت نفسه، لقد كانت ملاحظات تتناول التنظيم الذي يمكن أن يؤدي إلى أداء المناسك بكل هدوء وبكل راحة، والواقع أنني ومن معي قد سمعنا لها كل ما قالت ولكن أحدًا آخر من الجهات المعنية لم يسمعه، ومع ذلك فقد تطورت الأمور وجرت تحسينات كثيرة كلها كانت وفق ما تحدثت به بنت النوخذة.

إنني لم ألتق بلولوه القطامي منذ مدة طويلة، ربما كانت منذ موسم الحج الذي أشرت إليه، ولكني أتتبع أنشطتها وأعجب لإخلاصها ووفائها للكويت، ومحبتها للعمل بوجهيه الرسمي والتطوعي، وأنا أقول ذلك القول أشفعه بالدعاء لها بالصحة والعافية وطول العمر.

أصدرت الأخت لولوه عبدالوهاب القطامي مذكراتها في كتاب عنوانه: «بنت النوخذة»، وكنا في أشد الحاجة إلى هذا الكتاب ففيه تاريخ لحقبة من الحقب التي عاشتها الكويت، وفيه نتعرف على مدارج المؤلفة في حياتها منذ بدأت دراستها إلى أن صارت إلى ما صارت إليه مما أشرنا إلى بعضه.

تخرجت بنت النوخذة في كلية التربية بجامعة أدنبرة في إسكوتلندا سنة ١٩٦٠م، وحصلت على دبلوم التربية منها.

وفي سنة ١٩٦٤م التحقت بدورة في إدارة الكلية الجامعية وأنهتها بنجاح كعادتها.

عادت إلى الكويت بعد حصولها على الدبلوم لكي تلتحق بالعمل في سلك التدريس منذ السنة الدراسية ١٩٦٠م حتى ١٩٦٢م، وعملت بالتعليم في معهد المعلمات وكان مجالها تدريس اللغة الإنجليزية.

ومنذ سنة ١٩٦٢م إلى سنة ١٩٦٤م صارت وكيلة لمدرسة المرقاب الثانوية للبنات. ثم مديرة لهذه المدرسة منذ سنة ١٩٦٤م حتى سنة ١٩٦٥م.

وفي سنة ١٩٦٦م انتقلت إلى جامعة الكويت لكي تكون مسجلة لكلية البنات الجامعية واستمرت في هذا العمل حتى سنة ١٩٧٥م. ثم صارت مديرة لهذه الكلية في سنة ١٩٧٥م واستمرت بها حتى سنة ١٩٩٣م.

هذا هو ما يتعلق بدراسة الأخت لولوه القطامي، وما يتصل بعملها بعد تخرجها في كلية التربية بجامعة أدنبره، ونعود الآن إلى الحديث عن نشاطها في العمل التطوعي.

كانت لولوه القطامي - ولا تزال - في طليعة العاملات الكويتيات في المجال التطوعي، كانت تقوم بذلك معهن ومع غيرهن من أبناء الكويت الذين انغمسوا في هذا النوع من العمل لما فيها من خدمة للوطن وللمواطنين. ومنذ بداية عملها الوظيفي بعد انتهائها من دراستها في الخارج؛ جعلت من مهامها خدمة المجتمع ورعايته، ولم تترك سبيلًا إلا وطرقته من أجل ذلك. ونحن إذا تتبعنا مسيرتها في هذا المجال وجدنا ما يلي:

سعت في سنة ١٩٦٣م إلى تأسيس الجمعية الثقافية النسائية وصارت إحدى عضواتها منذ قامت في السنة المذكورة وحتى سنة ١٩٦٦م، ثم صارت رئيسة لهذه الجمعية منذ سنة ١٩٦٧م حتى سنة ١٩٩٢م.

وكانت قد أسست في سنة ١٩٨١م لجنة التنسيق للعمل النسائي في الخليج والجزيرة العربية، وفي سنة ١٩٨٤م صارت الأمين العام لهذه اللجنة، وبقيت في منصبها هذا حتى سنة ١٩٩٣م. وكانت في فترة من الزمن الأمين العام المساعد للاتحاد النسائي العربي العام، وأسهمت في سنة ١٩٦٦م في تأسيس جمعية المعلمين الكويتية، وكانت منذ هذه السنة وحتى ١٩٦٩م أمينًا لسر هذه الجمعية.

وفي سنة ١٩٦٣م كانت عضو اللجنة العليا التحضيرية لمشروع جامعة الكويت واستمرت في ذلك حتى سنة ١٩٦٦م.

وساهمت في عضوية لجنة البرنامج التلفزيوني المدرسي «مع الطلبة» منذ سنة ١٩٦٣م حتى سنة ١٩٦٦م، وكانت عضوًا في مؤتمر المناهج المدرسية الذي أقامته وزارة التربية في سنة ١٩٧٢م. وعضوًا في اللجنة العليا لمشروع دور الحضانة النموذجية بجامعة الكويت في سنة ١٩٧٩م.

ومنذ سنة ١٩٧٤م حتى ١٩٨٨م كانت عضوًا في اللجنة العليا لمحو الأمية في وزارة التربية. أما مشروع دور الحضانة النموذجية الذي بحثته لجنة عليا من جامعة الكويت فقد كانت لولوه القطامي هي التي تقدمت بالورقة الأولى التي بدأ حولها البحث وكانت مقرر اللجنة سنة ١٩٨٠م.

وانضمت في سنة ١٩٨٣م إلى عضوية المجلس الاستشاري للإعلام في الكويت، وكانت من مؤسسي المجلس العربي للطفولة والتنمية في ١٩٨٧م، وانضمت إلى عضوية مجلس أمناء مبرة صباح السالم الصباح. وَمَثَّلَتْ الكويت فيما يزيد

على مائتي مؤتمر على مستوى العالم دوليًا وعربيًا، وألقت العديد من المحاضرات في داخل الكويت وفي خارجها، كما كانت حاضرة في المؤتمرات الدولية الأربعة الخاصة بالمرأة التي عقدت في كل من برلين والمكسيك والدانمارك ونيروبي.

ولكل هذه الجهود الطيبة المثمرة فقد اختيرت في سنة ١٩٨٧م بصفتها شخصية متميزة للأعمال الإنسانية من خلال العمل التطوعي على مستوى العالم العربي. ثم وقع الاختيار عليها لتكون سفيرة لهيئة اليونسكو في العام الدولي لمحو الأمية.

ولقد نالت - كذلك - تكريمًا من جهات عدة داخلية وخارجية، وقد دلّ هذا التكريم على الاعتراف بجهودها الكبيرة التي بذلتها في خدمة الإنسانية، كما دل على أنها تستحق أن نبادر جميعًا إلى شكرها على كل ما قدمت من جهود خيّرة استمرت في بذلها منذ سنة ١٩٦٣م ولا تزال على استعداد للعمل التطوعي حين يدعو الداعي لذلك.

نعود الآن إلى كتابها الذي ألمحنا إليه فيما مضى من حديث، إنه كتاب: «مذكرات بنت نوخذة» وهو كتاب يتناول سيرتها الذاتية في مختلف أطوار حياتها مع إشارات إلى بعض الأحداث التي مرت بها وبالبلاد خلال الفترة التي تناول الكتاب الحديث عنها. أول ما لفت نظري في الكتاب وأسعدني في الوقت نفسه أنني وجدت في بدايته صورة معبرة للنوخذة عبدالوهاب بن عيسى القطامي والد لولوه، وقد كان لها من الداعمين في دراستها وفي أنشطتها الأولى، ولذا فهي تقول عنه في الإهداء: «إلى الذي استشرف بثاقب بصيرته أهمية العلم والقيم في حياة الإنسان».

بدأت لولوه كتابها بمقدمة شرحت فيها الدواعي التي جعلتها تسارع إلى تأليف هذا الكتاب، وقد ذكرت ذلك بصورة مقنعة جدًا، ولكننا نلمح منها الحرص أن تسجل عطاء المرأة الكويتية من خلال ما تكتب وهذا ما سوف نراه.

ثم تحدثت عن نشأتها ودراستها الأولى ملحقة ذلك بفصل ذكرت فيه الكثير عن دراستها في بريطانيا التي كان إخبار والدها عنها مفاجأة لها لم تحسب لها أي حساب قبل أن يوجه لها الأمر بالاستعداد للرحيل.

وقد وصفت طريقها إلى الدراسة مع شقيقها عبداللطيف القطامي كما وصفت أول خطواتها إلى أوروبا، ولم تكن الطرق الجوية المباشرة إلى بريطانيا ميسرة كما هي الآن، ولذا فقد اضطرت هي وأخوها إلى المرور بعدد كبير من المحطات وقضت وقتًا طويلًا في الطريق رأت خلاله عددًا من المدن الأوروبية مثل أثينا وفرانكفورت وامستردام وجنيف وغيرها، وقد عانت معاناة شديدة في هذا الطريق الشاق الذي لم يكن كما هو الآن.

أما الباب الثاني فقد كان عن بداية العيش في بريطانيا وقد ذكرت فيه أمورًا كثيرة لا أريد أن أسرد هنا شيئًا منها حتى لا أضيع على القارئ متعته في قراءة الكتاب.

وأما الباب الثالث فقد كان هو المجال الذي تحدثت فيه لولوه القطامي عن عودتها إلى الوطن بعد أن أنهت دراستها وتخصصت في أدب اللغة الإنجليزية.

ولئن كانت قد سردت مسيرة حياتها في هذا الكتاب وكتبت كثيرًا عن كل ما صادفته في طريقها من أحداث وأعمال وأشخاص، فإنها كتبت أيضًا عن أشياء كثيرة أخرى فقد عبرت عن أفكار ناضجة صادرة من مجربة لم تترك الحياة تمر بها دون أن تستفيد مما تجده فيها، وكانت لها عبارات ذات نبرة وطنية تدل على إخلاص تام وحب دفين للوطن وأهله فهي على سبيل المثال تردد: «قلت وسأقول دائمًا حتى يواريني التراب، إن الكويت قد أعطت كثيرًا، وإننا أخذنا منها كثيرًا، وإن لها في أعناقنا دينًا كبيرًا، هو دين انتمائنا إليها، وعلينا أن نرد الدين، وأن نوفي لهذا الوطن المعطاء بعض ما يستحق».

وكما كانت تحب الكويت وتخلص لها، فإنها لم تنس حبها للعروبة، والدفاع عنها، وذكر الأحداث العربية التي مرت بها أثناء مسيرتها، فذكرت حرب الجزائر وتحريرها، وذكرت حرب الأيام الستة التي أطلق العرب عليها اسم نكسة سنة ١٩٦٧م، وكأنما ينبغي أن تكون لنا في كل سنة نكسة، ثم تحدثت، عن الأعمال التي قامت بها الجمعية الثقافية النسائية وجهودها من أجل الحصول على حقوق المرأة، ومن أعمال خير تمثلت فيما أسمته الجمعية «طبق الخير» إلى غير ذلك من الأمور.

أما الباب الرابع فكان عبارة عن متفرقات جمعتها في باب واحد وهو باب لا يخلو من طرافة، ومن معلومات مهمة عن رحلات قامت بها لولوه مع صويحباتها إلى عدد من البلدان بناءً على دعوات رسمية أو من أجل حضور محاضرات أو ندوات، وكان الختام في الباب الخامس الذي تحدثت فيه عن غزو العراقيين للكويت، وعن الأذى الذي تعرض له أبناء وطننا وهي منهم، إلى أن بَيَّنَتْ الجهود التي قامت بها مع غيرها في الخارج حتى يظهر وجه الكويت الحقيقي، وحتى تدافع هي ومن معها عن حق الشعب الكويتي في الحياة وفي الاستقلال.

بارك الله فيك يا ابنة الكويت.. ابنة النوخذة التي أعدها والدها وأعدتها عروقها الكويتية العربية لهذه الأعمال فلم تتردد عن خوض غمار الحياة وهي متسلحة بالعزم وبالعلم وبمحبة الكويت وأهلها، وكذلك بمحبة العروبة والحرص على مستقبلها ووحدة صفها.

النوخذة...

في الواقع إنه لم يكن واحدًا بل كان أسرة من النواخذة المعروفين في عالم البحار أيام كانت الكويت تعتمد كثيرًا على السفر بالسفن الشراعية، ويخوض أبناؤها البحار حتى أفريقيا من أجل لقمة، وقد جلب هذا الجد في العمل سمعة طيبة للبلاد ولأهلها.

وهي أسرة تحرص على العلم، وتعرف أن غرس حبه في نفوس أبنائها وبناتها له أهمية في حياتهم المستقبلية.

النوخذة الأول كان عيسى بن عبدالوهاب القطامي الملاح الذائع الصيت صاحب كتاب «دليل المحتار في عالم البحار»، ولعله هو الذي غرس حب العلم في نفوس أولاده وأحفاده ألم يكن هو الذي يقول:

لو علموني هلي في مصر أو بيروت
لابدع عجايب لهم تذكر بعد ما موت
لكن ويا للأسف كم واحد منعوت
يعرف من العلم أبواب ولا ينفع

ولذا فقد جاء ابنه والد لولوه القطامي سائرًا على خطى والده، وأصبح نوخذة مشهورًا له خبرة في البحر، ومقدرة على القيادة ويكفي أن والده أخذه معه إلى البحر وهو ابن عشر سنوات.

آمل أن أجد مجالًا آخر للحديث عن هذه السلسلة الذهبية من النواخذة من آل قطامي في مجال آخر يكون أكثر رحابة.

****

دائرة معارف الكويت وموسمها الثقافي
١٩٥٥م - ١٩٥٨م(1)

من أهم الدوائر الحكومية التي أفادت البلاد وهي في مطلع نهضتها، وعزمها على المضي قُدمًا إلى الأفضل، دائرة معارف الكويت، ولقد نشأت هذه الدائرة النشطة في سنة ١٩٣٦م، ومنذ تلك السنة وهي تعمل بكل جد واجتهاد حاملة راية العلم والثقافة، ناشرة الوعي بين الناس، وعلى الرغم من أنها ابتدأت عملها والحياة صعبة والمادة غير متيسرة إلا قليلًا، فإنها أدت واجبها وسارت سيرًا حثيثًا في طريقها بفضل أولئك الرجال الذين اضطلعوا بأعمال الدائرة وساروا معها ومنحوها من حبهم وإخلاصهم لوطنهم ما دفع بهم إلى الأمام مما نراه الآن بين أعيننا.

كانت دائرة معارف الكويت تستشعر - دائمًا - مسؤوليتها حيال نشر التعليم بين الأبناء، وتسعى إلى تطوير العمل التربوي والتوسع في إتاحته للجميع، كما تقوم بنشر الثقافة والمعلومات العامة بين أولياء الأمور حتى يكونوا عونًا لأبنائهم في دراستهم، وحتى يتكون للكويت مجتمع مثقف راق مطلع على كل جديد في أنحاء الدنيا. ولم تكن هذه الدائرة لتدخر وسعًا في سبيل القيام بهاتين المهمتين الكبيرتين. ولقد كان نشاطها واهتمامها فيما يتعلق بالمهمة الأولى واضحًا ملموسًا تدل عليه اليوم الأعداد الكثيرة من المدارس التي صارت تغطي جغرافية الكويت بأسرها، كما تدل عليه الأعداد الهائلة من الطلبة والطالبات في هذه المدارس،

(1) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ١٠/١١/٢٠١٠م.

ويشهد عليه التقدم في مجال نشر التعليم وتحسين نوعيته، وكل ذلك يؤكد لنا ولكل من يتابع حركة تاريخ التعليم في الكويت أن الأساس الذي بنيت عليه المؤسسة التعليمية في بلادنا كان أساسًا سليمًا، كفل الاستمرارية والتقدم.

أما المهمة الثانية فقد كانت من مهام دائرة معارف الكويت في ذلك الوقت، وحتى أواخر خمسينيات القرن الماضي، ولكن الوضع تغير نهائيًّا- فيما بعد- إذ نشأت في بلادنا عدة مؤسسات لها أعمالها المختلفة، وقد قامت هذه المؤسسات بحمل العبء عن دائرة المعارف التي اكتفت بالمهمة الأولى مضافًا إليها المكتبات العامة.

هذه المهمة التي ذكرنا أنها هي المهمة الثانية من مهمتي دائرة المعارف قد حملت عبأها الدوائر الجديدة وهي مهمة نشر الثقافة، والاهتمام بالتوعية في كافة المجالات، ومما نذكره لها، ولا يمكننا نسيانه هو ما قامت به من نشاط في نشر الثقافة والمعلومات العامة تحت مسمى: الموسم الثقافي.

لقد وجدت هذه الدائرة أنها ينبغي أن تقوم بعمل كبير من أجل نشر الثقافة والمعلومات العامة بين الناس، ووجدت أن أفضل وسيلة لذلك هي انتداب عدد من علماء العرب وأدبائهم لإلقاء محاضرات عامة متنوعة الموضوعات يحضرها الناس دون تمييز، ولقد كان هذا الذي يطلق عليه: الموسم الثقافي أربعة مواسم في الحقيقة في كل سنة موسم يضم عددًا من المحاضرين بدأ الموسم الأول في سنة ١٩٥٥م، وبدأ الموسم الرابع في سنة ١٩٥٨م. وقد لبّى دعوة دائرة معارف الكويت عدد كبير من العلماء والأدباء الذين ألقوا محاضرات في موضوعات شتى. وكان يحضر للاستماع إليهم جمع غفير من أبناء البلاد فيهم تَعَطُّشٌ إلى المعرفة، ورغبة في رؤية هؤلاء المحاضرين الذين كان أبناء الكويت يقرأون لهم ما ينشرونه من كتب ومقالات دون أن تتاح لهم الفرصة لكي يلتقوا بهم.

كان الهدف من إقامة هذه المواسم هو ما عبرت عنه الدائرة في تصدير المجلدين اللذين ضما المحاضرات التي ألقيت منذ بدأ موسم سنة ١٩٥٥م، إذ قالت: «فمعارف الكويت تريد من وراء هذا الموسم وأمثاله أن توثق الصلات الأدبية والعلمية بين الكويت الناهضة وشقيقاتها، كما تريد أن تتوسع - عن طريقه - في نشر الوعي الثقافي بألوانه المتعددة بين أبناء الكويت، وبخاصة المثقفين من شبابها الذين يزداد عددهم، وتتسع معارفهم يومًا بعد يوم».

ولكل ما تقدم فقد كان من الأعمال المهمة التي قامت بها دائرة معارف الكويت ما عرف بالموسم الثقافي. فقد أرادت هذه الدائرة أن تقدم للجمهور زادًا ثقافيًّا في وقت ندر فيه ذلك الزاد، فأقامت في الثالث من شهر فبراير لسنة ١٩٥٥م، موسمًا ثقافيًّا هو عبارة عن مجموعة من المحاضرات يلقيها عدد من كبار الأدباء والعلماء في الوطن العربي، وقد تكرر هذا الموسم في سنوات لاحقة زادًا ثقافيًّا وعلميًّا منوعًا إلى الأهالي الذين كانوا متعطشين إلى ذلك. وقد افتتح الموسم الأول الشيخ عبدالله المبارك رئيس الأمن العام - آنذاك - نيابة عن صاحب السمو الأمير، وحضره الشيخ عبدالله الجابر الصباح رئيس المعارف الذي حضر - أيضًا - أغلب محاضرات الموسم، كما حضرها عدد كبير من الشيوخ والمهتمين. وكانت تعقب كل محاضرة مناقشة تُقدم أسئلتها كتابيًّا، وتدور كلها حول موضوع المحاضرة حيث يتولى المحاضر الإجابة عنها. وقد ألقيت في الموسم الأول خمس عشرة محاضرة في الأدب والعلوم والتاريخ والاقتصاد والتربية ألقيت تسع محاضرات منها في قاعة ثانوية الشويخ، والست الباقية في قاعة مدرسة الصديق (مقر وزارة الداخلية حاليًّا).

ولقد لقيت المحاضرات ترحيبًا كبيرًا من الجمهور، وأتيحت الفرصة لحضور السيدات، وكان إقبالهن عظيمًا.

وقد طبعت كافة المحاضرات وصدرت عن دائرة المعارف في مجلدين كما قلنا.

بدأت المحاضرات المطبوعة بمقدمة أشارت إلى دواعي إقامة هذا الموسم وفيها: «فمعارف الكويت تريد من وراء هذا الموسم وأمثاله أن توثق الصلات الأدبية والعلمية بين الكويت الناهضة وشقيقاتها الكبرى، كما تريد أن تتوسع - عن طريقه - في نشر الوعي الثقافي بألوانه المتعددة في الكويت، وبخاصة بين المثقفين من شبابها الذين يزداد عددهم، وتتسع معارفهم يومًا بعد يوم».

وفي كلمة افتتاح الموسم كما سوف يأتي عبر الأستاذ عبدالعزيز حسين- مدير المعارف آنذاك - عن غبطته بهذا العمل فقال: «وإن مما تفخر به الكويت ومعارف الكويت بصفة خاصة أن يلبي دعوتها نخبة ممتازة من رجال الفكر من شتى أقطار العروبة، سيحلون بيننا أهلًا، وينزلون سهلًا، وستجني الكويت أطيب الثمار من علمهم الغزير».

هذا وممن شارك في الموسم الأول قدري طوقان، والدكتور عبدالعزيز الدوري، والدكتور أحمد زكي، وعدد آخر من المفكرين الذين أثروا قاعة المحاضرات بعلمهم وأدبهم، وأفادوا الحاضرين بما قدموه من دروس راقية في مجالات اهتمامهم.

هذا ولقد بدأ الموسم الأول في أول محاضراته بقاعة مدرسة الصديق التي تشغلها اليوم وزارة الداخلية، وألقى الأستاذ عبدالعزيز حسين مدير المعارف - آنذاك - كلمة افتتح بها الموسم، جاء فيها:

«بسم الله افتتح هذا الموسم الثقافي رافعًا إلى حضرة صاحب السمو أمير البلاد المعظم أسمى آيات الشكر حيث وضع هذا الموسم الثقافي الأول تحت رعايته، وشمل القائمين على تنظيمه والإسهام فيه بعطفه وعنايته.

وإن ما تفخر به الكويت ومعارف الكويت بصفة خاصة، أن يلبي دعوتها نخبة ممتازة من رجال الفكر من شتى أقطار العروبة، سيحلون بيننا أهلاً، وينزلون سهلًا، وستجني الكويت أطيب الثمار من علمهم الغزير، وسيكون لمحاضراتهم وأحاديثهم القيمة أطيب الأثر في تنشيط الحركة الأدبية والعلمية في هذا البلد الناشئ، وبخاصة بين الطبقة النيرة فيه، المتعطشة إلى المزيد من العلم والمعرفة».

وقبل أن ننتقل إلى أحداث الموسم الثقافي الثاني فإننا نلقي الضوء قليلًا على بعض الأسماء التي ورد ذكرها في كتاب الموسم باعتبار أصحابها من أولئك الذين أسهموا في إلقاء محاضرات فيه. ولقد كان أول محاضر هو الدكتور قدري حافظ طوقان، وهو من رجال الأدب والثقافة والتربية المعروفين في وقته ولاتزال له آثار مكتوبة وله تاريخ ناصع في المجال التربوي في وطنه.

وكانت له محاضرتان في الموسم الثقافي الأول إحداهما بعنوان: الأسلوب العلمي عند العرب، والثانية بعنوان: العلم والمجتمع.

وألقى الدكتور عمر فروخ محاضرة بعنوان: «العرب في حياتهم الأدبية»، وكانت محاضرة مشوقة، وهي لاحقة لمحاضرة له أخرى بعنوان: العرب في حياتهم التاريخية.

وهو أحد أدباء لبنان ومؤرخيها، وكان - أيضًا - شاعرًا ومربيًا تولى التدريس في عدد من المؤسسات التعليمية وله مؤلفات كثيرة في مجال تخصصه.

وكان الدكتور أحمد زكي أحد المشاركين في إلقاء المحاضرات في الموسم الأول، وقد ألقى فيه محاضرتين، كانتا تمثلان طريقته في تبسيط العلوم وتقريبها إلى الأذهان، وكان قد اختار موضوعين أولهما عن الجبال، جعل عنوانه: آية من الذكر الحكيم هي: «وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مرّ السحاب» وقد كانت

تحتوي على تأملات في الكون، ولكنه أبى أن يسميها محاضرة ، فقد قال: وأنا أحب أن أسميها حديثًا . وثانية المحاضرتين كانت بعنوان: أحياء في عالم الخفاء، تكلم فيها عن المكروبات، وذكر أن بعضها مفيد وضرب لذلك مثلًا في الروب (الزبادي) وفي الأرز عند مضغه، وغيرها.

والدكتور أحمد زكي معروف لدينا جيدًا في الكويت، فهو أول رئيس تحرير لمجلة العربي، وقد مكث بيننا فترة من الزمن، وكان مديرًا لجامعة القاهرة، ووزيرًا في وطنه ولقد كتبنا عنه مقالًا وافيًا ضمن «الأزمنة والأمكنة» بحيث يكون من غير المستحسن إعادة القول هنا.

ومن محاضري الموسم الثقافي الأول الذي نود أن ننوه بهم هنا: الدكتور سعيد عبده، وكان أستاذ مادة الطب الوقائي في جامعة القاهرة، ورئيسًا منتدبًا لقسم الصحة الوقائية في الكويت فهو ذو خبرة كبيرة في هذا المجال، وقد ألقى في هذا الموسم محاضرتين كان لهما نفع كبير من حيث التوعية بأهمية الطب الوقائي، إذ كانت محاضرته الأولى بعنوان: ليس الطب مجرد مبضع وقارورة دواء، وكان عنوانًا لافتًا - آنذاك - ولكنه أوضح الأمر للحاضرين حين نبههم إلى أن الوقاية خير من العلاج، وأن هناك أمورًا كثيرة يستطيع المرء القيام بها لحماية نفسه من المرض.

وكانت محاضرته الثانية تستقي من المورد نفسه، وكانت بعنوان: شجرة الورد لا تزهر في الظلام، وقد بدأها بقوله: «إن الصحة ليست مجرد خلو من المرض، والإنسان قد يخلو من المرض ويعيش مع ذلك كئيب البال، عابس الوجه غير منتج في الحياة، غير متمتع بها على الاطلاق، ثم أورد التعريف الجديد لمعنى الصحة بحسب ما أقرت منظمة الصحة العالمية وهو: «الصحة هي كافة ما في البدن والعقل والروح وتضمن الإنتاج السليم، والمتعة بالحياة ، وليست مجرد الخلو من المرض أو العاهة، إنها حالة من القوة والعافية».

كان الدكتور سعيد عبده خير سفير للطب الوقائي في الكويت، لفت إليه الأنظار في وقت لم يكن أحد منا يعيره انتباهًا، وكانت فرصته كبيرة لكي يقدم ما عنده في هذا المجال حين شارك في الموسم الثقافي.

ومن ضمن المتحدثين في هذا الموسم الذي نتحدث عن محاضريه كان الدكتور إسماعيل القباني وهو تربوي شهير كان وزيرًا للمعارف في مصر، وله مؤلفات وبحوث في مجال التربية. وكانت محاضرته بعنوان: أهداف التعليم في البلاد العربية.

وجاء الموسم الثقافي الثاني، وقد ابتدأ في اليوم التاسع من شهر يناير لسنة ١٩٥٦م، وانتهى في اليوم السابع من شهر مارس للسنة ذاتها، وقد ألقيت فيه ست عشرة محاضرة منها ثلاث عشرة في قاعة مدرسة الشويخ الثانوية، وثلاث في قاعة مدرسة صلاح الدين، وفي موقعها اليوم جزء من مبنى مؤسسة التأمينات الاجتماعية، وقد اشترك في هذا الموسم عدد من قادة الفكر في الوطن العربي منهم الدكتور سليمان حزين والدكتور إسحق موسى الحسيني، والدكتور أمجد الطرابلسي والدكتور نقولا زيادة والدكتور حسين فوزي وآخرون.

وكانت تعقب المحاضرات أسئلة يقدمها المتابعون من الجمهور، وهي أسئلة كثيرة بلغت في إحدى المحاضرات نحو مائة وخمسين سؤالًا، وكان المحاضرون يتولون الرد على ما يتعلق منها بموضوع كل محاضرة، وهذا في حد ذاته يدل على مدى الإقبال الذي تحظى به محاضرات الموسم الثقافي بصفة عامة.

أما الموسم الثالث فقد بدأ في اليوم الرابع عشر من شهر يناير لسنة ١٩٥٧م، وانتهى في اليوم العشرين من شهر فبراير للسنة ذاتها. وألقيت فيه ثلاث عشرة محاضرة في العلوم والفلسفة والاجتماع والفلك. وكلها كانت تلقى في قاعة مدرسة الشويخ الثانوية. وكانت هذه القاعة تتيح الفرصة لحضور السيدات لأنها تضم

شرفة يستطعن الجلوس فيها والاستماع إلى ما يدور. هذا وقد شارك في إلقاء المحاضرات عدد من المختصين كان منهم الدكتور فؤاد صروف والدكتور منيف الرزاز والدكتورة بنت الشاطئ والأستاذ أمين الخولي وآخرون، وكان من المقرر حضور الدكتور طه حسين لهذا الموسم ولكنه اعتذر عن عدم الحضور لأسباب خاصة به، وكان لوجود الدكتورة بنت الشاطئ الصدى الطيب المتوقع فهي أديبة معروفة لها شهرتها في كافة أنحاء الوطن العربي. وكان زوجها الأستاذ أمين الخولي من الأدباء المعروفين ورئيس رابطة الأمناء الأدبية.

ولقد زار معهد الكويتي الديني وسعد المدرسون والطلاب بلقائه والتحدث إليه.

هذا ولقد كان الإقبال شديدًا على محاضرات هذا الموسم، ولذا قامت دائرة معارف الكويت بتوسيع القاعة وذلك بإلحاق الشرفتين الجانبيتين إليها بعد أن قامت بتهيئتهما وإعدادها لاستقبال الجمهور.

وجاء الموسم الرابع وهو الأخير في المواسم الثقافية التي قامت بها دائرة معارف الكويت، وقد بدأ في اليوم الثامن من شهر يناير لسنة ١٩٥٨م، وانتهى في اليوم التاسع عشر من شهر فبراير للسنة ذاتها. ولكن هذه السنة التي شهدت نهاية أعمال الموسم الثقافي شهدت المؤتمر الرابع للأدباء العرب وهذا له مقال آخر من مقالات «الأزمنة والأمكنة».

كانت محاضرات هذا الموسم تلقى كلها في قاعة مدرسة الشويخ الثانوية لأنها صارت أكثر اتساعًا إضافة إلى أنها مهيأة لحضور المستمعات من النساء، كما ذكرنا سلفًا.

وشارك في هذا الموسم سبعة من رجال الفكر العرب، كان منهم الفيلسوف اللبناني الشهير ميخائيل نعيمة، والدكتور المربي عبدالعزيز القوصي، والسيدة أمينة السعيد، والأستاذ زكي طليمات الذي صار له دور في نشأة المسرح العربي الذي تبنته دائرة الشؤون الاجتماعية والعمل، وكان الأستاذ حمد الرجيب من المهتمين بإقامة مثل هذا النوع من النشاط في الكويت.

ومن الملاحظ أن أعداد الحاضرين تزداد سنة بعد أخرى، كما أن أعداد الأسئلة تزداد، وقد وجه منها إلى المحاضرين عدد يفوق ما قدم في المواسم الثلاثة الماضية.

ومن الجدير بالذكر أن كل محاضر يحظى بتقديم جيد يتناول سيرته الذاتية وشيئًا عن المحاضرة التي سوف يلقيها، ثم إذا انتهى من محاضرته، وأجاب عن الأسئلة التي توجه إليه من جمهور الحاضرين فإنه يجد من الهيئة المشرفة على الموسم من يقوم بالتعقيب على المحاضرة تذكيرًا للجمهور بمحاورها وشكرًا للمحاضر على جهده الذي قدمه فيها. ولقد كان الأستاذ عبدالعزيز حسين على رأس أولئك المقدمين والمعقبين.

وبعد، فقد أحسنت دائرة معارف الكويت حين قدمت لنا هذا العمل الجميل المفيد، ثم أحسنت مرة أخرى حين طبعت محاضرات المواسم الثقافية الأربعة وجعلتها بين أيدينا، وما قدمناه في هذا المقال إنما هو عُلالة يستفيد منها القارئ إلى أن يحصل على الكتاب وقد يحصل عليه عندما يقوم مركز البحوث والدراسات الكويتية- كعادته- بمبادرة من مبادراته التي قدمت لنا الكثير من تراث الكويت الثقافي، فيعيد طبع الكتاب حتى يتمكن الناس من الاطلاع عليه والاستفادة منه.

افعلها يا أخي وتوكل على الله.

****

مع جريدة كويتية قديمة ١٩٥٥م - ١٩٥٦م [1]

فجأة.. أطل عليّ الأخ الأستاذ عبدالرحمن الخرجي بهدية من هداياه القيمة التي تعودت الحصول عليها منه، وتعود القراءة الاطلاع على ما فيها من خلال: الأزمنة والأمكنة.

وجدته قد أحضر لي - مشكورًا - عددين من جريدة كويتية قديمة كانت تصدر خلال سنتي ١٩٥٥ - ١٩٥٦م، يصدرها الأخ الدكتور داوود مساعد الصالح. ومعروف عن هذا الرجل حسه الثقافي والصحافي ورغبته في خدمة صاحبة الجلالة الصحافة منذ نعومة أظفاره، ولقد كان هو صاحب امتياز مجلة الهدف في الستينيات، وكان له دور في استمرار جريدة «الوطن» حتى سلمها إلى القائمين عليها في الوقت الحاضر.

تلقى دراسته في مصر وبعد أن أنهى المرحلة الثانوية ثمّ غادرها إلى بريطانيا للدراسة، وفي بيت الكويت بالقاهرة تفتحت مقدرته على الكتابة، وبدأ حبه للصحافة واضحًا حين أسهم مع زملائه في إبراز مجلة البعثة إلى الوجود، وهي مجلة من أروع ما كان يصدر في ذلك الوقت ونحن إلى يومنا هذا ننهل مما فيها من معلومات. ومن واقع ما شاهدناه في هذه المجلة فإن الدكتور داوود مساعد الصالح كان مهتمًّا بالكتابة والقراءة منذ بداية حياته الجديدة في القاهرة حيث كان مبتعثًا من دائرة معارف الكويت، وكان له نشاط بدأه بكتابة أول مقال قرأناه

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٠/١١/١٧م.

له في العدد الصادر في شهر يناير لسنة ١٩٤٧م من المجلة التي ذكرناها، وكان في مقاله هذا يقدم عرضًا لكتاب «يسألونك» الذي ألفه المفكر المشهور عباس محمود العقاد وصدر في تلك السنة. وكان مقال داوود مساعد الصالح يدل دلالة واضحة على أن صاحبنا قد قرأ كتاب العقاد قراءة متأنية واطلع على كافة الجوانب التي تطرق إليها، ومن ثم فقد جاء العرض جيدًا وواضحًا ومعبرًا عن فحوى الكتاب.

وفي سنة ١٩٥٠م كان الدكتور داوود قد اكتمل نضجًا، وتمرس بالكتابة. وانطلق انطلاقة كبيرة بحيث قرأنا له عدة مقالات بعضها تحت عنوان «عبر الشرق الأوسط» وهي متعددة يأخذ كل منها منحى مختلفًا ومن ذلك ما جاد تحت عنوان جانبي هو: «أحبك يا وطني»، وله مقال آخر منفرد أطلق عليه عنوان: «نون والقلم» وهذه المقالات ولا سيما ما أدرجه تحت مسمى عبر الشرق الأوسط كم أتمنى لو جمعها وأعاد النظر فيها وأضاف إليها ثم قدمها لنا في كتاب إذن لوجدنا فيه فوائد جمة، ولأعطانا صورة عن فكر أبناء الكويت في ذلك الوقت البعيد.

ولم يكتف بذلك فقد شارك في الندوات التي كانت تعقد هناك، وذلك في السنة التي نشر فيها مقاله السابق، ومن الجدير بالذكر أنه تولى كتابة محضر الجلسة بالتعاون مع المرحوم جاسم مشاري الحسن.

ولقد كان في السنة الدراسية ١٩٤٧-١٩٤٨م مسجلًا في السنة الدراسية الخامسة من القسم العلمي بالمدرسة السعيدية الثانوية في القاهرة، وكان يزاول نشاطه الثقافي في بيت الكويت على الرغم من أنه لم يتجاوز المرحلة الثانوية وهذا دليل على رسوخ اهتمامه بالكتابة وعلى وجود الاستعداد الفطري عنده.

وفي أواخر سنة ١٩٥٠م غادر أبوزاهر إلى بريطانيا من أجل استئناف دراسته بها. وكانت الدراسة من الأمور الملحة عليه، ولم يتوقف عن طلب العلم حتى نال

شهادة الدكتوراه. أما فيما يتعلق بالصحافة فقد أعطاها حقها دراسيًّا فتعلم هذا الفن بالمراسلة من إحدى مدارس بريطانيا.

هذا هو الصديق العزيز الدكتور داوود مساعد الصالح الذي كان له من الأنشطة في المجال الصحافي ما هو مضرب الأمثال، وحين تولى مهمة المحافظ لم يركن إلى الجلوس في مكتبه بل أثار النشاط في محافظته وأدى دورًا يذكر له في مجال نشر الثقافة وإحياء التراث الوطني.

أعود مرة أخرى إلى الحديث عن عددي الجريدة اللذين أهداهما لي الأخ الأستاذ عبدالرحمن الخرجي، وهما مرتبطان بالدكتور داوود لأنهما من عمل يده. هذه الجريدة هي جريدة أخبار الأسبوع التي أصدرها أبوزاهر في أواخر سنة ١٩٥٥م، وإذا عرفنا أن العدد الثاني قد صدر في اليوم الثامن من شهر نوفمبر لسنة ١٩٥٥م فإن من السهل معرفة تاريخ صدور العدد الأول من الجريدة لأنها كانت تصدر أسبوعيًّا.

هذا هو العدد الثاني من جريدة أخبار الأسبوع وقد جاء اسمها في الوسط الأعلى للصفحة الأولى وتحته عبارة تقول: جريدة أسبوعية جامعة. وتاريخ صدور العدد الثاني هو ما أشرنا إليه فيما سبق: في اليوم الثامن من شهر نوفمبر لسنة ١٩٥٥م. وكانت تطبع بمطبعة الكويت وقد اتخذت فيها موقعًا مؤقتًا، ذكر أن عنوان هذه المطبعة هو شارع الإطفائية، خلف دائرة البرق. وهذا الموقع مقارب لمسجد الغريللي القائم الآن خلف مبنى بلدية الكويت.

لا يزيد العدد عن ثماني صفحات بحجم يقارب حجم جرائد اليوم ولكنه أصغر منها في الطول وفي العرض. في الصفحة الأولى من هذا العدد ثلاثة موضوعات الأول منها عن عودة سلطان مراكش (المغرب) إلى بلاده وكانت فرنسا

التي تستعمر تلك البلاد قد نفته إلى خارج وطنه، ويبدو أن الضغوط على الدولة الفرنسية كانت عظيمة مما جعلها تبادر إلى السماح له بالعودة ملكًا على بلاده كما كان قبل النفي، ووفق ترتيبات عديدة ذكرتها الجريدة ورئيس تحريرها فقد استقبلت مراكش عاهلها باحتفالات كبيرة وفرحة غامرة، وبدأ الملك فور وصوله في اتخاذ خطوات العمل على بناء الدولة وتكوين مجلس منتخب وحكومة برلمانية، كما بدأ في مناقشة العلاقات المستقبلية مع فرنسا.

وثاني الموضوعات الثلاثة محلي يتعلق بأعمال مجلس الإنشاء الذي كان قائمًا في ذلك الوقت، وذكرت الجريدة أن المجلس اتخذ قرارات مهمة في جلسته التي تمت في اليوم السابق لصدور الجريدة أي في السابع من شهر نوفمبر، منها تحديد اختصاصات رئيس المهندسين ومن ذلك نعرف أن العمل كان جاريًا في ذلك الوقت بإنشاء محطة جديدة لتوليد الطاقة الكهربائية، ومشروع ساحة الصفاة، ومشروع تصريف المياه القذرة، والمقصب، والمطار الجديد، ومشروع شارع الجهراء (فهد السالم حاليًّا) وشارع دسمان (أحمد الجابر حاليًّا)، وكذلك مشروعات المناطق التجارية الجديدة في مناطق السكن الحديثة (مراكز الضواحي) والسجن المركزي، ومستشفى الصباح. وهذا كله يدلنا على حجم الأعمال الإنشائية المتنوعة في ذلك الوقت، بل لقد ذكر المجلس أن من اختصاص المفتش العام للأشغال أن يشرف على مشروع توزيع المياه، ومشروع إسالة المياه من شط العرب، وحفريات الميناء والرصيف البحري، وبيوت ذوي الدخل المحدود، وعدد من المباني الحكومية، وبعض مشروعات الطرق، ومبنى الثانوية الجديدة (ثانوية الشويخ).

ولك أن تبتسم حين تقرأ أن من اختصاصات هذا الرجل الإشراف على مشروع إسالة المياه من شط العرب وهذا الأمر له قصة طويلة سبق لنا أن كتبنا عنها في «الأزمنة والأمكنة».

الموضوع الثالث من موضوعات الصفحة الأولى موضوع انتقادي، فهو يتحدث عن سينما الكويت، التي كانت حديثة النشأة في ذلك الوقت ، وكان صاحب الجريدة ينقد الكثير من الأمور التي لم ترق له وهو يجلس بين المشاهدين، ولكنه فيما أظن كان مستعجلًا لأن الأيام اللاحقة وضعت الكثير من أمور السينما في نصابها.

في الصفحة الثانية في هذا العدد قصة بعنوان: «القرية التي سكنتها الشياطين» للدكتور سعيد عبده.

وفي الصفحة الثالثة مقال بعنوان: «فتاة الكويت والمجتمع» وكلمة عن فوائد الرياضة ثم إعلان استغرق أكثر من نصف الصفحة المذكورة.

أما الصفحة الرابعة ففيها موضوع عنوانه: «مستشارك القانوني» وهو عبارة عن أسئلة يقدمها القراء، وتتولى الجريدة الرد عليها. وفيها - كذلك - مقال صغير عنوانه: «دنياك.. لا تخشها أبدًا»، وهو يدور حول معنى: لا ينجي حذر من قدر ثم في الطرف الأخير للصفحة الرابعة نجد عددًا من الأخبار المحلية والخارجية لا داعي لذكرها لأنها لم تعد الآن ذات موضوع.

ولكننا نلاحظ في زاوية صغيرة من الصفحة باقي ما كتُب في الصفحة الأولى عن سينما الكويت، وقد وجدنا أن ذلك جاء بتوقيع إبراهيم إسحق.

في الصفحة الخامسة موضوع انتقادي استعرض نصف الصفحة طولًا، وكان حول ميزانية الدولة، وفيه نقد لاذع لبعض المصروفات الوارد ذكرها في هذه الميزانية ونلاحظ في الصفحة ذاتها ثلاثة إعلانات عن ثلاثة كتب هي: أنا عائد من جنوب الجزيرة العربية للأستاذ أحمد السقاف، وكتاب أحلام الشباب وهو مجموعة قصصية للأستاذ فاضل خلف ، وأما الكتاب الثالث فهو - أيضًا - للأستاذ فاضل، وعنوانه: «في الأدب والحياة» وهو يضم مجموعة من المقالات الأدبية.

ولا فائدة ترجى من الصفحة السادسة فهي بكاملها تضم عددًا من الإعلانات التجارية. أما الصفحة السابعة فقد كانت مخصصة لذكر تفاصيل تبرعات أبناء الكويت للجيش المصري، ونلاحظ فيها إعلانًا عن دليل الكويت التجاري الذي يضم أسماء وعناوين وإعلانات تجار الكويت، كما يضم إعلانات عن التجار الذين هم من خارج البلاد، وقد ذكرته هنا لأنه الأول من نوعه عندنا، وقد طبع في مطبعة الطلبة الذي كان يملكها ويديرها وقت طباعة هذا الدليل الأخ الأستاذ عبدالرحمن الخرجي.

وفي الصفحة الثامنة وهي الأخيرة لهذا العدد من الجريدة خبر سياسي هو عبارة عن تصريح أدلى به أحد كبار المسؤولين في الدولة الروسية قال فيه: إن بلاده لا تتدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى، وقد استولى هذا التصريح على ربع الصفحة، وجاء في الربع الواقع أسفل منه إعلان عن شراب كان معروفًا في الكويت في ذلك الوقت هو: كيتي كولا، وكانت تنتجه إحدى الشركات الكويتية . أما النصف الثاني من الصفحة فكان مخصصًا للرياضة وأخبار الملاعب وهذه هي أسماء فرق الدرجة الأولى لكرة القدم التي كانت تنشط في سنة ١٩٥٥م:

الخليج، العروبة، الأهلي، الجزيرة، الشرقي، التعاون، القبلي. قد طرأت تغيرات كثيرة فيما بعد على هذه الفرق، وكان من نتيجة ذلك ما نراه اليوم.

أما العدد الآخر الذي أشرت إليه فهو الصادر في اليوم الثامن والعشرين من شهر فبراير لسنة ١٩٥٦م، وفي هذا العدد نلاحظ أن الجريدة قد بدأت تستقر، وحددت لها مقرًّا في الشارع الجديد (شارع عبدالله السالم) بجوار البنك الوطني في مبناه الأول. ولا تزال هذه الجريدة على حالها من حيث عدد الصفحات، فهي كما قلنا عن العدد السابق تتكون من ثماني صفحات فقط.

على الصفحة الأولى من العدد الثامن عشر الذي نبدأ الآن الحديث عنه عدة أخبار تتعلق بفلسطين، وكان العنوان الرئيسي العريض للجريدة: سنعود إلى فلسطين مهما كانت الظروف. وهناك أخبار أخرى تتعلق بالحالة الاقتصادية في بريطانيا، وتتعلق بالموقف البريطاني من الشرق الأوسط وما تقوم به المعارضة في برلمان تلك الدولة الكبرى من مبادرات تهدف إلى ازدراء موقف الحكومة من قضايا هذه المنطقة المشتعلة، وفي الصفحة ذاتها إعلان من السينما الشرقية هنا يقول إن الفيلم المعروض هو: «الستات ما يعرفوش يكذبوا»، وإن بطولته معقودة على: شادية وإسماعيل ياسين وشكري سرحان وزينات صدقي، وجاء في الإعلان أن الفيلم اللاحق أجنبي اسمه «أنشودة الهند».

أما الصفحة الثانية ففيها مقال تحت عنوان: «رأي مواطن» كتبه عبدالرزاق حافظ وهو موظف في دائرة المالية علق فيه على أخبار الأسبوع الفائت، وإلى جانبه تعليق حول بنك الكويت الوطني فيما يتصل بتشدده في منح القروض. وفي الصفحة ذاتها حديث مهم عن النفط لابد من تقديمه كاملًا لأنه يمثل النظرة المستقبلية التي كان أبناء الكويت ينظرون بها إلى هذه المادة المبشرة بالثراء وبخاصة وقد بدأت آثارها تتضح، يقول الحديث: «يوضح تقدير معتدل بأن الطلب على النفط سيتضاعف في العشرين سنة القادمة فإذا كان الأمر كذلك فإن شركات النفط عليها أن توجد الأموال لتتسع في أعمالها. ومن المقدر أن شركات النفط تحتاج إلى ١٥٠ مليون دولار كرأسمال في هذه المدة.

فمن أين توجد هذه المبالغ.. هل يمكن تحصيلها من توفير الأسهم والسندات؟ إن دخل الأفراد معرض لضرائب الحكومات وأموال الحكومات في الغرب قد لا تكون متوافرة لهذا العمل ويبدو أن الدول المنتجة كالكويت يمكنها أن تقفز إلى مصاف أكبر الدول التي تملك شركات النفط.. ويمكن للحكومة الكويتية أن تشتري

أسهم وسندات الشركات التي تعمل في منطقتها. ويمكن عمل ذلك بسياسة منظمة تعمل على عدد طويل من السنين حتى يأتي اليوم الذي تملك حكومة الكويت أكثر من ٥١٪ من أسهم الشركة وعندها يمكنها أن تأمر مجلس الإدارة فيطيع..

فقد نشرت الصحف الإنجليزية أخيرًا بأن الحكومة الكويتية قد اشترت أسهمًا وسندات بمبلغ ٧٩ مليون جنيه ولم يكن ضمن ذلك سندات شركات النفط.. وكان الواجب أن يكون شراء أسهم شركة النفط الإنجليزية أول هدف لهذا الاستثمار.

ووردت أخبار أخرى تقول: تم طرح استثمار نفط البحر في الكويت للشركات العالمية وما دامت الحكومة غنية فهلا استأجرت فنيين وحفارين وجيولوجيين وباشرت العملية بنفسها ليعود الربح كله على الكويت؟ أو على الأقل أن تشارك الحكومة إحدى الشركات فتدفع ٥٠٪ من رأس المال وتتقاضى ٧٥٪ من الأرباح».

ننتقل بعد ذلك إلى الصفحة الثالثة، وفيها مقال بقلم هاني عبود عنوانه: «المرأة العربية والعادات القديمة»، وهو ينتقد في مقاله ما ورد في عدد سابق من «أخبار الأسبوع» حول بعض العادات مع التركيز على نظام الزواج، وكانت السيدة حياة النقيب قد كتبت مقالًا بهذا الخصوص، فجاء مقال صاحبنا هذا لكي يعلق عليه، وفي نهاية تعليقه تمنى على الكاتبة أن تستمر في طريقها هذا، فتبحث مشكلات المرأة العربية الأخرى. وفي زاوية صغيرة من هذه الصفحة حديث عن صناعة الملابس التي تنسج خامتها من مادة النايلون مع حديث عن مستقبل هذه الصناعة، وإلى جوار ذلك عدد من النكات مجملها تسع.

والآن إلى الصفحة الرابعة وفيها إشارة إلى الموسم الثقافي الذي كانت دائرة المعارف عندنا تقيمه في ذلك الوقت، وكان المحاضر المعلن عن محاضرته هو الدكتور حسين فوزي، وهو باحث وكاتب شهير، يتولى منصب وكيل وزارة الإرشاد القومي بمصر حين جاء إلينا. وفي هذه الصفحة تحت عنوان: «همسة الأسبوع»

حديث إلى القراء تطلب الجريدة فيه منهم أن يكتبوا بأسمائهم الصريحة وتعدهم بحفظ أسرارهم ونشر ما يبوحون به لها. وتحت عنوان: «من بحر الأسبوع» مجموعة من المعلومات المتناثرة من عدة بلدان، وبعض الأخبار المحلية التي كان أهمها سفر الشيخ عبدالله السالم الصباح إلى لبنان.

وعلى الصفحة الخامسة مقال كبير تحت عنوان: «وأين نحن؟» ينصب على تساؤل المحرر عن موقف الكويت من العقائد الاقتصادية ويتساءل هل نحن رأسماليون؟ أم اشتراكيون؟ وبين أننا ينبغي أن نحدد لأنفسنا الطريق الذي يجب أن نسلكه بحيث يتماشى مع المصلحة العليا لبلادنا. وأنا أظن أن الزمن قد أجاب عن كثير مما أثاره المقال.

وإضافة إلى هذا المقال نجد مقالًا آخر كتبه طالب جزائري كان يتلقى دروسه في مدرسة الشويخ الثانوية والمقال يتعلق بشؤون بلاده التي كانت - آنذاك - في قمة جهادها لنيل الاستقلال من فرنسا. والجزء الثالث من الصفحة عن مراكش، وهو فرع من عدة مقالات عن البلدان العربية كانت الجريدة تنشرها تحت عنوان: «دراسة مقارنة للبلاد العربية»، وهذه خطوة جيدة لتعريف القراء في الكويت بكثير من الأمور عن وطنهم الكبير.

وفي الصفحة السادسة حديث عن كتاب صدر في لبنان تحت عنوان «نحن وإسرائيل» وهو من تأليف بشارة المر، بالإضافة إلى أخبار غير سياسية منوعة.

أما في الصفحة السابعة فإننا نجد مختارات من شعر الشاعر فهد العسكر مستلة من كتاب الأستاذ عبدالله زكريا الأنصاري: فهد العسكر، حياته وشعره. وفي الجزء الثاني من هذه الصفحة مقال للأستاذ فاضل خلف وهو مكون من عدة حلقات هذه هي الحلقة الثانية منها، ومن المفروض أن يكون قد نشر باقي مقاله في أعداد تالية، وعنوان المقال: مذكرات وتأملات مسافر إلى مصر. وإلى جانب

ذلك مقال آخر كتبه «قارئ» وهو رد على كاتب سبقه، والموضوع يدور حول الأعمال بشكل عام ما هو المهم فيها: رأس المال أم العمال؟ وحول هذا الأمر اختلف الرجلان.

وعلى الصفحة الثامنة - وهي الأخيرة - أخبار متفرقة مضى زمنها، وليس فيها من المهم إلا الاحتفال بعيد جلوس الأمير، ووصول الدكتور قسطنطين زريق لكي يشارك في الموسم الثقافي الذي أشرنا إليه فيما سبق وفي الصفحة - كذلك - أخبار عن الرياضة في الكويت، ثم مقال طويل كتبه خالد يوسف النصر الله تحت عنوان: الرياضة في الكويت وهذا جزء تابع لمقال آخر سبق نشره بهذا العنوان في جريدة أخبار الأسبوع.

تحدثت عن الدكتور داوود مساعد الصالح، وعن جريدته «أخبار الأسبوع» وعرضنا ما وردنا منها، غير أنني أود أن أشير إلى أن هذا الرجل كان ولايزال شعلة من النشاط يكفي أن نعرف أن بعض المشروعات الصحفية التي ابتدأها لاتزال قائمة حتى يومنا هذا، وإن قد تخلى عن ملكيتها.

دعائي إلى الله سبحانه وتعالى أن يمده بالصحة والعافية وأن نستمع إلى أخبار أنشطة جديدة له.

****

ملحقات خير

اعتدت مساء الاثنين من كل أسبوع زيارة الأخ العزيز محمد صقر المعوشرجي في ديوانه العامر، وقد أسعدني الحظ في إحدى الأمسيات بلقاء شاعر كويتي من شعراء النبط هو الأخ مفلح عبدالله الطواري.

لم أكن قد عرفت هذا الشاعر من قبل، ولكني أعجبت كثيرًا بشعره عندما ألقى نماذج من قصائده، فوجدته قوي الشعر، متمكنًا من مختلف فنون القول وكان كأنه يخفي هذه الملكة الشعرية التي برزت لنا منه، إذ كان يتحدث في مجالات كثيرة تدل على اطلاعه، ومتابعته القراءة في مجالات الأدب والتاريخ، وفي مجالات الثقافة الإسلامية كذلك، ولأمرٍ ما فقد بدأ يتحدث عن شعره مما جعلنا في شوق إلى سماعه، وعندما أحس برغبتنا هذه بدأ في الإنشاد، فسمعنا شعرًا لطيفًا عامرًا بالمعاني العالية، فيه شيء من النصح والتوجيه، كما أن فيه بلاغة وحسن تعبير.

وينبغي ألا يستغرب أحد قولي هذا لأن الشعر النبطي على الرغم من أنه يكتب اللهجة العامية، إلا أنه ينطبق عليه ما ينطبق على الشعر الفصيح، من حيث الإجادة في التعبير وحسن عرض المعاني التي تعتمل في ذهن الشاعر.

بعد جلستين من جلسات الديوانية صار أبوعبدالله - وهذه هي كنيته - لا يتردد في اتحافنا بما يستجد له من شعر لأنه أحس برغبتنا الشديدة إلى سماع إنتاجه.

أما في آخر جلسة فقد وجدناه يبدي رغبته في حضور جلستنا في مساء يوم الثلاثاء، فرحبنا أنا وأخي الدكتور مرزوق يوسف الغنيم به، ولقد كان عند كلمته فجاء في موعد ملائم، وتحدث أمام الحاضرين حديثًا منوعًا، كان الجميع يستمعون إليه باهتمام، ثم عرج على الشعر فقال أبياتًا جميلة، على نمط ما قاله لنا سابقًا، وعلى المستوى نفسه، وقد شهد له أصحابنا بطول باعه في نظم القصائد، وسعة أفقه في التعبير عن مشاعره.

ولقد خطر ببالي - آنذاك - أن أطلب منه موافقته على أن أقدم أبياته هذه إلى قراء «الوطن» في «الأزمنة والأمكنة» وقد أسعدني أن أجده يبادر بالموافقة على ذلك قبل أن يصل طلبي إلى سماعه، وهذا في حد ذاته دليل على طيب نفسه وأريحيته.

الأبيات التي ألقاها علينا مساء الثلاثاء وهي التي سوف أقدمها هنا ذات صفة وطنية يحث فيها أبناء الوطن على عدم الانسياق وراء مثيري الفتنة من أي طرف كانوا، ويحذر بها الناس من القائمين على إثارة النعرات بغية التفرقة بين أبناء الشعب الواحد، ويكفي هنا أن أقدمها كاملة كما ألقاها:

بديت باسمك مالك الملك والشان
ياللي سجدلك كل زاحف وطاير
وتسجد لك الأشجار والأنس والجان
والكوكب اللي في السماوات ساير
وجبالها وانهارها وكل ما كان
حكيم وتعلم ما تكن الضماير
تحفظ بلادي من خطر كل فتان
همه يحط بلادنا في الحفاير
وقصده تولع بين جعفر وعثمان
وتسمع نعيق البوم في كل عاير

وقصده تولع بين سامي وجمعان
وتخرق بلدنا مثل حرق الزقاير
وأهل البلد ما بين نادم وخسران
والكل في ديره يهل العباير
غال وطنا ولا يقدر بالاثمان
يومه رجع كل يسوق البشاير
ونصيحتي تكاتفوا فعل ولسان
وخلوا عدو كويتنا دوم حاير
وصلوا على المختار في كل الأحيان
والآل والأصحاب أهل البصاير

وأنا هنا أشكر الأخ الشاعر مفلح عبدالله الطواري، وأرجو له التوفيق والمزيد من الإبداع الشعري، وأشد على يديه مؤيدًا ما قاله في شأن الوحدة الوطنية، وضرورة عدم إثارة الفتن بين المواطنين.

****

مؤتمر الأدباء العرب في الكويت (١)

كانوا يظنون أن الكويت حتى نهاية خمسينيات القرن الماضي، لا تعرف الاهتمام بالأدب، وليس فيها أدباء ولا يهتم أبناؤها باكتساب المعارف، ولا اقتناء الكتب المفيدة ودراستها، وهي التي شهدت عددًا من المؤلفين والشعراء منذ زمن طويل، وألف الشيخ عبدالعزيز الرشيد كتابه «تاريخ الكويت» في سنة ١٩٢٦م، وأصدر مجلته «الكويت» في سنة ١٩٢٨م وبرز فيها شعراء كثيرون يكفي أن نذكر منهم الشاعر عبدالجليل الطبطبائي المتوفي سنة ١٩٠٠م وصقر الشبيب الذي ولد في سنة ١٨٩٢م وكان ينشر شعره في خارج الكويت عندما لم يجد له مجالًا للنشر فعرف في الوطن العربي مثلما عُرف في الكويت، ولم يرحل الشاعر العبقري فهد العسكر عن دنيانا إلا في سنة ١٩٥١م.

وافتتحت المكتبة الأهلية التي صارت نواة مكتبات المعارف المنتشرة في طول البلاد وعرضها في يومنا هذا وقد هبّ الأهالي إلى إقامتها في سنة ١٩٢١م وفي سنة ١٩٢٣م تم افتتاح النادي الأدبي الذي كان - على الرغم من قصر عمره الزمني - منارة للأدب هنا ومجالًا لتشجيع الأدباء.

ولمزيد من المعلومات عن كل ذلك فإن كتابنا: «ملامح من تاريخ الكويت» فيه فائدة لمن يريد الاستفادة.

ولذلك كله فإنه لم يكن مستغربًا أن تقوم الكويت باستضافة مؤتمر عربي هو من أهم المؤتمرات المتعلقة بالأدب وهو مؤتمر الأدباء العرب الرابع في الفترة من

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٠/١١/٢٤م.

اليوم العشرين إلى اليوم الثامن والعشرين من شهر ديسمبر لسنة ١٩٥٨م، ولقد كانت هذه الدورة التي عقدت في الكويت لمؤتمر الأدباء العرب من أهم دورات نشاط هذا الاتحاد، ولاتزال لقاءات الأدباء العرب مستمرة في مؤتمرات لاحقة، ولكن هذا المؤتمر كان له وقع خاص لعل من أهم أسبابه العناية الفائقة التي بذلتها الكويت ممثلة بدائرة معارفها - آنذاك - وبفضل المجموعة الكبيرة المشاركة من الأدباء العرب الذين كان منهم عدد من مشاهير الأدباء الذين يثري وجودهم أي لقاء أدبي وقد سعدت الكويت بهم، وسعدوا هم بوجودهم فيها خلال المؤتمر وهذا أمر تدل عليه كلمات رؤساء الوفود التي القيت في آخر جلسة من جلسات المؤتمر.

الكويت الآن في سنة ١٩٥٨م، وهي سنة من السنوات المهمة في تاريخ البلاد، فقد كانت من سنيِّ الاستعداد للاستقلال وكانت الأمور التي حدثت فيها ذات دلالة على ما يخفيه القدر في اليوم التاسع عشر من شهر يونيو لسنة ١٩٦١م وهو إلغاء الاتفاق التعاقدي مع بريطانيا.

في هذه السنة ١٩٥٨م آلت مسؤولية البريد إلى حكومة الكويت، وتم افتتاح مكتب بريد الصفاة لكي يتولى المهمة إلى أن تستكمل الجهات المختصة إجراءاتها الخاصة بالعمل في هذا المرفق، وكان ذلك في اليوم الأول من شهر فبراير وفي هذه السنة ١٩٥٨م تم العثور على آثار في جزيرة فيلكا، وقد اكتشفتها بعثة دانماركية.

وللعجب الشديد، فإنه في اليوم الثاني عشر من شهر مايو لهذه السنة أرسل حاكم العراق الأسبق رسالة بواسطة وزارة خارجيته إلى حكومة الكويت يعرب فيها عن رغبته في أن نتبادل مع بلاده التمثيل القنصلي.

وصدر في السنة ذاتها أول عدد من مجلة العربي وكان يرأس تحريرها الدكتور أحمد زكي، وسرعان ما عمت شهرتها الوطن العربي وصارت مقروءة

في كل مكان، ولا تزال توالي الصدور بنجاح ويرأس تحريرها حاليًا الأخ الدكتور سليمان إبراهيم العسكري.

وعقد في الكويت في شهر أكتوبر مؤتمر ضباط اتصال المكاتب الإقليمية لمقاطعة إسرائيل تحت إشراف جامعة الدول العربية.

وابتنت شركة ناقلات النفط الكويتية أول ناقلة من أجل نقل النفط الخام وذلك في الخامس عشر من شهر ديسمبر لسنة ١٩٥٨م، ولكنها وصلت إلى البلاد في سنة ١٩٥٩م.

وكان من أهم ما جرى في الكويت في هذه السنة انعقاد مؤتمر الأدباء العرب الرابع الذي سوف نتحدث عنه في مقالنا هذا، وقد سارعت الجهات المختصة إلى تكوين رابطة أدبية كويتية من أجل المشاركة في هذا المؤتمر؛ إذ كان ذلك ضروريًا.

سارعت الكويت في هذه الفترة إلى بذل مزيد من التعاون مع جامعة الدول العربية، وشاركت في كثير من لجانها ومؤتمراتها وندواتها، بل ودخلت مجلسها الاقتصادي الذي كان من أهم منجزات هذه الجامعة، وكان من أبرز ما قامت به الكويت في هذا السبيل استضافة مؤتمر أدباء العرب الرابع، فعقد على أرضها - كما ذكرنا - في الفترة من اليوم العشرين من شهر ديسمبر إلى اليوم الثامن والعشرين منه لسنة ١٩٥٨م، ولقد اهتمت البلاد بأسرها به، وبذلت غاية الجهد في أن يكون ناجحًا، وقد كان كما تحب، وكانت دائرة معارف الكويت هي المختصة بكافة الإجراءات المتعلقة بالمؤتمر من استقبال الوفود واستضافة أعضائها وكذلك تجهيز أماكن اللقاءات المقررة للمؤتمرين، وأكملت الدائرة هذا العمل حين قامت بإصدار كتاب جامع لكل الخطوات التي سار عليها المؤتمر ضمنته البرامج التي سار عليها والكلمات التي قيلت فيه والتوصيات التي اتخذت عند نهايته.

ولولا هذا الكتاب القيم الذي حرصت دائرة معارف الكويت على إصداره لنسينا الكثير مما ينبغي أن نتذكره عن هذا المؤتمر الذي جاء في فترة مهمة من فترات حياة الوطن، وهو وقت شهد في البلاد العربية عددًا من التغيرات المهمة ولذا كان لقاء أدباء العرب في هذه السنة مهما لكي يتداولوا في أمورهم ويتشاوروا حول مسيرة الحياة الأدبية والثقافية في بلدانهم.

طبع الكتاب في مطبعة حكومة الكويت، وجاء في أكثر من ستمائة وسبعين صفحة مزودًا بالصور التي توضح أكثر ما دار في المؤتمر من فعاليات.

بدأ العمل في اليوم الأول بجلسة الافتتاح، وقام الشيخ عبدالله الجابر الصباح رئيس مجلس المعارف آنذاك بإلقاء الكلمة الأولى، فرحب بالحاضرين، وأبدى سرور الكويت بهذا الاجتماع الذي لا يمكن أن تُنكر أهميته. وكان مما قال:

«إنني باسم سيدي صاحب السمو حاكم الكويت المعظم، وباسم الكويت شعبًا وحكومة، يسُرّني أن أحييكم، وأرحب بكم، وأشكركم على تلبيتكم دعوتنا لعقد الدورة الرابعة لمؤتمر الأدباء العرب على أرض الكويت العربية».

وتكلم بعده مندوب جامعة الدول العربية، فتحدث عن طبيعة هذا المؤتمر، وقال في ختام كلمته: «أحاول أن أعَبّرَ عن أصدق الشكر إلى الكويت أميرًا وحكومة وشعبًا، لإتاحة الفرصة لهذه النخبة الكريمة من أهل القلم في العالم العربي العزيز الذي تفخر الأمة العربية بثوبه الثقافي والتعليمي، وبوضع إمكاناته في رقي وتقدم هذا الجزء الغالي من الوطن العربي الكبير».

وتتابع في الحديث أثناء جلسة الافتتاح كل من إبراهيم العريض رئيس وفد البحرين، ومحمد مزالي رئيس وفد تونس، ومحمد مهدي الجواهري الشاعر المشهور وكان رئيس وفد العراق، والدكتور محمد مهدي علام رئيس وفد الجمهورية العربية

المتحدة (مصر حاليًّا). وأخيرًا رئيس وفد الكويت الأستاذ عبدالعزيز حسين، وكان بين هؤلاء المتحدثين عدد آخر من الأدباء والشعراء لا سبيل إلى ذكرهم أجمعين لضيق المجال هنا.

ولقد رحب الأستاذ عبدالعزيز حسين بالمؤتمرين، وعبر عن سعادة الكويت بوجودهم على أرضها، وتحدث - بصفته السكرتير العام للمؤتمر - عن الموضوعات التي سوف يتم بحثها في الجلسات، مع بيان مواعيد هذه الجلسات.

في اليوم الثاني من أيام المؤتمر بدأ الأعضاء في إلقاء أبحاثهم فألقي بحثان أحدهما عن البطولة كما صورها الأدب العربي بعد ظهور الإسلام حتى سقوط بغداد، وكان لكل بحث معلقان يقومان برصد كل ما يقوله المتحدث ويبينان ما في بحثه من مواضع ينبغي أن يلتفت إليها المستمع، ورئيس جلسة هذا اليوم هو الشاعر الجواهري، وسكرتير الجلسة كان الأستاذ الشاعر صالح جودت.

وقد جاءت التعليقات من الحاضرين بعد انتهاء هيئة الجلسة من عملها، وكان من هؤلاء عبدالعزيز الرفاعي من المملكة العربية السعودية، وسيف الدين الكيلاني من الأردن، والدكتور بشر فارس والأستاذ أمين الخولي وكلاهما من مصر.

وجاء اليوم الثالث للمؤتمر، وكان البحث في جلسة هذا اليوم بعنوان: البطولة كما يصورها الأدب العربي في الأندلس وشمالي أفريقيا، وقد ألقاه الأستاذ محمد مزالي، وعلق عليه أربعة من الأدباء منهم الأديب الكويتي المرحوم عبدالله أحمد حسين، وكان مقرر جلسة البحث الأديب السوري سامي الدروبي.

وجرت بعد ذلك مناقشات عامة اشترك بها كل من الأستاذ عبدالهادي التازي، والدكتور منصور فهمي. وفي اليوم الخامس كان موضوع الجلسة هو: البطولة كما يصورها الأدب العربي بعد سقوط بغداد حتى نهاية القرن التاسع

عشر، وتحدث فيها الدكتور شكري فيصل من الجمهورية العربية المتحدة (سورية) وكان من المعلقين الأستاذ إبراهيم العريض، وتولى الأستاذ عيسى الناعوري مهمة مقرر الجلسة وهو من الأردن. وعندما جاء دور التعليق العام كان من المعلقين الأستاذ عبدالرزاق البصير الأديب الكويتي المعروف والدكتورة بنت الشاطئ وهي من أعلام الأدب العربي.

وفي اليوم السادس للمؤتمر؛ جرى الحديث عن البطولة كما يصورها الأدب العربي الحديث. وقد قسم البحث فيها إلى ثلاثة أقسام أولها عن الرواية وقدمه الدكتور سهيل إدريس من لبنان، والثاني عن الشعر وقدمه الأستاذ عبدالرزاق البصير والثالث عن المسرح والسينما وقدمه الدكتور عبدالقادر القط وهو من الجمهورية العربية المتحدة. وكان من المعلقين الدكتور محمد يوسف نجم، كما كان رئيس اللجنة الدكتور محمد مهدي علام وسكرتيرها الأستاذ حسن الجشّي من البحرين.

وفي اليوم الثامن قُدِّم بحثان أحدهما عن البطولة في أدب الأطفال، وعلقت عليه الدكتورة بنت الشاطئ كما علق عليه الأستاذ خوري من لبنان.

وكان البحث الثاني عن البطولة في الأدب الشعبي ألقاه الدكتور عبدالحميد يونس وعلق عليه الأستاذ سامي الكيالي وكلاهما من الجمهورية العربية المتحدة، وكان سكرتير هذا اليوم هو الأستاذ هارون هاشم رشيد من فلسطين.

وعند إعطاء الفرصة للحاضرين من أجل التعليق تحدث الأستاذ صالح شهاب من الكويت، وعاب على المتحدث عدم الإشارة إلى الأدب الشعبي في المنطقة من حيث تناوله ما يتعلق بالبطولة وضرب لذلك مثلًا بقصيدة الشاعر الشعبي الكويتي فهد بورسلي التي كان مطلعها:

دار الـــدور شلـــع يـــا بـــريطـــاني

تـــريـد الـنـــاس تـنـطر دورة الألمـــان

وبرزت هنا الكاتبة المعروفة جاذبية صدقي لتتحدث عن إغفال المتحدثين لأدب المرأة والحديث عن البطولة فيه وذلك ما تعتبره نقصًا تبغي مداركته. ولم أذكر هنا الأيام التي لم تلق خلالها بحوث، وإنما كانت مخصصة للزيارات الاستطلاعية والختام.

عندما استعرضت جلسات المؤتمر وما حولها فإنني تعمدت أن أذكر أسماء الأدباء والشعراء ذوي الشهرة في ذلك الوقت، وأكثر هؤلاء لايزال أدبه مقروءًا حتى للأجيال في زماننا هذا.

كان ترتيب الكتاب الذي ضم أعمال المؤتمر جيدًا بحيث خصص اليوم الأول للافتتاح، واليوم الأخير للختام، وما بينهما للأبحاث، ونظّمت أبحاث كل يوم بحيث يتقدم متحدث رئيسي يتبعه معلق أو أكثر، مع هيئة تشرف على جلسة إلقاء الأبحاث، وبعد أن ينتهي التعليق؛ يبدأ تعليق آخر يقوم به بعض الحاضرين، وهكذا يتكرر هذا الأسلوب في كل جلسة من جلسات المؤتمر المخصصة للبحوث.

ثم تم إرفاق أبحاث لم تتمكن هيئة المؤتمر من ترتيب مواعيد لإلقائها، منها:

١ - البطولة كما يصورها الأدب الجاهلي للدكتور ناصر الدين الأسد.

٢ - صور من البطولة القبلية في العصر الأموي للدكتور محمد مصطفى هدّارة.

٣ - كيف يتخلص البطل، للأستاذ يوسف الشاروني.

وفي نهاية المؤتمر تحدث رؤساء الوفود عن مشاهداتهم في الكويت، وأبدوا إعجابهم بتنظيم اللقاءات، وبما وصلت إليه بلادنا من تقدم ورقي، وقد لاحظت أن الشاعر الجواهري رئيس الوفد العراقي لم يتحدث معهم حتى لا يمتدح الكويت لأنه بذلك سوف يصاب بغصة كان يتوقعها.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الموضوع الأساس للمؤتمر هو: البطولة في الأدب العربي، ولذلك فقد جاءت البحوث على الصورة التي بينها. ولكن الأعضاء في لجان فرعية أخرى تدارسوا بعض الأمور التي تهم الأدباء بصورة عامة، وخرجوا من ذلك بتوصيات عديدة يصعب هنا إيرادها، ولكن من أهمها كانت التوصية بالعناية بنشر التراث العربي، وقد شكلت لذلك لجنة دائمة يرأسها الأستاذ عبدالعزيز حسين، وتضم عددًا من الأدباء أذكر منهم شيخي الأستاذ: السيد أحمد صقر.

وأعلن المؤتمر في النهاية عن أنه أرسل عددًا كبيرًا ومتنوعًا من البرقيات، وقد وجهها إلى جهات مختلفة كان أولها برقية الشكر المرسلة إلى حكومة الكويت، أما الباقي منها فقد تم توجيهه إلى عدد من رؤساء الدول العربية، والى الأمم المتحدة، وإلى بعض الأدباء الذين نالوا تكريمًا من بلدانهم.

واختتم الأستاذ عبدالعزيز حسين جلسات مؤتمر الأدباء العرب الرابع بكلمة قال في آخرها: «أرجو أيها الأخوة أن تكونوا قد قضيتم في الكويت أيامًا طيبة، وإنكم إذ تغادرونها تحملون معكم ذكريات طيبة عن أخوة لكم في هذا الجزء من وطننا الكبير، يحملون لكم أعظم الود، ويكنون لكم خالص التقدير، كما أرجو بما عرف فيكم من كرم أن تغضوا الطرف عما بدر منا من تقصير خلال إقامتكم القصيرة هذه بيننا».

ولنا هنا عودة إلى بعض ما سبق:

تحدثت عن الجواهري، وذكرت عزوفه عن إلقاء كلمة في الختام كغيره من رؤساء الوفود، ولكني هنا أريد أن أتحدث عنه فيما يتعلق بكلمته التي ألقاها في الافتتاح، ذلك لأنني وجدتها كلمة تمتلئ بالألغام، وتنم عن نفس خبيثة تضيق بالكويت على الرغم من حضوره ليقول ما عنده، وقد تبين أن أكثر ما كان عنده، هو ما قاله في ذلك اليوم وقد كان تعبيرًا عن لسان رئيسه عبدالكريم قاسم،

وهذا هو تفصيل لبعض ما قال لأن أكثره كان حروفًا بلا نقاط، وهنا نضع النقاط على هذه الحروف حتى نعرف الحقيقة الكامنة في نفس هذا الشخص، ونتأكد من موقفه منا.

بدأ كلمته بالحديث عن وصوله إلى الكويت بالطائرة من البصرة وأشار إشارة يملؤها الخبث إلى المسافة التي قطعتها الطائرة لتصل إلى الكويت فلم يحسبها بالزمن، بل حسبها بفترة إشعال سيجارته ثم إطفائها. وهو يلمح إلى المسافة بين البلدين وهو تلميح لا حاجة للحاضرين إليه لولا إنه يريد أن يقول شيئًا آخر يشير إلى التصاق البلدين جغرافيًّا، وهو هنا يتجاهل أن مثل هذا الزمن ممكن أن ينقضي عند انتقاله من بلده إلى سورية أو الأردن أو تركيا أو إيران، ولكن ما يهمه إبلاغنا به هو ما يتعلق بموقفهم من الكويت.

وبعد ذلك يقول أن زعيمه قاسم قد كلفه بنقل رسالة إلى المؤتمر يبلغ أعضاءه ما يلي: «قل لهم يا جواهري: إننا على العهد لباقون، وإلى جانب كل بلد عربي مجاهد مناضل لواقفون، ولكل عدو له متربصون، وعلى كل متآمر يريد الإجهاز عليه - ما وسعنا - لمجهزون، قل لهم: إننا حكمنا بالإعدام على رؤوس يانعة للفساد في بلادنا، لأنهم تآمروا أمس على (سورية) العزيزة، وسنصنع كل ما وسعنا وفي طاقتنا للإجهاز على كل متآمر من جديد على الجمهورية العربية المتحدة وفيها (سورية) أيضًا، بل على الكويت، أو على اليمن، أو على البحرين، أو على أي بلد عربي آخر».

ولا ندري من هو الكاذب منهما، هل هو المرسل أم ناقل الرسالة لأن عبدالكريم قاسم قد انتظر إلى أن استقلت الكويت فنهض يطالب بضمها إلى العراق مما يدل على أن القول الذي نقله الجواهري هو الكذب بعينه.

وبعد؛ فقد كان مؤتمر الأدباء العرب الرابع الذي جرى انعقاده في الكويت إبان سنة ١٩٥٨م، مؤتمرًا حاشدًا ضم نخبة من أدباء وشعراء ومفكري الوطن العربي، وعاشت الكويت أيامه في مهرجان أدبي جميل فتح أذهان شباب ذلك اليوم على كثير من الأمور في دنيا الأدب.

وإن كان لي من كلمة في ختام هذا المقال فهي إنني أوجه نداء إلى مركز البحوث والدراسات الكويتية راجيًا فيه أن يقوم - كعادته في مثل هذه الأمور - بإعادة طبع كتاب المؤتمر لما في ذلك من فائدة، ولأن في عملهم هذا حفظًا لتراث عزيز من تراث الكويت.

فهل تفعل ذلك يا أخي؟

****

ملحاق خير

من الأمور التي يجب أن تذكر ونحن نتحدث عن مؤتمر الأدباء العرب الرابع الذي عُقد في الكويت، وهو موضوع المقال المصاحب لهذا الملحاق أمر مرتبط بالمؤتمر وبالأنشطة التي صاحبت فترة انعقاده هنا، وذلك هو أن من اللجان التي قامت بأعمال مهمة قبل وفي أثناء فترة الانعقاد: لجنة الصحافة والإذاعة وكانت تُبلغ عن أعمال المؤتمر يوميًّا حتى يعرف أعضاؤه والمتتبعون لأعماله كل صغيرة وكبيرة تجري خلال جلساته أو في الندوات التي تقام على هامش تلك الجلسات ولقد كان من أعمال هذه اللجنة إصدار نشرة يومية اسمها «صحيفة المؤتمر» وأضع هنا صورة الصفحة الأولى من العدد الأول منها، وفيها كلمة للشيخ عبدالله الجابر الصباح رئيس دائرة المعارف في ذلك الوقت يرحب فيها بالأدباء العرب الذين قدموا إلى الكويت من أجل حضور انعقاد مؤتمرهم الرابع الذي جرى تحديد موضوعه سلفًا بحيث يكون: «البطولة في الأدب العربي» وهو يقول: إن قدومهم فرصة سعيدة نلتقي فيها بالصفوة المختارة من إخواننا العرب، وقال أيضًا: «إنني باسم صاحب السمو حاكم الكويت الشيخ عبدالله السالم الصباح وباسم الشعب العربي في الكويت أُرحِّب بكم أجمل ترحيب، وأتمنى لكم بين أهليكم وإخوانكم بوطنكم الكويت أطيب المقام».

وتضمنت النشرة كلمة شرحت فيها هيئة تحريرها أهداف المؤتمر بعنوان: كلمة العدد، ومقالًا كتبه الأستاذ محمود أمين العالم، وهو من أعضاء الوفد المصري، وله

شهرة في عالم الفكر والأدب. وتحدثت النشرة – أيضًا – عن المؤتمرات المماثلة السابقة، وأوردت جدولًا يبين مواعيد وصول الوفود إلى الكويت.

لقد كانت النشرة مفيدة من كل الوجوه، ولكنّا لم نعثر إلا على العدد الأول منها، وقد صدر في أول يوم من أيام المؤتمر وهو اليوم العشرون من شهر ديسمبر لسنة ١٩٥٨م.

هذه إشارة لابد منها إلى عمل تم في تلك السنة من السنوات التي شهدت الكويت فيها بوادر توجهها إلى الاستقلال، وبدايات خوضها لحياة جديدة تدفعها نحو مستقبل زاهر، وقد عشنا طرفًا من ذلك الزمان الجميل الذي كان السباق فيه إلى رقي البلاد هو الشغل الشاغل لأهلها الذين يكنون لها المحبة ويتمنون لها الازدهار، بعكس ما نحن عليه اليوم من تناحر وتدابر، وعرقلة لكل عمل جيد تستفيد منه البلاد.

****

الدكتور عثمان خليل عثمان في الكويت (١)

هناك أناس عاشوا معنا في هذا الوطن زمنًا ثم رحلوا، منهم من أقام في وطنه فنحن على اتصال بالمتصف منهم بالصفات الحميدة من الأحياء، ونترحم على الأموات من أولئك الذين نذكر أعمالهم هنا بكل خير. ثم إننا لا نلتفت إلى الذين أساءوا إلى الكويت بعد مغادرتهم لها فهؤلاء تكفيهم مزبلة التاريخ يغوصون فيها ثم لا يخرجون منها، وهذا هو جزاء نكران الجميل والجحود الذي يتصف به هؤلاء.

من الرجال الذين نذكرهم بكل خير ونترحم عليهم ونرجو من الله سبحانه أن يغفر لهم، ويدخلهم فسيح جناته رجل لا يمكن أن أنساه، وينبغي ألا ينساه أبناء وطني، فقد قدم أثناء وجوده بيننا الكثير من جهده وعلمه، وأفاض بالكثير من فضله وهو الدكتور عثمان خليل عثمان.

أطل علينا هذا الرجل في سنة ١٩٦١م، جاء لكي يكون خبيرًا دستوريًا للمجلس التأسيسي الذي قام بموجب المرسوم رقم (١) لسنة ١٩٦٤م، وقد أنشأ هذا المرسوم المجلس الذي كانت له مهمة محددة هي وضع دستور دولة الكويت، وبين أن نظام الحكم في البلاد يعتمد على أساس المبادئ الديموقراطية المستوحاة من واقع الحياة في البلاد.

كان الدكتور عثمان خليل عثمان رجلًا معروفًا في دنيا القانون الدستوري وكان مدرسًا في جامعة القاهرة، ثم شغل منصب عميد كلية الحقوق بجامعة عين

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠١٠/١٢/١م.

شمس، وكان ممن تم اختيارهم لعضوية لجنة الدستور المصرية التي شكلتها ثورة سنة ١٩٥٢م هناك.

وهو يقول عن مجيئه إلى الكويت: «كانت دعوتي إليها مفاجئة لي، لم تخطر بفكري من قبل، فبعد انتهائي في مساء أحد الأيام من إلقاء محاضرة مقررة على طلبة قسم الدكتوراه بكلية الحقوق في جامعة القاهرة، جاءني من أخبرني أن وكيل وزارة التربية والتعليم قد حاول الاتصال بي عدة مرات لأمر مهم، وأنه قد ترك لي رقم هاتفه حتى أقوم بالاتصال به فور علمي بذلك، وبينما كنت أحاول ذلك اتصل بي وأخبرني أن سفير دولة الكويت في القاهرة يرغب في الاتصال بي بشأن انتدابي للإسهام في إعداد دستور الكويت، وقد رحبتُ بالفكرة، واتصلت بالسفير، وانتهى الأمر بوصولي إلى الكويت بعد أقل من شهر بعد الاتفاق.

كان وجود الدكتور عثمان خليل عثمان في الكويت مفيدًا جدًّا وميسرًا لعمل أولئك الرجال الذين كان قدرهم هو أن يقدِّموا لوطنهم هذا الدستور الذي نعيش في ظله منذ تلك السنة التي صدر فيها، حيث إن المرحوم الشيخ عبدالله السالم الصباح قد صدّق عليه وأصدره في اليوم الحادي عشر من شهر نوفمبر لسنة ١٩٦٢م.

ولكن صاحبنا كان ذا حضور اجتماعي، يجتمع حوله عدد كبير من الأصدقاء والمحبين، وله في حياته هنا ملامح تدل على شخصه الكريم، وعلى أخلاقه العالية، وعلى علمه الغزير. فأنت إذا جلست معه في إحدى الجلسات التي تضم الأصدقاء في خارج مجال عمله وجدته محور الحديث يديره ويبدي رأيه يرد على كل سؤال يوجه إليه بما ينمُّ عن إحاطته بكثير من الأمور. وإذا حَضَرْتَ إحدى جلسات المجلس التأسيسي وصادف ذلك قيامه للرد على سؤال من أسئلة الأعضاء وجدته يعبِّر تعبيرًا صادقًا عن الموضوع الذي يتم سؤاله عنه، ووجدته محايدًا جدًّا بحيث تحس وكأنه عضو في المجلس لأنه لا يميل إلا إلى الرأي الدستوري السليم ولا

يمالئ أحدًا مهما كان وضعه. ولذا فقد كان موضع الاحترام والتقدير من الجميع من داخل المجلس ومن خارجه على حد سواء.

كانت للدكتور هواية مستغربة في ذلك الوقت، ولكنه كان مؤمنًا بأن ما يقوم به شيء لا ينبغي أن يستنكره أحد، وكان يقول: إنني سرت في طريق هوايتي هذه وأنا ازداد اقتناعًا بها يومًا بعد يوم.

كانت هذه الهواية هي: تحضير الأرواح، وقد عرف أصدقاؤه جميعًا باهتمامه الشديد بهذا العمل، ولقد عرفت عنده هذا الأمر في ليلة من ليالي رمضان التي مرت بنا في ستينيات القرن الماضي، وهذه هي حكاية اكتشافي ذاك:

في تلك الليلة المباركة تشرفت بحضور عدد من العلماء وقراء القرآن الكريم إلى منزلي على غبقة رمضانية، وكان الدكتور عثمان ضمن الحاضرين، وهذا الجمع الكبير كان ممن تدعوهم وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بمناسبة حلول شهر رمضان المبارك لنشر الوعي الديني ولقراءة القرآن الكريم في المساجد، ولقد كان من الحاضرين أستاذي الدكتور عبدالحليم محمود والشيخ محمد الغزالي والقارئ مصطفى غلوش وآخرون وكأن هذه النوعيات هي التي تحرص وزارة الأوقاف على دعوتهم إلى الكويت لا هؤلاء الذين نراهم الآن، وتسقطهم المقارنة من أعيننا.

كان الحاضرون متعارفين كل منهم قد سبق له أن لقي الآخر، وكان الدكتور عثمان من أبرز الذين يتحدثون في ذلك اللقاء، وقد استمع إليه جميع الحاضرين في إصغاء من لا يريده أن يتوقف. ولكننا في لحظة ما، وجدنا من يهتف باسم المتحدث قائلًا: أخبرنا يا دكتور عن حكاية تحضير الأرواح التي سمعنا أنك تزاولها على سبيل الهواية، وهل أنت مقتنع تمامًا بها؟ أم أن القصد من ذلك إنما هو مجرد تزجية الوقت؟

سكت الجميع فلم يكن أحد منهم يتوقع إثارة مثل هذا الحديث، وظن بعضهم أن هذا السؤال قد يسيء إلى الدكتور عثمان. ولكنه على العكس من ذلك قال: نعم أنا أزاول تحضير الأرواح، ولي جلسات شبه منتظمة في بيتي يحضرها عدد من الأصدقاء، ولا أرى في ذلك ما يرى فيه البعض من سوء الظن.

بعد حديث طويل دار بين جميع الحاضرين، انتهت جلستنا تلك، ووقف كل واحد من المدعوين استعدادًا للانصراف وعندما صافحت الدكتور عثمان خليل عثمان مودعًا دعاني إلى حضور جلسة من الجلسات التي أشار إليها، فشكرته ووعدته بتلبية هذه الدعوة الكريمة.

بعد ذلك بأيام هاتفني قائلًا: إن موعد الجلسة التي دعوتك إلى حضورها سوف يكون في الليلة القادمة.

ولقد كنت عازمًا على الحضور من أجل استكشاف أمر تحضير الأرواح الذي كنت أسمع عنه وأقرأ، ولكني لم أتمكن من حضور جلسة كالتي دعاني إليها الدكتور.

وذهبت إلى بيته في الموعد المحدد، وكان في المساكن الحكومية القريبة من قصر السلام في الشويخ، وحين دخلت وجدته في الاستقبال ووجدت عددًا من الحاضرين الذين دعاهم لحضور هذه الجلسة، وكنت أعرف أكثرهم، وما كان أيسر من تبادل الأحاديث بين أشخاص يعرف بعضهم بعضًا، وكان الشك في مسألة التحضير يراود الجميع، ولكنهم يرون أن الوقت مناسب لمعرفة الحقيقة.

كانت هناك منصة عالية حضر عليها شخص قيل لنا إنه الوسيط الروحي، وأنه قدم إلينا من مدينة الأحمدي، وأطفئت الأنوار، وبدأت محاولة الاستحضار، ولكن الأمر لم يجر على ما كان يشتهيه الدكتور عثمان، فلم يستطع الوسيط الاتصال بأحد من خارج عالمنا، وبعد فترة من الترقب والانتظار تقرر إنهاء الجلسة على أن يحدد لها موعد آخر.

وبدأ الحاضرون في التسلل إلى الخارج، فيما كان الدكتور يودع الجميع، وفي هذه الأثناء وقفت أودعه وأهمس في أذنه ممازحًا: لقد دعوت يا دكتور عثمان عددًا كبيرًا إلى جلستك هذه، ولم تأت الأرواح لأنها وجدت هنا من الأرواح الحية ما يمنع حضورها. وخرجت. أما الدكتور فلم يكن راضيًا عما حدث على الرغم من أن ذلك أمر قد تتعرض له بعض الجلسات التي هي من هذا النوع، وتعبيرًا عن عدم رضاه وجدته بعد يومين يهاتفني قائلًا: سوف أحضر إلى مكتبك الآن إذا لم تكن مرتبطًا مع أحد آخر، فرحبت به، وقلت له: إنني أسعد بلقائك، حياك الله.

وعندما حضر تحدث عن موضوع تحضير الأروح باقتضاب ثم قال: قد يهمك أن تعرف أننا نتلقى في جلسات مشابهة الكثير من الاتصالات من عالم الأرواح وبعضها على دراية بما يحدث في عالمنا ليس على مستوى الأشخاص بل على مستوى الدول. هذه وريقات كتبت فيها ما قاله الروح عن الصراع العربي - الإسرائيلي - وحتى تعرف مدى يقيني بما قال أخبرك بأنني أرسلت نسخة من هذه الوريقات إلى الرئيس جمال عبدالناصر، فقد يجد فيها شيئًا نافعًا. خذ هذه النسخة واقرأها. شكرت له اهتمامه وأخذت الوريقات المذكورة وقرأتها واحتفظت بها، ولا أزال احتفظ بها، وإن كنت في حاجة إلى وقت طويل للبحث عنها حتى أعثر عليها الآن بعد مرور تلك السنين الطويلة على تسلمها.

ومضت الأيام بعد ذلك، ولم أكرر هذه التجربة، وانشغل الدكتور عثمان كثيرًا في عمله بالمجلس، وانشغلت كذلك في عملي ولم أرَهُ إلا خلال فترات قصيرة متباعدة، إلى أن علمت فيما بعد مغادرته للبلاد، مرضه ثم وفاته رحمه الله.

كان عمل الدكتور عثمان خليل عثمان في الكويت، مشهودًا وكان من المعروف عنه الصدق والحيادية، والتفهم لكل ما يطرح من مشكلات. وقد تحدث عن تجربته في المجلس التأسيسي حين قال عن الدستور الذي وضع بنفسه مسودته وقدمها فناقشها الأعضاء وأخذوا منها وأضافوا إليها وعدلوا في بعض موادها.

ومما أثر عنه قوله: لقد لعبت الأصالة الديموقراطية في الروح العربية المتجسدة حتى في نفس أبسط مواطن بهذا البلد، دورها في طبع الدستور بمسحة ديموقراطية.

ثم قال: من الأقوال الشائعة فيما يتعلق بالدساتير أنها توضع بعقلية ما قبل إصدارها، مستوحاة من الماضي بظروفه ومشاكله، ولكننا راعينا أثناء إعداد هذا الدستور أن يأتي أقرب إلى مفاهيم الغد منه إلى مفاهيم الأمس وحتى إلى مقاييس اليوم، وربما لهذا وجد من يقول: إن الدستور يتضمن مطالب أو مفاهيم ليست في ذهن أي إنسان اليوم، والرد بسيط: الدستور موضوع للغد، ومن أجل أن يطابق حاجات الغد وجبت محاولة التقدم به عن مطالب اليوم وشعاراته. وسيبدأ العمل بالدستور بشكل محسوس بعد قيام مجلس الأمة الجديد، وقد حددنا فترة خمس سنوات للعمل به من دون تعديل، على أن يعدل بعدها إذا وجدت ثمة حاجة لتعديله.

ولا أحد يستطيع أن يحدد التطور الذي سيطرأ على حياة الناس وعقولهم خلال هذه السنوات الخمس، لذلك كان من الواجب أن يأتي الدستور شاملاً ليس فقط لحاجات اليوم بل لما يمكن تصوره من حاجات الغد أيضًا.

واستشهد أخيرًا بمثل من حياته الشخصية، حيث قال: حين أقصد مع زوجتي لشراء ثياب لأطفالنا أعجب لاختيارها أثوابًا واسعة لهم، ولكنها دائمًا تنبهني إلى أن الأطفال ينمون بسرعة، وأن الأثواب يجب أن تتلاءم ليس فقط مع أجسادهم اليوم بل معها بعد شهر، مثلًا، أو يزيد.

ومع الفارق بالضبط، الدستور هو ثوب لشاب ينمو بسرعة، فكونه أوسع من جسده ليس عيبًا بل هو استعداد ضمني لمستقبله.

ومن واقع ما سمعه وشهده أثناء فترة عمله في المجلس التأسيسي نراه يبدي إعجابه بالمرحوم الشيخ عبدالله السالم الصباح الذي كان يتابع أعمال المجلس، ويأمل في نجاحه، ويحرص على أن يسير كما أراده مجلسًا يؤدي إلى إنتاج دستور للبلاد يكفل لها الاستقرار، ويبعد عنها أشباح التفرق والتمزق. وقد قال الدكتور عثمان عن هذا الرجل الذي قاد الكويت في تلك الفترة ما يلي:

للشيخ عبدالله السالم الصباح ثلاثة مواقف مهمة فيما يتعلق بأعمال المجلس التي كانت موضع بحث في تلك الأيام التي تخوض فيها الكويت التجربة الديموقراطية بإرادة منه وهذه المواقف هي:

الموقف الأول: حين نوقشت المادة الخاصة بإعلان الحكم العرفي، وكان النص يترك الأمر حائرًا بين أن يعلنه أمير البلاد ثم يقره مجلس الأمة، أو أن يناقشه المجلس ويقره ثم يصدره الأمير.. وكان رأي صاحب السمو - فورًا - أن يترك الأمر كله لمجلس الأمة.. ولم يقبل أن يوكل إلى الأمير إعلان الحكم العرفي إلا حين أبديتُ أسباب وحجج مقنعة، منها أن المجلس قد يكون في إجازة أو أن يكون أعضاؤه في حالة تمنع اجتماعهم فورًا.

الموقف الثاني: اتخذه عند مناقشة تحديد عدد أعضاء مجلس الأمة.. فلقد كان من رأي صاحب السمو أن ثلاثين عضوًا أو أربعين عضوًا على الأكثر - يكفون لبلد قليل السكان كالكويت.. لكن أصحاب فكرة الخمسين أصروا على رأيهم، وأوردوا حججًا كثيرة في هذا المجال، فقال لهم صاحب السمو:

- أنا غير مقتنع بكلامكم.. ولكني أوافق عليه لمجرد أن هذه هي رغبتكم.

وبالفعل حدد عدد أعضاء المجلس بخمسين.. وعلى الرغم من «معارضة» أمير البلاد الديموقراطي بطبعه!

الموقف الثالث: كان عند مناقشة مخصصات رئيس الدولة.. فلقد طلب صاحب السمو أن يحدد له مبلغ رمزي - لا يذكر - ولا يوازي مرتب موظف درجة سادسة.. وحين قيل لسموه هذا الكلام أجاب:

- لا أريد مالًا من الدولة.. فأنا بغير حاجة إليه والحمد لله.

وبعد مناقشات ومداولات طالت واستطالت، رضي سموه - على مضض - بما حدد من مخصصات لرئاسة الدولة.. نظرًا للموجبات الرسمية وحدها!

وكان للدكتور عثمان خليل عثمان رأيه في دستور الكويت الذي أقره المجلس التأسيسي واعتمده أمير البلاد، فهو يرى أن هذا الدستور الذي أمضى المجلس فترة في مناقشته، وعقد من أجل ذلك جلسات كثيرة من أجل التوصل إلى أفضل الصيغ هو دستور يعتمد الوسطية في أمور قيادة الدولة، ومراعاة الحياة الاجتماعية التي عاشها الشعب الكويتي منذ نشأت بلاده في سنة ١٦١٣م. ويضيف الدكتور: إزاء الاعتبارات المتشابكة التي نشهدها في النظام الرئاسي وفي النظام البرلماني، جاء دستور دولة الكويت عاملًا على تطعيم الأصول البرلمانية ببعض الضوابط الكفيلة بتحقيق أهم مزايا النظام الرئاسي، وهو الاستقرار الوزاري، فقيد المسؤولية الوزارية أمام مجلس الأمة من عدة وجوه أهمها اشتراط أغلبية خاصة لإسقاط الوزير، أو لتقرير عدم التعاون مع رئيس الوزراء، ولكن هذه الأغلبية المطلوبة لا يشارك فيها الوزراء.

وفي مجال الاهتمام بالأسرة، والعناية بكبار السن فإن الدستور قد حرص على رعاية الأسرة باعتبارها الخلية الأولى للمجتمع وكان ذلك في تدرج يبدأ بالطفولة والشباب وينتهي عند الشيخوخة وقد خصص الدستور ثلاث مواد لهذه الأمور.

لا أريد أن أستفيض في الحديث عن الدستور، فقد كان ما قاله الدكتور عثمان خليل عثمان وافيًا، وكان تتبعه للمواد الدستورية مفيدًا لكل من يقرأ ذلك الحديث الذي أدلى به رجل دستوري شارك بصورة ما في وضع ذلك الدستور. غير أن ما أود الإشارة إليه بصفتي مواطنًا مراقبًا لما يدور في الساحة السياسية الكويتية، وما يملؤها من مشاحنات وعدم قدرة البرلمانيين عندنا على الوصول إلى كلمة سواء بينهم حول كثير من الأمور، يجعلني أقول: إنه قد يكون من الأسباب التي تجعل الحديث عن أية تعديلات في الدستور من العبث الذي يضر ولا ينفع، علينا أن نتمسك بهذا الذي بين يدينا ففيه كل ما تريد، وكان أولئك الرجال الذين شاركوا في وضعه مثالًا للوطنية، والأمانة، والحرص على المصلحة العامة، لا يهمهم أن يقال فلان صرخ في المجلس أو فلان لاسن الوزير الفلاني، وإنما كان ينظرون إلى وطنهم فحسب ويبحثون عن مصلحته ثم يتجهون إليها، وأنا - المواطن - لا آمن أن يأتي هؤلاء الذين نشاهد أعمالهم البرلمانية الفجة ونستمع إلى ضجيجهم؛ فيمسحون دستورنا ويسيؤون إليه، وبالتالي يسيؤون إلينا وإلى وطننا الغالي.

في الجلسة المنعقدة في صباح يوم السبت الموافق لليوم الثامن والعشرين من شهر أبريل لسنة ١٩٦٢م للجنة صياغة الدستور في المجلس التأسيسي.

تساءل عضو المجلس السيد سعود العبدالرزاق قائلًا: ما هي وسائل التوفيق بين النظامين الرئاسي والبرلماني؟ فأجاب الدكتور عثمان بقوله: «تحقيقًا للاستقرار المطلوب دون فقدان المظاهر البرلمانية الشعبية؛ ينص على أن رئيس الدولة ذاته مصونة ولا يوجه لشخصه أي سؤال أو نقد، وكذلك يمكن أن نحتفظ بقدر من الاستقرار لرئيس الوزراء إذا لم يتول وزارة بعينها، فيمكن أن توجه إليه الأسئلة من أعضاء البرلمان، ولكن لا يترتب على هذه الأسئلة والرقابة سحب الثقة منه أو إسقاطه، كذلك يمكن القول بعدم إسقاط الوزارة في مجموعها وبكامل هيئتها،

وإنما يكون سحب الثقة من الوزير الذي يرتكب من الخطأ ما يستوجب هذه المسؤولية فيخرج هو من الوزارة دون غيره من الوزراء أي دون الوزارة في جملتها، وبهذا الوضع لا نكون قد أخذنا بالنظام الرئاسي ولا بالنظام البرلماني البحت، وإنما تخيرنا الموقف الوسط بينهما مستوحى من واقع الكويت».

وفي جلسة من جلسات المجلس التأسيسي تساءل أحد الأعضاء عن المادة التي تقول: كل اجتماع يعقده المجلس في غير الزمان والمكان المقررين لاجتماعه يكون باطلًا وكان تساؤله منصبًا على حالة تعذر الاجتماع بهذه الصفة، فماذا يكون العمل؟

وسأل رئيس المجلس الخبير الدستوري الدكتور عثمان خليل عثمان عن هذا الأمر، فأجاب: إن اجتماعات المجلس يجب أن تكون في المكان والزمان المقررين، وذلك حتى لا يجتمع بعض الأعضاء باسم المجلس في غير مكانه وفي غير زمانه، ويصدرون قرارات باسم المجلس، إنما الحالة الاستثنائية التي يشير إليها العضو المحترم تنطبق عليها نظرية الظروف الاستثنائية، يعني إذا وجدت استحالة مادية لاجتماع المجلس في مكانه، ففي هذه الحالة نجد نظرية الظروف الاستثنائية أو نظرية الضرورة بجعل الاجتماع في غير مكانه صحيحًا لهذا الاستثناء وهذا الظرف، إنما القاعدة العامة يجب أن تظل على ما هي عليه، وهي أن اجتماع المجلس في الظروف العادية يظل مشترطًا فيه أن يكون في الزمان والمكان المحددين، وقد أريد بهذا تفادي أن يكون أعضاء المجلس تحت موجة عارمة أو عاطفة أو عابرة واستثنائية، يجتمعون في غير المكان وبغير نظام ويصدرون قرارات قد تكون وليدة العاطفة العابرة، وليست متفقة مع المصلحة العامة والأسلوب النظامي المقرر.

وعندما ناقش المجلس قانون ديوان المحاسبة كان هناك نقاش طويل حول تبعية هذا الديوان، هل يكون ملحقًا بمجلس الوزراء أم بمجلس الأمة. وكان الدكتور

عثمان يقول: أنا شخصيًّا أرى أن يكون الإشراف على ديوان المحاسبة لمجلس الأمة، وعلى الرغم من ذلك فإنني أرى أنه لابد عند الانتهاء من تحديد ذلك أن يذكر من مع الرأي الأول ومن مع الرأي الثاني. فهو بذلك يرى أن تسجيل ذلك أمر سوف يرجع إليه في المستقبل. ولكنه عندما طرح المادة الخاصة بالتبعية التي أشرنا إليها فإنه كان يعرض الأمر بكل تجرد موضحًا للأعضاء بالمقارنة مع ما هو جار في الخارج بين التبعية لمجلس الأمة والتبعية لمجلس الوزراء، فهو يقول في هذا المجال: «هذه المادة كانت موضع الحديث بشأنها في الجلسة السابقة من جلسات الدستور، هي تبعية ديوان المراقبة أو ديوان المحاسبة المالية، هل يكون هذا الديوان تابعًا لرئاسة مجلس الوزراء أو يكون تابعًا لمجلس الأمة؟

والفكرة في تبعيته لمجلس الأمة هي أن الديوان الذي يراقب الحكومة لا يصح أن يكون تابعًا للحكومة لأن هذا يعرقل أداءه لوظيفته، وعلى هذا الأساس كان الاعتراض في الجلسه الأخيرة من جلسات الدستور على أصل المادة، وأعيدت إلى اللجنة لبحث الموضوع، فوجدت اللجنة أن هذا الديوان يجب أن يكون مستقلًا تمام الاستقلال وأن تبعيته بعد ذلك يجب أن تكون مجرد إلحاق رمزي وليس تبعية بالمعنى الصحيح.

فإذا كفل للديوان استقلاله بنص الدستور أصبح إلحاقه بمجلس الوزراء أو مجلس الأمة مسألة أقرب إلى أن تكون رمزية منها إلى أن تكون تبعية بالمعنى الصحيح.

ولذلك رأت اللجنة أن تؤكد استقلال الديوان عن كل من الجهتين بإضافة هذه العبارة: «ينشأ بقانون ديوان للمراقبة المالية، يضاف إليها: «يكفل القانون استقلاله».

كما علمنا ممّا سبق من الحديث أن الدكتور عثمان خليل عثمان كان رجلًا أكاديميًّا معروفًا يشهد له الجميع بالتفوق في عمله الجامعي، وعندما جاء إلى الكويت بصفته خبيرًا دستوريًّا، فإن سمعته العلمية كانت تسبقه، ومشاركته في لجان وضع الدستور المصري كانت طريقنا إليه فقد عرف بتمكنه وحنكته ودرايته.

وبحكم عمله الأكاديمي فقد كان له إنتاج علمي غزير لا نريد أن ننهي هذا المقال قبل أن نقوم بعرضه فيه، ولن نعرض إلى ما كان يلقيه من محاضرات أو يشارك فيه من ندوات ولكننا سوف نركز حديثنا على ما أنتجه من الكتب خلال حياته الجامعية.

له كتاب كبير مكون من ثلاثة مجلدات تحت عنوان: القانون الدستوري، كان المجلد الأول منها في المبادئ الدستورية العامة وقد صدر في سنة ١٩٥٦م، والثاني في النظام الدستوري المصري، وصدر في السنة ذاتها، وفي هذه السنة - أيضًا - صدر المجلد الثالث وهو عن النظام الدستوري المصري كذلك.

وله – أيضًا – كتاب: مجلس الدولة ورقابة القضاء لأعمال الإدارة، وصدر في سنة ١٩٦٢م، وكتاب: التنظيم الإداري في الدول العربية الصادر في سنة ١٩٥٧م. وكتاب: المبادئ الدستورية العامة الصادر في سنة ١٩٤٣م، وكتاب القانون الإداري وهو في مجلدين وقد صدر في سنة ١٩٥٠م. وكتاب مجلس الدولة: دراسة مقارنة، وقد صدر في سنة ١٩٥٦م.

وله كثير من المذكرات والأبحاث التي لم تطبع في كتاب يجمعها، وقد تكون له كتب أخرى لم يصل خبرها إليّ ولكن فيما ذكرت من مؤلفاته دليل باهر على جهوده العلمية وتمكنه في مادته التي عرف بها.

كان وجود الدكتور عثمان خليل عثمان بيننا في الكويت مفيدًا من الناحية العملية، ومن ناحية الاتصالات الإنسانية وكان ينال محبة الجميع واحترامهم.

رحمه الله.

****

ملحاق خير

من جميل الصدف أن يطلّ علينا وجه كريم يذكِّرنا بالدكتور عثمان خليل عثمان، وهذا هو وجه حفيدته هدى عثمان التي جاءت إلى الكويت قبل عدة أيام لتلقي محاضرة على طلاب وطالبات الجامعة عن الصحافة الإلكترونية، لقد قدمت إلى الكويت من الولايات المتحدة الأمريكية لكي تشهد مكانة جدها في نفوس الكويتيين وتلمس محبتهم له. وقد كان وجودها فرصة لكي تعرف شيئًا من جهود الجد الكريم الذي تحدثنا عنه في مقالنا المرافق لهذا الملحاق، وقد أحسن سعادة الأخ الفاضل جاسم محمد الخرافي حين استقبل هذه الزائرة الغالية، وقدم لها ما يُوقظ الذكريات في نفسها، وفي نفوس أسرتها كلها وليس هناك أفضل من محاضر المجلس التأسيسي وصورة الخبير الدستوري من هدية تُقدم في مثل هذه المناسبة. لقد أثبت الدكتور عثمان خليل عثمان أنه قد غرس في نفوس أسرته وأولهم أحفاده محبته للكويت وتقديره لها، ونحن هنا لانزال إلى يومنا هذا نحتفظ له بكل المحبة والتقدير.

****

من الذكريات عند شعراء النبط الكويتيين (1)

اعتاد الشعراء العرب القدماء أن يقدموا لقصائدهم بمقدمات يسوقونها قبل أن يدخلوا إلى الموضوع المقصود، فتكون فيها إثارة للمستمع وتمهيد جيد يلفت النظر. وهذا التمهيد يختلف من قصيدة إلى أخرى إذ نجد أن بعض القصائد تبدأ بوصف أطلال المساكن التي كان الشاعر يعيش فيها ومن ذلك يدخل إلى تذكر أيامه الخالية. وبعض هؤلاء الشعراء لهم مقطوعات في أبيات معدودة يخصصونها للحديث عن الوطن والحنين إليه والإشارة إلى ذكرياتهم فيه.

هذا أحد شعراء الدولة العباسية، وهو يحيى بن طالب الحنفي يتشوّقُ إلى منازل قومه فيقول لأصحابه راجيًا إياهم أن يمروا بدياره فإذا وصلوا إليها فليرفعوا طرفهم للنظر في جوانبها، وموضعه الذي يشير إليه اسمه: قرقرى:

ثم ارفعا الطرف ننظر صبح خامسة
بقرقرى، يا عناءَ النفس بالوطنِ

أما الآخر فيحن إلى بلاده: نجد، قائلًا:

حيِّ نجدًا ومن بأكناف نجدٍ
والخيام التي بها طالَ عهدي

(1) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٨/١٢/٢٠١٠م.

ليت شعري! هل الخيام كما كُنْـ
ـنَ على العهدِ أم تغيّرن بعدي

أما هلال بن الأسعر فيخاطب ناقته، ويتشوق إلى بلاده معتذرًا عن غيابه عنها قائلًا:

سقى الله يا ناق البلاد التي بها
هواك - وإن عنّا نأت بَلَلُ القطرِ
فما عن قِلىً منا لها خَفَّت النوى
بنا عن مراعيها وكثبانها العُفرِ

وسوف نجد في الشعر العربي الكثير من هذا النوع الذي يتضمن التشوق إلى البلدان، بل لقد زاد علماؤنا ذلك بتأليف كتب تتناول ما ورد في الحنين إلى الأوطان من أشعار.

يختلف ما نرمي إليه في هذ المقال اختلافًا قليلًا، إذ بينما كان الشعراء العرب القدماء يتحدثون في أشعارهم عن الأطلال، ويتشوقون إلى منازلهم ومنازل أحبتهم في مطالع قصائدهم على الأغلب، نجد شعراء الكويت النبطيين يقولون قصائد كاملة يحنون فيها إلى الديار التي عاشوا فيها، وإلى أصحابهم الذين شاركوهم الحياة التي مرت بهم. وهؤلاء الذين اخترنا لهم بعض قصائدهم لكي نقدمها هنا بصفتها دليلًا على ما نقول كانوا قد عاشوا الفترة الماضية في أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي، وكانت منازلهم في العاصمة قبل أن يطرأ عليها التغيير الكبير المشهود، فهم ولدوا هناك وشبوا بين أهلهم وأصدقائهم، وارتبطوا ذلك الارتباط الأخوي والأسرى المتين الذي قلما نجد مثله في أيامنا هذه، ولذلك فإنهم يرون أن مغادرتهم لمواطن عيشهم الأولى بل وتهديم تلك المنازل التي آوتهم زمنًا خسارة كبرى ولا تعوض. وهم يرون أن المساكن الجديدة التي انتقلوا إليها مهما كان

مستواها من حيث الجودة والاتقان والجمال فهي لا تساوي شيئًا بالنسبة للمساكن الأولى التي شهدت طفولتهم، ثم ها هم أولاء يرون عاصفة الدهر وقد عصفت بها كما عصفت بهم، وفرقتهم بعد أن كانوا مجتمعين.

اثنان من شعراء الكويت النبطيين هما اللذان بدا في أشعارهما التأثر الشديد بفقد المنازل، ومفارقة الأصحاب، ولذا فقد جاءت قصائدهما دالة على شدة التأثر بما حدث، ومعبرة عن مشاعر جياشة كلها حب للوطن والأحباب والأصحاب في الكويت القديمة.

أول هؤلاء عبداللطيف عبدالرزاق الديين ، وقد تحدثت عن هذا الشاعر كثيرًا بما لا يستدعي أن أضيف إلى ما سبق، إلا أنني أستطيع أن أوجز كثيرًا في ذكر سيرته الذاتية من حيث نشأته، والمواقع التي كان يتحدث عنها في شعره.

ولد أبو خالد في الحي الشرقي من العاصمة في شهر يونيو لسنة ١٩٢١م، ثم انتقل مع والده ووالدته إلى حي القبلة، وكان هذا الحي واسعًا بحيث تجد فيه أو بجواره عدة أحياء صغيرة منها حي الزنطة القريب من فريج الشاوي، ولذا فقد كانت نشأته في فريجين متجاورين وكان له أصحاب كثيرون يلتقون يوميًّا في أنحاء من فريج الشاوي إذا لم يكونوا في رحلة من رحلات السفر أو الغوص. ولذا فقد ارتبط عبداللطيف الديين بهذا الفريج وبمن فيه من أصحاب عاش معهم صباه وشبابه، وتعلق قلبه بكل ما في هذا الفريج بحيث وجدنا خروجه منه صعبًا على نفسه.

وللعلم، فإننا نشرنا مقالًا كاملًا عن فريج الشاوي ضمن مقالات «الأزمنة والأمكنة» تحت عنوان: «قيام وسقوط فريج الشاوي» وفيه تفصيل كامل عن هذا الفريج.

بدأ صاحبنا يقول الشعر مبكرًا، وتدرج في ذلك حتى أجاد وأبدع ولذا فقد كان تعبيره الشعري عن فقده للمنازل التي عاش فيها تعبيرًا صادقًا من جهة، وبديعا مؤثرًا من جهة أخرى، وكل من يقرأ هذه القصائد اليوم يجد فيها الإحساس العميق بصلته بالناس والمكان.

يقول أبو خالد الشعر بطريقتين هما: طريقة الشعر الفصيح وله فيه ديوان مطبوع، وطريقة الشعر النبطي وله فيه - أيضًا - ديوان مطبوع صدر في سنة ١٩٩٤م. ويضم هذا الديوان كامل قصائده التي أنشدها على هذا المنوال، وهي قصائد منوعة ، فيها الشعر السياسي، والغزلي، والاجتماعي، وفيها ما أردنا الإشارة إليه هنا وهو شعر الحنين إلى المنازل الأولى التي عاش فيها الشاعر وأحبها كما أحب أهلها الذين شاركهم الحياة على أرضها.

نذكر هنا قصيدة له عنوانها : «صرت أندب الأطلال» وهذا العنوان له دلالته على ما حوته القصيدة من ذكر لمنازل الشاعر القديمة، وما كان له فيها من أوطار وأصحاب، وما شاهد في جوانب تلك المنازل من مشاهدات، ومر به من تجارب لا تغيب عن باله. ومطلع القصيدة قوله:

البارحة ابجنح الدجى طيّر النوم
عن ناظري هاجوس قلبي يزومه

(يزومه: يدفعه قلبي).

وقد علق في الديوان على هذه القصيدة قائلًا:

«اعتاد الشاعر أن يجلس في كل يوم مع مجموعة من أصدقائه في حيِّهم القديم ، بالقرب من مسجد الساير الشرقي المقابل لمبنى «قصر العدل» الآن، وفي سنة ١٩٧٢م مر على ذلك الحي، فوجده مهدمًا، قد سكنه الأغراب من العزاب،

فقال هذه القصيدة. ولقد بادر شاعران من أبناء الكويت بالنظم على غرارها، وهما محمد النصرالله، وصالح النصر الله، رحمهما الله».

ولقد استمر الشاعر في قصيدته بعد البيت الأول (المطلع) ذاكرًا أنه أحيا ليله ساهر الطرف لا يغمض له جفن، تحتشد الهموم حوله وتملأ قلبه، إلى أن بان له الفجر، وتغورت النجوم. لقد وصف نفسه في تلك الحال أنه كان يغرق في لجة من الهموم، كأنه الغريق الذي اكتنفه الموج وقد اختفى عنه بومه (سفينته).

ثم يضيف: أنه يكرر الآهات، وهو غير ملوم على ذلك بل إن من يلومه جاهل لا يدرك المعاناة التي تملأ عليه جوانب حياته. لقد جار عليه الزمان، وصار قلبه مكلومًا، ومهما بذل من جهد في التسلّي فإن همومه سرعان ما تعود إليه.

ثم يذكر السبب في كل ذلك قائلًا:

ينعي الزمان اللي به الشمل ملموم
والكل ماسك بالنواجذ اسلُومه
من كل شغموم عن اللوم معصوم
من جاه مغموم تبدد اغمومه
وان جاه شاكي الحال ما داخله زوم
يلقاه بالترحاب ويقضي لزومه

هذه هي صفات أصحابه الذين لم يجدهم في أماكنهم التي اعتاد أن يلقاهم فيها.

(سُلومه: عاداته، شغموم: شهم، زوم: كبر).

ثم يقول الشاعر إن هؤلاء الناس الكرماء الذين يعينون المحتاج ويدفعون كربة المكروب، قد رحلوا، وقد:

أضحت مساكنهم بها يصفر البوم
واستخشنت من عقب ذيك النعومة

ثم يتجه إلى ملاعب صباه، ويتحدث عن مشاهدته التي أطلعته على واقع الحال بالنسبة لما حدث في الفريج:

يا ملعب ما داج فيه قط مذموم
ولا دنست مغناه دبكه وسومَة
مرّيت من بعد العصر قبل كم يوم
ويلاه من بلواه تدمي كْلومه
امبعثَر الحيطان والسقف مهدوم
يبكي زمان فات وْيندت اقرومة
قمت اتذكر مقعدي عند سلوم
بين النشامى مثل عنبر وْقومه

ثم يحكي عن بكائه بدمع غزير للمفاجأة التي فاجأته بمنظر الفريج أخيرًا وما آلت إليه حال الأبنية والأماكن التي كان الشاعر يمرح بها مع الأصدقاء والخلان. ولم يكن أمامه من سبيل إلا أن يطيل البكاء والندب، فهو يرى أن الدهر قد مكن سهامَهُ في قلبه، وترك له الحسرة والأسى. ثم يضيف: حتى الحمام الذي كان يرفرف بأجنحته فوق تلك المباني التي كانت عامرة فإنه غاب وحلّ (البوم) في محله. بل وحتى الناس الذين يعرفهم الشاعر قد تبدلوا وحل محلهم أناس آخرون غرباء لا يعرفهم ولا يعرفونه، ولا يتمتعون بما كان أولئك السكان الأوائل يتمتعون به من فضائل.

ولقد كانت معاني الأبيات التي قدمتها واضحة، وألفاظها جليّة، وليس فيها عدا لفظ: داج؛ بمعنى جال، ولفظ: اقرومه؛ وهو جمع قرم وتعني الرئيس المقدم على غيره. وهي كلمة عربية فصيحة.

وذكر اسمين أحدهما عنبر، ولا أعرف عنه شيئًا، وأما الثاني فهو سلوم. وهذا التصغير إنما قصد الشاعر به تدليل صاحبه، وهو سالم سعود المشعوف الشهير بسالم الرقدان. وكان صديقًا للشاعر، وهو من أقرب الناس إليه يجلسان كل يوم فيتحدثان مدة طويلة، ولقد كتب الله أن توفي سالم فرثاه عبداللطيف الديين بقصيدتين وجاء في إحداهما:

يا مجلس ضميتنا جمع وأفراد

مدهالنا، وفي كل يوم نعوده

عقب (السَلَم) ما لذ لي فيك مقعاد

لو كنت مثل الروض تزهي وروده

لقد استعرضنا في هذا المقال قصيدة جميلة معبرة قالها شاعر صادق، فقد المواطن التي عاش فيها، وكان يلقي بها أصدقاءه الذين نشأ معهم، ولقد كان الإحساس الذي أدى إلى إبداعه لقصيدته هذه إحساسًا عاليًا بالناس وبالمكان إضافة إلى الأسف الشديد الذي أحس به أبو خالد وهو يرى أولئك الذين حلوا أخيرًا في تلك المساكن فلا يجد فيهم من هو متصف بالصفات الكريمة التي اتصف بها الأولون.

وفي قصيدة له ثانية عنوانها «نذر الليالي» تحدث كثيرًا عن الأطلال، وعن الأيام الماضية، ووصف ما كانت عليه من جمال وما كان فيها من نعيم إلى أن قال:

فلله ما أحلى سنين لنا مضت

ومحلا لياليها ومحلا شهورها

هل الدهر يا صحبي معيد الذي مضى

وإلا فهل رجعه لماضي عصورها

قلت آه يا دار تنكّر زمانها

وشتّ الشمل منها وغيب ابدورها

هل لليالي نذر تودي بشملنا

وملزوم توفي لنا في نذورها

إلى أن يقول:

سلام على وقت مضى فيك قد زها

وليلات وصل عاجلت في مرورها

وقارئ القصيدة كاملة يجدها ملأى بالحنين إلى الماضي بكل ما فيه من مكان وزمان وناس. ولكن ما يلفت النظر أن هذا الذي يقوله الشاعر في قصيدته قد قاله في وقت مبكر جدا فهي من القصائد التي أنشدها في سنة ١٩٤٦م. كأن هذا الشاعر قد خلق لكي يعبر عن الفراق وتغيُّر الأحوال حتى وهو في سن مبكرة جدًا، حتى إذا جاءه التحول الذي طرأ على معاهد الصبا في سنة ١٩٧٢م وجد عنده مخزونًا من الشعور بفقد ما كاد يوده ويتمنى له عدم الزوال.

ذلك هو الشاعر عبداللطيف عبدالرزاق الديين، أما الشاعر الثاني الذي وعدنا بالحديث عنه وعن حنينه إلى وطنه فهو الشاعر منصور الخرقاوي، وهو صديق لشاعرنا الآخر وله معه مراسلات شعرية منها ما هو مذكور في ديوان الديين ولا وجود له في ديوان الخرقاوي، ولا أعرف السبب في ذلك إلا أن يكون ذلك الأمر قد تم سهوًا.

وما أقصده هنا هو أن عبداللطيف الديين قد أدرج في ديوانه قصيدة مطلعها:

أهلا عدد ما نسنسّ النسايم

وأعداد ما مزن كسا الجو هطّال

ويلاحظ قارؤها أن الخرقاوي كان يعاتب صاحبه الذي كان قد توقف عن قرض الشعر في تلك الفترة، فهو يحاول أن يبرر هذا التوقف قائلًا إن سر ذلك

يعود إلى تغير الأحوال وتقدمه في السن، ولكنه مع ذلك يكتب لصاحبه هذه القصيدة حتى ينفي عن نفسه الاتهام بالتقصير. وفي هامش قصيدته هذه كتب ما يلي: «بعث إليّ الشاعر منصور الخرقاوي في ١٩٨٥/١٢/٢٢م قصيدة مطلعها:

يـا الـلـه يـا مـجري هـبـوب الـنـسـايم

يـا مِمّـن خـوف الـذي شـاف الأهـوال

ولقد قرأت ديوان الخرقاوي مرارًا ولم أجد قصيدته التي يشير إليها الديين ضمن قصائد الديوان. وهذا قد يوحي لنا بوجود قصائد أخرى للخرقاوي ولكنها لم تنشر، ويجب البحث عنها.

ولا أظن بأي حال أن إهمال قصيدة الخرقاوي وردّ الديين عليها كان عن عمد.

منصور الخرقاوي من شعراء الكويت المعروفين، شعره كله على منوال الشعر النبطي، وله كثير من الأصدقاء الشعراء يجلس معهم ويستمع إلى أشعارهم وينشدهم ما لديه من جديد.

كنت أشاهده – دومًا – مع اثنين من زملائه وقد جلسوا على حصير واستندوا إلى حائط المقبرة القديمة (حديقة البلدية الآن) يتحدثون بينهم ويتبادلون القصائد، وقد اشتهر مجلسهم هذا، واشتهر معه منصور الخرقاوي في الفريج. ولكن اسمه بدأ يلمع كثيرًا، وصرنا نسمع عنه قصائد جميلة بعضها كان يغنى، وكنا نقول لأنفسنا هذا هو الشاعر الذي كنا نراه في الفريج.

توفي والد منصور قبل أن يولد فسمى باسم والده، فهو: منصور منصور الخرقاوي، وكان مولده في سنة ١٩٢٥م، وعاش تحت كفالة جده لأمه عبدالرحمن سليمان الرياح، وعندما توفي الجد كفله خاله أحمد الرياح، وكان دور والدته في

نشأته مهما فهي أدخلته وهو صغير المدرسة المباركية، كما أنه قد وجد في كنف جدته المطوعة (موزة) عناية من نوع آخر، إذ كانت توجهه إلى القراءة وتطلب منه أن يقرأ عليها بعض الكتب وبخاصة التراثية والدينية والقصص الشعبي المشهور في تلك الأيام، ومن هنا اتسع في القراءة وقرأ دواوين الشعر وكتب الأدب وتملكته الرغبة في قول الشعر. واتجه إلى إنشاد الشعر النبطي بعد أن قرأ كثيرًا من دواوين شعرائه المعروفين وبعد أن سمع من الرواة عددًا كبيرًا من القصائد، ولذا فإنه سرعان ما برز وبخاصة في شعر الأغاني الشعبية التي شجعه على كتابتها ما وجده من دائرة الشؤون الاجتماعية والعمل من اهتمام بالفنون الشعبية كافة.

وليست الأغاني هي المجال الوحيد الذي كان الخرقاوي يبدع فيه فله قصائد في أغراض شتى منها السياسي ومنها الاجتماعي، ومنها شعر المحاورة مع الشعراء، وكذلك شعر الشكوى والحنين والمديح.

تملك صاحبنا حب الوطن، ولا غرو في ذلك فقد عاش حياته بين الفرجان يجالس مواطنيه، ويستمع إلى أحاديثهم ويسُرّه أن يجد من يحب الشعر مثله فتراه يصدح به في كل مكان، ولذا فإننا لا نعجب حين نراه يكثر من الحنين إلى تلك الأماكن التي عاش فيها، وتردد عليها في صباه وفي شبابه، وبخاصة بعد أن انتقل سكنه إلى مكان آخر وتغيرت الأحوال بالنسبة للأماكن القديمة التي عرفها وعرف أهلها وأسعدته حياته معهم.

وقف في أحد تلك الأحياء في سنة ١٩٥٣م وشاهد بعينه ما يحدث للمباني القديمة فقد كان عمال بلدية الكويت يقومون بهدمها وإزالتها من الوجود بعد أن جرى تثمينها، وانتقل أهلها إلى أماكن أخرى، ولكن الشاعر له رأي آخر فهذه الأماكن إنما هي علامات في تاريخه، ولها موقع في نفسه بحيث لا يستطيع نسيانها، فها هو يصرخ:

يا دار وين اللي على الحي باقين

قصف الشوارع كالمنايا بالاعمار

ثم يقول:

في مفرق الشارع وبين الفريجين

وقفت مبهوت وقفّيت محتار

يا عونة الله وين ذيك الدواوين

وين النشامى معدن الجود والكار

ولقد كان يعيد في أكثر قصائده ذكر المغاني القديمة التي عاش فيها، وذكر الناس الطيبين الذين عاشرهم، وقلما تجد في قصائده مرورًا على ذكر الماضي دون إشارة إلى المكان وسكانه.

وبعد؛ فإننا لو أردنا أن نبحث في هذا الجانب من جوانب الشعر النبطي ونتتبع الشعراء فيما ما قالوه من حنين إلى الوطن، وذكر لمساكنهم القديمة فيه، فإننا سوف نجد الكثير، ولكننا هنا نكتفي بهذين النموذجين: عبداللطيف الدين ومنصور الخرقاوي.

****

ملحاق خير

كان الشاعر النبطي الكويتي مُعبرًا عن بيئته أينما كان موقعه في البلاد، وكان يؤكد شوقه إلى منازله وحنينه إليها كلما هاج به الشوق إلى تلك المنازل التي عاش فيها، ولقي فيها صحبه وأحبابه.

وشاعرنا صقر بن مسلم النصافي شاعر مبدع سبق لنا أن تحدثنا عنه وعن حياته وإبداعه، وهو من الشعراء الذين قالوا شعرًا في التشوق إلى أماكن سكناهم القديمة. ولئن كان الشاعران اللذان تحدثنا عنهما في مقالنا المصاحب لهذا الملحاق قد كان شعرهما متعلقًا بأماكن سكنهما في العاصمة فإن النصافي شاعر يحب البادية ويهفو إليها، ويتمنى أن تدوم معيشته فيها لولا أن الأمور تتغير من حال إلى حال مما يجعل تحقيق آماله صعبًا عليه، ولا يجري وفق إرادته هو. وله في ذكر الأماكن التي عاش فيها أبيات جميلة شرح خلالها لولده البكر مهلّي كل ما كان في باله عن تلك الأيام التي كانت فيها تلك الأماكن التي يعنيها عامرة بأهلها الذين كان الشاعر يجاورهم:

هذا مكان أربوعنا يا مهلّي

اليوم تذري بَهْ هُبوبِ الشمال

ماكِنَّهم ذيكِ الليالي اقْصَرا لي

ولاكِن منزلهم نزَلْ فيه غالي

ضِحْكي على جهالهم في محلي
يـزِيـل عن قلبي هموم الليالي
شَدّوا وشَدّتهم يَبُون التِّعلِّي
يبون شرب الما ورَغي السهال
الله يرزقهم نبوسهم يهلِّ
اللي يِبِلّ ادبيشهم بالمفالي
أنا قعدت ابمقعدٍ جايزٍ لي
وانا احْمِد الله ما قِصَرْني حَلالي
أبيع واشري في صفاتي وادلِّي
مِزْهِنْ على نفسي وعيشة اعيالي

وتُبين هذه الأبيات القناعة التي يتصف بها الشاعر، فإنه على الرغم من محبته لأصحابه الذين غادروا أماكنهم فإنه لم يلحق بهم، لقد تركوا تلك الأماكن للرياح التي تهب عليها فتثير الغبار على آثارهم، فلم يبق من آثارهم شيء حتى لكأنهم لم يكونوا في يوم من الأيام جيرانًا له، ولا كأن هذا المكان قد نزل به غال مثلهم، لقد كان ضحك الشاعر في ذلك الوقت الذي كانوا فيه جيرانًا له يزيل عن قلبه هموم الليالي، ثم إنهم رحلوا وفي رحيلهم هذا يريدون الأماكن العالية حيث يوجد في السهول القريبة منها الماء والمرعى، لعل الله يمدهم بأمطار وَسْميّة تهل عليهم فتبل أغنامهم وهي في مراعيها – يقول الشاعر: أما أنا فقد بقيت قاعدًا في مكاني الذي رضيت به، وأحمد الله أنه لم ينقص مما أملك أي شيء، هأنذا أبيع وأشتري وأشتغل أحيانًا بالدلالة في الصفاة، وأبذل دون بخل على نفسي، وعلى عيش عيالي مما أكسب.

أما معاني الكلمات فهي كما يلي:

أربوعنا: ربعنا أي جماعتنا وأصدقاؤنا.

تذري: تثير الغبار والأتربة، وفي اللهجة الذاري: هو الرمل الناعم المتناثر بسبب الرياح، وفي الفصحى يقول صاحب كتاب المصباح المنير: «ذرَت الريح الشيء، نسفته، وفرّقته».

ما أحلى هذه الأبيات وما أشد دلالتها على نفسية الشاعر الصافية، وروحه المتعلقة بالمواطن التي عاش فيها والناس الذين جاورهم.

****

الشيخ أحمد حسن الباقوري في الكويت (١) [١]

في النصف الثاني من سنة ١٩٥٢م كانت ثورة يوليه المصرية قد انبثقت، واتجهت إليها الأنظار من شتى أنحاء الوطن العربي، وكانت تهتم – في البداية – بالإعلام عن نفسها بذكر مبادئها، ونظرتها إلى مستقبل مصر، وبخاصة فيما يتعلق بتحريرها من الاحتلال البريطاني الذي كان قد أمضى هناك ما يقرب من السبعين سنة دون أن يتزحزح من مكانه، وقد حققت هذه الثورة ما تريد في وقت قياسي بفضل الحماس الذي كان يعمر قلوب القائمين عليها، وبفضل حسن تلقي الشعب المصري لهذا التغيير المهم، فقد فتح لهم آمالا واسعة، ووضعهم أمام مسؤوليات جديدة تتطلب منهم السير على منهاج الثورة الذي كان معلنًا آنذاك: الاتحاد والنظام والعمل.

كنا هنا في الكويت نتتبع أخبار هذه الثورة، وكان أهلنا يتتبعون أخبار مصر بشكل عام، وعندما جاء هذا الحدث الكبير، وكان محاطًا بهالة إعلامية كبيرة وبخاصة النشاط الصحافي الذي صاحب الثورة منذ قيامها الأول كان ذلك مدعاة إلى مزيد من التطلع والتتبع.

لاحظنا – وقتذاك – أنه كان يقف من بين رجال الثورة الذين صرنا نعرفهم بأسمائهم وأبدانهم شخص يرتدي الزي الأزهري، فهو يلبس الجبة ويضع على رأسه العمامة كغيره من رجال الأزهر وكان فعلًا من هؤلاء الرجال الذي خرجتهم هذه الجامعة الإسلامية الشريفة.

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ١٥/١٢/٢٠١٠م.

هذا الرجل هو الشيخ أحمد حسن الباقوري، وقد سارعت الثورة إلى الاستفادة منه، وأسندت إليه حقيبة وزارة الأوقاف هناك، واندفع بعد ذلك يشرح للناس أهداف الثورة ومراميها وكنا نراه في الصحف التي تردنا من هناك وهو يخطب مرة من شرفة عالية أمام جماهير غفيرة، ومرة من نافذة قطار مار بإحدى القرى، والحق أنه كان خطيبًا مفوهًا، وكانت كلماته تتدفق على لسانه تدفق السيل الجارف وسرعان ما صار محبوبًا بين الناس لأنهم وجدوا فيه صورة رجل الدين المتنور، الذي يحدثهم بما يفهمون.

وعندما ذهبت إلى الدراسة في القاهرة أواخر سنة ١٩٥٧م كان لايزال وزيرًا للأوقاف، وكنت أتمنى أن أراه لكثرة من قرأت له وعنه، ولحسن الحظ أنني التقيت به في أسرع وقت كنت أتصوره، فقد كان صديقًا لشيخي الأستاذ محمود محمد شاكر، يزوره بانتظام ويجالسه ويتحدث معه، وفي المجلس الذي شهدته وتحدثت عنه فيما سبق كانت لي فرصة لقاء الشيخ الباقوري عن قرب، ومحادثته، وقد سعدت بهذا اللقاء والحديث، واهتم بي وبإخواني الذين كانوا معي من أبناء الكويت وهم المستشار عبدالله العلي العيسى والأستاذ صالح العثمان والأستاذ جمعة ياسين فقط، وأهدى لنا عددًا من الكتب القيمة التي كان من الصعوبة بمكان أن نحصل عليها آنذاك، وهي كتب من المراجع التي أعود إليها باستمرار ومنها كتاب لسان العرب لابن منظور، والطبقات الكبرى لابن سعد، ومعجم البلدان لياقوت الحموي. ولقد صارت هذه المجموعة الطيبة من الكتب التراثية تذكارًا دائمًا عندي يذكرني بالشيخ أحمد حسن الباقوري، وبمآثره الجمة.

مرت الأيام حثيثة، وتغيرت أمور كثيرة منها ما حدث للشيخ من فقد للمنصب والتضييق عليه حتى صار لا يبرح منزله بناء على أوامرهم. ولقد زرته وهو في حاله هذه فوجدته مثالًا للمؤمن الصابر الذي يتحمل ما كتبه الله عليه، ولقد عرف

الكثيرون فيما بعد مدى الظلم الذي حاق به، ولكن بعد فترة طويلة، وبعد أن بدأ المرض يدخل إلى جسده، لقد تمت محاولات لرد الاعتبار له عن طريق إسناد مناصب معينة ذات مستوى عالٍ، وعن طريق الجوائز والأوسمة ولكن ما في نفسه بقي كما هو، ينبغي أن أضيف أنني عندما زرت الشيخ في بيته هذه الزيارة التي أشرت إليها كان معي أخي الدكتور عبدالله يوسف الغنيم وهو يعرف الشيخ كذلك. وقد تكرم مضيفنا فأهداني كتابًا راقيًا يتناول مساجد القاهرة وهو كتاب يقدم صورها وتاريخها في عمل ضخم في مجلدين طبع في وقت وجود الشيخ الباقوري في وزارة الأوقاف ولولاه لم يتحقق هذا العمل البديع، ولم نطلع على هذا السفر الرائع من جميع الوجوه.

ولقد كان آخر يوم لقيته فيه هو اليوم الذي ذهبت فيه إلى القاهرة للمشاركة في احتفال جامعتها باليوبيل الذهبي لها، وكان من حسن حظي وجوده في الحفل، ولقد انتظرته في خارج القاعة من أجل السلام عليه، وكنت في هذه اللحظة أسأل نفسي إن كان سوف يعرفني بعد مضي سنين طوال على آخر لقاء بيننا، ولكنني فوجئت به يفتح ذراعيه ويحتضنني، وعندما سألته: هل عرفتني؟ أجاب: وكيف أنساك؟ كنت سعيدًا بلقائه، وأحسست أنه كان سعيدًا كذلك، ولكن الشلل الذي أصاب جزءًا من جسمه كان ينغص عليه حياته ولذا فهو يسعى إلى حضور مثل هذه المناسبة لكي يرى أصحابه، ويرفه عن نفسه. ولقد غادرت المكان وأنا في غاية الأسف لما حدث له، وكم تمنيت أن ألقاه مرة أخرى، ولكن الأمور كانت تجري على خلاف ما كنت أتمنى إذ لم يلبث بعد هذا اللقاء إلا قليلًا حتى توفي وكأن لقاءنا كان لقاءً للوداع.

الشيخ أحمد حسن الباقوري هو ابن الشيخ أحمد عبدالقادر بدوي، ولد في اليوم السادس والعشرين من شهر مايو لسنة ١٩٠٧م، في قرية مصرية صعيدية

هي قرية باقور تقع ضمن مركز (أبوتيج) في أسيوط. وقد التحق بكتّاب القرية حين بلغ مبلغًا من العمر يُمكِّنُهُ من ذلك، وفي هذا الكُتّاب أتم حفظ القرآن الكريم، ثم التحق بمعهد أسيوط الديني في سنة ١٩٢٢م وحصل منه على الشهادة الثانوية في سنة ١٩٢٨م، ثم التحق بالقسم العالي، وحصل منه على شهادة العالمية النظامية في سنة ١٩٣٢م، ولحق ذلك حصوله على شهادة التخصص التي لابد منها لمثله، وكانت في البلاغة والأدب، نالها في سنة ١٩٣٦م.

وعند تخرجه بعد هذه المسيرة الدراسية الطاهرة، تم تعيينه في سلك التدريس مدرسًا للغة العربية وعلوم البلاغة في معهد القاهرة الديني الأزهري، ثم صار وكيلًا لهذا المعهد في سنة ١٩٤٧م، ونقل في سنة ١٩٥٠م إلى الصعيد مرة أخرى فعيّن شيخًا للمعهد الديني في المنيا.

واستمر الشيخ أحمد حسن الباقوري في حياته، محتفظًا بمكانته بين الناس، ومتحليًا باعتزازه بنفسه وكرامته، فمثّل أمام الجميع الصورة الكريمة الطيبة لرجل الدين الحريص على دينه، المتمسك بالمثل العليا.

يقول في ذلك أحد الكتاب: «وكان الباقوري قد قدّم أوراق اعتماده للتاريخ بصفته واحدًا من عموم المصريين، يعيش حياتهم، ويتعرّض لما يتعرضون له في هذه الحياة، ولم ير في نفسه وصيًّا دينيًّا على ضمير المسلمين على الرغم من مكانته العلمية الرفيعة، بل ومكانته السياسية، وكونه أحد علماء الأزهر البارزين، بل هناك ما هو أبعد من هذا، فإنه لم يفرض وصاية على أبنائه.. وكل ما فعله أنه خلق مناخًا وبيئة دينية لبناته الثلاث في البيت».

وكتب هذا الأستاذ ماهر حسن في ٢٥/٥/٢٠٠٧م.

أما الشهادة الثانية فكتبها كاتب كبير هو الأستاذ محمود عوض ونشرها في اليوم السادس من شهر يناير لسنة ١٩٦٨م في جريدة أخبار اليوم الشهيرة، ثم قام

بضم شهادته هذه إلى كتابه «شخصيات» وقد جاء في تلخيص الصورة القلمية التي كتبها الكاتب المذكور ما يلي:

«وفي هذه اللوحة القلمية تحدث الباقوري وتحدثت بناته، أما الباقوري فقال: إن المشاعر الدينية تنفذ إلى نفوس الناس من خلال العقبات الكثيرة التي أنتجتها الحضارة المعاصرة والإنسان في لحظات ضعفه يزداد تمسكًا بالدين، لأنه في هذه الحالة يبحث عن القوة الأعلى منه» ثم جاء ما يلي:

«أما الصورة الغيبية والمفترضة التي يرسمها الناس لبيت رجل الدين من الداخل فقد فارقها الباقوري»، وفي هذه الصورة القلمية عن بيت الباقوري من الداخل تحدثت ابنته ليلى وكانت - آنذاك - في السادسة والعشرين من عمرها، وقد ذكرت أسلوب حياتها مع شقيقتيها: عزة ويمنى، وهن في كنف والدهن، وبينت رعايته لهن، ومعاملته الطيبة في جميع الظروف لكل واحدة منهن، ولم يكن ذلك الأب المتسلط الشديد ولكنه كان يناقشهن في كل أمر يعرض في محيط الأسرة.

ننتقل الآن إلى ذكر الهيئات التي انتمى إليها أو عمل بها الشيخ أحمد حسن الباقوري وهي تبدأ بعد خروجه من وزارة الأوقاف في سنة ١٩٥٩م، إذ بقي مستبعدًا حتى سنة ١٩٦٤م حين عين مديرًا لجامعة الأزهر، ثم مستشارًا في رئاسة الجمهورية، وصار بعد ذلك عضوًا في:

- مجمع اللغة العربية.
- مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف.
- المجلس الأعلى للأزهر.
- المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

- المجلس القومي للتعليم والبحث العلمي والتكنولوجيا.
- المجلس القومي للعلوم - شعبة التعليم الجامعي.
- لجنة التعليم في الحزب الوطني.
- لجنة التنسيق بين الجامعات وأكاديمية البحث العلمي.

وخلال هذه الفترة كان رئيس ومدير معهد الدراسات الإسلامية، ومستشارًا للشعبة القومية لليونسكو في القاهرة.

وكانت حياته زاخرة بالبحث والتأليف، وقد أنجز عددًا كبيرًا من الأبحاث والكتب المنشورة منها ما يلي:

- الإدراك المباشر عند الصوفية ١٩٤٩م.
- سيكولوجية التصوف ١٩٥٠م.
- دراسات في الفلسفة الإسلامية ١٩٥٨م.
- ابن عطاء الله السكندري وتصوفه ١٩٥٨م.
- الإسلام في أفريقيا ١٩٧٠م.

وله أيضًا:

- مع كتاب الله.
- مع الصائمين.
- مع القرآن.

وله مشاركات كثيرة بكتابة المقالات الأدبية والدينية، كما كانت له أحاديث في الإذاعة والتلفزيون.

وشارك في عدة مؤتمرات كان أحدها في الكويت كما سوف يأتي بعد قليل، ولكننا ينبغي أن نشير إلى أنه قد صدر له كتاب بعد وفاته رحمه الله بعنوان: «بقايا ذكريات» وفيه يروي جزءًا من تاريخ حياته في ثلاثة محاور هي: حركة الإخوان المسلمين، وحركة طلاب الأزهر التي كانت بدايتها في سنة ١٩٣٤م، وثورة يوليو ١٩٥٢م.

ولقد وُصف الشيخ أحمد حسن الباقوري بأنه كان أعظم خطباء عصره كتب الأستاذ محمد الشندويلي حول هذا الأمر ما يلي: «وكان الشيخ الباقوري - رحمه الله - من أبلغ خطباء العصر منذ كان طالبًا في الأزهر الشريف، وكان يمتاز بحسن البيان، وقوة الحجة والبرهان، وكان خطيبًا بارعًا، وداعية من دعاة الإسلام أعجب به جميع العامة والخاصة، ويتيمز أسلوبه الخطابي بأدائه العظيم، واهتمامه بالألفاظ، وجودة انتقائها، وكأنه يلتقط جواهر مكنونة في باطن البحر، وله مقدرة فائقة على التقاطها وسبكها».

وقبل أن ننتهي من المباحث الخاصة بإنتاجه الفكري وما اتصف به من قدرة على التعبير كتابة وخطابة، لابد من أن نستعرض كتابًا من مؤلفاته له دلالته على كافة ما أنتج في مجال الفكر. وهو كتاب «مع القرآن في جزء تبارك» إنه كتاب صغير الحجم، جليل القدر أهداه إلى الغياري على القرآن العظيم لغة وأدبًا وشرعة ومنهاجًا، وسأل الله تعالى أن يجمع تحت راية كتابه العزيز شمل الأمة الإسلامية، وأورد الدكتور عبدالجليل شلبي الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية في مصر نبذة عن حياة الشيخ الباقوري. ثم بدأ الكتاب.

أما مقدمة المؤلف فقد كانت مقدمة مليئة بالمعاني والفوائد ولم يضع لها اسم (المقدمة) كالمعتاد في الكتب بل اختار اسمًا جديدًا هو: (طليعة الكتاب) وكانت

هذه الطليعة تمهيدًا جيدًا لما جاء بعدها. ثم ألحقَ ذلك بكلمة عنوانها: وقفات حول القرآن الكريم، منتهيًا بها إلى البدء في موضوع الكتاب الخاص بسورة الملك. وقد حرص على أن يقدم للقارئ كثيرًا من الفوائد المتعلقة بالقرآن بما في ذلك خصائص التنزيل المكي وخصائص التنزيل المدني ثم يستمر في بحثه إلى آخر الكتاب. ومن الملاحظ أنه أدرج عددًا كبيرًا من المراجع التي رجع إليها من أجل إنجاز كتابه هذا وهي ثلاثة وثلاثون مرجعًا. وقد وجدت أنه ذكر المرجع الثامن عشر بقوله: «تأملات في سورة الغاشية، للرجل القرآني عبدالعزيز العلي المطوع من علماء الشعب الكويتي الشقيق» ثم وضع هامشًا لقوله هذا جاء فيه: «هذه الصفة - الرجل القرآني - كان يسبغها على عالم دولة الكويت الشقيقة أستاذنا الإمام الشهيد حسن البنا. وقد رأيت إثباتها هنا، وفاء للإمام، وإحقاقًا للحق، ورجاء أن يخرج الأستاذ المطوع كتابًا يخلد فيه خواطره الشريفة عن سر الاقتران في سورة الغاشية بين خلق الإبل، ورفع السماء، ونصب الجبال، وسطح الأرض، فإن الاقتران الذي تحدث به إلينا في مقامه للرجل القرآني، لم نجده لغيره من أهل العلم بفقه القرآن، فحبذا لو أخرج هذه التأملات للناس في كتاب الأخ الصديق المطوع، رجاء نفع الناس وابتغاء ثواب الله».

فانظر مدى اهتمامه بذكر دولة الكويت، وذكر أهلها، وقد كتب هذا حين كان الرجل الفاضل عبدالعزيز العلي المطوع حيًّا يرزق، أما وقد توفي فإنني آمل أن تحقق رغبة الرجلين، لأنني أعرف أبا محمد جيدًا، وأدرك مدى اهتمامه بالكتابة حول القرآن الكريم، ولا أشك في وجود هذا الذي أشار إليه الشيخ الباقوري ضمن تراثه. وهذه دعوة لمن بيده هذا التراث كي يقدمه للناس، ويحقق رغبة الرجلين الكريمين.

****

الشيخ أحمد حسن الباقوري في الكويت (٢) [١]

عندما وصلت في الكتابة إلى هذا الحد تلقيت هدية قيمة هي أربعة كتب من مؤلفات الشيخ الباقوري لم يرد ذكرها جميعًا في المراجع التي عولت عليها، وقد قدم إليّ هذه الهدية أخي الشيخ فيصل العلي، جلبها معه من القاهرة حين عودته منها، وكان أخي الشيخ الدكتور وليد المنيس قد أبلغه بحاجتي إليها فلم يتردد في إحضارها. وكنت قد بحثت كثيرًا عن مؤلفات الشيخ في الكويت وبالتحديد في معرض الكتاب الذي أقيم مؤخرًا هنا فلم أعثر لمؤلفاته على أثر. فالشكر للأخوين اللذين أعانا على العثور على هذا الكنز الذي يتكون من:

١ - كتاب أثر القرآن الكريم في اللغة العربية، وهو من منشورات دار المعارف بمصر، وقد صدر في سنة ١٩٦٩م. وهو الكتاب الوحيد الذي ذكر في أحد المواقع الخاصة بالإنترنت.

٢ - كتاب «معاني القرآن الكريم بين الرواية والدراية»، وهو من منشورات مركز الأهرام للترجمة والنشر بالقاهرة، وصدر في سنة ١٩٨٦م، وعندما ذكرت دار النشر أسماء هذه الكتب التي أصدرتها ذكرت هذا الكتاب، وذكرت - أيضًا - كتابًا آخر للباقوري هو: «القرآن مأدبة الله للعالمين»، ولم أطلع على هذا الكتاب حتى الآن.

٣ - كتاب: «صفوة السيرة النبوية» من إصدار معهد الدراسات الإسلامية في مصر، وليس عليه تاريخ النشر.

---

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٢/١٢/٢٠١٠م.

٤ - كتاب «عالم الروح»، وهو من منشورات مكتبة مصر وهي من أشهر المكتبات التي تُعنى باختيار ما تنشر، ولها اهتمام بنشر كتب كبار الأدباء والعلماء وكان منهم نجيب محفوظ ويحيى حقي، أما كتاب الشيخ أحمد حسن الباقوري الذي ذكرناه هنا فهو الآخر بدون تاريخ ولذا فنحن لا نعرف السنة التي تم طبعه فيها.

نتحدث هنا عن الكتاب الأول فقط لأن المجال لا يسمح باستعراض الكتب الأربعة التي قدمنا أسماءها آنفًا. وهو كتاب: «أثر القرآن الكريم في اللغة العربية»، وهو كتاب صغير الحجم، ولكنه كبير الفائدة، وقد بدأه بدعاء استغرق صفحة كاملة يحس من يقرؤها أن الرجل كان متهيبًا لموقف يراه عظيمًا، وهو الحديث عن القرآن الكريم، فأراد أن يشد عزمه بهذا الدعاء، ثم جاءت مقدمة الكتاب لتقول بإجمال: إن القرآن الكريم الذي أثر في الأمة كلها منذ نزوله قد أثر أيضًا في لغة هذه الأمة، وكان لهذا التأثير طريقان أحدهما مباشر والآخر غير مباشر.

ويبدو أن الشيخ عندما انتهى من تأليف كتابه هذا ومضت سنوات على ذلك قدمه إلى الدكتور طه حسين شارحًا له الظروف التي أدت إلى إنجاز هذا العمل، قائلًا: «فإن قدّر سيدي - حفظه الله - هذه الظروف، وما أراه إلا قادرًا لها، رجوته أن يتفضل مشكورًا مأجورًا بتقديمها إلى المتأدبين».

وكان تقبل عميد الأدب العربي لهذا العمل تقبلًا يدل عليه ما كتبه عنه ونشر في الكتاب بعد مقدمة المؤلف، وكانت بداية ذلك قوله: «هذا كتاب رائع ممتع بأعمق معاني هاتين الكلمتين وأوسعها، فهو يتحدث عن القرآن الكريم وعن أثره في اللغة العربية إثر نزوله، وبعد ذلك بوقت طويل».

ثم يقول الدكتور طه حسين في ختام كلمته: «كل هذا وأكثر بيّنه الأستاذ الجليل فضيلة الشيخ الباقوري في هذا الكتاب في إيجاز رائع، وأغرب شيء في هذا الكتاب أن الأستاذ الجليل كتبه أثناء الشباب حين كان طالبًا في الأزهر، ونحن

نشكر له أجمل الشكر وأعمقه أنه قد حفظ هذا الكتاب، ولم يهمله، وهو الآن يتفضل بإهدائه إلى الأمة العربية، فباسم هذه الأمة أجدد له أعمق الشكر، وأثني عليه أجمل الثناء».

تحدث الباقوري بعد ذلك عن القرآن، وعن اللغة العربية، وأثر القرآن فيها. وذكر كما أشرنا قبل قليل الأثر العام وهو استمرارية اللغة وبقاؤها، وتوحد اللهجات، وجعلها لسان الدولة الإسلامية، ثم جعلها لغة تعليمية بعد أن كانت تعتمد على الملكة وحدها. أما الأثر الخاص فتحدث فيه المؤلف عن ألفاظ اللغة بمختلف أشكالها، وعن معاني اللغة وتطورها، واتصال العرب بغيرهم في مجال العلم والثقافة، ثم تحدث عن أغراض اللغة، وعن أساليبها في مجال الخطاب أو الأدب أو العلوم مبينًا أسلوبها في الجاهلية وأسلوبها في الإسلام.

والخلاصة أن هذا الكتاب على صغر حجمه «١٣٢صفحة من الحجم الصغير» كتاب مفيد إلى أقصى الحدود، وكم أتمنى أن يطلع عليه أبناء هذه الأمة لما فيه من فوائد أغفلها كثير من الناس.

بدأت علاقة الشيخ أحمد حسن الباقوري بالكويت منذ سنة ١٩٥٧م، وذلك قبل أن يصل إليها شخصيًّا، وكانت صلته بها - آنذاك - عن طريق المجموعة التي ذكرتها منذ بداية مقالي هذا وكان يسعدني أن أكون واحدًا منهم ثم كان لقاء أخي الدكتور عبدالله يوسف الغنيم به أثناء الزيارة التي أشرت إليها، وذلك يوم قمنا أنا وهو بزيارة الشيخ في منزله إبّان الفترة التي كان خروجه فيها منه ممنوعًا عليه.

هذا بالإضافة إلى معرفة الشيخ الباقوري بفقيدنا الكريم الأستاذ عبدالعزيز العلي المطوع، وذلك ما أشرنا إليه قبل قليل، وكانت المعرفة بينهما سابقة على كل ما ذكرت بشأن العلاقة مع الكويت.

ولكنه بعد أن انطلق إثر إلغاء الإجراءات الجائرة الظالمة التي اتخذت بحقه صارت الفرصة متاحة له من أجل الترحال في أرض الله وكانت الكويت إحدى محطاته.

ومن بين ما يسجل للشيخ الباقوري من حيث اتصاله بالكويت اهتمامه بالكتابة إلى مجلة «الوعي الإسلامي» التي تصدرها هنا وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، فقد حرص على تزويد هذه المجلة الناجحة بعدد من المقالات التي قام بكتابتها متناولًا فيها عدة موضوعات، وقد جاء في أعداد المجلة التي صدرت قبل وفاته مقالات يصل عددها إلى تسعة مقالات. وهي تصب كلها في مسار واحد وهو تقريب الدين الحنيف إلى الأفهام والحث على الاقتداء بسيرة الرسول الكريم ﷺ، والمقالات هي بحسب ورودها في المجلة كما يلي:

نجد في العدد رقم (٦٩) مقالًا عنوانه «حديث عن رمضان» تحدث فيه كثيرًا عن الصيام، وعن رضا النفس به من حيث هو طرح للشهوات الجسدية، حتى يتم تحصيل صحة الصوم، ثم من حيث تجنب المغامز الخلقية المخلة حتى يتم تحقيق كمال الصوم.

وفي العدد رقم (٧٣) مقال عنوانه: «على هامش الهجرة» يذكر فيه أن هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة لم تكن إلا من أجل إقامة دولة المتقين، وهي أول دولة للإسلام، وقد أسسها الرسول الكريم على هدى من التقوى، والتنظيم، والانعتاق من النظم البالية التي جاء الإسلام لكي يضع حدًّا لها.

وفي العدد رقم (٧٦) مقال عن المولد النبوي الشريف تحت عنوان: «مولد الكرامة الإنسانية» وقد بين فيه كيف أن الرسالة الإسلامية كانت مولدًا للكرامة، وأول دليل على ذلك نبذها للأصنام التي كان يسجد لها أولئك الناس قبل مجيء الإسلام، ذلك لأن السجود لتلك الأحجار أمر يحط من كرامة الإنسان.

وفي العدد (٧٧) مقال حول المشكلات التي يقع فيها الشباب، وهو باختصار يبحث في مسائل تخلق لهم القلق والاضطراب، مما يدعو إلى وضع منهاج واضح لا يوقع هؤلاء في حرج، وعليهم الالتزام بهذا المنهاج التزامًا كاملًا.

وفي عدد «الوعي الإسلامي» رقم (٧٩) حديث عن ذكرى الإسراء، أما العدد رقم (٨١) فقد عاد فيه الشيخ إلى موضع يحب هو أن يكتب عنه دائمًا، وقد جعل عنوانه: «مع القرآن الكريم» وخصص مقاله هذا عن قصة ذي القرنين .

وفي العدد رقم (٨٣) مقال عنوانه: «القرآن والكعبة، والخلافة».

أما العدد رقم (٨٧) فقد كان بعنوان: «خاتم النبيين والمرسلين» وكان نشره بمناسبة ذكرى المولد النبوي الشريف.

وفي آخر مقال له في العدد (١٠٥) من مجلة الوعي الإسلامي، تحدث عن فن التجويد في قراءة القرآن الكريم، وكان مقالًا ممتعًا جديرًا بالقراءة لما فيه من لمحات علمية وفنية ولغوية دقيقة.

لقد كانت هذه المقالات متنوعة، فقد قصد من كتابتها أن يبين جوانب من الثقافة الإسلامية التي يحتاج إليها قرّاءُ مجلة «الوعي الإسلامي» ولا يسعني هنا إلا أن أشكر الأخ الشيخ فيصل يوسف العلي، الذي تكرم فأمدني بنسخة مصورة من هذه المقالات النافعة.

ومن جهة أخرى فقد نشر الشيخ الباقوري في مجلة العربي الكويتية عددًا من المقالات المتنوعة الموضوعات، ولكنها تصب كلها في المسار الذي ارتضاه الشيخ، وهو ما بيناه سابقًا من حرص على النصح، واهتمام بالتوجيه إلى الخير.

وهنا أشكر أخي العزيز الدكتور سليمان العسكري الذي تكرم فأمدني بصورة لكل مقال من مقالات الباقوري التي نشرت في العربي وهذا الأمر ليس بغريب على

أخي سليمان الذي لم يقدم ذلك من جانب الأخوة فحسب بل من جانب حرصه على انتشار الثقافة بين الناس.

هذا ومقالات مجلة العربي هي كما يلي وقد كان نشرها ابتداء من سنة ١٩٦٩م ثم خلال سبعينيات القرن الماضي.

أولها نشرًا كان القضية الفلسطينية وذكر فيه أن تدويل قضية هذه البلاد إنما هي مغامرة بالإسلام كله .

وفي شهر أبريل لسنة ١٩٧٢م نشرت المجلة مقاله المعنون: «البينة، وإلا حدٌّ في ظهرك» يتحدث فيه عن أولئك الذين يرمون المحصنات بالباطل، دون أن يفكروا بما سوف ينتظرهم من العذاب إن لم يأتوا بالدليل القاطع (البينة) على ما قالوه.

ونشر له في «العربي» - أيضًا - مقال عنوانه: «النبي قدوة للمؤمنين» وهو قبس من السيرة النبوية، وكان نشره في شهر مايو لسنة ١٩٧٢م.

وله مقال نشر في العدد الصادر في أغسطس لسنة ١٩٧٢ م، وعنوانه، «الإسلام كرم المرأة، فليلزم سبيله المؤمنون».

أما في شهر نوفمبر الذي سوف يأتي ذكره، وهو «بلى، ولكن ليطمئن قلبي، أما هذا المقال فهو بعنوان: «لا تقتلوا أولادكم».

وفي شهر ديسمبر لسنة ١٩٧٢ نشر له مقال عن دعوة الإسلام إلى الرفق، وعدم التشدد، وكان بعنوان : «لن يشاد الدين أحد إلا غلبه».

ونشر له - أيضًا - مقال في شهر مايو لسنة ١٩٧٣ م بعنوان:

«خلق الجاهل وأدب الإسلام» وفيه مقارنة مهمة بين وضعين.

أما مقال «بلى، ولكن ليطمئن قلبي» فقد نشر في شهر يوليو لسنة ١٩٧٣م وهو مقال جم الفائدة جدير بالقراءة.

وفي شهر يناير لسنة ١٩٧٤م جاء مقاله المعنون: «معرفة الفضل لأهله؛ مروءة ودين»، وفيه توجيه جيد لحسن العلاقة بين الناس.

وفي شهر مارس لسنة ١٩٧٤م جاء مقاله الذي تناول فيه مدى اهتمام الفقهاء من الرعيل الأول من المسلمين بالقرآن الكريم.

وكان آخر مقال نشر له في مجلة العربي هو الذي كان في العدد الصادر في شهر يناير لسنة ١٩٧٥م، وذلك تحت عنوان: «إنسانية شريفة ينشدها الإسلام للمسلمين».

كانت سنة ١٩٦٩م هي آخر سنة قضاها الشيخ الباقوري مديرًا لجامعة الأزهر، وقد انتقل بعدها للعمل مستشارًا في رئاسة الجمهورية كما سبق أن ذكرنا، وفي هذه السنة وبالتحديد في فصل الشتاء سعدنا بلقاء الشيخ في الكويت فقد تشرفت بتوجيه دعوة إليه لبّاها دون تردد لما يعرفه من محبتنا له وحرصنا على الالتقاء به. وجاء في الموعد المحدد واستقبلناه بحفاوة بالغة شارك فيه كل من له معرفة به حتى ولو كانت هذه المعرفة عن طريق القراءة له ومتابعة مسيرته الأولى إبّان قيام ثورة يولية.

ولم يطل به المقام هنا لكثرة ارتباطاته في زيارات أخرى لعدد من البلدان، ولكن الفترة التي قضاها بيننا كانت فترة مثمرة فقد اطلع على كثير من الأنشطة التعليمية والثقافية والدينية زائرًا جامعة الكويت ومعهد التربية للمعلمين ووزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. وكان مقر إقامته في الفندق يعج بالزوار الذين كانوا يأتون للسلام عليه والاستماع إليه.

ولقد ذكر أكثر من موقع من مواقع الإنترنت أن الشيخ حسن الباقوري قد حضر مؤتمر الطب الإسلامي الذي عقد في الكويت خلال سنة ١٩٨١م، ولكني لم أجد تفصيلات هنا عن هذا المؤتمر وما جرى فيه.

ومن الصدف الدالة على العلاقة التي تربطه بالكويت حتى بعد وفاته، أن محافظة الإسكندرية أطلقت اسمه على إحدى مدارسها وتشاء الأقدار أن يقع اختيار لجنة تعيين المدرسين المطلوبين للكويت على هذه المدرسة بالذات لكي تتم فيه مقابلات الراغبين في العمل وهي: مدرسة الشيخ أحمد حسن الباقوري.

وبعد فهذا هو الشيخ أحمد حسن الباقوري كما عرفته ، وكما عرفه الناس، كان رجلًا مستقيمًا محبًّا للخير راعيًا للعلم والعلماء تولى مناصب خرج منها لا له ولا عليه، لم يستفد ماديًّا، ولكنه استفاد حب الناس وتقديرهم له.

****

ملحاق خير

في قمة انشغال الشيخ أحمد حسن الباقوري بالأعمال التي أوكلها إليه ضباط ثورة يوليو المصرية، ومنها توليه وزارة الأوقاف العمومية كما يطلقون عليها في ذلك الوقت فإنه كان يوالي كتابة مقالاته للصحف معبرًا من خلالها عن كثير من الأمور التي يراها تستحق أن تثار، وأن يطلع عليها الناس.

ولقد وقعت تحت يدي مجموعة من المقالات التي كتبها ثم نشرها في مجلات مختلفة، ولا أريد هنا أن أفصل الحديث عنها جميعًا، ولكني مهتم حقًّا بمقال واحد منها وهو مقاله الذي ذكر فيه تجربته في العمل الوزاري، وقد كتبه بروح مرحة فجاء قريبًا من النفوس.

ففي اليوم العاشر من شهر يوليو لسنة ١٩٥٣م طلبت مجلة المصور من عدد من وزراء مصر أن يكتبوا شيئًا عن حياتهم العملية، وما يتعرضون له من مشاق، أو ما يحدث لهم من نوادر أثناء عملهم، وذلك خلال يوم واحد «٢٤ساعة» وكان ممن استكتبتهم هذه المجلة الذائعة الصيت الشيخ الباقوري، وكان يومها كما ذكرنا في البداية وزيرًا للأوقاف العمومية هناك، فكتب ما سوف نعرضه هنا، وأضافت المجلة إلى ما كتبه الشيخ رسمين كاريكاتوريين تعبر فيهما عما ورد في المقال، وقد جاء الرسمان ناطقان من حيث الروح المرحة التي صاغ بها الباقوري مقاله.

حدثنا الشيخ في مقاله هذا عن ستة مواقف حدثت له في ست حكايات كلها جرت في الوزارة أو في بيته، حتى التي حدثت في بيته كانت بسبب كونه وزيرًا.

ولأنني أريد أن يطلع القارئ على أسلوب الشيخ الوزير فإنني سوف لا أعرض تلك الحكايات الست خوف الإطالة ولكنني سوف أقدم حكاية كاملة منها، وفي هذه الحكاية الدليل على باقي الحكايات لأنها كلها من نوع واحد، كما أن فيها الدليل على طريقة الشيخ في الكتابة، وفي الاسترسال في التعبير عما يريد التعبير عنه.

وهذا هو ما أردت نقله هنا:

«دق جرس التلفون مع طلوع الشمس في ذلك اليوم، وأنا ممن يحتقرون الذين ينكرون أنفسهم في بيوتهم، فأجبت.. وإذا بالسائل يطلب أن يلقاني قبل أن أنزل من داري، وكرهت أن أرده، فجاء وجلس إليّ وبدأ يتحدث، ورحت أسمع.

وطال حديثه أملّ ما يكون الطول، وطال انصاتي أوعى ما يكون الإنصات، وكلما فرغ من فن من فنون الحديث، فتح باب فن آخر، بينما أنا أنتظر على مضض، حديثًا ذا شأن خطر، حمله على أن يزورني في هذا الصباح المبكر..

وانقضت ساعتان في غير مبالغة، وهو مستمر في الحديث، وأنا مستمر في الإنصات على غير جدوى، فلما طلبت إليه آخر الأمر أن يذكر لي أمورًا محددة يطلبها، أجابني أنه إنما جاء ليراني، لأنه لا يحب أن يراني في الوزارة حرصًا على وقتي فيها، ثم هو قد جاء أيضًا ليقدم إلى هذا الحديث. في مدى ساعتين، وخلاصة ما قرأه من الكتب الأجنبية الجديدة في طريقة تنظيم الدولة، وقد دعوته لتناول طعام الإفطار فأبى، وأبيت أن أتركه وحده فاكتفيت بكوب من الشاي، لم يقم مقام طعام الصباح، وكان ذلك أضر ما في هذه المضايقة من معنى!»

كان لابد لنا أن نقدم هذا النموذج لأنه يعبر عن روح الشيخ أحمد حسن الباقوري الطيبة الكريمة، وعن خفة ظله فيما يكتب إذا كان ما يكتبه بعيدًا عن البحث العلمي الذي اطلعنا على ما أنتجه منه فوجدناه شيئًا آخر.

****

ملحاق خير

في مقال سابق من الأزمنة والأمكنة في جريدة «الوطن» كان الحديث خاصًا بالدكتور عثمان خليل عثمان، وقد قلت فيه شيئًا عن اهتمام الدكتور بفن تحضير الأرواح بتوسع يمنعني الآن من ذكر ما جاء فيه. ولكنني أذكّر بأنني قلت: إن صاحبنا قد أعطاني رسالة فيها نموذج لما كان يلقيه الوسيط في جلسة التحضير، وهو - أيضًا- نموذج للشخصيات التي تأتي أرواحها إلى عالم اليوم فتتحدث إلى الجالسين. وأذكر أنني قلت: إن الرسالة التي تسلمتها من الدكتور عثمان لم أجدها في حينه، ولكنني بعد أسبوعين من نشر ذلك المقال وقعت في يدي مما جعل من واجبي عرضها هنا.

هي ليست رسالة واحدة، ولكنها بطاقة من بطاقات التعريف بالشخص وعنوانه خاصة بالدكتور مؤرخة في ١٩٦٩/٥/٢٣م، يذكر فيها ما حدث، وأننا قد التقينا في فندق شيراتون وتحدثنا عن الموضوع نفسه، وكما ذكرت في المقال بأنه تكرم بعد ذلك الحديث الخاطف فزارني حاملًا البطاقة وما معها.

ولقد اعتبرت هذه البطاقة رسالة، واعتبرت الورقة المرفقة بها رسالة أخرى، وهي في الواقع ليست مما كتبه الدكتور ولكنها حديث قالته في الجلسة روح الخليفة العباسي هارون الرشيد، وهو يتحدث في هذه الورقة حديثًا طويلًا لا أريد أن أوجزه هنا حتى لا تضيع قيمته أو تختل معانيه ولكنني أقدمه مصورًا مع هذا الملحاق لكي نتعرف طبيعة ذلك العمل الذي اختلف حوله الآراء وهو: تحضير

الأرواح. وكانت هناك رسالة ثالثة إذ إن الورقة الخاصة بالجلسة التي حضرها الخليفة هارون الرشيد هي التي وجدتها الآن، أما الورقة الأخرى التي كانت معها ولم أجدها وذكرت هنا أنها الرسالة الثالثة فهي الورقة التي جاء فحواها في المقال المشار إليه، وآمل أن أجدها فيما بعد. وهي خاصة بالنصائح الموجهة إلى الرئيس جمال عبدالناصر، وكلها حول إسرائيل وحرب الاستنزاف التي كانت دائرة في ذلك الوقت بين البلدين حول قناة السويس.

هذا ما أردت ذكره في هذا الملحاق، أرجو أن أكون قد بررت بجزء من وعدي فيما يتعلق بأرواح الدكتور عثمان خليل عثمان رحمه الله. وأعلن أن هذا لا يعني يقيني بموضوع تحضير الأروح فقد كنت - كما رأى القارئ في المقال- شاهدًا ما شافش حاجة على رأي الفنان عادل إمام.

****

السنبوك.. السفينة المنسية [1]

يعرف الناس مدى اهتمام أبناء الكويت بالبحر، ومدى اهتمامهم بالسفن، ولقد جرى حديث طويل هنا ضمن الأزمنة والأمكنة عن رحلات السفر ورحلات الغوص وجرى حديث مماثل عن السفينة الكويتية (البوم) التي كان لها دور كبير في النشاط البحري الذي كان يقوم به آباؤنا حتى استطاعوا أن يبنوا بسواعدهم سمعة طيبة لوطنهم، واخترقوا البحار في سبيل كسب الرزق حتى وصلوا إلى شرقي أفريقيا وتركوا آثارهم هناك.

وإذا كان البوم السفار علمًا من الأعلام البحرية الكويتية فإن هناك سفنًا كثيرة قامت بدور مهم في مجالات أخرى متعددة قد يصعب علينا رصدها هنا، ومنها سفينة السنبوك التي سوف يكون لنا حديث عنها في هذا المقال. ولكننا قبل أن نصل إلى هذا فإنه ينبغي علينا أن نقدم لذلك بمقدمة نرى أنه من الضروري بمكان أن نقدمها هنا، وهي:

منذ سنة ١٨٦٣م حين زار الكولونيل الإنجليزي لويس بيللي الكويت بل وما قبلها، وهذا الوطن معروف بالنشاط البحري، وبسفنه التي تجوب البحار، وهو معروف - على الأخص - بصناعة السفن التي تغذي حاجة السوق البحري الكويتي وتمده بما يشاء منها. وظلت هذه الصناعة في تقدمها إلى أن حلت السنوات

(1) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٩/١٢/٢٠١٠م.

الأخيرة من القرن التاسع عشر، فتم في الكويت تصميم البوم الذي حلّ محل السفينة المستعملة في البحار من قبله وهي البغلة، وقد تطور هذا البوم حجمًا واتقانًا حتى صار رمزًا وطنيًّا بارزًا تذكر به الكويت أينما حل، وفي أي مرفأ توقف، ومع بداية القرن العشرين قام الشيخ مبارك الصباح حاكم الكويت آنذاك بجهود طيبة في دعم المجهود التجاري الكويتي، ودعم صناعة السفن على حد سواء، ونتيجة لتشجيع الشيخ فقد زاد الاهتمام بالمهنة واكتسبت سمعة طيبة، وجذبت عددًا كبيرًا من العمالة من الكويت وخارجها، وما أن حلت سنة ١٩١٤م حتى صنع رجال الكويت البوم السفار الذي يزيد حجمه على حجم البوم عند بداية إبداعه، كما صنعوا السفن الخاصة بنقل المياه وعمّ الازدهار التجاري البلاد بفضل تشجيع الشيخ مبارك ورعايته لتجارة الكويت ولصناعة السفن فيها.

تنوعت السفن الكويتية وفقًا لتنوع مجال استعمالها، فهناك سفن الغوص على اللؤلؤ ومنها البتيل والجالبوت، ومنها سفن النقل التجاري والنقل البحري ومنها البغلة، والبوم السفار، وسفن صيد الأسماك مثل الشوعي وغيره، وسفن النقل الساحلي مثل التشاله، وسفن نقل الماء. وقد اشتهر عدد من صناع السفن في الكويت، وأصبح عملهم معروفًا في دول الخليج وفي باقي الموانئ التي تزورها سفنهم، فنذكر منهم حجّي سلمان الأستاذ وهو من مواليد سنة ١٨٤٠م، وهو أحد صناع السفن الماهرين، وكان من مصنوعاته عدد من السفن المشهورة، ومنهم أخوة ثلاثة هم صالح وعبدالله وجاسم أبناء راشد، وكان عبدالله قد صنع سفينة (بوم) من أشهر الأبوام الكويتية وهي السفينة المسمّاة (الداو)، صنعها للتاجر الكويتي حمد الصقر، وهناك عدد آخر من بناة السفن يضيق المجال عن الحديث عنهم. ومما ينبغي أن يقال إن هؤلاء الرجال قد أنتجوا عددًا كبيرًا وأنواعًا كثيرة من السفن ولم يقتصروا على نوع معين.

إذن فهذه صورة واضحة عن صناعة السفن في الكويت وعن صناعها، ولقد كانت صناعاتهم متنوعة إذ جرّ اتقانهم لعملهم عددًا كبيرًا من أصحاب الأموال إلى أن يطلبوا منهم صناعة ما يحتاجون إليه من سفن، وكان من أعمالهم إلى جانب البوم السفار الشهير بناء: السنبوك.

والسنبوك من السفن القديمة المعروفة في الكويت ومنطقة الخليج كافة، بل وفي جنوبي جزيرة العرب وعلى الأخص في نواحي اليمن شمالاً وجنوبًا.

السنبوك يجمع على سنابيك. وهو سفينة قديمة كانت معروفة لدى العرب الأقدمين من سكان هذه المنطقة التي ذكرناها. وينطق عندهم سنبوق كما ورد في كتاب تاج العروس.

تحدث الأستاذ أحمد البشر الرومي في كتابه: «معجم المصطلحات البحرية في الكويت» عن السنبوك فذكر أنه: «سفينة من السفن الشائعة في الخليج مقدمتها زاوية حادة ومؤخرتها شبه مربعة، ويستخدم النوع المتوسط منها في الخليج للغوص، وفي اليمن يصنع نوع كبير يجتازون به المحيطات إلى الهند وزنجبار. وتختلف أحجام هذه السفينة حسب الحاجة، وكذلك موجود منها في البحر الأحمر يستعمله أهل الحجاز للسفر إلى جنوب أفريقيا يحمل بضائع وركابًا، وهذا النوع من السفن شائع في الجزيرة العربية منذ أمد بعيد. وقد ذكره ابن بطوطة كما أورد المقريزي في الخطط ١/٢٩٢: «السنابيك في جملة المراكب الحربية المائية التي أمر أحمد بن طولون باتخاذها».

وهكذا نرى أن السنبوك له تاريخ قديم بدلالة استعمال أحمد بن طولون له ضمن مراكبه البحرية، وأحمد هذا ولد في سنة ٨٣٥م وتوفي في سنة ٨٨٤م.

ويبدو أن السنبوك قد تطور من حيث الحجم إذ ذكر صاحب التاج في مادة (سنبق) هذا النوع من السفن فقال: السنبوق كعصفور زورق صغير يعمل في سواحل البحر. وسوف نجد فروقًا أخرى تدل على التطور الذي طرأ على هذه السفينة بعد قليل.

أصدرت مؤسسة الكويت للتقدم العلمي في سنة ١٩٨٧م كتابًا تحت عنوان: «المراكب العربية، تاريخها وأنواعها، وهو من تأليف: حسن صالح شهاب، وقد ذكر فيه السنبوك، وحاول أن يقارن بين سنبوك الجنوب وسنبوك الخليج العربي، فذكر أن سنبوق (هكذا يطلق عليه) البحر الأحمر لا سطح له بينما سنبوق الخليج له سطح، وقال: إنَّ من الملاحظ أن هناك اختلافًا بينهما في شكل المؤخرة، والزخارف التي تزينها، وذكر أن مؤخرة سنبوك البحر الأحمر عالية مربعة مائلة إلى الخلف قليلًا. وهي أعلى وأقل عرضًا من مؤخرة سنابيك الخليج، وذكر أنها تزدان بالزخارف البديعة بينما هناك فروقات متعددة أخرى أهمها أن سنبوك الخليج أصغر حجمًا، وبسبب قصر قاعدته وارتفاع مؤخرته فهو سريع وسهل الالتفاف والاستدارة، وهو هنا يستعمل في الغوص على اللؤلؤ وتجره المجاديف في الانتقال السريع والقصير من مكان إلى آخر بحسب الحاجة وتتبعًا لموقع المحار.

كان استعمال السنبوك في الكويت ظاهرًا، ومنتشرًا، وكان صناع السفن الكويتيون يقومون بإنتاج عدد من السنابيك سرعان ما ينزلها أصحابها إلى البحر لكي تقوم بمهمتها في النقل البحري بين دول الخليج، وفي رحلات الغوص على اللؤلؤ. ولقد ذكر لنا عدد من هذه السفن الجميلة يكفي تعدادها للدلالة على حجم هذا النوع في الموانئ الكويتية. وعندما ألف أخي الدكتور يعقوب يوسف الحجي كتابه القيّم: «صناعة السفن الشراعية في الكويت» تحدث عن السنبوك الكويتي

وصناعته وَصُنّاعه. وذكر أسماء أكثر من أربعة عشر سنبوكًا مع بيان أصحابها وصناعها. وقد ذكر أن آل ياقوت يملكون اثنين من السنابيك أحدهما للنوخذة عبدالعزيز الياقوت والثاني للنوخذة عبدالرحمن الياقوت، ولآل دويسان سنبوكان أحدهما كبير الحجم يعتبر من سفن السفر البعيد (محمل بحر).

أما ما نود أن ننقله هنا مما كتبه الدكتور الحجي عن سنابيك الكويت فهو ما يتعلق باثنين منهما، وهما:

أولًا: سنبوك العماني المسمى (مشهور)، يقول الدكتور الحجي عنه: «اشتهر صناع السفن الكويتيون بصنع سفينة السنبوك التي استخدمت في رحلات الغوص على اللؤلؤ. ولقد تبارى صناع السفن في الكويت بصنع أحلى وأجود السنابيك، ومنها «سنبوك العماني» الذي ربما صنعه الأستاذ حمود بن بدر للنوخذة جاسم محمد العماني وأخيه عبدالله. ويصف الأستاذ علي عبد الرسول « سنبوك العماني» بأنه لم يظهر في الكويت سنبوك أسرع ولا أكثر ارتفاعًا منه. فحملاته مرتفعة جدًّا عن القاعدة مما يجعله يتطلب مدًّا أعلى لكي يطفو، كما أن ألواحه الأمامية كانت شبه واقفة لدرجة أن مقدمته كانت تشق الماء كالسكين. ولقد ساعده تصميمه هذا غير العادي على أن يصبح واحدًا من أسرع السفن التي صنعت في الكويت. ويروى عن سنبوك العماني أنه وصل إلى الساحل قبل سفينة أمير الغوص المعروفة بالبتيل نظرًا لسرعته الفائقة، مما أثار دهشة أهل الكويت. وأما مقدرته على الإبحار ضد اتجاه الريح فلا تحتاج للإطراء. ولقد عرف قائده النوخذة جاسم العماني كيف يستفيد من مميزات هذه السفينة الفريدة، وجعلها تذكر في تاريخ الكويت البحري دائمًا. ويبلغ طول قاعدة هذه السفينة حوالي ٣٠ ذراعًا (٤٥ قدمًا)، وقد ضاع في آخر الأمر كما ضاعت قبله الكثير من السفن الجميلة».

ثانيًا: سنبوك الجلاهمة المسمّى (منصور) يقول الدكتور الحجي عنه: «هذا السنبوك كان في البدء لأحمد الجلاهمة، وقد صنعه أحد ثلاثة من صناع السفن هم: إما الأستاذ حسين بن منصور، أو الأستاذ صالح بن راشد أو حجي سلمان الأستاذ نظرًا إلى أنهم صنعوا أغلب السنابيك المشهورة في الكويت.«ويروي الأستاذ علي عبد الرسول أن الشيخ صباح الناصر أراد أن يشتري هذه السفينة غير أن صاحبها عرضها هدية عليه، ولكن الشيخ صباح استخدمها في الغوص سنتين ثم باعها صاحبها على تاجر اللؤلؤ المعروف عبدالرحمن يوسف الرومي. ويصف هذا السنبوك الأستاذ علي عبد الرسول أنه سنبوك مبروك حلو. ويذكر المؤرخ سيف الشملان بأنه أكبر سنبوك صنع في الكويت، وأن آخر رحلة له في الغوص كانت في سنة ١٩٣٩، وبعد ذلك ربما بيع واستخدم للنقل الساحلي (القطاعة) كما كان مصير الكثير من سفن الغوص آنذاك، وهناك سنبوك آخر لمحمد بن جبر الجلاهمة واسمه مطيران».

وقبل أن نغادر الحديث عن السنبوك نورد بضعة أبيات نظمها الشاعر جمعان حضينة العازمي في وقت الغوص، وهي:

هني من فارق السنبوك
شاف الغنم والبعاريني
تسعين ليلة وأنا مملوك
كني من السوق شاريني
والنواخذا حلني بملوك
عشرج من الصبح يسقيني

(حَلني: سقاني المسهل. العشرج: هو المسهل نفسه).

وذكر ألن فاليارز السنبوك في كتابه «أبناء السندباد» عندما تحدث عن السفن العاملة في الكويت والمناطق المجاورة، وأثبت صورة تمثل أحد السنابيك التي كانت تعمل في وقته. وقال: «ربما كان هذا أكثر المراكب العربية جميعها شيوعًا بل إنه شائع لدرجة أن اسم «سنبوك» كثيرًا ما يطلق على جميع المراكب، كما يطلق الأوروبيون عليها كلمة «داو». والسنبوك الأصلي له مقدمة منخفضة، معقوفة، ومؤخرته عالية مبينة، تكون عادة مربعة ومزخرفة في الغالب، ولكن دون الشرفات على الجانبين، أو النوافذ الخلفية التقليدية. وغالبًا ما تكون المؤخرة مثقوبة - عادة في أربعة مواضع - لتهوية المساحة الكائنة تحت سطح المؤخرة. إلا أن هذا المركب يخلو من الزخارف الجميلة المحفورة التي تتميز بها البغلة. والسنابيك شائعة في البحر الأحمر، وعلى السواحل الجنوبية للجزيرة العربية، وفي صور، الميناء العماني، حيث بدأت هذه المراكب تحل محل البغلات، وتصبح أحب الأنواع إلى بحارة هذا الميناء القديم. وتتميز خطوط هيكل السنبوك بالإنسياب والجمال. كما يتميز هذا المركب بالرشاقة خلال الإبحار بالشراع، شأنه في ذلك شأن المراكب العربية الأخرى، كما أن للسنابيك المبنية في ميناء صور أسطحًا كاملة، بعكس المراكب الأصغر حجمًا التي تبنى في موانئ البحر الأحمر، والتي ليس لها أسطح مطلقًا».

انقطع العمل على السنبوك مع انتهاء مواسم الغوص على اللؤلؤ، وتوقف الغواصين بالتدريج حتى أن الحكومة لم تعد تعلن عن هذه المواسم، وكان آخر إعلان لها هو الذي صدر في موسم سنة ١٩٥٩م.

وبذا انقرض السنبوك كما انقرض غيره من السفن ولقد كانت من السفن المستعملة قديمًا في الوقت الذي كان السنبوك يستخدم فيها سفن جميلة ذات

مظهر جذاب وذات قدرة على الإبحار وقد انقرضت هي الأخرى، وكان أبرزها ما يلي:

١ - البغلة: وتنطق ابغله بفتح الغين واللام، وهي نوع من السفن الشراعية الكويتية، وكان استخدامها للأسفار البعيدة، حتى لقد وصل بعضها إلى شرقي أفريقيا والهند، وتعتبر من أقدم السفن التي استخدمها الكويتيون في إبحارهم إلى المناطق النائية، ولم يغن عنها إلا البوم السفار الذي حل محل عدد من السفن، وكانت حمولة البغلة في حدود أربعمائة طن.

٢ - البتيل: وهو سفينة خليجية قديمة ذكر الأستاذ أحمد البشر الرومي أنها انقرضت منذ سنة ١٩٤٠م، والبتيل متوسط الحجم، يقوم برحلات الغوص على اللؤلؤ وهو يتسع لثمانين شخصًا من البحارة. وله شكل غريب حتى لتظنه من سفن الفينيقيين أو الفراعنة، والبتيل يختلف عن السفن الأخرى من حيث صناعته، جاء وصفه عند الأستاذ البشر كما يلي:

«وتكون قاعدة البتيل التي يُبنى عليها هيكله من وصلتين على خلاف السفن الأخرى، ويكون شكل ثلثي القاعدة أفقيًّا، أما الثلث الأخير من ناحية المؤخرة فيرتفع ما بين ١٢ إلى ١٦ درجة تبعًا لما يطلبه مالك السفينة، عند صناعتها، والغاية من ارتفاع المؤخرة هي الرغبة في وصول السفينة إلى الساحل عند الرسو لينزل منها البحارة، وكذلك لإنزال الأمتعة».

ثم ذكر الأستاذ الرومي أن أسرته كانت تمتلك بتيلًا قامت بتحويله إلى بوم سفار في اليوم الخامس والعشرين من شهر مارس لسنة ١٩٣٧م.

وهذه أربعة أبيات نظمها شاعر الكويت صقر الشبيب، ووجهها إلى السيد راشد بن أحمد الرومي أمير الغوص بعد أن قام بتجديد البتيل المشار إليه آنفًا وفي الأبيات ما يدل على اسمه الذي عرف به:

شبّ هذا الفلك من بعد المشيب

وصِبَاه بعد ما شاب عجيبْ

عاد بعد الشيب في عهد صبا

إذْ كساه راشد الصُّنعَ الغريبْ

فارحل اليوم «سعَيِّدْ» في الهنا

واسحب السفن إلى الدر الرطيبْ

مثلما كنت بأعوام خلت

تُرشد السُّفن إلى «الهير» الخصيبْ

وقد دخل البتيل في الأمثال الشعبية الكويتية، فهم يقولون: «بتيل ابن تمام شاحن خالي بريالين» يضربون هذا المثل في الأمر الذي لا يتغير. كان مالك هذا البتيل هو إبراهيم بن تمام الدوسري، وكان يستعمل سفينته هذه في مواسم الغوص، وفي نقل البضائع، وإذا أبحر كان يعطي البحارة أجرة قدرها ريالين سواء أكانت معه حمولة أم لم تكن.

٣ - وذكرت من السفن القديمة - أيضًا - البقّارة بتشديد القاف المفتوحة، وتنطلق القاف جيمًا قاهرية، وقد ذكر أن آخر سفينة شهدتها الكويت من هذا النوع كانت في سنة ١٩١٤م، وهي تشبه البتيل من عدة نواح، وكانت البقارة تستعمل في مواسم الغوص على اللؤلؤ إلى أن انقرضت.

وبعد فهذه لمحات سريعة عن السنبوك وعن قريناته من السفن التي انقرضت معه فلم تعد تبحر من الكويت لأن الزمن الحالي ليس زمنها إذ تغيرت الأمور، ودخلت على وسائل النقل البحري تجديدات مهمة كان ينبغي أن يؤخذ بها.

****

ملحاق خير

من شعراء الكويت الشعبيين شاعر ظريف سبق أن تحدثنا عنه في إحدى مقالات الأزمنة والأمكنة هو الشاعر إبراهيم الخالد الديحاني. كان هذا الشاعر يفتح عينيه دائمًا على أحداث البلاد فيتحدث عنها في شعره، وكانت صلاته بالناس متشعبة وعميقة ولذلك فهو يعبر - دائمًا - عن مشاعرهم. ولقد عمل في عدد من الأعمال منها أنه كان حارسًا لأموال عدد من تجار الكويت، كما اشتغل في مهنة الغوص على اللؤلؤ لمدة لا تقل عن عشرين سنة. وكانت آخر مهنة له في دائرة بلدية الكويت التي جعلته مراقبًا في سوق اللحم يتأكد من أختام الذبائح حتى لا يتعرض الناس لمكروه بسبب تهاون بعض العاملين في هذا المجال. ويشرف أحيانًا على الميزان الذي أعدته دائرة بلدية الكويت، ووضعته بالقرب من سوق اللحم، وذلك من أجل حماية المستهلكين.

كان شعر إبراهيم الخالد رقيقًا، وكان حريصًا على تنقيحه حتى يظهر ما يكتب في أحسن صورة، وهو عفيف لا يطلق لسانه بالسوء على الناس. واشتهر بأنه المدافع عن اسم «إبراهيم» وصار يقال له شاعر «البراهيم» لأنه رد على كل من كان يزعم أنّ كُلَّ من تسمّى باسم إبراهيم فهو مجنون، ولذلك فقد رثاه الشاعر عبداللطيف عبدالرزاق الديين، وذكر ذلك بقوله:

حل المصاب وقُومْ عزّ البراهيم

يوم طفا قنديلهم عقب ما شاب

ومنها قوله:

قمت اجتلد واقول من للمناظيم
ومن هو بعد دون البراهيم قرضاب
شفهم غدوا عقبه سوات المباليم
كل يدوس احماهم اليوم ما هاب
الله يعظم أجركم في ابراهيم
ويرحم فقيد نابه الذكر غلاب

«المناظيم: الأشعار، المباليم: الصامتون لعدم قدرتهم على التعبير عن النفس، قرضاب: سيف» توفي إبراهيم الديحاني عن عمر ناهز السبعين سنة، في أواخر شهر شوال لسنة ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م وقد قامت دائرة الشؤون الاجتماعية والعمل بطباعة مجموعة صغيرة من شعره في كتيب، ذكرت أنه الجزء الأول، ولكنها لم تُصدر بعده جزءًا آخر.

ومما دفعنا إلى كتابة هذا الملحاق ورود قصيدة من قصائده في الكتيب المذكور عنوانها «السنبوك» وصف فيها هذه السفينة والعاملين عليها، ولقد كانت رحلاته الكثيرة إلى الغوص من أسباب التفاته إلى هذا الموضوع الذي أجاد في الحديث عنه.

يبدأ قصيدته موجهًا حديثه إلى راكب فوق هذا السنبوك المصنوع حديثًا «وشار» ويدعو لمن صنعه قائلًا «عاشت» يمينه، ويذكر أنه عندما نقل من موضوع صنعه إلى النقعة «موقع حفظ السفن على الشاطئ» أقبل أهل النظر لمشاهدته. ثم انتقل إلى وصف رحلته، وكيف أنه كان يسير بسرعة وكأنه يطير بفضل جودة صنعه، والأشرعة التي عليه وملاءمة الريح له، ثم يقدم وصفًا للسنبوك وهو على «الهير»: موقع صيد المحار، يقول:

ليصار طارح والمجاديف نِشّار
يشبه عقابٍ متعباته اشنينه
وليتعادل واتسَى الهير محّار
الكل منهم يا إلهي تعينه

ويختم قصيدته بالدعاء، طالبًا الرزق لركاب السنبوك الضعفاء الذين أتوا من بلادهم وخاضوا البحر أملًا في الحصول على لؤلؤة تغنيهم، وتسد حاجتهم.

لم أعثر قبل هذه القصيدة أو بعدها على مثل هذا الوصف الجيد لسفينة السنبوك وعملها في البحر، ولذا حرصت على تقديمها هنا ضمن: ملحاق خير.

****

المحتوى

****